

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين
قسم القرآن وعلومه

منهج القرآن الكريم في دفع الفساد

دراسة موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه

إعداد الطالب

يوسف بن عبدالعزيز بن سليمان العقبلي

إشراف

د. حجاج عربي رمضان أحمد

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

العام الجامعي ١٤٢٩-١٤٣٠هـ

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا
بربهم يعدلون، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم
الدين وسلم تسليماً كثيراً... أما بعد:

فإن الله جل وعلا بعث رسوله ﷺ على حين فترة من الرسل ﴿شَهَادًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٦، ٤٥].

وأنزل عليه القرآن تبياناً لكل شيء، كما قال جل وعلا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فبين فيه كل مطلوب يحتاج إليها الخلق، على علم منه - سبحانه - بأحوال عباده في كل
زمان ومكان، وما يصلح لهم، وما لا يصلح، فليس تفصيله - جل وعلا - تفصيل غير عالم
بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من وسع كل شيء
رحمةً وعلماً.

فحصل لأهل الإيمان به الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغني والرشد، وحصل لهم
به الرحمة، وهي الخير والسعادة، في الدنيا والآخرة، فنتفى عنهم بذلك الضلال والشقاء.

وعاشت البشرية على منهاج النبوة سنين عدداً، حتى إذا بعد العهد، واندرس العلم؛ ظهرت
صور متعددة للفساد في الأرض.

والتأمل في كتاب الله تعالى، يرى منهجاً واضحاً لدفع الفساد، بشتى صورته، فقد تعددت
الآيات في بيان جملة من أنواع الفساد، وأسبابه، وسبل الوقاية منه، والآثار المترتبة عليه.
فقد بين القرآن الكريم؛ أن من أنواعه: ما يكون في المعتقد، كما قال تعالى في وصف

المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]

وذكر من أنواعه؛ ما يكون في الأخلاق، كما وصف الله بذلك قوم لوط، في إتيانهم الفاحشة، حيث قال سبحانه على لسان نبيه لوط عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

كما ذكر القرآن؛ جملة من أسباب الفساد؛ فبين أن من أسبابه الكفر والمعاصي، قال سبحانه وتعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وذكر من أسبابه؛ تزيين الشيطان، كما قال جل وعلا ﴿تَأْتِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتُفَكَّرُ فِيهَا فَيَنْقُصُ اللَّهُ مِنْهُمْ لِقَاءَ الَّذِي كَانُوا مُعْضِطِينَ﴾ [النحل: ٦٣].
ومن أسبابه أيضاً؛ اتباع الهوى، قال سبحانه ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وبين لنا سبل الوقاية منه، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

ومنها أيضاً؛ المدافعة، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكما ذكر آثار الفساد في الدنيا والآخرة، قال جل وعلا ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]. وقوله تعالى ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ ﴿١٣﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
 عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤، ١٢].
 وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
 يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨].

لهذا رأيت أن يكون موضوعي في هذا البحث هو:

" منهج القرآن الكريم في دفع الفساد. دراسة موضوعية "

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

- ١- اشتمال جملة من آي الذكر الحكيم، على أسباب الفساد، وأنواعه، وطرق علاجه، وموانعه، مما يستدعي لمّ شتات الموضوع يبحث مستقل.
- ٢- حاجة المجتمع لمثل هذا الموضوع الذي يجذّر من الشرّ، ويصّرّ بأسبابه، كيف لا؛ والمتأمل يرى صوراً متعددة للفساد في المجتمعات المعاصرة، ومن ثمّ؛ فهذا الموضوع، زاد للدعاة والمصلحين في تعاملهم مع الناس على منهج مستقيم.
- ٣- بعد البحث والاطلاع وسؤال أهل الاختصاص، لم أجد بحثاً علمياً استوفى الموضوع؛ بدراسته من جميع أطرافه، وإنما تذكر بعض مسائله، أو جزء منها، في إطار محدد.
- ٤- بيان أسباب الفساد، وآثاره، للتحذير من الوقوع فيه، وذكر أساليب القرآن الكريم في درء الفساد، للأخذ بذلك.
- ٥- أهمية بيان الفساد بمفهومه الشامل، وعدم القصور في معناه؛ بحصره في بعض أجزائه، إذ البعض يضيّق دائرة الفساد في بعض صورته؛ كالقتل أو الفواحش... ويجهل أن للفساد صوراً شتى، وأن منها ما يكون أعظم من غيره، كالكفر والشرك بالله تعالى... الخ .
- ٦- الحاجة لكشف مذاهب الفساد واتجاهاته، والتبصير بشبهه المفسدين، وبيان أساليبهم، وصفاتهم؛ ليكون المجتمع منهم على حذر.

أهداف البحث:

١. بيان كيف عالج القرآن الكريم أنواع الفساد، والوقوف على الدروس والعبر؛ من خلال آثار الفساد الخطيرة على الفرد والمجتمع، وسبل الوقاية منها.
٢. إبراز هذه القضية بجميع مظاهرها، وبمفهومها الشامل والصحيح، وإزاحة الستار عن المفهوم القاصر لدى بعض الناس، لاسيما ونحن نعيش في زمانٍ كثر فيه خلط الحقائق، وتلبس الحق بالباطل، فترى من يدعى الإصلاح، وهو يتمثل الفساد قولاً وعملاً.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والمطالعة في المراكز العلمية المتخصصة ودور النشر؛ فإني لم أقف على رسائل علمية، أو مؤلفات، تناولت منهج القرآن الكريم في دفع الفساد، ببيان أسبابه، وآثاره وسبل الوقاية منه.

وإن كانت بعض الرسائل والبحوث تحدثت عن هذا الموضوع؛ إلا أنها لم تتسم بطرحه بشموليته، وذكر جميع أطرافه.

فمنها ما سلط الضوء على نوع من أنواع الفساد، أو تطرَّق لبعض أساليبه، فمن تلك الدراسات:

١. "أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين وبيان عاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم". وهي رسالة تقدم بها الباحث: محمد بن عبد العزيز المسند، لنيل درجة الماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام بالرياض، وأشرف عليها د. عبد العزيز السبر، عام ١٤١٨هـ.

٢. "منهج القرآن الكريم في علاج الفساد الاقتصادي".

رسالة من إعداد د. أميرة بنت علي غالب اليماني، تناولت الباحثة مشكلة الفساد الاقتصادي وبيان صورته وعلاجه في ضوء القرآن الكريم.

٣. "الفساد الإداري وجرائم إساءة استعمال السلطة الوظيفية".

وهي رسالة أعدها الباحث: سليمان بن محمد الجريش، لنيل درجة الماجستير في العدالة الجنائية، من جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية بالرياض، وهي دراسة إدارية قانونية بحتة.

٤. "جريمة الإفساد في الأرض، وعقوباتها في الفقه والنظام".

وهي رسالة دكتوراه، قدّمها الباحث: علي بن محمد الكندري، في المعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام بالرياض، وبإشراف د. سعود بن محمد البشر، عام ١٤٢٠هـ، وهي دراسة فقهية متخصصة، في جانب جرائم الإفساد، وبيان عقوباتها الفقهية والنظامية.

٥. "الضلال، أسبابه وأنواعه وعلاجه".

وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم القرآن وعلومه، بجامعة الإمام بالرياض، للباحث: محمد الضالع، بإشراف د. محمد المديفر. وهي دراسة سلطت الضوء على الضلال؛ كونه من أبرز مظاهر الفساد.

وحيث كانت صور الفساد، ومظاهره، وأسبابه، واسعة النطاق؛ فإنه والحالة هذه؛ أجد من الصعوبة حصر جميع البحوث والدراسات حول هذا الموضوع. بيد أن تلك الرسائل والبحوث، لا تعدو أن تكون دراسة جزئية لجانب من جوانب هذا الموضوع.

حدود البحث:

الدراسة التي سأتناولها - بمشيئة الله - ستكون دراسة موضوعية، تستند إلى آي الذكر الحكيم، التي تُبرز هذا الموضوع؛ ببيان مفهوم الفساد، وذكر أنواعه، وأن منها، ما يكون فساداً عقدياً، ومنها ما يكون عملياً، وإيضاح أساليب القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف من اتصف به، وإبراز أسبابه، وسبل دفعه وعلاجه، وذكر آثاره. وهذا ما لم تتطرق إليه الدراسات السابقة.

خطة البحث:

جعلت هذا البحث مشتملاً على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وهي كما يلي:

● المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده،

والدراسات السابقة فيه، وخطة البحث ومنهجي فيه.

الباب الأول: مفهوم الفساد وإطلاقاته. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى الفساد وإطلاقاته، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان.

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك.

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير.

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل.

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر.

الفصل الثاني: أنواع الفساد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفساد العقدي، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر والشرك.

المطلب الثاني: النفاق.

المطلب الثالث: السحر.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

المبحث الثاني: الفساد العملي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات.

المطلب الثاني: الفواحش.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد، وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: النهي عن الفساد .
- المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم.
- المبحث الثالث: بيان عاقبته.
- المبحث الرابع: ذكر من اتصف بالفساد، وفيه سبعة مطالب:
 - المطلب الأول: الشيطان .
 - المطلب الثاني : مكذبو الرسل .
 - المطلب الثالث: أهل الكتاب .
 - المطلب الرابع: المنافقون.
 - المطلب الخامس: السحرة .
 - المطلب السادس: البغاة والمحاربون.
 - المطلب السابع: الكبراء والأثرياء.

الباب الثاني: أسباب الفساد وموانعه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الفساد، وفيه أحد عشر مبحثاً:

- المبحث الأول: الكفر والذنوب.
- المبحث الثاني: تزيين الشيطان.
- المبحث الثالث: التقليد المذموم.
- المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم.
- المبحث الخامس: اتباع الهوى.
- المبحث السادس: الكبر.
- المبحث السابع : الحسد.
- المبحث الثامن : الغلو.
- المبحث التاسع : الترف.

المبحث العاشر: الظلم والعدوان.

المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية.

الفصل الثاني: سُبُل دفع الفساد وعلاجه، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: الصلاة.

المبحث الرابع: الدعاء.

المبحث الخامس: التخويف بالله.

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.

المبحث السابع: إقامة الحدود والزواج الشرعية.

المبحث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث التاسع: الجهاد والمدافعة.

المبحث العاشر: الأمر بغض البصر وحفظ الفرج.

الباب الثالث: آثار الفساد، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثاره في الدنيا، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اختلال الأمن.

المبحث الثاني: الضلال والطبع على القلب.

المبحث الثالث: الاستدراج.

المبحث الرابع: حبوط العمل.

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.

المبحث السادس: العقوبة والهلاك.

الفصل الثاني: آثاره في الآخرة. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخسارة والحسرة.

المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.

المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

الخاتمة: وفيها بيان نتائج البحث وتوصياته.

● الفهارس:

(١) فهرس الآيات القرآنية.

(٢) فهرس الأحاديث النبوية.

(٣) فهرس الآثار.

(٤) فهرس الأعلام.

(٥) فهرس الأشعار.

(٦) فهرس الأماكن والفرق.

(٧) ثبت المصادر والمراجع.

(٨) فهرس الموضوعات.

• منهج البحث:

- سرت في هذا البحث، وفق منهج التفسير الموضوعي على النحو الآتي:
- أولاً: جمع الآيات الواردة في موضوع الفساد لفظاً ومعنى، ثم ترتيبها بحسب موضوعاتها.
- ثانياً: تفسير الآيات حال عرضها؛ حسب مقاصدها، ومدلولاتها، والمقارنة بينها.
- ثالثاً: عرض كلام المفسرين وأهل العلم - حول الآيات - مع الترجيح أو المناقشة لما يلزم، وعزو ذلك إلى مصادره الأصلية.
- رابعاً: دراسة منهج القرآن الكريم في دفع الفساد؛ وذلك ببيان أنواعه، وأسبابه، وسبل دفعه، وأثاره، والتعريف بما يلزم بيانه منها.
- خامساً: عزوت الآيات إلى مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية.
- سادساً: تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، فإن كانت في الصحيحين، أو أحدهما؛ اكتفيت بذلك، وإن كانت فيما سواهما؛ خرجتها من مظانها، ونقلت ما وقفت عليه من أقوال العلماء فيها.
- سابعاً: توثيق المعلومات المنقولة من مصادرها الأصلية، فما نقلته بنصّه؛ جعلته بين علامتي تنصيص "..."، وعزوته لمصدره في الهامش مباشرة، وما نقلته بتصرف، أو بمعناه؛ أشرت إليه في الهامش، مصدراً بكلمة (انظر).
- ثامناً: عزوت إلى المصادر بذكر اسم الكتاب كاملاً في أول موضع، ثم أذكره بعد ذلك مختصراً.
- تاسعاً: التعريف بالأعلام عدا المشاهير.
- عاشراً: عزوت الأبيات الشعرية لمصادرهما.

وختاماً:

فإني أحمد الله تعالى، وأثني عليه الخير كله؛ على نعمه الظاهرة والباطنة، وبما منَّ به عليّ؛ من تأمل آيات من كتابه، وتدبّر معانيها.

ثم إني أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ممثلة بقسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين، حيث أتاحت لي بحث هذا الموضوع.

وأثني بالشكر الجزيل لفضيلة الشيخ د. حجاج عربي رمضان أحمد، الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه؛ على جهد المتواصل لتسديد هذا البحث وتقويمه، فجزاه الله عني خير الجزاء. كما أشكر إخواني طلبة العلم الذين أعانوني وأرشدوني إلى مظانّ هذا البحث ومسائله، وأسأل الله تعالى أن يكتب أجرهم، وأن يجزيهم عني خير الجزاء.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا صالحاً، ولوجهه خالصاً، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول

مفهوم الفساد وإطلاقاته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفهوم الفساد .

الفصل الثاني : أنواع الفساد .

الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد .

الفصل الأول

مفهوم الفساد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم.

المبحث الأول

معنى الفساد في اللغة والاصطلاح

قال ابن فارس^(١): (فسد) الفاء والسين والدال، كلمة واحدة، فسَدَ الشيء يفسد فساداً وفسوداً، وهو فاسد وفسيد، والفساد نقيض الصلاح^(٢).

وقال الراغب^(٣): الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، وبيضاؤه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فساداً، وفسوداً، وأفسده غيره.

والفساد نقيض الصَّلاح، والفعل فَسَدَ يَفْسُدُ فساداً. قلتُ ولغة أخرى: فَسُدَ فُسُوداً. ويقال: أفسدَ فلانُ المالَ يُفسدُهُ إفساداً وفساداً، وفسَدَ الشيءَ إذا أبارَه، واستسفد السلطان قائده؛ إذا ساء إليه حتى استعصى عليه.^(٤)

وقيل: الفساد زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة. والفساد عند الفقهاء؛ ما كان مشروعاً بأصله غير مشروع بوصفه، وهو مرادف للبطلان عند الشافعي، وقسم ثالث مباين للصحة والبطلان عند الحنفية.^(٥) وحيث كان لفظ الفساد ذا دلالة واسعة، فإني لم أقف على تعريف جامع لمعنى الفساد، إذ إن فساد كل شيء بحسبه.

وحيث إن الفساد له ارتباط بمصطلحات أخرى، فربما ظنَّ البعض؛ أن تلك المصطلحات هي من قبيل المترادف لمعنى الفساد، غير أنه يمكن التفريق بينها وبينه عند التحقيق، ومن ذلك^(٦):

● الفرق بين الفساد والظلم:

الفساد أعم من الظلم، لأن الظلم النقص، فإن من سرق مال الغير مثلاً؛ فقد نقص حق

(١) أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين، كان إماماً في رجال خراسان غلب عليه علم النحو ولسان العرب فاشتهر به، وكان أديباً شاعراً، توفي بالري سنة ٢٩١هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/١٠٣، الديباج المذهب لابن فرحون ١/٣٥.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٥٠٣، لسان العرب لابن منظور ٣/٣٣٥.

(٣) الحسين بن محمد، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، أديب لغوي مفسر، له مؤلفات، توفي سنة ٥٠٢هـ انظر: تاريخ حكماء الإسلام ص ١١٢، ومعجم المؤلفين لكحالة ٤/٥٩.

(٤) المفردات في غريب اللغة للراغب ١/٣٧٩. تهذيب اللغة للأزهري ١٢/٢٥٧.

(٥) انظر: التعريفات للجرجاني ١/٢١٤.

(٦) انظر: الكليات للكفوي ١/٥٩٨، الفرق لابن فارس ١/٢٣٥.

الغير، أما الفساد؛ فيقع على ذلك وعلى غيره، كالاتباع، واللهو، واللعب.

● الفرق بين الفاسد والباطل:

الفاسد ما أمكن الانتفاع به رغماً من رداءته، من قولهم: فسد اللحم إذا أنتن، والباطل ما لا يمكن أن ينتفع به، من قولهم: بطل اللحم إذا دوّد وسوّس، بحيث لا يمكن الانتفاع به. الفرق بين الفساد والعتو:

العتو كثرة الفساد، أو أشد الفساد، وأصله من قولك: ضَبَع عثواء؛ إذا كثر الشعر على وجهها، وكذلك الرجل. قال الشاعر:

لولا الحياء وأن رأسي قد عثا فيه المشيب لزلت أم القاسم^(١)

وعاث يعيث لغة، وعاث يعثو أفصح اللغتين، ومنه قوله عز وجل ﴿وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، والعيث مع الفساد يتفاوتان في التعدي واللزوم، مع قرب معناهما، فإن العيث الإفساد لا الفساد، ويقال: عاث الذئب في الغنم؛ إذا أفسد.

● الفرق بين الفساد والقبح:

أن الفساد هو التغيير عن المقدار الذي تدعو إليه الحكمة، والشاهد أنه نقيض الصلاح الذي هو الاستقامة على ما تدعو إليه الحكمة، وإذا قصر عن المقدار أو أفرط؛ لم يصلح، وإذا كان على المقدار صلح.

والقبيح ما تزجر عنه الحكمة، وليس فيه معنى المقدار.

● الفرق بين الفساد والغبي:

أن كل غبي قبيح، ويجوز أن يكون الفساد ليس بقبيح، كفساد التفاحة بعينها، ويذهب بذلك إلى أنها تغيرت عن الحال التي كانت عليها، وإذا قيل: فلان فاسد؛ اقتضى ذلك أنه فاجر، وإذا قلت: إنه غاو؛ اقتضى فساد المذهب والاعتقاد.

ومما سبق يتلخص أن هذه المصطلحات، لا تدل على معنى الفساد من جميع الوجوه، وإن كان بعضها يصح إطلاقه كوصف للفساد، أو شيء من جوانبه، ويمكن القول إن بعضها بينه وبين الفساد عموم وخصوص. والله أعلم.

(١) البيت لعدي بن الرقاع العاملي. انظر: تهذيب اللغة ٣/٩٦، لسان العرب ١٥/٢٨.

المبحث الثاني

إطلاقات الفساد في القرآن الكريم

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان .

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك .

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير .

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل .

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر .

جاء إطلاق لفظ الفساد في كتاب الله جلّ وعلا، على وجوه متعددة، وقد ذكرها من كتب في الوجوه والنظائر^(١)، كمقاتل بن سليمان^(٢) والدامغاني^(٣) وابن الجوزي^(٤) وغيرهم. وعند النظر والتأمل في كلام المفسرين؛ نجد إنها تكاد تنحصر في الأوجه التالية، وقد جعلتها في خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان.

ورد لفظ الفساد بمعنى العصيان في مواضع عدّة من آي الكتاب العزيز، فمن ذلك قوله سبحانه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

فقد ذكر ابن جرير^(٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية. وعن مجاهد^(٦) قوله: "إذا ركبوا معصية، فقليل لهم: لا تفعلوا كذا، قالوا: إنما نحن على الهدى."^(٧) ففسادهم ذلك هو معصية الله - جل ثناؤه - لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته؛ فقد أفسد في الأرض، ولا إصلاح للأرض والسماء؛ إلا بطاعة الله تعالى.

-
- (١) قال الزركشي: (الوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدّة معان كلفظ "الأمّة"، والنظائر كالألفاظ المتواطئة). انظر: البرهان في علوم القرآن ١/١٠٢.
- (٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي أبو الحسن الأزدي بالولاء الخرساني المروزي، اشتهر بذكائه وسعة علمه، أثنى عليه العلماء في التفسير، واتهم في الحديث. قال الذهبي "أجمعوا على تركه" ت: ١٥٠هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي ٢/٣٣٠، سير أعلام النبلاء ٧/٢٠١.
- (٣) هو الحسين بن محمد أبو الحسين الدامغاني، نسبة إلى دامغان وهي بلدة بين الري ونيسابور، فقيه حنفي، اختلف في اسمه ومولده ت: ٤٧٨هـ انظر: كشف الظنون ٢/١٠٦٧، إيضاح المكنون ١/٦١٥.
- (٤) هو عبدالرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي، جمال الدين البغدادي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقيه حنبلي كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ صنف التصانيف الشهيرة في فنون عديدة. ت: ٥٩٧هـ انظر: وفيات الأعيان، سير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥.
- (٥) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، الإمام الجليل المفسر، أحد الأعلام وصاحب التصانيف من أهل أمل طبرستان، مات ٣١٠هـ. انظر تاريخ بغداد ٢/١٦٢ تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠.
- (٦) هو مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج القرشي المخزومي مولا هم، إمام في القراءة والتفسير، روى له البخاري ومسلم وغيرهما. مات بمكة ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤٠هـ انظر تهذيب الكمال ٢٧/٢٢٨.
- (٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري ١/١٢٥.

وقد نزلت الآيتان في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وإن كان معنياً بهما؛ كل من كان بمثابة صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة^(١).

"ولما كان في قولهم (إنما نحن مصلحون) حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح؛ قلب الله عليهم دعواهم بقوله (ألا إنهم هم المفسدون)، فإنه لا فساد أعظم؛ ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأوليائه، ووالى المحاريين لله تعالى ورسوله ﷺ، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد، ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله"^(٢).

ومما ورد في هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَلَا تَبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. فقد نقل غير واحد من المفسرين أن المراد في تأويل الآية: لا تعمل فيها بالمعاصي.^(٣) وحيث نزلت هذه الآية وما جاء بعدها في قارون حين عصى ربه، وعلا في الأرض، ختم تبارك وتعالى القصة بقوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَةُ نَجَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. أي: لا المفسدين. فغير المتقي فاسد.

ونظير ذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال البغوي: "أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله. وبه قال غير واحد من السلف. وقيل: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث، بمعاصيكم"^(٤).

(١) انظر: جامع البيان ١/١٢٥، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان ١/١٠٥، معالم التنزيل للبغوي ١/٢٢١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٧٨.

(٤) معالم التنزيل للبغوي ٢/١٦٦.

ومن ذلك أيضاً؛ ما أخرجه ابن أبي حاتم^(١) عن السدي^(٢) في قوله ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧]. حيث قال: يعملون فيها بالمعصية.^(٣)

وإنما كان العمل بالمعاصي إفساداً للأرض؛ لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات؛ بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض؛ أن تُعمر بطاعة الله، والإيمان به، ولهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض وأدرّ لهم الأرزاق؛ ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عُمل فيها بضده، كان سعيًا بالفساد فيها، وتخريباً لها عما خلقت له.

إن المتأمل للنصوص، ليدرك بجلاء عناية الشريعة في ذم المعاصي، وبيان سبلها الموصلة إليها، ولأجل ذلك؛ تنوع التحذير من الوقوع فيها؛ فمنها ما رُتب عليه الحدود، ومنها ما يصلحه الكفارات، ومنها ما تُوعَد عليه بالعقوبة في الآخرة...

وهكذا نجد دلالة الخطاب الشرعي في الترهيب من المعاصي، برهاناً ظاهر على عظم فساده، وضررها على الفرد والمجتمع.

وأكثر الآيات الواردة في لفظ الفساد، جاءت في هذا المعنى. ولا غرو فإن المعاصي - ابتداءً بالإشراك بالله تعالى، وتكذيب رسله، والكفر بآياته؛ وانتهاءً بصغائر الذنوب - كلها فساد وانحراف عن المنهج الحق، الذي رضي الله لعباده، وإن كان هذا الفساد؛ يتفاوت باختلاف الذنوب كبيرها وصغيرها.

(١) عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي، حافظ الرّي وابن حافظها، عالم ثبت، صنف في العلوم، له التفسير المسند، توفي سنة ٣٢٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٣/١٣، طبقات المفسرين للداودي ٢٨٥/١.

(٢) إسماعيل بن عبدالرحمن السدي، إمام عارف بالوقائع وأيام العرب، روى عن ابن عباس، توفي سنة ١٢٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٣١٣/١، طبقات المفسرين للداودي ١٠٩/١.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٧٢/١.

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك.

جاء الفساد بمعنى الهلاك في قول الله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال الطبري: "يعني هلك أهلها بعقوبة الله إياهم؛ فسدت بذلك الأرض، ولكن الله ذو من على خلقه، وتطول عليهم، بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر".^(١) قال البغوي: هذا قول سائر المفسرين.

وقال ابن كثير^(٢): "لولا يذفع عن قوم بأخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت،

وشجاعة داود؛ هلكوا، كما قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَادَتِ السَّمَوَاتُ وَبَلَغَتِ

وَصَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]."^(٣)

ومما جاء في معنى الهلاك، قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال الفراء^(٤): (إلا) هنا في الموضع؛ بمتزلة (سوى)، كأنك قلت: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها.

وقال غيره: أي لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئاً، والآخر ضده، كان أحدهما عاجزاً.

وقيل: معنى (لفسدتا) أي خربتا وهلك من فيهما، بوقوع التنازع، بالاختلاف الواقع بين الشركاء^(٥).

(١) جامع البيان ٦٣٩/٢. معالم التنزيل ٢٣٦/١. تفسير القرآن العظيم ٣٠٤/١.

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الأموي البصري الشيخ عماد الدين المعروف بابن كثير، صاحب التفسير والتاريخ قال الذهبي: إمام محدث مفت بارع. مات ٧٧٤هـ - انظر الدرر الكامنة ٤٤٧/١، طبقات المفسرين للداودي ص ٢٠٦

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦٩٩/١

(٤) يحيى بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي، أخذ عن الكسائي، قال عنه ثعلب: "لولا الفراء لما كانت عربية"

انظر: تذكرة الحفاظ ٣٧٢/١، طبقات المفسرين للداودي ٣٦٧/٢.

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ٢٠٠/٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٦/١١.

وقيل: أي لخربتنا وهلك من فيهما بوجود التمانع من الآلهة، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر، يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف؛ فيقع عندئذ التنازع والاختلاف، ويحدث بسبب ذلك الهلاك، ثم نزه - سبحانه - ذاته عن ذلك بقوله ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] (١).

ويدخل في هذا المعنى أيضاً قوله جل ذكره ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فهي كسابقتها في الدلالة على سوء العاقبة، والمعنى: لو أجابهم الله، بأن جعل أمر التشريع، وإرسال الرسل، ونحو ذلك، تابعاً لأهوائهم؛ لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، لأن أهواءهم الفاسدة، وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض، بل لو كانت هي المتبعة؛ لهلك الجميع (٢).

ومما ورد بمعنى الهلاك، قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكُتُبِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّ عَلْوًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] أي: لتهلكن في الأرض مرتين، حيث بين جلّ وعلا هذا الإفساد بقوله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُرَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٥-٨].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله عليهم في الأولى جالوت (٣)، فجاس خلال ديارهم،

(١) انظر: معالم التنزيل ٣١٤/١، زاد المسير ٣٤٥/٥، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٦١/٦.

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٤٢/٥.

(٣) من جبايرة الكنعانيين، كان ملكه بجهاة فلسطين، وكان من الشدة وطول القامة. يمكن عظيم، وكان هو وقومه يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة، فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوا على كثير من أرضهم، وسوا كثيراً من ذراريهم، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة.

انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس ص ١٠٤، ومعالم التنزيل ٢٢٦/١

وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله أن يبعث إليهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث الله طالوت^(١)، فنصر بنو إسرائيل، وقتل جالوت بيدي داود عليه السلام، ورجع إلى بني إسرائيل ملكهم، فلما أفسدوا؛ بعث الله عليهم في المرة الآخرة، بختنصر^(٢)، فخرّب المساجد وتبرّ ما علو تبيراً^(٣).

وقيل: "كانت الآخرة، أشد من الأولى بكثير؛ فإن الأولى كانت هزيمة فقط، والآخرة كانت تدميراً، وحرّق بختنصر التوراة، حتى لم يترك فيها حرفاً واحداً، وخرّب بيت المقدس"^(٤).
 "وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل، مفيد أنه إفساد من جمهورهم، بحيث تُعدّ الأمة كلها مفسدة؛ وإن كانت لا تخلو من صالحين"^(٥).

ولا ريب أن الهلاك مرتبطٌ بالفساد؛ بل هو - كما سيأتي - أثرٌ من آثاره، لا يقتصر على آحاد الناس، بل يصيبهم بمجموعهم، سواءً قيل: إنه واقع بسبب مباشرتهم له، أو نتيجة عصيانهم وفجورهم.

وهذا التقرير مستلهم من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب، فقلت: يا رسول الله، أهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"^(٦).

فأقرّ صلى الله عليه وسلم بوقوع الهلاك إذا كثر الفساد والفجور والعصيان؛ ولا تكثر هذه؛ إلا إذا باشرها جمع من الناس.

(١) كان دباغا وقيل كان سقاء يسقي الماء ويبيعه، واسمه بالسريانية: شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بخت بن

أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب . انظر: تاريخ الطبري ١/٢٨٠ الكامل لابن الأثير ١/١٦٥

(٢) بختنصر بن نبوزر بن سنحاريث . كان ملكاً على بلاد بابل بالعراق انظر: تاريخ الطبري ١/٦٥

(٣) انظر: جامع البيان ١٧/٣٦٦، ٣٧٧

(٤) جامع البيان ١٧/٣٨٧

(٥) التحرير والتنوير ٨/٤٠

(٦) أخرجه البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة من الإسلام. ح(٣٤٠٣). ومسلم. كتاب الفتن وأشراف

الساعة. باب اقترب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج. ح(٢٨٨٠).

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير.

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

قال الطبري: "إذا خرج هذا المنافق من عندك يا محمد غضبان، عمل في الأرض بما حرم الله عليه، وحاول فيها معصية الله، وقطع الطريق، وإفساد السبيل على عباد الله" (١).

ونقل الواحدي (٢) عن السدي قوله: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق الثقفي (٣)، وهو حليف بني زهرة، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنني صادق، وذلك قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُرٍ فأحرق الزرع، وعقر الحُمُرَ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية (٤).

قال السعدي (٥) عند هذه الآية: "أي يجتهد في أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض، (ويهلك) بسبب ذلك (الحرث والنسل)، فالزرع والثمار والمواشي، تتلف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، (والله لا يحب الفساد) وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المُفسد في الأرض، غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً" (٦).

والمراد بالحِرث هنا الزرع، والنسل: نسل كل شيء من الحيوان، هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة.

(١) جامع البيان ٣١٦/٢.

(٢) علي بن أحمد بن محمد الواحدي، أبو الحسن النيسابوري، لازم أبا إسحاق الثعلبي، وصنّف التفاسير الثلاثة "البيسط" و"الوسيط" و"الوجيز"، توفي سنة ٤٦٨هـ.

انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٢٤٠/٥، طبقات المفسرين للسيوطي ص ٧٨.

(٣) الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب، أبو ثعلبة، صحابي جليل، وكان من المؤلفات قلوبهم، مات في زمن عمر بن الخطاب. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣٨/١.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٢٩/٤، أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٦٦.

(٥) هو عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي، من كبار علماء نجد المعاصرين، له مؤلفات، اشتغل بالتدريس، عُرف بحسن خلقه وكرامته وسجاياه، توفي ببلده عنيزة، عام ١٣٧٦هـ. انظر: علماء نجد ٤٢٢/٢، الأعلام ٣٤٠/٣.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٣.

وحكى الزجاج^(١) عن قوم؛ أن الحرث النساء، والنسل الأولاد؛ قال: وليس هذا بمنكر، لأن المرأة تسمى حرثاً.

وفي معنى إهلاكه للحرث والنسل، أقوال^(٢):

أحدها: أن إهلاك ذلك بالقتل والإحراق والإفساد، قاله الأكثرون.

والثاني: أنه إذا ظلم، كان الظلم سبباً لمنع القطر، فيهلك الحرث والنسل، وهو يخرج على قول من قال: إنه من التولي.

والثالث: أن إهلاك ذلك، بالضلال الذي يؤول إلى الهلاك، حكاه بعض المفسرين.

ومما يدخل في هذا المعنى قوله جل ذكره ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا أخذوها عنوة أخرجوها. ^(٣)

وافتحاح جملة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ﴾ بحرف التأكيد، للاهتمام بالخبر وتحقيقه، فقولها ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ استدلالٌ بشواهد التاريخ الماضي، ولهذا تكون (إذا) ظرفاً للماضي بقرينة المقام، كقوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ هَوْأً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]. وقوله ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٢].

وجملة ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ استدلال على المستقبل بحكم الماضي، على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجعل الأعزة أذلة، أي كيف نلقي بأيدينا إلى من لا يألو إفساداً في حالنا. ^(٤)

(١) إبراهيم بن السري بن سهل، الزجاج نسبة إلى خرط الزجاج، من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، صنف

في اللغة وعلوم القرآن، توفي ببغداد سنة ٣١١هـ. انظر: تاريخ بغداد ٦/٨٩.

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/١٨٩.

(٣) جامع البيان ١٩/٤٥٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٠/١٨٠.

وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك، إذا دخلوا قرية عنوة، ولذا أقرها سبحانه وتعالى بقوله

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١)

ومما جاء بهذا المعنى - أيضاً - قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

فقد نزلت هذه الآية في بيان حدِّ المحاربين، والمحاربة هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق وإحافة السبيل، والإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف؛ كسعيد بن المسيب^(٢): إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض.

ولا علاقة لهذه الآية ولا التي بعدها؛ بأخبار بني إسرائيل، وإن كان سياق الآيات في مخاطبتهم والحديث عنهم.

فقد نزلت^(٣) في العرنيين - في قول جمهور المفسرين - وبه يشعر صنيع البخاري، إذ ترجم بهذه الآية، من كتاب التفسير في صحيحه، وأخرج عقبه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في العرنيين.

ونص الحديث من مواضع من صحيحه: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نفر من عكل وعرينة، فأسلموا ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا قد استوخمنا^(٤) هذه الأرض، فقال لهم: هذه نعم لنا، فاخرجوا فيها، فاشربوا ألبانها وأبوالها، فخرجوا فيها، فاشربوا من أبوالها وألبانها، واستصحوا، فمالوا على الراعي فقتلوه واطردوا الذود^(٥) وارتدوا، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم، بعث جرير

(١) انظر: جامع البيان ٤٥٤/١٩.

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، فقيه المدينة، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، من أجل التابعين، قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً من سعيد، توفي سنة ٩٠هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ ٤٤/١، سير أعلام النبلاء ٤/٢١٧.

(٣) سيأتي بيان أقوال المفسرين في نزول الآية مفصلاً في موضعه. انظر ص ٢٥٧.

(٤) استوخم الطعام توخمه، والمكان استقله، ولم يوافقه سكنه. انظر: المعجم الوسيط ١٢/١٠١٩.

(٥) الذود: يكون من ثلاثة أبعة إلى عشرة، أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين، أو ما بين الثنتين والتسع، ولا

يكون إلا من الإناث. انظر: القاموس المحيط ١/٤١٢.

بن عبد الله ﷺ في خيل، فأدر كوههم، وقد أشرفوا على بلادهم، فما ترجل النهار؛ حتى جيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت^(١) أعينهم بمسامير أحميت، ثم حبسهم حتى ماتوا.

وقيل: أمر بهم فألقوا في الحرّة^(٢) يستسقون فما يسقون، حتى ماتوا^(٣). قال جماعة: وكان ذلك سنة ست من الهجرة^(٤).

(١) فقء العين بأي شيء كان. انظر: القاموس المحيط ١٣١٣

(٢) الحرّة: هي أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار والجمع حرات.

انظر: لسان العرب: ٤/١٧٩، مختار الصحاح: ١/٥٥.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء. باب أبوال الإبل. ح(٤٣٣٤)، ومسلم. كتاب القسامة والمخاريق. باب حكم

المخاريق والمرتدين. ح(١٦٧١).

(٤) انظر: جامع البيان ٤/٥٥٣، تفسير القرآن العظيم ٢/٦٥.

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل.

أطلق لفظ الفساد في القرآن وقُصِدَ به القتل فمن ذلك:

قوله سبحانه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

والمعنى على زعم فرعون؛ يظهر الفساد بتغيير أحكامنا.

وقيل: يقتل أبناءكم كما تفعلون بهم^(١).

وقال النحاس^(٢): أخاف أن يكون أحد الأمرين؛ إما أن يُذهب دينكم البتة، وإما أن يستميل فيفسد عليكم ويحاربكم، ويكون ذلك بالتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً^(٣).

واختلف القراء في قوله ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٤) فقرأ عاصم^(٥) وحمزة^(٦) والكسائي^(٧)

(أو أن) بألف قبل الواو، على معنى: إن لم يبدل دينكم؛ أوقع الفساد.

وقرأ بقية السبعة (وأن) بغير ألف، والمعنى: يظهر الفساد بتغيير أحكامنا، فجعل ذلك فساداً بزعمه.

وجاء لفظ الفساد بمعنى القتل، في قوله تعالى ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

فقد قيل في فسادهم: أنهم يأكلون الناس.

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٧٧/٧، تفسير البيضاوي ٩٠/٥.

(٢) أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر النحاس، اللغوي، المفسر، الأديب، كان واسع العلم غزير الرواية، له أكثر من خمسين مصنفاً في علوم القرآن والأدب. توفي سنة ٣٣٨هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٥، طبقات المفسرين للداودي ٦٨/١.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٢١٤/٦.

(٤) انظر: تحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للدمياطي، ص ٤٨٥.

(٥) عاصم بن مهذلة وهو ابن أبي النجود، الأسدي مولاهم، الكوفي، أبو بكر المقرئ، قال ابن حجر: صدوق له أوهام، حجة في القراءة ١٢٨/ت٠ انظر تهذيب الكمال ٢٧٤/١٣.

(٦) حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القاري، أبو عمارة الكوفي التيمي مولاهم، كان من علماء زمانه بالقراءات، وثقه ابن معين. توفي ١٥٦/١٥٨، بجلوان. انظر تهذيب الكمال ٣١٤/٧ تهذيب التهذيب ٢٤/٣.

(٧) علي بن حمزة بن عبد الله بن قيس بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي الكسائي أحد أئمة القراءة والتجويد في بغداد. توفي ١٨٩هـ. انظر تهذيب التهذيب ٢٧٥/٧.

وقيل: مفسدون في الأرض بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع.
وقيل: معناه أنهم سيفسدون في الأرض عند خروجهم^(١).

(١) معالم التنزيل ٢٠/١. الدر المنثور ٤٥٩/٥، تفسير البيضاوي ٥٥/١.

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر.

جاء وصف السحر بالفساد - صريحاً - في موضع واحد من كتاب الله، وهو قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ الْقَوْمَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقَوْمَا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨٠-٨١].

قال أبو السعود^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ "أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السحر دخولاً أولياً، وفيه دليل على أن السحر إفساد".^(٢)

قال ابن عاشور^(٣): فجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ معترضة وهي تعليل لمضمون جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، وتذييل للكلام بما فيه نفي الإصلاح، وتعريف ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ بلام الجنس، من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين؛ ليعلم أن سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين، وإضافة ﴿عَمَلٍ﴾ إلى ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ يؤذن بأنه عمل فاسد؛ لأنه فعل من شأنهم الإفساد، فيكون نسجاً على منوالهم، والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه؛ أنه لا يؤيده؛ وليس المراد نفي تصييره صالحاً؛ لأن ماهية الإفساد، لا تقبل أن تصير صالحاً، حتى يُنقى تصيورها كذلك عن الله؛ وإنما إصلاحها هو إعطاؤها الإصلاح، فإذا نفى الله إصلاحها، فذلك بتركها وشأنها، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل"^(٤).

وكيف لا يكون السحر فساداً؛ وقد أنزل الله في شأنه ﴿وَيَنْعَمُونَ مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۗ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيَسَّ مَا شَكَرُوا بِهِ ۗ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فأخبر أنه ضرر محض لا نفع فيه البتة. كما وصف بأنه كيد لا يفلح صاحبه، قال سبحانه

(١) أحمد بن محي الدين بن محمد العمادي، أبو السعود الحنفي، فقيه مفسر، ولد بقسطنطينية، وتقلد الإفتاء ثلاثين

سنة، ت: ٩٨٢هـ - انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/٢٤٧، هداية العارفين ١/٥٨٥

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/١٧٠.

(٣) هو أبو عبد الله، محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن عاشور، عالم أديب، تولى القضاء والفتيا ونقابة

الأشراف بتونس، وبها توفي سنة ١٣٩٣هـ، من مؤلفاته؛ تفسير التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية،

أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. انظر: الأعلام للزركلي ٦/١٧٥، معجم المؤلفين لكحالة ٣/٣٦٣.

(٤) التحرير والتنوير ٧/٤

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَحِرًا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

وسياتي تفصيل ما سبق - بعون الله - في الفصل الثاني والثالث من هذا الباب.

الفصل الثاني أنواع الفساد

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول: الفساد العقدي.
- المبحث الثاني: الفساد العملي.

المبحث الأول الفساد العَقْدِي

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: الكفر والشرك.
- المطلب الثاني: النفاق.
- المطلب الثالث: السحر.
- المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

وأعني بالفساد العقدي؛ ما كان من الأعمال مُفسداً لمعتقد العبد، سواءً سلَّبه الإيمان بالكلية، أو كان له أثر في كمال الإيمان الواجب. وإنما قيِّدْتُ بذلك، لأنَّ أضْرَبَ الفساد كلها؛ لها أثر في إيمان العبد صغيرها وكبيرها، فإنَّ مما أجمع عليه أهل السنة؛ أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١). وقد تأملت في أنواع الفساد العقدي، فوجدتها لا تكاد تخرج عن؛ الكفر والشرك، أو النفاق، أو السحر، أو الابتداع في الدين. ولذا جعلتها في أربعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر والشرك.

أصل الكفر^(٢) تغطية الشيء، وسمي الفلاح كافراً؛ لتغطيته الحب، ومنه قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]. وسمي الليل كافراً، قال ليبد بن ربيعة^(٣):

حتى إذا أَلقت يداً في كافر
وأجنَّ عورات الثغور ظلامها^(٤)

يريد بذلك الليل، لأنه يغطي كل شيء بظلامه.

والكفر في الاصطلاح: هو - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - "عدم الإيمان بالله ورُسُلِهِ، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله، حسداً، أو كبراً، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذَّب؛ أعظم كُفراً؛ وكذلك الجاحد المكذَّب حسداً، مع استيقان صدق الرسل. والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء"^(٥).

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية د. صالح الفوزان. ص ١٣٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ١٠/١١٠، لسان العرب لابن منظور ٥/١٤٤ مادة (كفر).

(٣) ليبد بن ربيعة، الشاعر المشهور، أدرك الإسلام، وهو صحابي جليل، كان فارساً شجاعاً سخياً، توفي سنة ٤١هـ -

انظر: الإصابة ٥/٦٧٥، البداية والنهاية لابن كثير ٧/٢٢١.

(٤) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٦.

(٥) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/٣٣٥.

وأما الشرك، فالشرك والشركة: مخالطة الشريكين، يقال: اشتر كنا، بمعنى تشار كنا، وجمع الشريك: شركاء، والأشراك أيضاً جمع الشرك، وهو النصيب، ويقال: شركه في الأمر يشركه؛ إذا دخل معه فيه، وأشرك فلان فلاناً في البيع؛ إذا أدخله مع نفسه فيه، والشرك أن يجعل لله شريكاً، تعالى الله عن الشركاء والأنداد^(١).
وله في الشرع^(٢) معنيان: عام وخاص.

١- المعنى العام: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه، ويندرج تحته ثلاثة أنواع:

الأول: الشرك في الربوبية، وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الربوبية، أو نسبة شيء منها إلى غيره، كالخلق، والرزق، والإيجاد، والإماتة، والتدبير لهذا الكون، ونحو ذلك. قال تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُكُوا﴾ [فاطر: ٣].
الثاني: الشرك في الأسماء والصفات، وهو تسوية غير الله بالله في شيء منها، قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الثالث: الشرك في الألوهية، وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الألوهية، كالصلاة والصيام والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحو ذلك، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٢- المعنى الخاص: وهو أن يتخذ لله نداً، يدعو كما يدعو الله تعالى، ويسأله الشفاعة، كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، كدعاء غير الله؛ والتقرب بالذبائح والنذور لأصحاب القبور والجن والشياطين؛ ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كمن يطلب قضاء الحاجات وتفريج الكُرُبات من أصحاب القبور؛ فيأتي تلك الأضرحة المبنية على قبور الأولياء والصالحين يدعوهم ويستغيث بهم، مما هو مشاهد في كثير من الأمصار.
وهذا هو المعنى المتبادر من كلمة "الشرك" إذا أطلقت في القرآن أو السنة.

(١) انظر: تهذيب اللغة ١٠/١٢، لسان العرب ١٠/٤٤١ مادة (شرك)

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٩١، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ٢/٧٠٣،

وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله آل الشيخ ١/٤٩٧، وغيرها.

الفرق بين الكفر والشرك:

ومما سبق يتبين أن المشرك هو من جعل مع الله إلهاً آخر، ولا شك أن من فعل ذلك فهو كافرٌ بالله أيضاً، غير إن المرء قد يكون كافراً دون مُواقعةٍ للشرك، وعليه: فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركاً^(١).

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن بين الرجل وبين الشرك والكفر؛ ترك الصلاة"^(٢).

قال النووي^(٣): "الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما؛ فيُخصُّ الشرك بعبادة الأوثان، وغيرها من المخلوقات، مع اعترافهم بالله، ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك"^(٤).

ولذا قيل: هذا من عطف العام على الخاص؛ إذ الشرك نوع من الكفر.^(٥)

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون ﴿ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقْبَرِ ﴾ [غافر: ٤٢].

فعطفَ الشرك على الكفر، ومن القواعد المقررة في التفسير: أن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف، والمعطوف عليه^(٦). والله أعلم.

وعلى الرغم من إمكان التفريق بينهما، إلا أنهما بمرتلة سواء؛ من حيث الحكم والعاقبة، ومن أجل ذا قرنتُ بينهما في هذا المطلب.

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد. للشيخ د. صالح الفوزان. ٢٨٣/٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان. باب (بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) ح (١٣٤).

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا الدمشقي الشافعي، الفقيه المحدث الحافظ، ولد بنوى في الشام،

ودرس العلوم، واشتغل بالتدريس، وله مؤلفات كثيرة، توفي بنوى سنة ٦٧٧هـ .

انظر: البداية والنهاية ٢٧٨/١٣، طبقات الشافعية ٣٩٥/٨.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٦٢/٢.

(٥) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير. للمناوي ٣١٠/٣.

(٦) انظر في بيان هذه القاعدة: مجموع الفتاوى ٢١٠/٧، البرهان في علوم القرآن. للزركشي ١١٣/٤.

والكفر نقيض الإيمان، والشرك نقيض التوحيد، وحيث كان الإيمان شرط التوحيد، وهو أصل الدين وقوامه؛ فبضدّها تتبين الأشياء، فمن عرف أهمية توحيد الله جلّ جلاله؛ أدرك خطر الكفر والشرك، وعظم أثرهما في الفساد والإفساد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح؛ التوحيد والإيمان، وأصل الفساد؛ الشرك والكفر.^(١)

وهل بعث الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإقامة هذا الأساس؛ الذي لا نجاة لمن لم يأخذ به؟.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٦٠].

قال ابن القيم: وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسوله ﷺ، هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها، إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ ليس إلا، فإن الله أصلح الأرض برسوله ﷺ ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به، وبمخالفة رسوله ﷺ.

ومن تدبير أحوال العالم وجد أن كل صلاح في الأرض؛ سببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وأن كل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو، وغير ذلك؛ سببه مخالفة رسوله ﷺ، والدعوة إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ.^(٢)

ولقد أخذت هذه القضية حظاً وافراً في الكتاب العزيز؛ فلا يكاد القرآن ينفك عن الأمر بتحقيق التوحيد لله، والإخلاص له، والتحذير من ضدّ ذلك، بالبعد عن نواقض الإيمان، ومجانبة سبيل المجرمين ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَسِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٥٥] ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥ - ٥٦]. وليس بدعاً القول: إن رسالة القرآن في مضمونها: تحقيق التوحيد لله رب العالمين.

ولقد عاشت البشرية - من لدن آدم ﷺ - قروناً على التوحيد؛ حتى اجتالتهم الشياطين، فصرفتهم عن دينهم، فبعث الله رُسُلَهُ مبشرين ومنذرين، كما أخبر جلّ وعلا بقوله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقوله ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩].

(١) مجموع الفتاوى ١٦٣/١٨.

(٢) بدائع الفوائد ٥٢٥/٣.

قال الشنقيطي^(١): "معنى ذلك على أصح الأقوال، أنهم كانوا على طريق الإسلام، حتى وقع ما وقع من قوم نوح من الكفر، فبعث الله النبيين ينهون عن ذلك الكفر، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم بالنار، وأولهم في ذلك نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام".^(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلّفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين".^(٣) وكذلك هي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه - لآية البقرة - (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا)، وكذا روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين).^(٤)

إن دلالّة الآيات في حديثها عن هذا الانحراف؛ تُظهر بجلاءً خطورة هذا المسلك، حتى إنّها لا تدع مجالاً للاجتهاد في الحكم على من تلبّس به؛ إلا أنه بلغ من الفساد منتهاه.

وحين نتأمل أساليب القرآن نجد ذلك ظاهراً في أمور، منها ما يلي:

١- أن أعظم ما أمر به المكلفون؛ تحقيق التوحيد لله تعالى والبعد عن ما يخالف ذلك؛ فإن الله

جل وعلا يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وهل تتحقق العبادة وفيها شائبة من كفر أو شرك؟

يقول سبحانه ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وما بعث الله من نبي إلا قال لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وحين أخبر سبحانه عن أمهات الكبائر والموبقات؛ بدأ بأعظمها فقال ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

(١) هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، ولد بشنقيط، واجتهد في طلب العلم، وكان آية في التفسير والأصول،

له جهود في الدعوة والتدريس، وكان زاهداً تقياً، توفي بمكة سنة ١٣٩٣هـ.

انظر: ترجمته في الجزء التاسع من تفسيره أضواء البيان.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٨٠/٣.

(٣) جامع البيان ٣٣٦/٢، والحاكم في المستدرک. وقال: "صحيح على شرط البخاري" ٥٩٦/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥١/١.

٢- بيان أن الشرك أعظم الظلم، وأقبح القبائح؛ لأنه تشبيهه للمخلوق بالخالق، ولما كان الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فإن من عبد غير الله؛ فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، يقول تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

فهو هضمٌ لحق الربوبية، وتنقصٌ لعظمة الإلهية، حين زعم مساواة غيره به، قال تعالى عن المشركين ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُتَابَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الشعراء: ٩٦-٩٨﴾.

ولا ريب أن من اعتقد ذلك؛ فقد أساء الظن برب العالمين، قال تعالى ﴿وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

فلو أحسنوا الظن برهم، لوحدوه حق توحيدهم، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين، أنهم ما قدروه حق قدره، في ثلاث مواضع من كتابه. إذ كيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً!

ولما سئل صلى الله عليه وسلم: "أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك...." الحديث^(١) وفي حديث أبي بكرة^(٢) رضي الله عنه مرفوعاً: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثاً. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "الإشراك بالله، وعقوق الوالدين..."^(٣).

٣- أنه أخبر أن المشرك لا يُغفر له إذا مات ولم يتب، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال في شأن الكفار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤].

(١) رواه البخاري. كتاب التفسير. باب: قوله "والذين لا يدعون مع الله إله آخر". ح(٤٤٧٧)، ومسلم. كتاب الإيمان.

باب: كون الشرك أقبح الذنوب. ح(٨٦).

(٢) هو نفع بن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة، أبو بكرة الثقفي، صحابي كناه النبي صلى الله عليه وسلم ببيكرة للتدليله ببيكرة من الطائف، توفي: ٥٠ أو ٥١ بالبصرة. انظر: الإصابة ٤/٤٦.

(٣) رواه البخاري. كتاب الأدب. باب: عقوق الوالدين من الكبائر. ح(٥٦٣١)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب: بيان الكبائر وأكبرها. ح(١٤٣).

- ٤- أن الله تعالى أخبر أنه حرّم الجنة على المشرك، وأنه مخلّد في النار، والعياذ بالله. قال سبحانه ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال في شأن الكفار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].
- ٥- أنه محبّب للعمل، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال جل وعلا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

ولا ريب أن هؤلاء خالفوا فطرة الله التي فطر عليها خلقه، فإن الخلق كلهم مفطورون على تأليه بارئهم حل جلاله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن ثمّ كان الكافرون شرّ خلق الله، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

ولقد أتى هؤلاء المشركون بشبّه فاسدة سوّغت - بزعمهم - صحة معتقداتهم، فجاء القرآن الكريم على تلك الشبّه، فكشف زيفها، وبيّن فسادها؛ إذ ليس لها مستند من نقل، ولا عقل.

فمن شبّههم: أنهم احتجوا بما كان عليه الآباء والأجداد، فهم - بزعمهم - ورثوا هذه العقيدة؛ خلفاً لأسلافهم ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣].

وهذه حجة باطلة؛ فهؤلاء الآباء لا يجوز تقليدهم واتباعهم، إذ ليسوا على هدى، قال سبحانه رداً عليهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ومن شبّههم^(١): قولهم نحن نشهد بأن الله هو الخالق الرازق، وأنه لا يضر إلا الله وحده، ولكن نحن مذنبون، والصالحون لهم جاء عند الله، فنحن نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله.

(١) للاستزادة انظر: "كشف الشبهات" للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

والجواب: أن الله أنكر عليهم زعمهم هذا، وكفرهم بذلك، وسمّاهم مشركين، كما في قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ثم إن الشفاعة حق لله وحده، لا يملكها إلا هو، فليس لأحد أن يشفع - وإن كان ملكاً أو نبياً - إلا بإذن الله تعالى ورضاه، كما أخبر عن ذلك بقوله ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَبَرَّضِيَ﴾ [النجم: ٢٦].

وعند الوقوف على نصوص الشريعة في هذا الباب، ندرك أن الكفر اعتقادات وأقوال وأفعال؛ حكم الشارع بأنها تناقض الإيمان، فإذا كان الإيمان قولاً وعملاً؛ فكذلك الكفر يكون قولاً وعملاً.

وبيان ذلك^(١): أن الكفر قد يكون تكديماً في القلب، وهذا قليل بالنسبة لما سواه من المكفرات، وتعليل قلته كما ذكر ابن القيم: أن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة.^(٢)

وقد يكون الكفر عملاً قلبياً، فإن الأعمال القلبية كالحب والتوكل والخوف... لا بد منها في الإيمان، فلو صدق الله ورسوله، ولم يكن محباً لهما، لم يكن مؤمناً، وكذا لو كان مبغضاً لله ورسوله؛ وهو مصدق لما جاء عنهما، فهو كافر لبغضه لله ولرسوله ﷺ.

قال ابن تيمية: "فإن من صدق الرسول ﷺ، وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه؛ فهو كافر قطعاً بالضرورة".^(٣)

وقد يكون الكفر عملاً ظاهراً، كالإعراض عن دين الله تعالى، فقد حكّم الله تعالى بكفر

(١) تنبيه: لست هنا بصدد جمع أو حصر ما ورد في الشرع أنه كفر، فذاك مع أهميته؛ ليس من مفردات هذا البحث، ولو سلكت ذلك في كل مبحث لتشعب الحديث، غير أن المراد ذكر أنواع الكفر الرئيسة التي يندرج تحتها سائر المكفرات.

(٢) انظر: مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية ١/٣٣٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٧/٥٥٦.

المتنع عن طاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ، إذ إن الطاعة ليست مجرد التصديق، قال تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۗ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

قال ابن كثير: "دلت الآية على أن مخالفة الرسول ﷺ في الطريقة؛ كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادّعى وزعم في نفسه أنه محبٌ لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين".^(١)

وقد يكون الكفر قولاً باللسان، وإن كان القلب مصدقاً، أو غير معتقد بهذا الكفر القولي، ولذلك أمثلة، كسب الله تعالى، أو سب رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً، سواء كان السابُّ يعتقد أن ذلك محرّم؛ أو كان مستحلاً له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة، القائلين بأن الإيمان قول وعمل".^(٢)

ويدل لذلك قوله في شأن المنافقين ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْنَدُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. فأخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم، مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له؛ بل كنا نخوض ونلعب، ويبيّن أن الاستهزاء بآيات الله كفرٌ، ولا يكون هذا إلا من شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه؛ منعه أن يتكلم بهذا الكلام".^(٣)

ومن خلال ما سبق، ندرك أنه كما أن للإيمان شعباً ومراتب، فكذلك الكفر ليس شعبة واحدة - وهي التكذيب الاعتقادي، كما هو عند المرجئة^(٤) - بل هو شعبٌ متعددة، ومراتب متفاوتة، فمنه ما يُخرج من الملة؛ ومنه ما لا يخرج من الملة، فإنه يمكن أن يجتمع في الرجل كفر - غير ناقلٍ من الملة - وإيمان.

وهذا أصل عظيم عند أهل السنة، خالفهم فيه أهل البدع، مع أن نصوص الكتاب والسنة والإجماع؛ أدلة ظاهرة على هذا الأصل.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧٧/١.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية ٥١٣/١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢٠/٧.

(٤) المرجئة؛ فرقة تأخذ بنصوص الوعد والرجاء، وتؤخر العمل عن مسمى الإيمان، وهم أصناف متعددة.

انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري: ٢١٣/١، والملل والنحل للشهرستاني ١٣٩/١.

وعليه، فلا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر بالعبد؛ أن يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان؛ يصير مؤمناً، حتى يقوم به أصل الإيمان.^(١)

ولئن عُنيت نصوص الشرع ببيان الشرك الأكبر، فإنها كذلك أبرزت خطورة الشرك الأصغر، فجاء التحذير منه، صيانةً للعقيدة، وحمايةً للتوحيد، فلربما جرّ صاحبه إلى الشرك الأكبر، قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه: "الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء، في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان، فإن هذا كله به شرك".^(٢)

ولأن كانت الآية عامّة في الشرك الأكبر والأصغر، فإن ابن عباس رضي الله عنه نبّه بالأدنى - وهو الشرك الأصغر - لأن هذه الألفاظ تجري على السنة الكثير من الناس؛ إما جهلاً، أو تساهلاً. ومن ذلك؛ شرك المقاصد والنيات، قال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَنَكانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن القيم في معنى الآية: "أي كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرّد بالإلهية؛ يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح؛ هو الخالي من الرياء، المقيد بالسنة".^(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: قال الله تبارك وتعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه".^(٤)

والمقصود، أن المسلم أحوج ما يكون إلى محاسبة نفسه في هذا الباب، وتعاهد نيته، وتصحيح قصده لله رب العالمين.

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ٢٠٨/١.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٢/١، ح (٢٢٩).

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. لابن قيم الجوزية ص ٩١.

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الزهد والرقائق. باب من أشرك في عمله غير الله، ح (٢٩٨٥).

المطلب الثاني: النفاق.

لفظ النفاق مشتق من: "(النافقاء) وهو موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أتى من قبل بابه الظاهر، وهو (القاصعاء)؛ ضرب بابه الخفي - النافقاء - برأسه فانتفق، أي خرج، ومنه اشتقاق النفاق؛ لأن صاحبه يكتُم خلاف ما يظهر فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء".^(١)

وأهل النفاق أشدُّ المفسدين خطراً، وأعظمهم بلاءً وشرّاً؛ ذلك أنهم شاركوا أهل الكفر في كفرهم، وزادوا عليهم حين لبسوا لباس أهل الإسلام، وأبطنوا الكفر والكذب؛ مكرراً بالدين، وخديعةً بالمؤمنين، وكشفاً لعوراتهم، وبتاً لأسرارهم، وأوضاعوا خلالهم ييغونهم الفتنة.

وبلية المسلمين بهم، أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولم يُرد لها هنا حصر العداوة فيهم، وأنه لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من باب إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً، ومخالطتهم إياهم، أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة، ممن بينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشدّ عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة، وألزّم وأدوم، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً، ثم ينقضي، ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلّون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يُمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين الجاهر، فلهذا قيل ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى؛ أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.^(٢)

ولذا فإن النفاق إذا عَظُم؛ كان صاحبه شرّاً من كفار أهل الكتاب، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار، ذلك أن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، قال سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ٤٥].

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/٤٥٥.

(٢) انظر: طريق المحرّتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية ص: ٧١٠.

وكيف لا يكون النفاق فساداً؛ وأساسه الذي بُني عليه؛ هو أنه لا بدّ أن يختلف ظاهره وباطنه، وسريته وعلانيته، ولهذا وصفهم الله بالكذب فقال سبحانه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقال ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فهذا برهان ظاهر على خبثهم وفسادهم.

ومما يدل على فساد أهل النفاق؛ دخولهم في مُسمى الكفر، ذلك أن ما توعّد الله به الكافرين؛ هو حقيقٌ بالمنافقين من باب أولى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن لفظ الكفر إذا ذُكر مفرداً في وعيد الآخرة؛ دخل فيه المنافقون كقوله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقوله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن، فهذه كلها يدخل فيها المنافقون؛ لأنهم في الباطن كفار، ليس معهم من الإيمان شيء، كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر".^(١)

ثم إنه قد جاء اقتران الكفر بالنفاق في مواضع عدّة، كما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسِي مِنْ تَوَارِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتننهم أنفسكم وتربصنهم وارتبتم وعررتكم الأمان حتى جاء أمر الله وعرّكم بالله الغرور ﴿١٤﴾ فالنفاق لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ما وثقكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴿الحديد: ١٣-١٥﴾، وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَبئس المصير ﴿في سورتين [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ﴾ [الحشر: ١١].

وحيث افتتح - سبحانه - سورة البقرة بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، أعقب ذلك بوضع عشرة آية في صفة المنافقين، جاء فيها الخطاب صريحاً بدم المنافقين، وفساد سلوكهم، فقال سبحانه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿البقرة: ١١-١٢﴾.

قال ابن جرير: "وأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في أرض الله".^(١)

وأما بدء ظهور هذا الصنف من المفسدين فإن ذلك حدث بعد هجرة النبي ﷺ، حيث صار الناس ثلاثة أصناف؛ إما مؤمن؛ وإما كافر مظهر للكفر؛ وإما منافق، بخلاف ما كانوا وهو بمكة، فإنه لم يكن هناك منافق، ولهذا لم يكن من المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل المدينة، فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها، فلا يؤمن ويهاجر إلا من وقر الإيمان في قلبه، وليس هناك داع يدعو إلى النفاق، والمدينة آمن بها أهل الشوكة، فصار للمؤمنين بها عزٌّ ومنعة بالأنصار، فمن لم يُظهر الإيمان آذوه، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان، مع أن قلوبهم لم تؤمن.

ولهذا، لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله (ومنهم... ومنهم...) صار يُعرف نفاق ناسٍ منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك، فإن الله جَلَّى فسادهم، ووصفهم بصفات علمها الناس منهم، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم؛ وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوماً عند الجماعة، بخلاف حالهم لما نزل القرآن، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتّموا النفاق، وما بقى يمكنهم من إظهاره أحياناً، ما كان يمكنهم قبل ذلك. ولما قوى الإيمان، وظهرت قوته عام تبوك، صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.^(٢)

ولم يكن المتصفون بالنفاق نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق، ولذا فإن للنفاق شعباً ودعائم، كما أن للإيمان شعباً ودعائم، فهو كالكفر، نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يُقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر

(١) جامع البيان ١/١٥٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧/٢٠١، ٢١٤، ٢٢٣.

لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر.

فأما النفاق الأكبر: فيكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبي وغيره؛ بأن يُظهر تكذيب الرسول ﷺ؛ أو جحود بعض ما جاء به؛ أو بغضه؛ أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه؛ أو المسرة بانخفاض دينه؛ أو المساءة بظهور دينه؛ ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ولرسوله ﷺ، وهذا القدر كان موجوداً في زمن الرسول ﷺ، وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده؛ لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجوداً؛ فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها، كأن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا اتّمن، ويفجر إذا خاصم.

ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان" (١)، وفي رواية "وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم" (٢).
وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر" (٣).

قال النووي: "وهذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مُشكلاً؛ من حيث إنّ هذه الخصال توجد في المسلم المصدّق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدّقاً بقلبه ولسانه، وفعل هذه الخصال؛ لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافقٌ يخلد في النار، فإن إخوة يوسف الكَلْبِئِلَةَ جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كلّها، وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثر - وهو الصحيح المختار - أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يُبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدّثه ووعدّه

(١) أخرجه البخاري. كتاب الشهادات. باب الأمر بإنجاز الوعد. ح (٢٥٣٦)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب بيان خصال المنافق. ح (١٠٧).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. كتاب الإيمان. باب بيان خصال المنافق. ح (١٠٩).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المظالم. باب إذا خاصم فجر. ح (٢٣٢٧)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب خصال المنافق. ح (١٠٦).

وإتتمنه وخاصمه وعاهدَه من الناس، لا أنه منافقٌ في الإسلام، فيظهره وهو يطن الكفر، ولم يُرد النبي ﷺ بهذا أنه منافقٌ نفاق الكفار المخلدِين في الدرك الأسفل من النار، وقوله ﷺ "كان منافقاً خالصاً" معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال.

قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبية عليه؛ فأما من يندر ذلك منه؛ فليس داخلاً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث".^(١)

وعليه؛ فإن هذا النوع فساده أقل ضرراً، وأخف خطراً، فهو لا يخرج من الملة، إلا أن صاحبه يخشى عليه، ولذا خافه الصحابة ﷺ على أنفسهم.

قال ابن رجب: "ولما تقرر عند الصحابة ﷺ أن النفاق هو اختلاف السرِّ والعلانية، خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وحشوعه عند سماع الذكر، برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال؛ أن يكون ذلك منه نفاقاً"^(٢).

كما في حديث حنظلة الأسيدي ﷺ^(٣) أنه قال: لقيني أبو بكر ﷺ فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة؛ حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال ﷺ وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله؛ نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة؛ حتى كأننا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات"^(٤).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٤٦/٢.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٤٣٤/١.

(٣) هو حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح التميمي، أبو ربيعي الأسيدي، المعروف بحنظلة الكاتب، صحابي جليل، شهد القادسية، ونزل الكوفة، وتوفي في خلافة معاوية. انظر: الإصابة ١٣٤/٢.

(٤) رواه مسلم. كتاب التوبة. باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة. ح(٢٧٥٠).

ومن ذلك قول ابن أبي مليكة^(١): "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل".^(٢)

قال ابن حجر^(٣): "والصحابا الذين أدركهم بن أبي مليكة؛ من أجلهم؛ عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة... وقد أدرك جماعة أجل من هؤلاء؛ كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاصؓ، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى ﷺ".^(٤)

ومن نحن عند صدّر القرون المفضّلة؛ حتى نأمن مما خافوه؟! وأثر ابن أبي مليكة - الآنف الذكر - أورده البخاري في باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وعقد - رحمه الله - هذا الباب للردّ على المرجئة؛ القائلين بأن المؤمن يقطع لنفسه بكمال الإيمان، وأنه لا يخاف على نفسه النفاق العملي.

ثم أعقب البخاري ذلك بقوله: وما يُحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلٰٓى مَا فَعَلُوْا وَهُمْ يَٰعْلَمُوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فمراده: أن الإصرار على المعاصي، وشعب النفاق، من غير توبة، يُخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية؛ وبالوصول إلى النفاق الخالص، وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي يريد الكفر.^(٥)

فحريٌّ بالمسلم أن يتأمل ذلك دائماً، فيخاف الوقوع في النفاق؛ فيهلك.

(١) عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، بالتصغير، أبو بكر القرشي التيمي الحجة الحافظ، ولد في خلافة عليؓ أو قبلها، وكان عالماً مفتياً صاحب حديث وإتقان، وثقه أبو زرعة وأبو حاتم. ت: ١١٧هـ، انظر: طبقات ابن سعد ٨٨/٥، تذكرة الحفاظ ١/١٠١.

(٢) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب الإيمان. باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ٢٦/١

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناي العسقلاني، محدث، مؤرخ، أديب، شاعر، عاش بمصر، له تصانيف نافعة، توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: شذرات الذهب ٧/٢٧٠، والبدر الطالع ١/٨٧.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ١/١١١.

(٥) انظر: فتح الباري لابن رجب ١/١٧٧.

المطلب الثالث: السحر.

السَّحْرُ في لغة العرب: كل ما لَطْفَ مأخذه ودقِّ، وأصل السَّحْر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وسَحَرَهُ بمعنى خَدَعَهُ.^(١)

أما تعريفه اصطلاحاً؛ فإن السحر أنواع متعددة؛ ولذا لا يمكن حدّه بحدٍّ يميزه عن غيره. قال الشنقيطي: "اعلم أن السحر في الاصطلاح، لا يمكن حدّه بحدٍّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعاً لها مانعاً لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدّه اختلافاً متبايناً".^(٢)

ومن تلك التعريفات؛ ما ذكره ابن قدامة: "بأنه عَقْدٌ ورُقَى وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له، وله حقيقة؛ فمنه ما يقتل؛ وما يمرض؛ وما يأخذ الرجل عن امرأته، فيمنعه وطأها؛ ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه؛ وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يُحبِّب بين اثنين".^(٣)

"وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكر ذلك، ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، لا حقائق لها. وقد ذكره الله تعالى في كتابه وذكر أنه مما يُتعلَّم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرِّق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له".^(٤)

وقد دل على تحريمه الكتاب والسنة والإجماع^(٥)، غير أن أقوال العلماء اختلفت في مسألة كفر الساحر.

قال الشنقيطي: "اختلف العلماء فيمن يتعلَّم السحر ويستعمله، فقال بعضهم: إنه يكفر بذلك، وهو قول جمهور العلماء، منهم: مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم. وعن أحمد ما يقتضى عدم كفره.

وعن الشافعي أنه إذا تعلم السحر قيل له: صف لنا سحرك؟ فإن وصف ما يستوجب الكفر؛

(١) انظر: لسان العرب. مادة (سحر) ٣٤٨/٤، مختار الصحاح. ص ٢٨٨.

(٢) أضواء البيان ٤١/٤.

(٣) المغني لابن قدامة. ١٠٤/١٠.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧٤/١٤.

(٥) سيأتي بيان ذلك في ثنايا هذا المطلب.

مثل سحر أهل بابل^(١)؛ من التقرب للكواكب، وأنها تفعل ما يُطلب منها؛ فهو كافر. وإن كان لا يوجب الكفر؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافر، وإلا فلا، وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة معروفة".

ثم قال: "والتحقيق في هذه المسألة، هو التفصيل؛ فإن كان السحر مما يُعظم فيه غير الله، كالكواكب والجن وغير ذلك، مما يؤدي إلى الكفر، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور في سورة البقرة؛ فإنه كفر بلا نزاع، كما دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وقوله ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وإن كان السحر لا يقتضي الكفر؛ كالأستعانة بخواص بعض الأشياء؛ من دهانات وغيرها، فهو حرام حُرمة شديدة، ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر.

هذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى في هذه المسألة التي اختلف فيها العلماء^(٢). ولالإمام النووي عبارة جامعة في حكم السحر، حيث قال: "قد يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً؛ بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر؛ كفر، وإلا فلا. وأما تعلمه وتعليمه فحرام، فإن تضمن ما يقتضي الكفر؛ كفر، وإلا فلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عُزِّر واستتيب منه"^(٣).

ولا ريب أن السحر من أعظم أنواع الفساد، لعدة دلالات منها:

١/ قوله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فظاهر الآية؛ أنهم كفروا بتعليم السحر، ولا يُكفر بتعليم الشيء؛ إلا وذلك الشيء كفر، فإن ترتيب الحكم على الوصف؛ يشعر بعليته^(٤).

(١) وهو المشار إليه في قوله تعالى ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

وبابل: بكسر الباء، اسم ناحية منها الكوفة والحلّة، على بُعد أميال من ملتقى الفرات ودجلة.

انظر: معجم البلدان ١/٣٠٩.

(٢) أضواء البيان ٤/٥٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٢/٤١، فتح الباري لابن حجر ١٠/٢٢٥.

قال القرطبي في بيان معنى الآية: "إن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بيا بل هاروت وماروت، فهاروت وماروت؛ بدل من الشياطين في قوله ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ هذا أولى ما حُملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها".^(١)

٢/ قوله تعالى ﴿وَيَنعَلَمُونَ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]. أي: ما له من حظٍ ولا نصيب.

ومثل هذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة، وكفى بدخول الجنة خللاً، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.^(٢)

٣/ قوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣]. قال ابن كثير: "استدل به من ذهب إلى تكفير الساحر".^(٣)

وقال حافظ الحكمي^(٤): "وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر، ونفي الإيمان عنه بالكلية، فإنه لا يقال للمؤمن المتقي: ولو أنه آمن واتقى، إنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر، وعمل بالسحر وأتبعه، وخاصم به رسوله، ورمى به نبيه ﷺ، ونبد الكتاب وراء ظهره، وهذا ظاهر لا غبار عليه، والله أعلم".^(٥)

٤/ قوله جل شأنه ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

قال الشنقيطي: "نفى جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك؛ بالتعميم في الأمكنة بقوله ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ وذلك دليل على كفره، لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفيًا عامًا؛ إلا عمن لا خير

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/٥٠.

(٢) انظر: أضواء البيان ٤/٣٩، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول ٢/٥٥٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/١٩٩.

(٤) حافظ بن أحمد الحكمي، من علماء جزيرة العرب في هذا العصر، نشأ في منطقة حازان، واشتغل بالعلم بتوجيه من الشيخ عبد الله القرعاوي، اشتغل بالتدريس وصنّف مؤلفات جمّة، توفي بمكة سنة ١٣٧٧هـ.

انظر: ترجمته في مقدمة كتابه معارج القبول، الأعلام ٢/١٥٩،

(٥) معارج القبول ٢/٥٥٤.

فيه، وهو الكافر، ويدل على ما ذكرنا أمران؛ الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر...

والأمر الثاني: أنه عُرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة (لَا يُفْلِحُ) يُراد بها الكافر،

كقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ٦٩-٧٠]. وقوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: ٢١].^(١)

٥/ ما ورد في مآثور السنة من اقتران السحر بالشرك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر..."^(٢)

وفي بعض الأحاديث سُمِّيَ السحر شركاً، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الرقى والتائم والتولة شرك"^(٣)، والتولة: نوع من السحر يجب المرأة إلى زوجها.^(٤)

وعنه صلى الله عليه وسلم قال: "من أتى ساحراً أو كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم".^(٥)

٦/ أن الصحابة رضي الله عنهم أمروا بقتل السحرة، ومن المعلوم أنه لا يُستباح دم امرئ مسلم؛ إلا بدليل شرعي.

قال ابن تيمية: "وقد عُلِمَ أن السحر محرّم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة، بل أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله، وقد ثبت قتل الساحر عن عمر وعثمان وحفصة

(١) أضواء البيان ٣٩/٤.

(٢) رواه البخاري. كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة. باب: رمي الحصنات. ح(٦٤٦٥). ومسلم. كتاب الإيمان. باب: بيان الكبائر وأعظمها. ح(١٤٥).

(٣) رواه أحمد ٣٨١/١ ح(٣٦١٥)، وأبو داود. كتاب الطب. باب في تعليق التائم. ح(٣٨٨٣)، وابن ماجه. كتاب الطب. باب تعليق التائم. ح(٣٥٣٠). والحاكم. كتاب الرقى والتائم. ٤/٤٦٣، ح(٨٢٩٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين. وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة: ٦٤٨/١).

(٤) فتح الباري لابن حجر ١٠/١٩٦.

(٥) رواه البيهقي في السنن. كتاب القسامة. باب تكفير الساحر وقتله. ح(١٦٢٧٤)، وقال ابن كثير: هذا إسناد صحيح وله شواهد أخر(١/١٩٩)، وقال ابن حجر في الفتح: سنده جيد ومثله لا يقال بالرأي. (١٠/٢١٧).

بنت عمر وابن عمر وجندب بن عبدالله رضي الله عنه.^(١)

ومن تلك الآثار؛ ما جاء عن بَجَالَةَ بن عَبْدَةَ^(٢) أنه قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن

اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر.^(٣)

قال ابن عثيمين^(٤): "والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية، لأنهم يسعون في الأرض فساداً،

وفسادهم أعظم الفساد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛

لأن مثل هؤلاء إذا تُركوا وشأنهم؛ انتشر فسادهم في أرضهم، وفي أرض غيرهم، وإذا قُتلوا؛

سَلِمَ الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر".^(٥)

٧/ أن السحر الذي يعدُّ كفراً يتضمن أنواعاً من المكفّرات الاعتقادية؛ القولية والعملية، كأن

يعتقد نفع الشياطين وضررهم بغير إذن الله تعالى، أو يعتقد أن الكواكب مدبرة للعالم، أو

ينطق بكلمة الكفر؛ كسب الله تعالى، أو الاستهزاء برسوله صلى الله عليه وسلم، كما أنه يتضمن شركاً في

توحيد العبادة، فمن ذلك أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، أو يستعبد

بالشياطين، أو يذبح لهم، أو يتقرب إليهم بالندور.^(٦)

قال السعدي: "السحر يدخل في الشرك من جهتين: من جهة ما فيه من استخدام الشياطين

ومن التعلّق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبّون؛ ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من

دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك

من شعب الشرك والكفر".^(٧)

إذا تبين ذلك؛ فإن من الأهمية بمكان؛ بيان ما يندرج في مسمّى السحر وما يلحق به:

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٤/٢٩.

(٢) بجالة بن عبدة التميمي العنبري البصري، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وكان كاتباً لجزء (ويقال: جزى) بن معاوية - عم

الأحنف بن قيس - في خلافة عمر رضي الله عنه. انظر: الإصابة ٣٣٩/١، تهذيب التهذيب ١/٣٦٥.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف. كتاب أهل الكتاب. باب لا يهود مولود ولا ينصر. ح (٩٩٧٢)، وأحمد ١/١٩٠ ح (١٦٥٧)،

والبيهقي في السنن. كتاب القسامة. باب تكفير الساحر وقتله. ح (١٦٢٧٥)، وابن حزم في المحلى وصححه ١١/٣٩٧

(٤) محمد بن صالح العثيمين، من علماء نجد المعاصرين، ولد بعينزة سنة ١٣٤٧هـ، اشتغل بالتدريس واشتهر بالفقه

والفتيا، له مصنفات عديدة، توفي سنة ١٤٢٢هـ، ودفن بمكة.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ٣١/٢.

(٦) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبدالعزيز عبداللطيف ص ٥١٤.

(٧) القول السديد في مقاصد التوحيد. ص ٧٤.

فمن ذلك التنجيم: وهو أحد أقسام الكهانة، ولذا يسمى المنجم كاهناً. والكهانة: بفتح الكاف، ويجوز كسرهما؛ ادعاء علم الغيب؛ كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجنّي السمع من كلام الملائكة، فيُلقيه في أذن الكاهن. (١)

والتنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، بمعنى أن المنجم يربط ما يقع في الأرض بالنجوم بحركاتها وطلوعها وغروبها، فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني؛ على أنه سيحدث كذا وكذا، ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم؛ بأنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر؛ على أنه سيكون شقيماً، فيستدلون بأحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، ولا ريب أن الحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، ولكن ليس للنجوم بها علاقة.

ولذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني (٢) أنه قال: "صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب". (٣)

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا بالرياح، ومنه نأخذ خطأ بعض العوام الذين يقولون: إذا هبت الرياح؛ طلع النجم الفلاني، ولا ريب أن بعض الأوقات والفصول، يكون فيها رياح ومطر، فهي ظرف لها، وليست سبباً للرياح أو المطر.

وعليه فإن نسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. نسبة إيجاد، وهذا شرك أكبر.

٢. نسبة سبب، وهذا شرك أصغر.

(١) انظر: مجموع الفتاوى ١٧٢/٣٥.

(٢) هو زيد بن خالد الجهني، أبو عبد الرحمن ويقال: أبو طلحة، المدني، صحابي مشهور، توفي / ٦٨ أو ٧٨ بالكوفة. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٤٤/٤.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الاستسقاء. باب قول الله تعالى {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} ح (٩٩١)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء. ح (١٢٥).

٣. نسبة وقت، وهذا جائز بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا، أي: جاءنا المطر في هذا النوء، أي: في وقته. والأولى التعبير بـ(في) الدالة على الظرفية، فيقول: مطرنا في نوء كذا.

وقد ذكر أهل العلم أن علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يُستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وهذا النوع محرم، كما دلّ حديث زيد بن خالد الأنف الذكر، ولقوله ﷺ: "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"^(١).

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة، يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة، من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسْبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]، فلما ذكر الله تعالى العلامات الأرضية؛ انتقل على العلامات السماوية فقال ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَا لَتَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].^(٢)

ومما يلحق بالسحر: العيافة، والطرق، والطيرة، لما جاء في قوله ﷺ "العيافة والطيرة والطرق من الجبت"^(٣)، والجبت هو السحر عند جمع من أهل العلم، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].
فقد أخرج الطبري بسنده عن عمر رضي الله عنه قوله: "الجبت السحر، والطاغوت الشيطان"^(٤).

(١) أخرجه أحمد في ٣١١/١ ح (٢٨٤١)، وأبو داود. كتاب الطب. باب في النجوم. ح (٣٩٠٥)، وابن ماجه. كتاب الأدب. باب تعلم النجوم. ح (٣٧٢٦). والبيهقي في السنن. كتاب القسامه. باب ما جاء في كراهية اقتباس علم النجوم. ح (١٦٢٩٠).
وصححه النووي في رياض الصالحين ح (١٦٧٣)، والألباني في صحيح الجامع الصغير ١/١١٠٢.

(٢) انظر: القول المفيد لابن عثيمين ٤٤/٢.

(٣) أخرجه أحمد ٤٧٧/٣ ح (١٥٩٥٦)، وأبو داود. كتاب الطب. باب في الخط وزجر الطير. ح (٣٩٠٧)، والنسائي في الكبرى. كتاب التفسير. سورة النساء. ح (١١١٠٨)، والبيهقي في السنن. كتاب القسامه. باب العيافة والطيرة والطرق ح (١٦٢٩٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار. كتاب الكراهه. باب الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا. ح (٦٥٨٠). وحسن إسناده النووي في رياض الصالحين ح (١٦٧٢)، وكذا ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٩٢/٣٥.

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً. كتاب التفسير ٤/١٦٧٣، وابن جرير موصولاً في التفسير ٣/١٥، وقال ابن حجر "إسناده قوي". انظر: الفتح ٨/٢٥٢.

والمقصود بالعيافة: زجر الطير، والتفأول بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب كثيراً، وهو كثير في أشعارهم.^(١)

وأما الطرق: فهو الضرب بالحصى، وهو ضرب من التكهّن، وقيل: هو الخطّ في الرمل^(٢)، ويُسمّى علم الرمل؛ حيث يستدلون بأشكال الرمل؛ على أحوال المسألة حين السؤال.

والطيرة: هي التشاؤم بمرئياً أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم؛ مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرى ولا يُسمع؛ كالتطير بالزمان. وإنما أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعُلقت به.^(٣) ووجه كون هذه الأمور سحراً: لما فيها من دعوى علم الغيب، ومنازعة الله في ربوبيته، فإن علم الغيب؛ من صفات الربوبية التي أستاذت الله تعالى بها دون من سواه، إضافةً أن بعضهم يعتقد أن هذه الأشياء تنفع أو تضر، بغير إذن الله تعالى.

(١) انظر: لسان العرب ٢٦٠/٩ مادة (عيف)، والنهية في غريب الحديث. لابن الأثير ٦٢٢/٣.

(٢) انظر: لسان العرب ٢١٥/١٠ مادة (طرق).

(٣) انظر: عمدة القاري للعبسي ٢٧٣/٢١، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٧٦٦/٣، القول المفيد لابن عثيمين ٣٩/٢.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

البدعة في اللغة: "يقال بدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه أنشأه وبدأه، والبدعة الحدت وما ابتدع من الدين بعد الإكمال، وأبدع وابتدع وتبدع؛ أتى ببدعة، قال تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، وبدعه نسبه إلى البدعة".^(١)

وأصل مادة (بدع) للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي مخترعها من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة؛ يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق.

والبدعة في الشرع؛ خلاف السنة، وهي كما عرفها شيخ الإسلام بقوله: "البدعة في الدين؛ هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به، أمر إيجاب ولا استحباب"^(٢).

وقال رحمه الله: "والبدعة ما خالفت الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، من الاعتقادات والعبادات؛ كأقوال الخوارج"^(٣) والروافض^(٤) والجهمية^(٥)؛ وكالذين يتعبدون بالرقص والغناء في المساجد؛ والذين يتعبدون بخلق اللحى؛ وأكل الحشيشة؛ وأنواع ذلك من البدع التي يتعبد بها طوائف من المخالفين للكتاب والسنة"^(٦).

وقيل: طريقة في الدين مخترعة؛ تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.^(٧)

(١) لسان العرب ٦/٨. مادة (بدع).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠٧/٤.

(٣) الخوارج: أول فرق هذه الأمة ظهوراً، يكفرون أصحاب الكباير، ويتبرأون من بعض الصحابة، ويجوزون الخروج على الأئمة، وهم فرق متعددة، المحكّمة، والأزارقة، والإباضية. انظر: مقالات الإسلاميين ٢١٣/١، والملل والنحل للشهرستاني ١٣٩/١.

(٤) الرافضة: من أكبر فرق الشيعة، يقولون بإمامة علي عليه السلام بعد وفاة النبي ﷺ، وجعلوا الإمامة أسمى المطالب وأعلى منازل الدين. انظر: مقالات الإسلاميين ٨٨/١، والملل والنحل ١٦٢/١.

(٥) الجهمية: هم اتباع الجهم بن صفوان السمرقندي المقتول سنة ١٢٨هـ، يعطّلون الصفات، ويقولون بفناء النار، جبرية في القدر، مرجئة في الإيمان. انظر: مقالات الإسلاميين ٣٨٨/١، والملل والنحل ٨٦/١.

(٦) مجموع الفتاوى ٣٤٦/١٨.

(٧) انظر: الاعتصام للشاطبي ٣٧/١.

وقيل في تعريفها: "هي ما أحدث في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه، من عقيدة أو عمل".^(١)

ومن المعلوم من الدين بالضرورة؛ أن الله تعالى خلق الناس لعبادته، وكما أنه لم يخلقهم عبثاً؛ فكذلك لم يتركهم هملاً، بل علمهم ودلهم على الطريق الموصل إليه، وجعلها طريقاً واحدة، دليلها الكتاب وبإمها الرسول ﷺ، فمن أراد سلوك الطريق من غير دليل تاه، ومن أراد الولوج من غير باب الرسالة؛ وبدون مفتاح النبوة؛ فقد ضيَّع دنياه وأخراه.

ولهذا جاء الأمر الحتمي الملزم؛ بالاعتصام بالوحي المتزل؛ لكونه الصراط المستقيم الموصل، وجاء النهي الشديد المحتم؛ بترك ما سوى قصد السبيل، ونبتد الجائر المجاني للدليل.^(٢)

وسأذكر هنا بعض الأدلة في التحذير من البدع وبيان فسادها:

فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ "قال: البدع والشبهات"^(٣). ويؤيد ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: "خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، قال: ثم خطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السُّبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾"^(٤).

فالصراط المستقيم الذي أمر الله به هو سبيله، والسُّبُل الأخرى التي نهى الله عنها هي البدع.

ومما جاء في التحذير من البدع، قوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن كثير: "أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على

(١) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين. ص: ٢٣.

(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها، د. سعيد الغامدي، ص ٦٧.

(٣) جامع البيان ٣٩٦/٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤٦٥/١، والحاكم. كتاب التفسير ٢٦١/٢، ح (٢٩٣٨) وصححه، والنسائي في الكبرى.

كتاب التفسير ٣٤٣/٦، ح (١١١٧٥).

قائله وفاعله، كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" (١).

أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم؛ من كفر أو نفاق أو بدعة" (٢).

وقد أخبر - سبحانه - أن الذين يتبعون المتشابه؛ هم أهل الزيغ والفتنة، وهم أهل الأهواء والبدع، فقال جل ذكره ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فقد جاء تفسيرها عن النبي ﷺ - فيما رواه عائشة رضي الله عنها - حين تلا هذه الآية فقال: "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم" (٣).

وكذلك فسرها ابن عباس رضي الله عنهما كما روى الأجرى (٤) بسنده، أنه ذكر لابن عباس رضي الله عنهما الخوارج، وما يصيبهم عند قراءة القرآن؟ فقال: يؤمنون بمحكمه، ويضلون عند متشابهه، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: آمنا به. (٥)

وقد نهي - سبحانه - هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة، من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءهم البينات، فقال ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿[آل عمران: ١٠٥-١٠٦].

ففي الآية وعيد بالعذاب للمختلفين المتفرقين، وبيان لحالهم.

وقد ورد ما يفسرها من كلام المصطفى ﷺ، حيث قال: "إن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - وكلها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة، وقال: إنه سيخرج من أمي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما

(١) أخرجه البخاري تعليقاً. كتاب الاعتصام بالسنة. باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، ومسلم. كتاب الأفضية. باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور. ح (١٧١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٨.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب التفسير. ح (٤٢٧٣)، ومسلم. كتاب العلم. باب النهي عن اتباع متشابه القرآن. ح (٢٦٦٥).

(٤) محمد بن الحسين، أبو بكر البغدادي، الإمام المحدث القدوة، كان صدوقاً عابداً، صاحب سنة، له مؤلفات،

توفي بمكة سنة ٣٦٠هـ. انظر: تاريخ بغداد ٢/٢٤٣، سير أعلام النبلاء ١٦/١٣٣.

(٥) الشريعة للأجرى. ص: ٣٧.

يتجارى الكلب بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل؛ إلا دخله.."^(١)

وقد فسّر ابن عباس رضي الله عنه قوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ بقوله: فأما الذين أبيضت وجوههم؛ فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودّت وجوههم؛ فأهل البدع والضلالة.^(٢)

ولما رأى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه رؤوس الخوارج منصوبة على درج مسجد دمشق، قال: "كلاب النار (ثلاثاً)، شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه"، ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية، قلت - القائل أبو غالب^(٣) راوي الحديث - لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، حتى عدّ سبعاً، ما حدثتكموه.^(٤)

وقال سبحانه - محذراً من مخالفة السنة - ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

أي؛ ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فصار في شقٍ، والشرع في شقٍ، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له...

وقوله ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق؛ جازيناه على ذلك؛ بأن نحسنها في صدره، ونزينها له؛ استدراجاً له.

وجعل النار مصيره في الآخرة؛ لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة.^(٥)

(١) أخرجه أحمد ٤/١٠٢، وأبو داود. كتاب السنة. باب شرح السنة. ح (٤٥٩٧)، والحاكم. كتاب العلم ٢١٨/١. ح (٤٤٣)، والطبراني في الكبير ١٩/٣٧٦. ح (٨٨٤). واللالكائي ١/١٠٢. ح (١٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/١٢.

(٢) شرح أصول أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة واجماع الصحابة للالكائي ١/٧٢. ح (٧٤).

(٣) قيل اسمه حزور بفتح الحاء والزاي، وقيل: سعيد بن الحزور، صاحب أبي أمامة رضي الله عنه، بصري نزل أصبهان. قال ابن حجر: صدوق يخطيء. انظر: تهذيب التهذيب ١٢/١٩٧، التاريخ الكبير ٣/١٣٤.

(٤) أخرجه أحمد ٥/٢٥٣، والترمذي في تفسير القرآن. ٥/٢٢٦. ح (٣٠٠٠)، وابن ماجه في المقدمة. باب في ذكر الخوارج. ١/٦٢. ح (١٧٦)، والحاكم. كتاب قتال أهل البغي. ح (٢٦٥٤). والطبراني في الكبير ٨/٢٧٣. ح (٨٠٥١) وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٦/٣٥٠)، وحسنه الألباني (مشكاة المصابيح ٢/٣٠٨).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٧٣٦.

قال الآجري: "فكل من ردَّ سنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه، فهو ممن شاقق الرسول وعصاه، وعصى الله عز وجل؛ بتركه قبول السنن، ولو عقل هذا الملحد وأنصف من نفسه؛ علم أن أحكام الله عز وجل، وجميع ما تعبد به خلقه؛ إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، وقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يبين لخلق ما أنزله عليه مما تعبدهم به، فقال جل ذكره ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]."

فقد بين ﷺ لأمته جميع ما فرض عليهم من جميع الأحكام، وبين لهم أمر الدنيا وأمر الآخرة، وجميع ما ينبغي أن يؤمنوا به، ولم يدعهم جهلة لا يعلمون".^(١)

ومن بيانه ﷺ؛ ما أخبر به من وقوع الاختلاف المجافي لسنته ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، كما روى العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة".^(٢)

قال ابن رجب^(٣): هذا تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وقوله "كل بدعة ضلالة" من جوامع الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد"^(٤)، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

(١) الشريعة للآجري ٣٤٠/١.

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب السنة. باب في لزوم السنة. ح(٤٦٠٧)، والطبراني في الكبير ٢٤٥/١٨، ح(٦١٧). وصححه الألباني (صحيح الترغيب ١/١٠). وأخرج نحوه أحمد ١٢٦/٤. ح(١٧١٨٢)، والترمذي. كتاب العلم. باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع. ح(٢٦٧٦). وابن ماجه في المقدمة ح(٤٣).

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، حافظ فقيه متقن، ولد ببغداد وقدم إلى دمشق، له مصنفات نفيسة، توفي سنة ٧٩٥هـ، انظر: الدرر الكامنة ٤٢٩/٢، طبقات المفسرين للداودي ٣٥٣/١.

(٤) سبق تحريجه في صفحة (٦٣)

وأما ما وقع في كلام السلف من استعمال للفظ البدعة، فإنما ذلك يحمل على الحقيقة اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك، فقال: نعمت البدعة^(١). أ.هـ^(٢) وعليه؛ فلفظ (المحدث) و(البدعة) لا يُدْمَنُ لمجرد الاسم؛ بل لمعنى المخالفة للسنة والداعي إلى الضلالة، ولا يُدْمَنُ ذلك مطلقاً، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مَن أَلْحَمَّنِ مُحَمَّدٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].^(٣)

قال ابن تيمية: "إنما سُمِّاه بدعة لأن ما فعل ابتداءً بدعة في اللغة، وليس ذلك بدعة شرعية، فإن البدعة الشرعية التي هي ضلالة؛ ما فُعلَ بغير دليل شرعي، كاستحباب ما لم يحبه الله؛ وإيجاب ما لم يوجبه الله؛ وتحريم ما لم يحرمه الله".^(٤)

ويجدر التنبيه هنا إلى أن تقسيم البدعة - بمعناها الشرعي - إلى حسنة وسيئة ليس بصواب البتة، فذلك مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم "وكل بدعة ضلالة"، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تكون البدعة إلا مذمومة. ثم إن التحسين والتقبيح من الشارع الحكيم دون غيره، فهو الذي يجب أن ينصَّ على أن هذا الأمر أو ذلك؛ حسنٌ أو قبيح، ولو فُتِحَ الباب للناس في تقبيح أو تحسين ما شاءوا، فإن الجناية على الشريعة ستكون عظيمة؛ وحينئذ لا تسأل عن ضياع الدين، واختلاف الناس فيه، وذلك ما يسعى أعداء الملة إليه.

وما جاء عن بعض أهل العلم من تقسيم للبدعة، وذكر جريان أحكام التكليف الخمسة عليها^(٥)، فإن مرادهم من ذلك البدعة بمعناها اللغوي. والأجدر العدول عن ذلك كي لا يختلط الأمر على الناس.

ولو لم يكن من البدع؛ إلا أن فيها سوء أدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، لكفى بذلك فساداً وانحرافاً؛ ذلك أن المبتدع لم يسعه اتباع الشرع حين تعبد لله بما لم يأذن به.

(١) أخرجه مالك في الموطأ ١/٣٥٥ ح (٢٤١)، والطبراني في الكبير ١٢/٤٢٤ ح (١٣٥٦٣).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم. ص: ٢٦٦.

(٣) انظر: شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد. ص: ٧٣.

(٤) منهاج السنة النبوية ٨/٣٠٨.

(٥) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. للعز بن عبد السلام ١٧٢/٢ - ١٧٣.

وسواء كان انتحال البدعة عن حُسن قصد، أو عن سوء قصد، فإن الكلَّ مخطئ، لأن البدع لم تُرد في الشرع إلا على وجه الذمِّ، حتى قال بعض السلف: البدع بريد الكفر. فالبدعة شرٌّ من المعصية، ذلك لأن المبتدع يعتقد أنه على صواب، حتى إنه قد يسأل ربه الثبات على بدعته، أما العاصي فهو معترف بخطيئته ويسأل ربه السلامة والمغفرة عما اقترفه من الذنب.

وإذا تأملنا تاريخ البدع؛ ازددنا يقيناً في فسادها، فإن زمن النبوة والخلافة الراشدة لم تشهد البدعة فيه رواجاً، ولم تحقق تأييداً، وذلك لتمكّن الإيمان وتحقيق الاتّباع، كيف لا؟ وهم صدر القرون المفضّلة.

غير أنه كان لها إرهاصات في حوادث متباينة، كان أولها حادثة ذي الخويصرة^(١)، حين أتى إلى الرسول ﷺ، فقال يا رسول الله: اعدل، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت^(٢) وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: دعه؛ فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...^(٣)

ففي الحديث عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ؛ بما سيؤول إليه الأمر من الخروج على جادة الصواب، فكان ذلك؛ حين قاتل هذا الرجل مع الخوارج زمن الفتنة^(٤).

ومن حينٍ لآخر كانت هناك محاولات لإذكاء البدعة ونشرها، من طرف المنافقين، وبعض اليهود، غير إنها كانت توأد في مهدها، وعامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات، إنما وقع في الأمة في أواخر الخلفاء الراشدين^(٥)، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: "من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي"^(٦).

(١) رحل من بني تميم، اسمه حرقوص بن زهير، ووقع في موضع آخر في الصحيح أنه عبد الله بن ذي الخويصرة، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري ٢٩٤/١

(٢) قوله (قد خبت) بلفظ المتكلم وبالخطاب، أي: خبت أنت؛ لكونك تابعاً ومقتدياً لمن لا يعدل، والفتح أشهر وأوجه. انظر: عمدة القاري للعيني ١٤٣/١٦. شرح صحيح مسلم للنووي ١٥٩/٧.

(٣) أخرجه البخاري. المناقب. باب علامات النبوة، ح (٣٤١٤)، ومسلم. الزكاة. باب ذكر الخوارج. ح (١٠٦٤).

(٤) انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢٥٦/٥.

(٥) مجموع الفتاوى ٣٥٤/١٠.

(٦) سبق تخريجه ص ٦٥.

ففي زمن الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، اتسعت بلاد الإسلام بفضل ما من الله به من كثرة الفتوحات، واتصل المسلمون بغيرهم من الأمم، وعندها بدأ رؤوس الضلال ومروجي البدع فتجرؤوا على إفشاء ما كانوا يظنون من حقد على الإسلام، فكانت بليّة الإسلام بهم عظيمة.

وكان من أولئك: عبدالله بن سبأ اليهودي، حيث اندس بين صفوف المسلمين، بعد أن ادّعى الإسلام زمن عثمان رضي الله عنه، وأخذ ينتقل من بلد لآخر، حتى استقر بمصر، وأخذ هناك يدعو إلى بدعة جديدة، وهي: أن النبي صلى الله عليه وسلم سيرجع؛ كما أن عيسى عليه السلام سيرجع آخر الزمان، وزعم - أيضاً - أن علياً رضي الله عنه وصيُّ الرسول صلى الله عليه وسلم، اعتماداً - بزعمه - أن لكل نبي وصيٍّ. ولقد كان السبئيون من أنصاره هم المتآمرون على قتل عثمان رضي الله عنه، الوالغون في دماء المسلمين.

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه بدأت تظهر البدع وتنشأ الفرق، فظهر الخوارج القائلين بتكفير عثمان وعلي رضي الله عنهما، وتكفير أصحاب الجمل، وتكفير مرتكب الكبيرة. وظهر الشيعة؛ فقالوا بعصمة الإمام... وغيرها من البدع والأهواء، والتي أخذت تتوالى بظهور الفرق الكثيرة، وانقسام كل فرقة على نفسها، تدعو إلى بدعها الضالة.

وما زالت البدع تتوالى على مرّ العصور والدهور، حتى آل الأمر في زماننا إلى بدع ومحدثات، ضربت بأطنابها مشارق بلاد الإسلام ومغاربها، حتى انقلب الحال في بعض بلاد المسلمين؛ فأصبحت السنة بدعة، والبدعة سنة، وآل الأمر لبعض المتنفذين والسلطين؛ فحاربوا السنة وأهلها، ورفّعوا لواء البدعة، حتى صار الحلُّ والعقد لأهل البدع، وأصبح أهل السنة كالغرباء بين المخالفين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا كلّما امتد الزمان، وبُعد الناس عن آثار الرسالة؛ قلَّ العلم وفشا الجهل، ولذا تجد أن قلّة العلم والعلماء في أي بلد، تتيح الفرصة للبدعة أن تنتشر، ولأهلها أن يظهروا، إذ لا يقاوم البدع إلا العلم والعلماء.

ولذا لم يزل أهل العلم وسلف هذه الأمة - من الصحابة والتابعين لهم بإحسان - يحذرون من البدع والأهواء، فأخبروا بوقوعها، ولما وقعت جاهدوها، وتصدّوا لأهلها، وأعمالهم وأقوالهم في ذلك كثيرة مستفيضة.

فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا.^(١)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، فإن كل بدعة ضلالة.^(٢)

وقال رضي الله عنه: إياكم وما يُحدث الناس من البدع، فإن الدين لا يذهب من القلوب بمرّة، ولكن الشيطان يحدث له بدعاً، حتى يخرج الإيمان من قلبه، ويوشك أن يدع الناس ما ألزمهم الله من فرضه؛ في الصلاة والصيام، والحلال والحرام، ويتكلمون في ربه عز وجل، فمن أدرك ذلك الزمان فليهرب، قيل: يا أبا عبد الرحمن فيلى أين؟ قال: إلى لا أين، قال: يهرب بقلبه ودينه، لا يجالس أحداً من أهل البدع.^(٣)

وقال شيخ الإسلام في ذمّ غلاة المبتدعة^(٤): "ومن علم حوادث الإسلام، وما جرى فيه بين أوليائه وأعدائه - الكفار والمنافقين - علم أن عداوة هؤلاء المعتدين للإسلام الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم؛ أعظم من عداوة التتار، وأن علم الباطن الذي كانوا يدعون حقيقته؛ هو إبطال الرسالة التي بعث الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم؛ بل إبطال جميع المرسلين، وأنهم لا يقرون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى، ولا من خيره ولا من أمره، وأنّ لهم قصداً مؤكداً في إبطال دعوته، وإفساد ملته، وقتل خاصته واتباع عترته^(٥)، وأنهم في معاداة الإسلام؛ بل وسائر الملل؛ أعظم من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يقرّون بأصل الجمل التي جاءت بها

(١) أخرجه الدارقطني. كتاب النوادر ، (٤/١٤٦) ، واللالكائي ١/١٢٣ ح (٢٠١).

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة. باب كراهية أخذ الرأي. ح (٢٠٥) ١/٨٠، والطبراني في الكبير ٩/١٥٤.

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ١/١٢١، ح (١٩٦).

(٤) في معرض جواب عن القرامطة الباطنية. انظر: مجموع الفتاوى ٣٥/١٤٠-١٤١.

(٥) عترة الرجل: أخص أقاربه، وعترة النبي صلى الله عليه وسلم: بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعليّ

وأولاده ، وقيل: عترة الأقربون والأبعدون منهم. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٣٨٥.

الرسول... وأما هؤلاء القرامطة^(١)، فإنهم في الباطن كافرون بجميع الكتب والرسول، يخفون ذلك ويكتمونه عن غير من يثقون به، لا يظهره كما يظهر أهل الكتاب دينهم، لأنهم لو أظهروه لنفر عنهم جماهير أهل الأرض من المسلمين وغيرهم، وهم يفرقون بين مقالتهن ومقالة الجمهور، بل الرافضة الذين ليسوا زنادقة كفاراً، يفرقون بين مقالتهن ومقالة الجمهور، ويرون كتمان مذهبهم واستعمال التقية، وقد لا يكون من الرافضة من له نسب صحيح مسلماً في الباطن ولا يكون زنديقاً؛ لكن يكون جاهلاً مبتدعاً.

وإذا كان هؤلاء مع صحة نسبهم وإسلامهم يكتمون ما هم عليه من البدعة والهوى، لكن جمهور الناس يخالفونهم؛ فكيف بالقرامطة الباطنية الذين يكفرون أهل الملل كلها، من المسلمين واليهود والنصارى".

(١) هم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة، ظاهرهم الرضا وباطنهم الكفر المحض، يدعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر؛ فيقولون الصلاة المأمور بها ليست هذه الصلاة أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة، وأما الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا، والصيام كتمان أسرارنا، ينفون عن الله تعالى النقيضين؛ فلا يقولون موجود ولا لا موجود؛ ولا حي ولا لا حي؛ ولا عالم ولا لا عالم، قالوا: لأن وصفه بالإثبات تشبيه له بالموجودات، ووصفه بالنفي فيه تشبيه له بالمعدومات، قال بهم أن وصفه بصفات الممتنع التي لا تقبل الوجود، وهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحدة؛ وتارة يسمون القرامطة؛ وتارة يسمون الباطنية؛ وتارة يسمون الإسماعيلية؛ وتارة يسمون النصيرية، ولهذا كانت القرامطة الباطنية من أعظم الناس شركاً وعبادة لغير الله؛ إذ كانوا لا يعتقدون في إلههم أنه يسمع أو يبصر أو يغني عنهم شيئاً.

المبحث الثاني

الفسادُ العمليُّ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات .

المطلب الثاني: الفواحش .

المطلب الثالث: المعاملات والعادات .

المراد بالفساد العملي؛ ما كان من الأعمال مخالفاً للشرع، ولم يُخرج صاحبه من الملة لمجرّد الوقوع فيه، ولا يعني ذلك أن هذا النوع من الفساد لا يقع ممن هم خارج دائرة الملة، وإنما يقع من المسلم وغير المسلم، وهو عند غير المسلم؛ أكثر وأظهر، إذ ليس بعد الكفر ذنب. وحيث إن مظاهر الانحراف عن المنهج الحق كثيرة، فقد اقتصرنا في هذا المبحث على أبرز المخالفات التي اهتم بها القرآن وتصدى لها.

وقد أحاطت نصوص الكتاب العزيز هذا الموضوع، وعُنيت به عناية فائقة، حتى أصبح من القواعد المقررة شرعاً، حفظ الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال.

قال الشاطبي^(١): "اتفقت الأمة؛ بل سائر الملل، على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس؛ وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري، ولم يثبت لنا ذلك بدليل معيّن، ولا شهد لنا أصل معيّن يمتاز برجوعها إليه، بل علمت ملاءمتها للشريعة؛ بمجموع أدلة لا تنحصر في باب واحد"^(٢).

وأحسب أن هذا المبحث، يجلي هذه القاعدة، ويدور في فلكها، فاجتهدت في تقسيم الفساد العملي من هذا المنطلق.

والتأمل في أنواع الفساد؛ يرى أن بعضها يمكن أن يندرج مع البعض الآخر؛ حسب هذا الاعتبار أو ذاك. ولا مُشاحة في ذلك.

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي، أبو إسحاق، محدث فقيه أصولي لغوي مفسر، كان من أئمة المالكية، مات سنة ٧٩٠ هـ. معجم المؤلفين ٧٧/١. الأعلام للزركلي ٧٥/١

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٣٨/١.

المطلب الأول: الجنايات

الجنايات لغة جمع جنائية: وهي كل فعل محظور يتضمن ضرراً على النفس أو غيرها، وقيل هي: الذنب والجُرم، وما يفعله الإنسان مما يُوجب عليه العذاب أو القصاص في الدنيا والآخرة.^(١)

وهو عام في كل ما يقبح ويسوء، وقد حُصِّصَ بما يحرم من الفعل. ويراد بالجناية عند الفقهاء؛ القصاص في النفوس والأطراف.

وتنوعت النصوص في التحذير من الجنايات، بتنوع مظاهرها، ولم أقتصر هنا على منهج الفقهاء بحصر الجناية على النفس وما دونها من الأعضاء، بل قصدت بالجناية هنا التعدي على الغير، سواء كان على النفس، أو العرض، أو المال.

فأعظم الجنايات القتل؛ وهو _ كما قال الجرجاني _ فعل يحصل به زهوق الروح^(٢)، وقد عدّه بعض أهل العلم أعظم الكبائر بعد الشرك^(٣)، لذلك جاءت عقوبته مغلظة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله، في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَالِيكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]"^(٤)

والأحاديث في تحريم القتل كثيرة، فمن ذلك ما رواه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

(١) التعريفات ص ١٠٧، لسان العرب ١٤/١٥٣.

(٢) التعريفات ص ١٧٩.

(٣) انظر: الكبائر للذهبي. ص: ١٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/٧١٠.

رسول الله ﷺ "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء"^(١).
وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً"^(٢)، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم"^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"^(٤)
قال الحافظ ابن حجر: "تضمن هذا الحديث الردّ على المرجئة، ولا مُتمسك للخوارج فيه، لأن ظاهره غير مراد، لكن لما كان القتال أشد من السباب؛ لأنه مفضٍ إلى إزهاق الروح؛ عبّر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسوق؛ وهو الكفر، ولم يُرد حقيقة الكفر التي هي الخروج عن الملة، إذ تقرر من القواعد أن مثل ذلك لا يُخرج عن الملة؛ مثل حديث الشفاعة؛ وقوله تعالى

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]^(٥).

وفي تأويل الحديث أقوال:

الأول: أنه في المستحل للقتل.

والثاني: أن المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام، لا كفر الجحود.

والثالث: أنه يؤول إلى الكفر بشؤمه.

والرابع: أنه كفعل الكفار"^(٦).

ومن العلماء من يتوقى الكلام في مثل هذه النصوص تورعاً، ويُمرّها كما جاءت من غير

(١) أخرجه البخاري. كتاب الرقاق. باب: القصاص يوم القيامة. ح(٦١٦٨)، ومسلم. كتاب القسامة والمخارين

والقصاص والديات. باب المجازاة بالدماء في الآخرة. ح(١٦٧٨)

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الديات. ح(٦٤٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي. كتاب الديات. باب: تشديد قتل المؤمن. ح(١٣٩٥)، والنسائي. كتاب تحريم الدم. باب: تعظيم

الدم. ح(٣٩٨٧)، والبيهقي في السنن. كتاب النفقات. باب: تحريم القتل من السنة. ح(١٥٦٤٨)، وصححه الألباني.

انظر: (صحيح الترغيب والترهيب ٢/٣١٥).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان. باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر. ح(٤٨)، ومسلم. كتاب الإيمان

باب بيان قول النبي ﷺ "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر". ح(١١٦).

(٥) ومن ذلك: اعتبار القاتل أحياناً للمقتول، كما قال سبحانه (فمن عفى له من أخيه شيء) [البقرة: ١٧٨]، وقال في

شأن اقتتال طائفتين من المؤمنين: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) [الحجرات: ١٠].

(٦) فتح الباري لابن حجر ١/١١٢، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٥٣/٢.

تفسير، مع اعتقادهم أن المعاصي لا تخرج عن الملة.^(١)

ولِعَظَمِ هَذِهِ الْجُنَايَةِ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ؛ ابْنُ عَبَّاسٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَمْرٍو وَالْحَسَنُ^(٢) وَقَتَادَةُ^(٣) رضي الله عنهم^(٤).

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها؛ أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله تعالى، قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

ولعموم قوله عز وجل ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. والله أعلم^(٥).

ومما يؤكد جرم هذا المسلك، أن حدَّ القتل كان مُحَكَمًا في شرع من قبلنا، كما أخبر سبحانه عن بني إسرائيل ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال ابن كثير: "فقد استدل - بهذه الآية - كثيرٌ ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء، إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا؛ إذا حُكي مقررًا ولم يُنسخ، كما هو المشهور عن الجمهور"^(٦).

قال سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله

(١) انظر: فتح الباري لابن رجب ١/ ١٢٨.

(٢) الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري، ثقة فقيه فاضل مشهور، لازم الجهاد والعلم والعمل، وكان أحد الشجعان، وكان حافظًا من بحور العلم، مات سنة ١١٠ هـ، انظر: تذكرة الحفاظ ١/ ٧٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣.

(٣) قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، يقال ولد أكمه، قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس، وكان يستحب أن تقرأ الأحاديث على طهارة، مات بعد سنة ١١٠ هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٢، سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ١٠٣٧.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٨١.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢١.

وأبي رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس؛ والثيب الزاني؛ والمفارق لدينه التارك للجماعة".^(١)

ومن أشنع صور هذه الجناية؛ قتل المرء نفسه، قال جلّ وعلا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٢) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿[النساء: ٢٩-٣٠].

فقد اعتُبر قتل الإنسان نفسه من الكبائر الشنيعة؛ استدلالاً بهذه الآية.^(٢)

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل، احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت به ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فتيمنت ثم صليت، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً".^(٣)

وجاء تأكيد النهي عن ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قتل نفسه بمحديدة؛ فحديده في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه؛ فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه؛ فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً".^(٤)

(١) أخرجه البخاري. كتاب الديات. باب قوله تعالى ﴿أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾. ح(٦٨٧٨)، ومسلم. كتاب القسامة. باب ما يباح به دم المسلم. ح(١٦٧٦).

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢/٢٠٠، والدر المنثور ٢/٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً. كتاب التيمم. باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، وأحمد في المسند ٤/٢٠٣، وأبو داود، كتاب الطهارة. باب: إذا خاف الجنب البرد أتيتم؟. ح(٣٣٤). وقال ابن حجر: إسناده قوي (الفتح: ١/٥٨٩).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الطب. باب: شرب السم والدواء به وما يخاف منه والخبيث. ح(٥٧٧٨)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه. ح(١٠٩).

وعن جندب بن عبدالله (رضي الله عنه) ^(١) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " كان برجل جراح فقتل نفسه، فقال الله تعالى: بدرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة" ^(٢).

ويتأكد التحذير عن ذلك في هذه الأزمان التي كثر فيها الانتحار، حتى أظهرت الدراسات الإحصائية في بلاد الغرب نسباً مهولة يشيب لها الرأس. وليست بعض بلاد المسلمين بمنأى عن هذه الظاهرة المشينة؛ لما ضعف الإيمان لدى كثير من الناس.

فلم يكن من المتصور أن عدد حالات الانتحار في العالم تصل إلى أكثر من ٨٠٠ ألف حالة سنوياً! ^(٣)

ويعدّ الانتحار السبب الثامن للوفاة في الولايات المتحدة الأمريكية. ففي تقرير رسمي حول عدد حالات الانتحار في الولايات المتحدة الأمريكية لعام ٢٠٠٢م، بلغ عدد المنتحرين أكثر من ٣١ ألف حالة، عدد الرجال منهم ٢٥ ألف رجل، و٦ آلاف امرأة، وعدد الشباب (١٥-٢٤ سنة) بين هؤلاء بلغ ٤٠٠٠ منتحراً. ^(٤)

وبناء على هذه الأرقام فإنه يمكن القول إنه في أمريكا وحدها؛ هناك شخص يقتل نفسه كل ربع ساعة!!

ويقول الباحثون إن معدلات الانتحار بين الشباب في جنوب الهند، هي الأعلى في العالم. ويبلغ متوسط معدل الانتحار في العالم ١٤,٥ حالة، لكل ١٠٠ ألف شخص. ^(٥)

والذي يظهر أن الإحصائيات أكّدت أن عدد الوفيات بحوادث الانتحار؛ أكثر مما أهلكته الحروب الراهنة في العالم.

(٢) جندب بن عبد الله البجلي: له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبد الله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة، قدمها مع مصعب بن الزبير. قال البغوي: يقال له جندب الخير، وجندب الفاروق، وقد ينسب إلى جده فيقال: جندب بن سفيان. انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣٤٧/١، الإصابة ٦١٤/١.

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له. كتاب الجنائز. باب: ما جاء في قاتل النفس. ح(١٣٦٤)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه. ح(١١٣).

(٣) إحصائيات الأمم المتحدة على موقعهم: www.who.int/mental_health/en

(٤) انظر: www.suicidology.org/associations/١٠٤٥/files/٢٠٠٢datapg٢.pdf

(٥) انظر: www.news.bbc.com: بي.بي.سي العربية في ٢ أبريل ٢٠٠٤م.

ويرى بعض المفسرين أن النهي في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أعم من قتل المرء نفسه، إذ المعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً، فجعل - جل ثناؤه - أهل الإسلام كلهم بعضهم من بعض. (١)

وقد اختلف في تأويل قوله ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾:

فقيل: ذلك إشارة إلى القتل لأنه أقرب مذکور، وقيل: هو عائد إلى أكل المال بالباطل وقتل النفس؛ لأن النهي عنهما جاء متسقاً مسروداً، ثم ورد الوعيد حسب النهي، وقيل: هو عام كل ما نهي عنه من أول السورة. (٢)

ويرى الإمام الطبري: أن ذلك عائد لما نهي عنه من آخر وعيد، وذلك قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩]، لأن كل ما نهي عنه من أول السورة قرن به وعيد، إلا من قوله ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ فإنه لا وعيد بعده إلا قوله ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾

وقيد الوعيد بذكر العدوان والظلم؛ ليخرج منه فعل السهو والغلط. (٣)

ولعظم هذه الجنابة، فإن الشرع رتب على فعلها الكفارة المغلظة، ولو كان فاعلها مخطئاً، قال جل وعلا ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا...﴾ [النساء: ٩٢].

كما جاء التصريح بعظم هذه الجريمة في حق الأقربين، من البنات والبنين، فقال سبحانه ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، فقد كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفاقة، فأبطل الله معذرتهم، لأن الفقر الذي جعلوه عذراً لقتل الأولاد؛ لا يصلح أن يكون داعياً لقتل النفس، فبين - سبحانه - أنه لما خلق الأولاد قدر رزقهم، فمن الخطأ أن يظن الأب أن عجزه عن النفقة عليهم؛ يخول له قتلهم.

(١) انظر: جامع البيان ٣٨/٤، والدر المنثور ٢٥٩/٢.

(٢) انظر: جامع البيان ٣٨/٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠٣/٥.

(٣) انظر: جامع البيان ٣٨/٤، الجامع لأحكام القرآن ١٥٠/٥.

ومعنى قوله ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أن ذلك كان إثماً وخطيئة، لا خطأً من الفعل؛ لأنهم إنما كانوا يقتلونهم عمداً لا خطأً، وعلى عمدٍم ذلك، عاتبهم ربهم وتقدم إليهم بالنهي عنه. (١)

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك" (٢).... الحديث.

وكان قتلهم للبنات أشد وأعظم، خشية العار بزعمهم، فأبلغت الآيات الكريمة في بيان سفههم، فقال جل وعلا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أُفْرَاءً عَلَىٰ آلِهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]

ومن التوبيخ لهم، سؤالهم يوم القيامة عن جريمتهم تلك، قال سبحانه ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وتأمل كيف جاء هذا السؤال في معرض ذكر أهوال القيامة، إذ جعله الله موضوعاً من موضوعات الحساب يوم الجزاء، فذكره في سياق هذا الأهوال، كأنه حدثٌ من تلك الأحداث العظام؛ ويقول: إن الموعودة ستسأل عن وأدها.. فكيف بوائدها؟! والنفس المعصومة التي حُرِّمَ قتلها هي: نفس المسلم، لقوله ﷺ "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث؛ النفس بالنفس؛ والثيب الزاني؛ والمفارق لدينه التارك للجماعة" (٣)

وكذلك يحرم دم الذمي المعاهد (٤) والمستأمن (٥)، لقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة،

(١) انظر: جامع البيان ٧٣/٨. بتصرف

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢

(٣) سبق تخريجه ص ٧٦

(٤) يجوز أن يكون بكسر الهاء وفتحها، على الفاعل والمفعول، وهو في الحديث بالفتح أشهر وأكثر، والمعاهد: من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صلحوا على ترك الحرب مدة ما. انظر: النهاية في غريب الحديث ٣١٦/٣.

(٥) هو "من يدخل إقليم غيره بأمان، مسلماً كان أم حربياً" انظر: الدر المختار على حاشية ابن عابدين ٢٤٧/٣.

وإن ريجها توجد من مسيرة أربعين عاماً^(١)

صيانة الدماء:

ومن مظاهر عناية الشريعة للدماء ، تأكيد التثبيت فيها قبل إهدارها، حتى حال الحرب، قال سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَاذٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف^(٢) (فتثبتوا) من التثبيت^(٣).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجلٌ في غنيمَةٍ له فَلَحِقَهُ المسلمون فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأَنزَلَ اللهُ هذه الآية، إلى قوله ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ تلك الغنيمَةُ^(٤).

أول قتل وقع في الأرض:

جاء البيان القرآني لأول مشهد وقع في الأرض من هذا النوع، في قصة ابني آدم حيث قال سبحانه ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبِلْ مِنَ الْآخِرِ قَالَ لَاقْتُلْنَاكَ قَالَ إِنَّمَا يَنْقَبِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله ﴿فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ، قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

ثم أعقب - سبحانه - ذلك ببيان خطر هذه الجريمة، حيث قال جل وعلا ﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

أي: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً، شرعنا لبني إسرائيل وأعلمناهم، أن من قتل

(١) أخرجه البخاري. في أبواب الجزية والموادعة. باب: إثم من قتل معاهداً بغير جرم. ح(٣١٦٦).

(٢) هو خلف بن هشام بن ثعلب ، ويقال خلف بن هشام بن طالب بن غراب البزار ، البغدادي أبو محمد المقرئ ،

إمام من أئمة القراءة ، توفي /٢٢٩هـ - ٠ انظر تهذيب لكمال ٢٢٩/٨

(٣) انظر: النشر في القراءات العشر. لابن الجزري ١٨٩/٢.

(٤) أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب قوله (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً). ح(٤٥٩١)،

ومسلم. كتاب التفسير. باب: في حديث الهجرة. ح(٣٠٢٥).

نفساً بغير سبب؛ من قصاص؛ أو فساد في الأرض، واستحلّ قتلها بلا سبب ولا جنائية؛ فكأنما قتل الناس جميعاً فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، لأنه لا فرق عنده بين نفسٍ ونفس. (١)

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ "أي: من حرّم قتل من حرّم الله قتله، فلم يتقدم على قتله فقد أحيا الناس بسلامتهم منه، وذلك نظير خبر الله - جلّ وعلا- عن حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فكان معنى الكافر في قبيله (أنا أحياي) أنا أترك من قدرت على قتله، وفي قوله (وأميت) من عزمت قتله، فكذلك معنى الإحياء في قوله ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: من سلم الناس من قتله إياهم- إلا فيما أذن الله في قتله منهم- فكأنما أحيا الناس جميعاً". (٢)

وفيه: تعظيم قتل النفس، وإحيائها في النفوس، ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتواصوا في الحماة على حرمتها؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً؛ عظم ذلك عليه فتبّطه، وكذلك الذي أراد إحياءها.

وجاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً "لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل". (٣)

إن مفسد القتل بالغة الخطورة والضرر، فهو جنائية على المجتمع بأسره، وخرق لحرمة وأمنه، يؤجج العداوة والبغضاء، ويؤء مقترفه بسخط الرب والعقوبة في الدنيا والآخرة.

ومن الجنايات: السرقة.

وهي: "أخذ مكلفٍ خفيةً، قدر عشرة دراهم مضروبة، محرزة. بمكان أو حافظ، بلا شبهة" (٤).

ولما كانت جنائية على المال، رتب الشرع عليها حدّ القطع، قال سبحانه ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

(١) انظر: جامع البيان ٥٤٠/٤، تفسير القرآن العظيم ٩٣/٣.

(٢) جامع البيان ٥٤٥/٤.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الديات. باب قول الله تعالى (ومن أحياها). ح (٦٨٦٧)، ومسلم. كتاب كتاب القسامة

والخاريين والقصاص والديات. باب: بيان إثم من سن القتل. ح (١٦٧٧).

(٤) التعريفات ص ١١٨.

فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].

أي مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس، ولذا قال سبحانه ﴿جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ ولم يقل (بما أخذنا)، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك، وقوله ﴿نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، والنكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصدّ المعاقب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتق من النكول عن الشيء أي النكوص عنه والخوف منه، (والله عزيز) أي: في انتقامه (حكيم) أي: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.^(١)

قال الشنقيطي: "صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخصّ السرقة؛ لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب؛ ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدّد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ثم لما خانت هانت، وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة التي خلقها الله لتبسط وتكتسب في كل ما يرضيه، من امتثال أوامره واجتناب نهيه والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني، فمدت أصابعها الخائنة إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قدرة ساعية في الإخلال بنظام المجتمع إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة، كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن فإنه يُزال بالكلية إبقاء على البدن، وتطهيراً له من المرض، ولذلك فإن قطع اليد يطهّر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن السرقة".^(٢)

وعن عبادة بن الصامت^(٣) قال: قال: كنا عند النبي ﷺ في مجلس فقال "بايعوني على أن لا تشرکوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، وقرأ هذه الآية كلها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٢]، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفّارته، ومن أصاب من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١١٠/٣، التحرير والتنوير ١٩٢/٦.

(٢) أضواء البيان ٣١٧/٣.

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري: شهد العقبة الأولى والثانية وكان أحد النقباء، وشهد بدرًا والمشاهد كلها،

استعمله النبي ﷺ على بعض الصدقات، توفي سنة ٣٤هـ بالمدينة، وقيل ببيت المقدس. انظر: الإصابة ٥٠٥/٤.

ذلك شيئاً فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه".^(١)
ومن صور السرقة اختلاس المال العام وإهداره. كيف وهو حق الناس كافة، فإذا كان التعدي على مال أحاد الناس فساداً، فالتعدي على المال العام أعظم جريرة وأشد فساداً منه، ولذا فإن أخوة يوسف عليهم السلام أكدوا بأيمانهم البراءة من هذه الجناية، وصنفوها من الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

ومن الجنایات: القذف.

وأصله الرمي، وهو رمي المرأة بالزنا أو ما كان في معناه، وعرفه بعض الفقهاء: بأنه رمي مكلف حراً مسلماً بنفي نسب عن أب أو جد أو بزنا^(٢).

وهو جنایة على العرض؛ وقد اتفق العلماء على أنه من الكبائر؛ لما نصت عليه الآيات، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥].

"إن ترك الألسنة تلقي التهم جزافاً، على المحصنات العفيفات، بدون دليل قاطع، يترك المجال فسيحاً لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئاً بتلك التهمة النكراء؛ ثم يمضي آمناً! فيصبح الجماعة وبمسي؛ وإذا أعراضه مجرحة، وسمعته ملوثة؛ وإذا كل فرد فيه متهم، أو مهدد بالاتهام؛ وإذا كل زوج فيه شاك في زوجه، وكل بيت مهدد بالانهيار.

إن شيوع جريمة القذف في المجتمع؛ تُجرئ ضعيف النفس على ارتكاب الفاحشة وتَهوّن في نفسه بشاعتها.

وصيانة للأعراض من التهجم، وحماية لأصحابها من التهم الفظيعة التي تصب عليهم؛ شدد القرآن الكريم في عقوبة القذف، فجعلها قريبة من عقوبة الزاني غير المحصن.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

(١) أخرجه البخاري. كتاب الحدود. باب: الحدود كفارة، ح(٦٧٨٤). ومسلم. كتاب الحدود. باب: الحدود كفارات لأهلها. ح(١٧٠٩).

(٢) انظر: لسان العرب ٢٧٦/٩، المغني لابن قدامة ٣٨٣/١٢.

ولم تقتصر العقوبة على ذلك فحسب؛ بل أهدر قول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة، وأسقط
اعتباره بين الناس؛ فهو يمشي بينهم متهماً؛ لا يوثق له بكلام!... ﴿وَلَا نَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ بل
زيد عليه وصمه بالفسق ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، إلا أن يتوب عن هذه الفعلة
النكراء، قال تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

ومن مشكاة النبوة، جاء التأكيد على عظم هذه الجناية، حيث قال ﷺ "اجتنبوا السبع
الموبقات..". وذكر منها: "قذف المحصنات المؤمنات الغافلات".^(١)
إن المقذوف الذي تألم من شدة القذف، وثقل وطئته، ليجد في تلك العقوبة؛ شفاءً لغيظ
قلبه، وصيانةً لكرامته.

ومما يؤكد حرمة الأعراض، أن عقوبة الجاني فيها لم تقتصر على الدنيا، بل هي في الآخرة
أشد وأنكى، فهو يعالج فقد حسناته، وأخذ خطايا الآخرين، وحسرتة الكبرى؛ أن يقذف
في النار... وكما قال النبي ﷺ "إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة
ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى
هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه؛ أخذ من
خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار"^(٢)

وإذا وقع القذف من الزوج؛ فإن ذلك يكون أعظم وأشد، ولذا فإن المتدبر لآيات الملاءنة
يُعظم شأن الشريعة في عنايتها بكيان الأسرة؛ فهي لبنة من لبنات المجتمع الذي لا وحدة ولا
شوكة له؛ إلا بها.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ
بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

(١) تقدم تخرجه ص ٥٦

(٢) أخرجه مسلم . كتاب: البر والصلة والآداب. باب: تحريم الظلم. ح(٢٥٨١).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية ^(١) رضي الله عنه قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سحماء ^(٢) فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حدّ في ظهرك. فقال يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول: البينة وإلا حدّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، وليترن الله ما يبريء ظهري من الحدّ، فتزل جبريل وأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ - فقرأ حتى بلغ - ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾. فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليها، فجاء هلال فشهد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم، فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين ^(٣)، خدلج الساقين ^(٤)؛ فهو لشريك بن سحماء"، فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي ولها شأن" ^(٥).

ثم قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]. أي: "لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان مما لا يحيط به نطاق البيان، ومن جملته؛ أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك؛ لوجب على الزوج حدّ القذف مع أن الظاهر صدقه، لأنه أعرف بحال زوجته، وأنه لا يفتر عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة

(١) هلال بن أمية الواقفي، شهد بدرًا وكان قدّم الإسلام، كان يكسر أصنام بني واقف، وكانت معه رايتهم يوم الفتح، وهو الذي لاعن امرأته ورمها بشريك بن سحماء، وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك. انظر: الإصابة ٤٢٨/٦، أسد الغابة ٤/٢٨٧.

(٢) شريك بن سحماء: وسحماء هي أمه، وأبوه عبدة بن متعب بن الحد، وهو صاحب اللعان، قيل إنه شهد مع أبيه أحدًا، وهو أخو البراء بن مالك، وذكر ابن حجر أنه أخوه لأمه من الرضاعة، وهو أول من لاعن في الإسلام. انظر: الإصابة ٣/٢٧٨، أسد الغابة ٣/٤٢٧.

(٣) أي تأمهما وعظيّمهما من سُبُوغ الثوب والتّنعمة . النهاية في غريب الحديث ٢/٨٤٣

(٤) أي عظيم الساقين . انظر: غريب الحديث لابن سلام ٢/٩٨

(٥) أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب قوله (ويدرو عنها العذاب) ح(٤٧٤٧).

والفضل والرحمة ، فجعل شهادات كلٍ منهما، مع الجزم بكذب أحدهما حتماً؛ دَارَةً لما توجه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم، وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة، وآثار التفضل والرحمة، ما لا يخفى، أما على الصادق، فظاهر، وأما على الكاذب؛ فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحد عنه، وتعريضه للتوبة، حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان تَوَائِبِهِ تعالى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته"^(١).

وبعد أن ذكرت الآيات حكم القذف، أوردت نموذجاً له، يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته؛ وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبي بكر ﷺ أكرم إنسان على رسول الله ﷺ وعرض رجل من الصحابة صفوان بن المعطل ﷺ يشهد رسول الله أنه لم يعلم عنه إلا خيراً . .

وحاصل القصة؛ أن النبي ﷺ ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق ﷺ، فانتقطع عقدها فانحجبت في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً وجاءت مكائهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة ﷺ، قد عرس^(٢) في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة ﷺ فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين - الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر - مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلففته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ ، وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة^(٣). فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ﴾ [النور: ١١]، أي: الكذب الشنيع، وهو

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٤٢٠/١٨.

(٢) التَّعْرِيسُ التزول في آخر الليل وعَرَسَ المسافر نزل في وجه السَّحَرِ . لسان العرب (عرس) ١٣٤/٦

(٣) الحديث أصله في الصحيحين، فقد أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب قوله (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا

أن نتكلم بهذا) ح(٤٧٥٠)، ومسلم. كتاب التوبة. باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. ح(٤٩٧٤).

رَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ، ﴿عَصَبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١]، أَي: جَمَاعَةٌ مِّنْتَسِبُونَ إِلَيْكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ فِي إِيمَانِهِ؛ وَلَكِنَّهُ اغْتَرَّ بِتَرْوِيحِ الْمُنَافِقِينَ؛ وَمِنْهُمْ الْمُنَافِقُ. وَقَوْلُهُ ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، لِمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ تَبَرُّثَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَنَزَاهَتَهَا، وَالتَّنْوِيهَ بِذِكْرِهَا، حَتَّى تَتَنَاوَلَ عَمُومَ الْمَدْحِ سَائِرَ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِمَا تَضَمَّنَ مِنْ بَيَانِ الْآيَاتِ الْمُضْطَرِّ إِیْهَا الْعِبَادَ، الَّتِي مَا زَالَ الْعَمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُلُّ هَذَا خَيْرٌ عَظِيمٌ، لَوْلَا مَقَالَةُ أَهْلِ الْإِفْكَ لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لَهُ سَبَبًا^(١).

لَقَدْ كَانَتْ حَادِثَةُ الْإِفْكَ تَجْرِبَةً قَاسِيَةً عَلَى الْجَمْعِ الْمُسْلِمِ، وَبِرْغَمِ قَسْوَةِ الْمَوْقِفِ إِلَّا أَنَّ الْمُنْحَ تَأْتِي فِي ثَنَائِهَا الْحَنِّ، فَتَأْتِي بِرَأْيِ الطَّاهِرَةِ الْعَفِيفَةِ فِي الْقُرْآنِ؛ يُتَعَبَدُ بِتَلَاوَةِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَفْوِهَا وَطَهَارَتِهَا.

وَبَعْدَ هَذَا؛ نَجِدُ الرَّافِضَةَ يَقْدِفُونَ عَائِشَةَ ﷺ، وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَهْدُمُونَ أَصْلًا أَصِيلًا مِنَ الدِّينِ بِتَعْرِضِهِمْ لِحَنَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَلَا سَاءَ مَا يَزْرُونَ.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٣.

المطلب الثاني: الفواحش.

الفواحش جمع فاحشة، وهي كلمة تدل على قبح في الشيء وشناعة، ومن ذلك: الفحش والفحشاء والفاحشة، وأفحش الرجل: قال الفحش، والمتفحش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، والذي يأتي الفاحشة المنهي عنها، وتفحش في كلامه، وتفحش عليهم بلسانه؛ إذا بدا، والفاحش السيء الخلق.

واصطلاحاً: كل ما يشتد قبحه من الذنوب، وقيل: كل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال^(١)، وقيل: هي كل ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم.^(٢) وقد جاء النهي عن الفواحش جملةً، في مواضع عدة.

قال تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. والمعنى - كما قال ابن جرير - لا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرونها، والباطن منها الذي تأتونه سراً في خفاء لا تجهرون به، فإن كل ذلك حرام.^(٣)

ومن المفسرين من فسّر الفواحش بالزنا، وجعل ما ظهر منها ما يفعل في الحوانيت، وما بطن الزنا سراً^(٤)، وحمل الآية على العموم أولى^(٥)، والله أعلم. وجميئ النهي عن الفواحش مقترناً بجملة من أمهات الكبائر؛ دلالة ظاهرة على شناعتها وجرمها.

وقل مثل ذلك؛ في آية الأعراف، قال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة ٤/٤٧٨، تاج العروس ٩/١٥٧.

(٢) التعريفات ١٧١.

(٣) جامع البيان ٥/٣٩١.

(٤) انظر: جامع البيان ٥/٣٩٢، معالم التنزيل ٣/٢٠٣، زاد المسير ٣/١٤٨.

(٥) انظر: جامع البيان ٥/٣٩١، معالم التنزيل ٣/٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٧/٨٧.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: "لا أحد أغير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن".^(١)

قال الشنقيطي: "والتحقيق - إن شاء الله - أن الفواحش من جملة الكبائر، والأظهر أنها من أشنعها"^(٢)، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]. وقال سبحانه ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، والمراد بكبائر الإثم: الآثام الكبيرة فيما شرع الله، وهي ما شدد التحذير منه، أو ذكر له وعيداً بالعذاب، أو وصف على فاعله حداً.

"والفرق بين الكبائر والفواحش - مع أن جميعهما كبائر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها؛ كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه"^(٣).

ومن أعظم الفواحش الزنا:

وقد اختلف تعريف العلماء للزنا، وغالبها يدور حول "الوطء في قُبُلِ خَالٍ عَن مَلِكٍ أَوْ شُبُهَةٍ"^(٤).

قال ابن عاشور: "والزنا في اصطلاح الإسلام: مجامعة الرجل امرأة غير زوجة له، ولا مملوكة غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية: مجامعة الرجل امرأة حرة غير زوج له، وأما مجامعة الأمة غير المملوكة للرجل فهو البغاء"^(٥).

ويؤيد هذا التفريق، ما أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن

(١) أخرجه البخاري. كتاب التفسير، باب قوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن). ح (٤٦٣٤)،

ومسلم. كتاب التوبة، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش. ح (٢٧٦٠).

(٢) أضواء البيان ١٢٦/٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٠٠.

(٤) التعريفات ص ١١٥.

(٥) التحرير والتنوير ٩٠/٧.

أبيّ بن سلول^(١) يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وفي رواية "أثما جاريتان يكرههما على الزنا"، فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]^(٢)

وكثيراً ما ترد الفاحشة في القرآن بمعنى الزنا، قال تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩] وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والمتدبر لسياق الآيات التي ورد النهي عن الزنا في ثناياها؛ يجد أن الله عز وجل نهى عن قتل الأولاد ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، ثم ذكر النهي عن الزنا ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْنَةَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ثم تكلم عن قتل النفس، فقال ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فالزنا توسط آيات النهي عن القتل، لأنه قتل من نواحي شتى، فهو قتل ابتداءً، لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالباً رغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين؛ قبل أن يتخلق، أو بعد أن يتخلق، قبل مولده أو بعد مولده، وإذا ترك الجنين للحياة؛ تُرك - في الغالب - حياة بئيسة مهينة، وهو قتل للمجتمع من جانب آخر؛ إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه، يجعل الحياة الزوجية نافلة، بل زهيدة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعاً لا داعي إليها، والأسرة هي المحضن الصالح للناشئة، لا تصح فطرتها ولا تربيتها إلا فيه.

ولقد حذر نبينا ﷺ من هذه الفاحشة الخطيرة، بل واستعاذ بالله أن يدركها أصحابه فقال: "يا معشر المهاجرين؛ خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ؛ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا..." الحديث.^(٣)

فما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال، منذ التاريخ القديم إلى العصر

(٤) عبد الله بن أبيّ بن سلول: رأس المنافقين في الإسلام، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم، أظهر الإسلام بعد بدر تقيّة، انخرل بثلاث الجيش يوم أحد، وهو الذي بدأ بالكلام في حادثة الإفك، مات سنة ٩ هـ - راجع: طبقات ابن سعد ٢/٢١، ٢٩، ٣٧، ١٢٥، تاريخ الإسلام للذهبي ١/٤٤١.

(٢) أخرجه مسلم. كتاب التفسير. باب: قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ح(٣٠٢٩)

(٣) أخرجه ابن ماجه. كتاب الفتن. باب: العقوبات. ح(٤٠١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

الحاضر، وقد ظهر هذا جلياً لمن تأمل حال الغرب الذي يملك زمام القوة المادية، فها هو يشجع الرذيلة ويدعوا إليها عبر قنواته الفضائية ومواقعه الإباحية، فابتلاهم الله عز وجل بالأمراض التي لم تكن في أسلافهم، كالزهري والسيلان والهريس والإيدز، والتي أعيى الأطباء دواءها.

ويكفي الزاني فساداً؛ نفي الإيمان عنه حال ملابسة تلك الخطيئة، قال ﷺ "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"^(١).

بل إن دمه حلالاً إذا أتى الزنا وهو محصن، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال ﷺ " لا يجل دم امرئ مسلم.. إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة"^(٢).

ولعناية القرآن ببيان خطر هذا النوع من الفساد؛ حذر من كل السبل المؤدية إليه، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ فهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه؛ لا يكون هناك ضمان، إذ النفس البشرية كالجواد الهائج، إذا لم تروض وفق طاعة الله ملتزمة أمره ونهيه، وإلا أخذ الشيطان بلجامها وقادها في ظلمة المعصية إلى نار جهنم، والعياذ بالله.

ولئن جاء تصريح الشرع باعتبار الزنا فاحشة، فإن العقل والفطرة السليمة ينبذان تلك الفعلة المشينة؛ صيانة لحق المرأة وزوجها، وحق أهلها، وتحرزاً من إفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد.

ومن الفواحش المنكرة؛ نكاح القريبات بالرحم والمصاهرة. فمن ذلك نكاح زوجة الأب، قال تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

فقد كان في العرب قبائل اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه، وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي، فحرّم الله تبارك وتعالى عليهم المقام

(١) أخرجه البخاري. كتاب المظالم. باب النهي بغير إذن صاحبه. ح (٢٤٧٥)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي. ح (٥٧).

(٢) تقدم تخريجه ص ٧٦

عليهن، وعفا لهم عما سلف من فعلهم في جاهليتهم وشركهم ، فلم يؤاخذهم به؛ إن هم اتقوا الله في إسلامهم وأطاعوه فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما "كان أهل الجاهلية يجرمون ما يحرم، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] ^(١).

وعن عدي بن ثابت ^(٢) عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس ^(٣) - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدك ولداً، وأنت من صالحى قومك، ولكن آتى رسول الله ﷺ فاستأمره، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي فقال: خيراً، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً فما ترى؟ فقال لها: ارجعي إلى بيتك، قال: فترلت ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية ^(٤).

وعقب سبحانه وصف هذا النكاح الفاسد بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ففيه الذم البالغ المتتابع على فعل هذه الفاحشة العظيمة، بل كيف يفعلها من له أدنى حس؟! فإن المرأة التي نكحها الأب؛ صارت بمنزلة الأم. ويلتمس من هذه الآية؛ أن الزنا وأن كان من الكبائر، إلا أن منه ما يكون أشد قبحاً وأعظم جريرة، فهو على مراتب؛ فإذا كان بأجنبية لا زوج لها فهو عظيم، وأعظم منه بأجنبية لها زوج، وأعظم منه بمحرم، وزنا الشيب أقبح من زنا البكر؛ بدليل اختلاف حدّهما، وزنا الشيخ لكمال عقله؛ أقبح من زنا الشاب، وزنا الحرّ والعالم لكما لهما؛ أقبح من زنا العبد والجاهل ^(٥).

(١) جامع البيان ٦٦٠/٣، القرطبي ٦٨/٥، وصححه مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص ٧٥.

(٢) عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي، ثقة رُمي بالتشيع، قال أحمد: ثقة، قال أبو حاتم: صدوق كان إمام مسجد

الشيعة وقاصهم، مات سنة ١١٠هـ . انظر: سير أعلام النبلاء ١٨٨/٥، الجرح والتعديل ٤/٧

(٣) أبو قيس بن الأسلت: اختلف في اسمه وإسلامه، فذكر أنه أسلم بعد لقاء النبي ﷺ وكان في الجاهلية يتأله ويدعى

الحنيف وذكر المفسرون أن هذه الآية فيه وفي امرأته وابنه من غيرها. انظر: الإصابة ٢٧٨/٧، أسد الغابة ٧٢/٥

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩٠٩/٣.

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر. للهيتمي ٢٥٣/٢.

ومن الفواحش: اللواط

يقال: لاطَ الرجل ولاوطَ، أي: عمِلَ عمَلَ قوم لوط^(١).

قال سبحانه ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨١﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].
قال ابن القيم في وصف هذه الفاحشة: "وهذا داءٌ أعْيى الأطباء دواؤه وعزٌّ عليهم شفاؤه، وهو - لعمر الله - الداء العضال، والسّم القَتال الذي ما علق بقلب؛ إلا وعزٌّ على الورى استنقاذه من إساره، ولا اشتعلت ناره في مُهجة؛ إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره"^(٢).

ولم يُبتل بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحد من العالمين، فأكد سبحانه جُرم هذه الفاحشة؛ بأن لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فسبقتهم لفعل الفاحشة برهان ظاهر على عظم فسادهم.

ثم زاد في التأكيد بأن صرّح بما تشمئز منه القلوب، وتنبوا عنه الأسماع، وتنفر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه؛ كما ينكح الأنثى، فقال ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه؛ ليس إلا مجرد الشهوة، لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى؛ من قضاء الوطر؛ ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة.

ثم أكد - سبحانه - قبح ذلك؛ بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليه الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركّبها الله في الذكور، وهي الشهوة في النساء ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، فلما نُكسوا في فطرتهم؛ نُكسوا في العذاب على رؤوسهم، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، ثم أكد سبحانه قبح ذلك؛ بأن حكم عليهم بالإسراف، وهو مجاوزة الحدّ، فقال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

فتأمل هل جاء ذلك أو قريباً منه في الزنا؟

(١) الصّحاح في اللغة للجوهري ١٥٣/٢. لسان العرب ٣٩٤/٧. مادة (لوط)

(٢) الجواب الكافي لابن القيم، ص ٣٥٣.

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله ﴿وَنَجِّنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ثم وصمهم بوصفين في غاية القبح، فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ﴾ وسمّاهم مفسدين في قول نبيهم لوط عليه السلام حيث قال ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]. وسمّاهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]، بل - كذلك - وصفتهم الملائكة بالإجرام ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨].

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات؛ ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات. (١)

ثم انظر لهف اللوطية إلى واقعة الفاحشة والإسراع إليها وبشارتهم بها ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨] ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

ثم تأمل قوله ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨]. تجد فائدة بليغة مفادها: أثر تلك الجريمة على الجوارح، واستحواذها على العقول، فلم يقدرُوا نبيهم حق قدره، ولم يعرفوا لأضيافه حقهم؟!!

وأما قوله ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيَّفِي فَلَا نَفْضَحُونَ﴾ [الحجر: ٦٨]، ففيه إشارة إلى أن هذه الفاحشة فضيحة في ذاتها. فكيف لو كانت هذه الفعلة القبيحة في حق أضياف كرام؟! كيف ستكون الفضيحة؟ ومن تأمل قوله تعالى - في خطاب لوط لقومه - ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أدرك أن إدمان الفواحش - كما أنه يضعف الدين - فهو يُذهب مروءة الإنسان، ويقضي على ما بقي فيه من أخلاق ورشد.

إنها لكبيرة شنيعة؛ تقشعر الجلود من سوء فعلها... وإنها الشهوة حين تسيطر على العقول فتحولها من بشرية مكرمة، إلى بهيمية عمياء... فهل ستجد وصفاً أبلغ من قوله ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فذاك قسم بحياة خليله ﷺ على سكر عقولهم، وهل يحتاج الأمر إلى قسم؟.. ثم من المُقسم؟.. إنها السكرة التي ذهبت معها أحلامهم، فلم يسمعوا النصيحة المبقية، فأسمعهم الله الصيحة المهلكة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]. نعوذ بالله من سوء المآل.

(١) انظر: الجواب الكافي لابن القيم. ص ٢٩٤-٢٩٨. بتصرف.

محاربة القرآن الكريم للفواحش:

ومن محاربة القرآن الكريم للفواحش، سدّ كل طريق يؤدي إليها، ومن ذلك التحذير الشديد، والوعيد الأكيد، لمن يجون إشاعة الفاحشة ويتلذذون بذلك، قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩] فقد نزلت هذه الآية الكريمة في أعقاب حادثة الإفك.

وهي تكشف أسلوباً ماكرًا من أساليب الأعداء، في الصدّ عن دين الله تعالى، ذلك أن الكفار والمنافقين؛ يدركون أن تلك القوة التي يملكها المسلمون؛ من الصعب أن تُغلب، إذ إن وراءها تربية متينة، جعلت مجتمع أهل الإسلام أشبه بحصون منيعة، مما حملهم على استبدال الغزو الحربي بغزو إباحي، حتى يتسنى لهم السيطرة على المسلمين، وتدمير شبابهم، ونشر الرذيلة بينهم، فتخور حينئذ قواهم، وتضعف عزائمهم.

فسعوا جاهدين إلى أن يوصلوا باب الطهارة والعفة، من خلال الإيحاء بأن حرية المرء الشخصية تخوّله أن يفعل ما شاء، ويدع ما شاء، وأن الفاحشة سائدة في المجتمع؛ ومن ثمّ تهنأ إليها النفوس، وتشيع محبتها في القلوب، وحينها يجد الأعداء بُغيتهم، ويحصلون مرادهم. وإذا كانت إشاعة الفاحشة ديدن أهل الفسق والفجور، منذ الصدر الأول، فما عسى أن يقال الآن، ونحن نعيش زمن انفتاح الحضارات بمختلف ثقافتها، وكأن العالم بأسره؛ أصبح كقرية واحدة، فأصبحت وسائل التواصل والاتصال في متناول الجميع.

ومما لا شك فيه؛ أن وسائل الإعلام المعاصر أصبحت لغة العصر، غير أن جانبها السلبي كان له أثره المباشر والخطير في نشر الرذيلة، وهدم الفضيلة، ففسدت القيم والأخلاق، ألا من رحم الله تعالى.

شاهد ذلك ما تبثه كثير من القنوات الفضائية، ومواقع الإنترنت من خلاعة ومجون، ومن الخطورة المحدقة أن معظم مستخدمي تلك التقنية هم من الشباب، وفي الشباب ما فيه.

فلك أن تنظر بعين الحقيقة لا الخيال؛ فتيناً حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، قد سمرت عيونهم في النظر إلى تلك الشاشات التي تعرض الفاحشة بصور بشعة مخزية، يستحي العاقل من ذكرها، فتثير غرائزهم، وتستوقد نار الشهوة في نفوسهم، فإذا هي هائجة تسعى جاهدة في غياب للعقل والدين لتفريغ هذه الشهوة في أي سبيل.

لقد أثبتت الدراسات في هذا الشأن؛ حقائق جعلت الحلیم حیران، حیث أكّدت الإحصاءات العالمیة أن ٥٧ ملیار دولار، تصرف سنویاً فی ترویج المواد الإباحیة عبر وسائل الإعلام، وأن ٨٣،٥ ٪ من الصور المتداولة فی المجموعات الإخباریة فی الإنترنت؛ هی صور إباحیة. والذی یزید الأمر خطورة أن أكثر المتداولین لتلك المواد الإباحیة؛ هم فئة الشباب ما بین ١٢-١٧ عاماً.

كما أن ٦٥،٩٨ ٪ من عملیات البحث فی محرکات البحث المتخصّصة بالصور؛ تطلب المواد الإباحیة.^(١)

والذی یزید الجرح ألماً والقلب حزناً؛ أن معظم الآباء لا یعلمون شیئاً عما یفعله أبناؤهم مع تلك الوسائل المدمرة.

(١) انظر: الإباحیة وتبعاتها، د. مشعل القدهی.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

أولاً: فساد المعاملات:

من جوانب عظمة هذا الدين؛ أنه جاء صالحاً لأحوال العباد في معاشهم ومعادهم، فلم يكن معنياً بعلاقة العبد بربه فحسب، بل جاء مصلحاً لجميع جوانب الحياة، فهذب السلوك، وقوّم الأخلاق؛ ليعيش المرء مع من حوله وفق منهج سليم، إذ المرء جزء من مجتمعه؛ لا ينفك عنه بحال.

ومما جاءت به الشريعة ونظمتها، ولم يُترك للبشر يخوضون فيه بأهوائهم؛ ما يتعلق بالأموال وتبادلها، وكسبها وإنفاقها؛ إذ إن الأموال قيام البشر، وأساس حضارتهم وعمرانهم، فحُسن تعاملهم بها؛ يعود عليهم بالأمن والرخاء والاستقرار، وسوء استخدامهم لها؛ يكون سبباً للخوف والجوع والاضطراب.

والمال مال الله تعالى، والرزق رزقه سبحانه، وهبه للبشر، وسخره لمعايشهم، فوجب عليهم أن يتصرفوا فيه وفق شريعته عز وجل؛ ليتحقق العدل، ويرفع الظلم.

ومن سنته تعالى القدريّة في عباده أن جعلهم متفاوتين في الرزق والمال، متباينين في الغنى والفقرة ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وحكمة هذا التفاوت في الأموال والأرزاق؛ تسخير بعضهم لبعض، كما قال سبحانه وتعالى ﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزحرف: ٣٢].

ثم جاءت سنة الله تعالى الشرعية الاختيارية، في علاج هذا التفاوت بين البشر؛ لئبتي العباد بها؛ فإن هم أقاموها وعملوا بمقتضاها استقامت حياتهم، واستقرت أحوالهم، وأرغد عيشهم، مع ما ينالونه من الأجر على إيمانهم، واستقامتهم على أمر الله تعالى، وإن هم عارضوها؛ لأجل حظوظ أنفسهم؛ تكدّرت حياتهم، واضطربت أحوالهم، ونزعت بركة أموالهم، وأرزاقهم فلا تكفيهم مهما كانت كثرتها.

ومن سنة الله تعالى الشرعية في الأموال؛ أن أراد - سبحانه - أن تصل إلى كل البشر، ولا يستولي عليها فئة من الناس دون غيرهم، فيستأثرون بها عنهم، ويديرونها بينهم، ويحرمون منها غيرهم، قال تعالى ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر: ٧].

أي: كيلا يكون الفيء دولة بين الأغنياء دون الفقراء، والدولة اسم للشيء يتداوله القوم بينهم يكون لهذا مرة ولهذا مرة^(١)، والمعنى: أنه يغلب الأغنياء الفقراء عليه؛ فيقسمونه بينهم.

ولأن سنة الله تعالى الشرعية التي أمرنا بها؛ قاضية بأن لا يكون المال دولة بين الأغنياء دون غيرهم، فإن الله تعالى شرع ضوابط وقيوداً على البيوع والتجارات والشركات، وتبادل الأموال، بأي طريق كان؛ لئلا تُطلق فيه أيدي الأغنياء والواجدين؛ فيسحقوا الفقراء والمعدمين، فمنعت الشريعة الربا والقمار، والغش والاحتكار، والنجش وتلقي الركبان، وفرضت شروطاً للبيع تمنع الغرر، وترفع الضرر، وتدور بها السلع والأموال في الأسواق بالعدل والرضا.

وقد ذكر الكتاب العزيز جملة من المعاملات الفاسدة، والتي كانت سائدة بين الناس، فنهى عنها، وحذر منها؛ لمخالفتها القواعد الشرعية، والمصالح المرعية.

فأعظم المعاملات الفاسدة الربا:

وهو شرعاً: عقد على عوض مخصوص، غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما، وقيل: هو تفاضل في أشياء ونسأ في أشياء؛ مختص بأشياء وردّ الشرع بتحريمها.^(٢)

والمشهور أنه على نوعين:

الأول: ربا الفضل؛ وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المتفقي الجنس على الآخر، كبيع صاع بُرّ بأقل من صاع برّ أو بأكثر، أو درهم فضة بأقل من درهم أو بأكثر، سواءً تقابض المتبايعان أم لا، وسواءً أجلاً أم لا.

ودليله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً بمثل، والفضة بالفضة وزناً بوزن مثلاً بمثل، فمن زاد أو استزاد فهو ربا"^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير،

(١) انظر: لسان العرب ٢٥٢/١١ مادة (دول).

(٢) انظر: كشف القناع ٢٥١/٣، الإنصاف ٥٩/٨، شرح منتهى الإرادات ١٠/٥.

(٣) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً ح (١٥٨٨).

والمالح بالمالح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد؛ فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه" (١)
والثاني: ربا النسئة؛ وهو البيع للمطعمين أو للنقدين المتفقي الجنس، أو المختلفيه، لأجل،
وإن استويا وتقابضا في المجلس.

ودليله حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا
تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلاً بمثل، ولا تُشَفِّوا" (٢) بعضه على بعض، ولا تبيعوا شيئاً غائباً منه
بناجز؛ إلا يداً بيد" (٣).

قال ابن القيم: "الربا نوعان: جلي وخفي، فالجلي حُرِّم لما فيه من الضرر العظيم، والخفي حُرِّم
لأنه ذريعة إلى الجلي، فتحريم الأول قصداً، وتحريم الثاني وسيلة.

فأما الجلي فربا النسئة، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في
المال، وكلما أخره؛ زاد في المال، حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة.

وأما ربا الفضل؛ فتحريمه من باب سد الذرائع، كما صرح به حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين، فإني أخاف عليكم الرما" (٤) والرما هو الربا،
فمنعهم من ربا الفضل؛ لما يخافه عليهم من ربا النسئة.

وذلك أنهم إذا باعوا درهماً بدرهمين - ولا يفعل هذا إلا للتفاوت الذي بين النوعين؛ إما في
الجودة وإما في الثقل والخفة وغير ذلك - تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر، وهو
عين ربا النسئة، وهذه ذريعة قريبة جداً، فمن حكمة الشارع أن سدَّ عليهم هذه الذريعة،
ومنعهم من بيع درهم بدرهمين، نقداً ونسئة، فهذه حكمة معقولة مطابقة للعقول، وهي
تسدُّ عليهم باب المفسدة" (٥).

وكل أنواع الربا حرام بنص الآيات والأحاديث والإجماع، قال ابن حجر الهيتمي (٦): "عدُّ

(١) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً ح (١٥٨٨).

(٢) أي: "لا تُفَضِّلُوا، والشَّفِّ: التَّقْصَانُ أيضاً، فهو من الأضداد. يقال: شَفَّ الدَّرْهَمَ يَشْفِيهِ؛ إذا زَادَ وَإِذَا نَقَصَ".
انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/٨٧٨).

(٣) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب الربا. ح (١٥٨٤).

(٤) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب الربا ح (١٥٨٥)، وزيادة "فإني أخاف عليكم الرما" جاءت عند ابن أبي شيبة ٢٩٩/٥.

(٥) انظر: إعلام الموقعين ١/١٥٤.

(٦) أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي، كان علامة، وكان على مذهب الأشاعرة، مات بمكة

وودفن بالمعلاة، سنة ٩٧٤هـ. انظر: شذرات الذهب لابن العماد ٨/٤٣٥، الأعلام ١/٢٣٤.

الربا كبيرة هو ما أطبقوا عليه اتباعاً لما جاء في الأحاديث الصحيحة من تسميته كبيرة، بل هو من أكبر الكبائر" (١).

وفي صريح قوله ﷺ "اجتنبوا السبع الموبقات" .. وذكر منها: "أكل الربا" (٢).

قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٨٠].

"ففي هذه الآيات نظم القرآن أهم أصول حفظ المال، فأوجب فيه الزكاة، وحث على الصدقة ورجب فيها، ثم عطف الكلام لإبطال وسيلة كانت من أسباب ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين إليهم، وهي المعاملة بالربا، الذي لقبه النبي ﷺ بربا الجاهلية، وهو أن يعطي المدين مالا لدائنه زائداً على قدر الدين؛ لأجل الانتظار، فإذا حل الأجل ولم يدفع؛ زاد في الدين، يقولون: إما أن تقضي وإما أن تُربي، وقد كان ذلك شائعاً في الجاهلية، والظاهر أنهم كانوا يأخذون الربا على المدين من وقت إسلامه، وكلما طلب الإنظار أعطى رباً آخر، وربما تسامح بعضهم في ذلك" (٣).

وكان العباس بن عبد المطلب ﷺ مشتهراً بالمراباة في الجاهلية، ولذا جاء في خطبة حجة الوداع نقضه ﷺ لهذه المعاملة الفاسدة بقوله: "وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا؛ ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله" (٤).

ولم ترد آية في الربا؛ إلا جاء قبلها أو بعدها ذكر الصدقة أو الزكاة، وفي هذا إشارة لطيفة بأن الربح الحقيقي في الصدقة والزكاة، لا بالربا، كما يتوهم المرابون.

(١) الزواجر ١/٤٤٠.

(٢) سبق تخرجه ص ٥٦.

(٣) التحرير والتنوير ٢/٤٧٥.

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الحج. باب حجة النبي ﷺ. ح (١٢١٨).

وآية الروم كشفت المكنون ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وفي سورة البقرة ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. وهذا عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال، وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتنال أمره، فالتجري على الربا، يعاقبه الله بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة. (١)

وقد ضرب - سبحانه - مثلاً قوياً يعنّف فيه الذين يأكلون الربا، فبين أنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ أي: الخبل والجنون، فهم كلما قاموا سقطوا على وجوههم وجنوبهم كما أن المصروع يحصل له ذلك. وسرّ ذلك؛ أنهم لما أخذوا هذا السحت بوجه المكر والخداع والمحاربة لله ورسوله وأكلوه في بطونهم، فزاد حتى أثقلها حتى عجزوا عن النهوض، فصاروا كلما أرادوا الإسراع مع الناس ونهضوا سقطوا على وجوههم وتخلّفوا عنهم.

قال قتادة: تلك علامة أهل الربا يوم القيامة، بعثوا بهم خبل من الشيطان. (٢)
"وليس المقصود في هذه الآية الأكل، إلا أن الذين نزلت فيهم هذه الآيات - يوم نزلت - كانت طعمتهم ومأكلهم من الربا، فذكرهم بصفتهم، معظماً بذلك عليهم أمر الربا، ومقبّحاً إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم" (٣).

إنها صورة مرعبة، ما كان أي تهديد ليلبغ الحس ما تبلغه هذه الصورة - صورة الممسوس المصروع - وهي صورة معروفة للناس، فالنص يستحضرها لتؤدي دورها في التحذير، لتَهزّ مشاعر المرابين، فتخرجهم من مألوف عاداتهم السيئة، ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة.

ولما كان خطاب الآيات ظاهر الدلالة في التحريم؛ تدرّج بعضهم بشبهة فاسدة فقالوا ﴿إِنَّمَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١١٦

(٢) انظر: جامع البيان ١٠٣/٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٠٣/٣.

أَبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۖ فَالْكَسْبُ الْمَادِي هُوَ الْمَقْصَدُ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ بِزَعْمِهِمْ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَوْضِعَهُ ۖ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۖ أَي: أَحَلَّ اللَّهُ الْأَرْبَاحَ فِي التِّجَارَةِ وَالشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ، وَحَرَّمَ الرِّبَا، فَبَيَّنَّ - سَبَّحَانَهُ - أَنَّ الزِّيَادَتَيْنِ اللَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنْ وَجْهِ الْبَيْعِ، وَالْأُخْرَى مِنْ وَجْهِ تَأْخِيرِ الْمَالِ، وَالزِّيَادَةُ فِي الْأَجْلِ؛ لَيْسَتْ سِوَاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الزِّيَادَةَ الَّتِي هِيَ بِسَبَبِ تَأْخِيرِ الْمَالِ وَأَحَلَّ الْأُخْرَى^(١).

وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ الشَّبَهَةُ الَّتِي رَكَنُوا إِلَيْهَا وَاهِيَةً لَا تَصْلُحُ، فَالْعَمَلِيَّاتُ التِّجَارِيَّةُ قَابِلَةٌ لِلرِّبْحِ وَالْخُسَارَةِ، وَالْمَهَارَةُ الشَّخْصِيَّةُ، وَبِذَلِكَ الْجُهْدِ، وَالظُّرُوفُ الْجَارِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ؛ تَتَحَكَّمُ فِي الرِّبْحِ وَالْخُسَارَةِ، أَمَّا الْمَعَامَلَاتُ الرَّبَوِيَّةُ؛ فَهِيَ مُحَدَّدَةٌ الرِّبْحِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَارَقُ الرَّئِيسُ، نَاهِيكَ عَنِ الْإِبْتِرَازِ وَالِاسْتِغْلَالِ، وَإِيقَاعِ الْفَقِيرِ تَحْتَ رَحْمَةِ الْغَنِيِّ؛ مِمَّا يَزِيدُهُ إِرْهَاقًا وَمَدْيُونِيَّةً، وَهَذَا مَنَاطُ التَّحْرِيمِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَبْطَلَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى شَبَهَةَ الْمَرَائِينِ الَّذِينَ يَحْتَالُونَ لِأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، جَاءَ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقِفُونَ عِنْدَ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ.

وَيَأْتِي سِيَاقُ الْآيَاتِ فِي نَهْيِ الْمَطَافِ، مَعَ الَّذِينَ يَصْرُونَ عَلَى أَكْلِ الرِّبَا، فَلَا هُمْ تَابُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْمَوْعِظَةُ، فَأَخَذُوا رُؤُوسَ أَمْوَالِهِمْ، وَأَعْلَنُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا هُمْ أَيْسَرُوا الْمَعْسِرِينَ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ ۖ ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ۖ فَأَكَّدَ عَلَيْهِمُ التَّحْرِيمَ بِأَغْلَظِّ شَيْءٍ وَأَشَدِّهِ، وَفِي ضَمَنِ هَذَا الْوَعِيدِ أَنَّ الْمَرَايِيَّ مَحَارِبَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، قَدْ أذَنَهُ اللَّهُ بِحَرْبِهِ، وَلَمْ يَجِئْ هَذَا الْوَعِيدُ فِي كَبِيرَةٍ سِوَى الرِّبَا، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ، وَالسَّعْيَ فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَفْسَدٌ فِي الْأَرْضِ، قَاطِعُ الطَّرِيقِ عَلَى النَّاسِ، هَذَا بِقَهْرِهِ لَهُمْ وَتَسْلُطِهِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا بِامْتِنَاعِهِ مِنْ تَفْرِيجِ كَرْبَاتِهِمْ؛ إِلَّا بِتَحْمِيلِهِمْ كَرْبَاتٍ أَشَدَّ مِنْهَا.

ثُمَّ قَالَ سَبَّحَانَهُ ۖ ﴿وَإِنْ تُبْتِئْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ۖ يَعْنِي إِنْ تَرَكْتُمْ الرِّبَا، وَتَبْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاقَدْتُمْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّمَا لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَزْدَادُونَ عَلَيْهَا فَتَظْلِمُونَ الْآخِذَ وَلَا تَنْقُصُونَ مِنْهَا فَيُظْلِمُكُمْ مِنْ أَخْذِهَا، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْقَابِضُ مَعْسِرًا، فَالْوَاجِبُ إِنْظَارُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ، وَإِنْ تَصَدَّقْتُمْ عَلَيْهِ وَابْرَأْتُمُوهُ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ لَكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ، فَإِنْ

(١) انظر: جامع البيان ٣/١٠٤.

أبت نفوسكم، وشحت بالعدل الواجب، أو الفضل المندوب، فذكروها يوماً ترجعون فيه إلى الله، وتلقون ربكم، فيوفيكهم جزاء أعمالكم، أحوج ما أنتم إليه، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي.

وإنه لفساد عريض حين يرى المرء الاقتصاد العالمي المعاصر قائماً على الربا، لا يجعل المال ينتقل إلى المحتاج إلا في صورة ربوية آثمة، كما هو الحال في المؤسسات الدولية التي تجعل الناس يعيشون بلا ضمانات، ما لم يكن لهم رصيد من المال، أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسات التأمين الربوي، حتى جعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذي تقوم به؛ ما لم تحصل عليه بقروض ربوية، يعجزون في أحيان كثيرة عن سدادها؛ فيقعون تحت وطأة القوانين السقيمة.

وبسبب الفساد الناتج عن المعاملات الربوية الفاسدة، انقسم الناس قديماً وحديثاً إلى فئات رأسمالية، وفئات اشتراكية، والإسلام من هؤلاء جميعاً براء.

فالإسلام ينكر اعتبار الغني - الرأسمالي^(١) - هو المالك الحقيقي لماله وثروته، فهو ينكر هذه النظرة من أساسها، ويرى أن المال مال الله هو خالقه وواهبه، وأن الغني مستخلف فيه، وأمين عليه، وإن شئت فقل: هو نائب عن المالك الحقيقي في رعايته وتنميته وتصريفه، وفقاً لأوامره ومرضاته، قال تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. وقال ﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وأما الفقراء الذين انتحلوا المذهب الاشتراكي^(٢)، والذين لا يرون حلاً للمشكلات الاقتصادية - الناتجة عن تضخم رأس المال - إلا بتحطيم طبقة الأغنياء، ومصادرة ما ملكوا، وتحريم مبدأ الملكيات، وتأليب الطبقات الفقيرة على الأغنياء، وتغذية الصراع الطبقي بوقود الحقد والعداوة، حتى تنتصر الطبقات الكادحة.

وهؤلاء أيضاً لم يستطيعوا أن يوجدوا حلولاً للمشكلات الاقتصادية، فالذي فعلته؛ أنها أنزلت

(١) الرأسمالية: نظام اقتصادي يستند إلى هيمنة الأفراد والقطاع الخاص، على ملكية وسائل الإنتاج للربح. انظر:

الموسوعة العربية العالمية ٨٩/٧ والأساليب الحديثة لسعد الدين السيد صالح ص ١٧

(٢) الاشتراكية: مذهب اقتصادي يقضي باحتكار الدولة لوسائل الإنتاج، كملك عام للشعب. انظر: الموسوعة العربية

الأغنياء ولم ترفع الفقراء^(١).

وبعد انهيار المذهب الاشتراكي، أصبحت الرأسمالية، هي المسيطرة على النظام الاقتصادي في كثير من دول العالم، مما فتح باب المعاملات الربوية على مصراعيه.

ومن المعاملات الفاسدة:

الرشوة: وهي ما يعطى لإبطال حق وإحقاق باطل^(٢).

قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وتنوعت أقوال المفسرين في معنى الآية، فمنهم من حملها على أكل مال الغير وحده ذلك، حتى يحصل بينهم التخاصم إلى الحاكم^(٣).

ومنهم^(٤) من ذكر جملة من المنهيات في باب المعاملات، كالرشوة. وتخصيص هذه الصورة بالنهاي؛ إظهار لشناعتها، ولأنها جامعة لمحرمات كثيرة، فدلالتها على أن معطي الرشوة آثم مع أنه لم يأكل مالا بل أكل غيره، وأدلى بها إلى الحكام ليقضوا له بمال غيره، ولو قضى له الحاكم فإنه لا يغير صفة أكل المال بالباطل، ويؤكد تحريم الجور في الحكم ولو بدون إرشاء، لأن في الرشوة تغير الحق وقطع السبيل.

وهذا من أهم الأشياء التي تصدى لها الإسلام، لينقض بنيان الجاهلية الذي أسس على الظلم والعدوان.

وقد رتب الله تعالى على الرشوة اللعن للمعطي والآخذ، كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ما "لعن رسول الله صلی الله علیه وسلم الراشي والمرتشي"^(٥)، ذلك لأنهم تجرؤا على حقوق غيرهم، والله تعالى قد أعطى كل ذي حق حقه، فالرشوة إنما تُعطى في الحقيقة لآخذ حق ليس لمُدَّعيه، فعظم الأمر فيها، حتى كان ماله الطرد من رحمة الله تعالى.

(١) انظر: مشكلة الفقر وكيف عاجلها الإسلام، د. يوسف القرضاوي. ص ١١.

(٢) التعريفات ص ١١٦.

(٣) انظر: جامع البيان ٢/١٩٠، تفسير القرآن العظيم ١/٥٢٥.

(٤) انظر: جامع البيان ١/٢١٠، الجامع لأحكام القرآن ٢/٣٣٥، ابن عاشور ٢/١٩٠.

(٥) أخرجه الترمذي. كتاب الأحكام. باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم. ح (١٣٣٧)، وأحمد ٢/٣٨٧،

والحاكم في المستدرک ٤/١٠٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٩٣).

"قال العلماء: فالراشي هو الذي يعطي الرشوة، والمرتشي هو الذي يأخذ الرشوة، وإنما تلحق اللعنة الراشي إذا قصد بها أذية مسلم؛ أو ينال بها ما لا يستحق، أما إذا أعطى ليتوصل إلى حق له، ويدفع عن نفسه ظلماً؛ فإنه غير داخل في اللعنة، وأما الحاكم فالرشوة عليه حرام أبطل بها حقاً، أو دفع بها ظلماً"^(١).

ولا ريب أن هذه المعاملة الرذيلة جملة من المفاصد والأضرار، فهي مفسدة للمجتمع حكماً ومحكومين، فلا يلبث من له نهم في الارتشاء سلب أموال الناس، لأنه لن يفعل شيئاً حتى يحصل على ما اعتاده من صاحب المصلحة، والراشي كذلك يكون قدّم مصلحته، وعطل مصلحة غيره، وحينئذ تضيع حقوق الضعفاء، ويرفع شأن السفهاء، ويُحى الأكفاء.

وبها تضعف روابط المجتمع، فهي توغر الصدور، وتؤجج نار الحقد والكراهية، بسبب ضياع الحقوق، ناهيك عن تعطّل المصالح وإلحاق الضرر بالناس الذين لا يجدون إلا جهدهم، ولضيق ذات اليد يجرمون حقوقهم.

ومن المعاملات الفاسدة:

التطفيف في الميزان: "وهو تقليل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه.

ويستنبط مما جاء به القرآن الكريم؛ أن التطفيف هو الاستيفاء من الناس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير التي يتعامل بها الناس"^(٢).

قال تعالى ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿المطففين: ١-٦﴾.

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بـ "الويل للمطففين، فيه النعي على قوم آثروا الحياة الزائلة على الحياة الباقية، وهالكوا في الحرص على استيفاء أسبابها حتى اتسموا بأخس السمات وهي التطفيف، وهو مشعر بشدة خطر هذا العمل، لأنه مقياس اقتصاد العالم، وميزان التعامل، فإذا احتل؛ أحدث خللاً في اقتصاده، وبالتالي اختلالاً في التعامل، وهو فساد كبير.

وفي الإشارة إليهم بقوله ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ وقد ذكرهم عمّا قريب؛ تبعيد لهم عن مرتبة

(١) الكبائر للذهبي. ص ١٦٤.

(٢) انظر: المفردات للراغب، ص ٣٨، ٣١٤.

الاعتبار، وفي هذا الإنكار ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لرب العالمين؛ بيانٌ بليغ لعظم هذا الذنب^(١).

وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف، إذ كان وجوده متفشياً في المدينة أول هجرتهم، وفيه ذمٌ للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم النبي صلّى الله عليه وآله المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.^(٢)

وحسبهم أن التطفيف يجمع ظلماً واختلاصاً ولؤماً، والعرب كانوا يتعبدون بكل واحد من هذه الخلال متفرقة ويتبرؤون منها، فكيف يأتونها مجتمعة، وناهيك بذلك أفناً.

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن، والحث على العناية بهما في عدة مواطن، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام.

قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]. وهذا أمر بالعدل، وإيفاء المكايل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص.

ومن ثم فإن الأمر بإيفاء الكيل والوزن؛ طلب للإنصاف والانتصاف، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف.

ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئتمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

وقوله ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات وبه تنزل البركة^(٣).

وإذا ظن أصحاب هذا الفعل أن ذلك ينفعهم شيئاً في تثمير المال، فقد محقوا بركة أموالهم، بل لا يزال فسادهم ذلك يزداد؛ حتى تنزل بهم العقوبة، مجازاةً لهم على سوء فعلهم، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال صلّى الله عليه وآله "يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ... وفيه" ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين... الحديث.^(٤)

(١) انظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٦٢/٦، أضواء البيان ٩١/٩.

(٢) أخرجه ابن ماجه. كتاب التجارات. باب: التوقي في الكيل والوزن. ح (٢٢٢٣)، وابن جرير ٤٨٣/١٢. وحسنه

الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٥٧/٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٦.

(٤) سبق تخريجه ص (٩٠)

وقد وردت قصة مدين في مواضع متعددة من القرآن العظيم، وذكرت أن أصحاب مدين من أسوأ الناس معاملة، فكانوا يبخسون المكيال والميزان، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فقال لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

فوعظهم بلسان المشفق عليهم مما هم فيه من إنقاص الوزن والمكيال، وأنه يخشى عليهم سوء العاقبة في الآخرة، فنصحهم بقوله ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

فأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وكانوا قوماً جبارين، يجلسون على الطريق، ويأخذون العشور على المارة، فحذّرهم من ذلك، وذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله إن هم خالفوا ما أرشدهم إليه ودلّهم عليه، وقال لهم ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]. أي: رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف والبخس.

وبعد هذا الوعيد يتبين أن هذه المعاملة الفاسدة من كبائر الذنوب، وهو ما صرح به أهل العلم، وتسمية هذا العمل اللئيم تطفيفاً؛ قرينة بأن صاحبه لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف، وهو يشعر بأن هذا العمل؛ ضرب من الاختلاس والسرقة، مع ما ينبئ من عدم المروءة، وهو دليل على شح النفس، وتعلق القلب بالكسب الخبيث.

ومن المعاملات الفاسدة:

القمار والميسر: وهو كل لعب على مال يأخذه الغالب من المغلوب كائناً ما كان، إلا ما استثني في باب السبق^(١).

وقيل: هو كل لعب يشترط فيه الغالب من المتغالبين أخذ شيء من الملعوب معه^(٢).

(١) وهي: مُسَابِقَةُ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالسَّهَامِ، وقد ذكر الشيخ السعدي: "أن شيخ الإسلام اختار أنه يلحق بهذه الثلاثة ما كان في معناها، مما يقوي على طاعة الله والجهاد في سبيله والمراعاة في المسائل العلمية؛ لأن الحكمة المبيحة لأخذ العوض في الثلاثة السابقة موجودة فيما كان في معناها، وهو الراجح دليلاً". هـ.

انظر: إرشاد أولي البصائر والألباب للسعدي ص ٢٢٢، ومجموع الفتاوى ٦١/٣١.

(٢) التعريفات. ص ١٨٧.

والفرق بينه وبين البيع، أن القمار لا بدل فيه، لأن المقامر إما أن يربح وإما أن يخسر، أما البائع فإنه يبذل السلعة مقابل الثمن.

وثبت تحريم ذلك بنص القرآن الكريم، قال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ومع أن لفظ القمار لم يرد صريحاً، إلا أنه داخل في الميسر، وأصل هذا أن الله سبحانه إنما حرّم علينا المحرمات من الأعيان؛ كالدم والميتة ولحم الخنزير، أو من التصرفات؛ كالميسر والربا، وما يدخل فيهما من بيوع الغرر وغيره، لما في ذلك من المفسد التي نبه الله عليها ورسوله ﷺ، بقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١].

فأخبر سبحانه أن الميسر يوقع العداوة والبغضاء، سواء كان ميسراً بالمال أو باللعب، فإن المغالبة بلا فائدة، وأخذ المال بلا حق؛ يوقع في النفوس ذلك^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الميسر القمار، كان الرجل في الجاهلية يخاطر - أي: يراهن - على أهله وماله، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله.^(٢) فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والميسر: مفعول، من قولهم يسر لي الشيء إذا وجب، ثم قيل للقمار ميسر، وكان أصل الميسر في الجزور، وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً، فينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء، ثم يسهمون عليها بعشرة قدام يقال لها الأزلام والأقلام، لسبعة منها أنصباء، وثلاثة منها لا أنصباء لها، ثم يجعلون القدام في خريطة تسمى الربابة، ويضعونها على يدي رجل عدل عندهم، ثم يجيئها ويخرج قداماً منها باسم رجل منهم، فأيهما خرج سهمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج، فإن خرج له واحد من الثلاثة التي لا أنصباء لها كان لا يأخذ شيئاً ويغرم ثمن الجزور كله.

وقال بعضهم: كان لا يأخذ شيئاً ولا يغرم، ويكون ذلك القدام لغواً، ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء، ولا يأكلون منه شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك، ويذمّون من لم يفعله، وهو أصل القمار الذي كانت تفعله العرب، والمراد من الآية أنواع القمار كلها.

(١) مجموع الفتاوى ٤٦/٢٩.

(٢) جامع البيان ٣٧١/٢.

وروي عن علي رضي الله عنه في النرد والشطرنج : أنهما من الميسر^(١).

وأما في زماننا هذا، فقد أخذ الميسر انتشاراً واسعاً، حتى صار له رواج في أوساط مجتمعات المسلمين، وقد بوأه تلك المكانة؛ ذلك الزخم الدعائي، حتى سُمِّيَ الميسر بغير اسمه، دليل ذلك؛ حال كثير من البنوك والشركات، التي تقدم عروضاً مغرية للناس، بما يسمونه التيسير، وهم في الحقيقة؛ يأكلون أموال الناس بالباطل، فمن صور الميسر المعاصرة:

ما يعرف باليانصيب، وله صور كثيرة من أبسطها شراء أرقام بمال، يجري السحب عليها، فالفائز الأول يعطى جائزة، والثاني كذلك، وهكذا في جوائز متعددة قد تتفاوت، فهذا حرام، وإن كان بزعمهم خيراً.

ومن صورهِ: أن يشتري سلعة بداخلها شيء مجهول أو يعطى رقماً عند شرائه للسلعة، يجري عليها السحب لتحديد الفائزين بالجوائز.

ومن صور الميسر في عصرنا عقود التأمين التجاري على الحياة والمركبات والبضائع وضد الحريق والتأمين الشامل وضد الغير، إلى غير ذلك من الصور المختلفة.

إن مفسدة هذا النوع من المعاملات؛ تظهر في أن الحظَّ والمصادفة؛ هو العنصر الأساس في كسب المال، فيؤتى المال أناسٌ دون بذل أي جهد، وتلك هي المنفعة التي ألححت إليها آية البقرة ﴿وَمَنْ لَفِغَ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، غير إن الآية الكريمة، أكدت أن المفسدة المترتبة على ذلك أشد وأعظم ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فهي تورث العداوة والبغضاء بين الناس. إن مفسدة الميسر عظيمة؛ لأنه اشتمل على مفسدتين: مفسدة أكل المال بالحرام، ومفسدة اللهو المحرم، إذ يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء، ولهذا حُرِّم الميسر قبل تحريم الربا^(٢).

قال ابن حجر المكي: سبب النهي عن الميسر وتعظيم أمره؛ أنه من أكل أموال الناس بالباطل الذي نهى الله تعالى عنه بقوله ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].^(٣)

ومن المفاسد المترتبة عليها؛ إشغال المسلم عن واجباته الشرعية، ومسئوليته في الحياة، ودفعه

(١) انظر: الجامع لاحكام القرآن ٥٣/٣، والدر المثور ٤٦٢/٣.

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٢٣٧ / ٣٢.

(٢) الزواجر ١٩٨ / ٢.

إلى المجون والفساد والترّف، كما هو حاصل في صالات القمار والميسر في هذه الأيام.

ومن المعاملات الفاسدة:

الحيل: وحققتها؛ كما قال الشاطبي: "تقديم عمل ظاهر الجواز؛ لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر" (١).

وقال أيضاً: "إذا تسبب المكلف في إسقاط الوجوب عن نفسه، أو في إباحة ذلك المحرم عليه، بوجه من وجوه التسبب، حتى يصير ذلك الواجب غير واجب في الظاهر، أو المحرم حلالاً في الظاهر أيضاً، فهذا التسبب يسمى حيلة وتخيلاً" (٢).

وعبر عنها ابن القيم بأنها "الطرق الخفية التي توصل إلى حصول الغرض، بحيث لا يتفطن له إلا بنوع من الذكاء والفتنة" (٣).

ويحسن التنبيه هنا إلى أن الحيل على نوعين:

نوع يُتوصل به إلى فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه.

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً، والظالم مظلوماً، والحق باطلاً، والباطل حقاً، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض (٤).

قال ابن تيمية: "ولقد تأملت أغلب ما أوقع الناس في الحيل، فوجدته أحد شيئين؛ إما ذنوباً جوزوا عليها بتضييق في أمورهم، فلم يستطيعوا دفع هذا الضيق إلا بالحيل، فلم تزد هم الحيل إلا بلاءً، كما جرى لأصحاب السبت من اليهود، كما قال تعالى ﴿فَيُظَلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وهذا الذنب ذنب عملي.

وإما مبالغة في التشديد لما اعتقدوه من تحريم الشارع؛ فاضطرهم هذا الاعتقاد إلى الاستحلال

(١) الموافقات ٤/٢٠١.

(٢) المصدر السابق ٢/٣٧٩.

(٣) إعلام الموقعين ٣/٢٤٠.

(٤) انظر: إغاثة اللهفان ١/٣٧٠.

بالحيل، وهذا من خطأ الاجتهاد، وإلا فمن اتقى الله، وأخذ ما أحل له، وأدى ما وجب عليه؛ فإن الله لا يجوجه إلى الحيل المبتدعة أبداً، فإنه سبحانه لم يجعل علينا في الدين من حرج، وإنما بعث نبينا ﷺ بالحنيفية السمحة، فالسبب الأول هو الظلم، والسبب الثاني هو عدم العلم، والظلم والجهل هما وصف للإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] (١).

ودلائل تحريم الحيل من الكتاب و السنة والإجماع كثيرة؛ ومن أصرحها ذم الله - عز وجل - أصحاب السبت، لأنهم تحايروا وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم، من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطبياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الحبال والبرك، قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة؛ نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت.

وانقسموا حيال تلك الحيلة إلى ثلاث فرق: معظمهم اعتدوا وتجروؤوا وأعلنوا ذلك، وفرقة أعلنت النهي عن ذلك وأنكرت عليهم فعلهم، وفرقة سكنت على هذا المنكر. فلما أصر المعتدون على فعلتهم؛ مسخهم الله في صورة قرده، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر، ومخالفة له في الباطن؛ كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْفُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم

شحومها، جَمَلَوْه - أي: أذابوه - ثم باعوه، فأكلوا ثمنه"^(١).

فَمِنْ احتياهم؛ أن الله تعالى لما حرّم عليهم شحوم الميتة، تأولوا أن المراد عين أكلها، وأن الشحم الحرّم هو الجامد دون المذاب، فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه، وقالوا: ما أكلنا الشحم! ولم ينظروا في أن الله تعالى إذا حرّم الانتفاع بشيء؛ فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو ببدله، إذ البديل يسدّ مسدّه، فلا فرق بين حال جامده وودّكه^(٢)، فلو كان ثمنه حلالاً لم يكن لتحرّمه وجه.^(٣)

وشبهة اليهود تلك، هي عين شبهة أرباب الشهوات من هذه الأمة، كما أخبر بذلك النبي ﷺ حين قال " لشربن ناس من أمّتي الخمر يسمونها بغير اسمها"^(٤).

وإنما أتى هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم ثبوته، وبذلك استحلوا المحرمات، بالتأويلات الفاسدة، أما لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول ﷺ حرّمها؛ كانوا كفاراً، ولم يكونوا من أمته، فإن المستحل للشيء هو الذي يفعله معتقداً حلّه، فيشبه أن يكون استحلّوا الخمر، يعني يسمونها بغير اسمها، كما جاء في الحديث، فيشربون الأنبذة المحرمة، ولا يسمونها خمرًا، ويقولون: لا فرق بين حال وحال، وهذه التأويلات لا تغني عن أصحابها من الله شيئاً بعد أن بلغ الرسول ﷺ وبين تحريم هذه الأشياء بياناً قاطعاً للعدر مقيماً للحجة.

وكذلك المفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا، لا تزول بتغيير اسمه من الربا إلى المعاملة، ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد، يعلمها من قلوبهما عالم السرائر، فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غيرا اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التبايع الذي لا قصد لهما فيه البتة، وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة.

(١) أخرجه البخاري. كتاب البيوع. باب بيع الميتة والأصنام. ح(٤٢٩٦)، ومسلم. كتاب المساقاة. باب تحريم بيع الخمر والميتة. ح(١٥٨١).

(٢) الودك: الدسم المعروف، وقيل دَسَمُ اللحم ودُهْنه الذي يستخرج منه، ووَدَّكْتُهُ تَوَدِّكًا إذا جعلته في شيء هو والشحم أو حِلَابَةُ السَّمْنِ. انظر: لسان العرب ١٠ / ٥٠٩، تهذيب اللغة ٣ / ٣٩٩.

(٣) انظر: إغائة اللفهان ١ / ٣٨٠.

(٤) أخرجه أبو داود. كتاب الأشربة. باب في الدادي. ح(٣٦٨٨)، وابن ماجه. كتاب الفتن. باب العقوبات. ح(٤٠٢٠)، وصححه الألباني في الصحيحة(٩٠).

ومن المعلوم أن الربا لم يحرم مجرد صورته ولفظه، وإنما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده، وتلك الحقيقة والمعنى والمقصود، قائمة في الحيل الربوية، كقيامها في صريحه سواء.

وفعل ذلك مشابه لليهود حين حُرِّم عليهم الربا فحتالوا لأخذه بأنواع الحيل، قال تعالى ﴿وَآخِذْهُمْ الرَّبُّوْا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ﴾ [النساء: ١٦١].

ومن أخطر أنواع الحيل التي تجمع جرائم عدّة؛ الحيل في النكاح والتي بها تستحل الفروج، ومن أظهرها حيلة المحلل، التي لعن رسول الله ﷺ فاعلها، وشبّهه بالتيس المستعار، وعظم بسببه العار، وعيّر الكفار بها أهل الإسلام، وحصل بسببه من الفساد ما لا يحصىه إلا رب العباد، ولو كان نكاحاً صحيحاً؛ لما قال فيه رسول الله ﷺ "لعن الله المحلل والمحلل له"^(١).

قال ابن القيم: "وأنت إذا تأملت الحيل المتضمنة لتحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى، وإسقاط ما أوجب، وحل ما عقد، وجدت الأمر فيها كذلك، ووجدت المفسدة الناشئة منها؛ أعظم من المفسدة الناشئة من المحرمات الباقية على صورها وأسمائها، والوجدان شاهد بذلك فالله سبحانه إنما حرم هذه المحرمات وغيرها، لما اشتملت عليه من المفسد المضرة بالدنيا والدين، ولم يجرمها لأجل أسمائها وصورها، ومعلوم أن تلك المفسد تابعة لحقائقها، لا تزول بتبدل أسمائها، وتغير صورتها، ولو زالت تلك المفسد بتغير الصورة والأسماء؛ لما لعن الله سبحانه فاعلها، فتغيير صور المحرمات وأسمائها، مع بقاء مقاصدها وحقائقها؛ زيادة في المفسدة التي حرمت لأجلها، مع تضمنها مخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه، وأنه يجرم الشيء لمفسدة، ويبيحه لأعظم منها.

ولهذا قال أيوب السخيتاني^(٢): يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان، لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون^(٣).

ومن تأمل تحريم الحيل وسدّ الطرق المؤدية إليها؛ أدرك تمام حكمة الشريعة الكاملة المنتظمة

(١) أخرجه الترمذي. كتاب النكاح. باب ما جاء في المحلل والمحلل له. ح (١١٢٠)، والنسائي. كتاب الطلاق. باب إحلال المطلقة ثلاثاً وما فيه من التعليل. ح (٣٤١٦)، وصححه الألباني في الإرواء (١٨٩٧).

(٢) أيوب بن أبي تيممة السخيتاني: أبو بكر البصري، ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد، قال الحسن: هذا سيد شباب أهل البصرة، قال شعبة: كان أيوب سيد العلماء، مات سنة ١٣١هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٥/٦، تذكرة الحفاظ ١٣٠/١.

(٣) إغاثة اللهفان ١٥٣/١.

لمصالح العباد، فإنَّ ما حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ؛ إنما هو حمية لحفظ صحة القلب وقوة الإيمان، كما أن ما يمنع منه الطيب مما يضر المريض حمية له، فإذا احتال المريض أو الطيب على تناول ذلك المؤذي، بتغيير صورته مع بقاء حقيقته وطبعه، أو تغيير اسمه مع بقاء مسماه؛ ازداد المريض بتناوله مرضاً إلى مرضه، وترامى به إلى الهلاك، ولم ينفعه تغير صورته ولا تبدل اسمه.

ثانياً: فساد العادات:

إن مما تجدر الإشارة إليه؛ أن الإنسان في غمرة حياته ومشكلاته، قد يعتاد شيئاً رتيباً، ربما يكون صواباً، وربما يكون خطأً، وحين يفكر بعد برهة من الزمن، لا يدري لماذا اعتاد هذا الشيء؟.. أو لماذا لم يحص فيه، أصواب هو أم خطأ؟

وما يلبث الأمر ويتقدم العهد وتدور الأيام دورتها، حتى يظن الأبناء أن عادات الآباء عادات، فيتخذوها طاعات، ويستمسكوا بها، حتى إن طباعهم تألف رديتها، ولا تترجر عن قبيحها، حتى صار فئام من الناس لمسيس تعلقهم بها؛ يردون الحق الذي يأتيهم.

قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وإذا كان شرع الله مغيباً، وأمره مضيعاً، فلا تسأل حينئذ عن تبدل السنن الشرعية، والآداب المرعية.

وهذا النوع؛ يجلي صوراً من الفساد الاجتماعي، حيث ذكر القرآن جملة من العادات الفاسدة التي كانت سائدة عند العرب زمن الجاهلية، وربما عاودت ظهورها في بلد دون آخر أو في زمان دون غيره.

فمن تلك العادات الفاسدة: امتهان المرأة وازدراؤها:

فقد كان الجاهليون يحطون من قدر المرأة، ويضعونها موضع الإهانة، تجلّى ذلك في صور وعادات؛ أظهرت فساد عقولهم، وانتكاس فطرتهم.

فمن امتهانهم للمرأة، التشاؤم بميلادها، قال سبحانه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرُونَ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

أنه نقصان العقل، حين لا يرضى الإنسان بما قسم الله له، إذ الأولاد هبة من الله تعالى، أوليس هو القائل سبحانه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

فكان الرجل منهم إذا ولدت له جارية، إما أن يمسكها على هون، وهو ينتظر العار الذي ستلحقه به هذه المولودة الصغيرة، عندما تكبر، أو يكون قلبه كالحجارة، أو أشد قسوة، فيدس هذه المولودة الصغيرة في التراب، على شيء لم تفعله، وليس لها

اختيار فيه.

وهذا برهان ظاهر لانحرافهم عن الصراط المستقيم، ولو لم يقتلها؛ أبقى عليها في الذل والهوان، في معاملة سيئة، ونظرة وضيعة، فكانوا ينظرون إليها على أنها عالة عليهم، فهي لا تستطيع أن تحارب، ولا تكسب، وقد تقع في السبي فتجلب لهم العار.

ولو نظر المسلم بعين الحق إلى المجتمع الغربي، لرأى أن هذه الجاهلية مازالت موجودة إلى هذا الزمان، الذي يدندنون فيه بحقوق المرأة، وأنها مظلومة في بلاد الإسلام، وأن المسلمين توارثوا من آبائهم ازدراء المرأة، فانظر إليهم تجد كيف يعاملون المرأة معاملة بهيمية، تقوم على أساس الجنس والمادة، في مخالفة صريحة لأساس الدين والفطرة، فصاروا يتاجرون بالمرأة في أفلام العري والإثارة، فأصبحت المرأة عندهم بضاعة رخيصة، لا تساوي شيئاً، لأنهم فقدوا إحساسهم بها، إلا في موضع الشهوة فقط.

ومن صور امتهان المرأة: هضم حقها في الميراث وحرمانها منه، فقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث للذكور دون الإناث، فأنزل الله تعالى قوله ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فأمرهم الله بالعدل فيهم، وذلك بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وإن تفاوت نصيب الصنفين، فجعل للذكر مثل ما حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتجشم المشقة، فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى.

وكانت النظرة الفاسدة لأهل الجاهلية في عدم إعطاء المرأة حقها في الميراث، لأنهما لا تقرر على الكسب، ولا تستطيع أن تدفع العدو، وغير مطالبة بالنفقة، ثم هي تأخذ نصيبها من مال أبيها، وتعطيه رجلاً آخر، وعلى هذا كانوا لا يرون أن تعطى من مال أبيها شيئاً، إلى أن جاء الإسلام؛ فأثبت نصيبها، وأعطاهها حقها وافيلاً مستوفياً.

ولقد كان الناس قبل الإسلام في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، منعوا المرأة من الميراث بغياً وعدواً، وازدادوا فساداً وعتوا؛ حين جعلوها ميراثاً في حد ذاتها.

"فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يَتَأْتِيهَا مِنَ الْبَيْنِ أَمْ أَرْثُوهَا﴾ [النساء: ١٩]، قال: كان الرجل إذا مات أبوه أو حميمه، فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها، أو

يجبسها حتى تفتدي منه بصداقها، أو تموت؛ فيذهب بمالها.

وقال عطاء بن أبي رباح: إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل، فترك امرأة؛ حبسها أهلها على الصبيّ يكون فيهم، فترلت الآية.

قال مجاهد: كان الرجل إذا توفي أبوه، كان أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو يُنكحها إن شاء أخاه، أو ابن أخيه^(١).

وهكذا كانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحييف، تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم من إرثها، وتعزل بعد الطلاق، أو وفاة الزوج، من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة، فيتمتع الرجل بحقوقه، ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتى من مهر، وتمسك ضراراً للاعتداء، وتلاقي من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً، وترتك في بعض الأحيان كالمعلقة.

ومن العادات الفاسدة شرب الخمر:

قال سبحانه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] فوصف - جلّ ذكره - هذه المنهيات بأنها رجس: أي إثم وشر^(٢).

وقد تدرّج الشارع الحكيم في تحريم الخمر، وما ذاك؛ إلا لأن المسلمين اعتادوها زمن الجاهلية، وكانوا يتاجرون فيها وينمون بها أموالهم، ويعيشون في رجس بسبب مكاسبها الكبيرة.

فأخبرهم الله تعالى أنهم يتخذون منها سكرًا ورزقًا حسنًا، فقال سبحانه ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال، ثم إن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وآخرين رضي الله عنهم، قالوا يارسول الله: أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فترل قوله تعالى ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فتركها قوم لقوله ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وشربها قوم لقوله ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، إلى أن صنع عبد الرحمن

(١) جامع البيان ٦٤٧/٣.

(٢) انظر: جامع البيان ٣٣/٥.

بن عوف رضي الله عنه طعاماً فدعا ناساً من الصحابة، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدم بعضهم ليصلي بهم فقرأ "قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون" هكذا إلى آخر السورة، بحذف (لا) فأنزل الله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فحرّم السكر في أوقات الصلاة، ولما نزلت هذه الآية حرّمها قوم، وقالوا لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة فقط، واتخذ عتبان بن مالك^(١) صنيعاً، ودعا إليه رجالاً من المسلمين، منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان قد شوى لهم رأس بعير، فأكلوا منه وشربوا الخمر، حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند ذلك، واستبوا وتناشدوا الشعر، فأنشد بعضهم قصيدة فيها هجاء الأنصار، وفخر لقومه، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير، فضرب به رأس سعد فشجّه، فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وشكا إليه الأنصاري، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]^(٢)،

وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب"^(٣).

والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة؛ لشق ذلك عليهم، فلا جرم درّجهم في التحريم رفقاً بهم.

قال أنس رضي الله عنه: حرّمت الخمر ولم يكن يوماً للرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد منها، وقال: كان لنا خمر غير فضيخكم، فإني لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً، إذ جاء رجل فقال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، قال: فما سألوها عنها

(١) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري السلمي: صحابي شهير، وهو بدري عند الجمهور، كان إمام قومه بني سالم، وذكر ابن سعد: أن النبي صلى الله عليه وآله آخى بينه وبين عمر، مات في خلافة معاوية وقد كُبر.

انظر: أسد الغابة ٣/١٩٦، الإصابة ٤/٣٥٩.

(٢) انظر: جامع البيان ٤/٩٨، ٥/٣٤.

(٣) رواه أبو داود. كتاب الأشربة. باب في تحريم الخمر. ح (٣٦٧٠)، الترمذي. كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة

المائدة. ح (٣٠٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة ٥/٤٩٥، ح (٢٣٤٨).

ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل" (١).

وقد كان بعض الفضلاء يرغبون عن شرب الخمر ويرفضونها، فعن العباس بن مرداس (٢) أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر، فإنها تزيد في حرارتك؟ فقال: ما أنا بأخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيهم

والعجب إن الجاهلية تعود من جديد، فهناك أناس يشربون الخمر، وهم يعلمون أنها أم الخبائث، فالسكران لا يدري ما يصنع، بل لقد حجبت الخمر النور عن قلبه وألقت على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، ولأن العقول مخمرة، فقد أساءت الاختيار واستبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ » (٣)

ومن العادات الفاسدة: التصفير والتصفيق.

قال سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المكاء الصفير، والتصديّة التصفيق (٤).

فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام، يصفقون ويصوتون، يتخذون ذلك عبادة وصلاة، فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهي عنه.

"وفي الآية إخبار منه سبحانه، أنه إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتُخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل

(١) أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر. ح (٤٦١٧).

(٢) العباس بن مرداس السلمي: أسلم قبل فتح مكة بيسير، وكان من المؤلفات قلوبهم، ومن حسن إسلامه، شهد مع النبي ﷺ الفتح وحنين، وكان شاعراً محسناً شجاعاً مشهوراً، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية.

انظر: الإصابة ٥١٢/٣، أسد الغابة ٥٤٦/٢.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الأشربة. باب قول الله تعالى (إنما الخمر والميسر والنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه). ح (٥٥٧٥)، ومسلم. كتاب الأشربة. باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها، بمنعها إياها في الآخرة. ح (٥٣٤٠).

(٤) انظر: جامع البيان ٢٣٨/٦، معالم التنزيل ٣٥٥/٣.

البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات؟!^(١).

"ومن المعلوم أن المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار، وهذا كقولك: زرتة فجعل جفائي صلي، أي أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفيين والصفارين في مزمار ونحوه، فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة، إذا نأهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسييح، لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا الحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي، قولاً وفعلاً"^(٢).

فمن اتخذ نظير ذلك عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فقد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم. قال ابن تيمية: ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية؛ سماع الغناء والملاهي، وهو سماع

المشركين قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾^(٣).

ولئن كان المشركون يفعلون هذه العادة القبيحة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وإنما هو اللهو واللعب، الذي لا وقار فيه، ولا استشعار لحرمة البيت، ولا خشوع معه لله رب العالمين.

فليس هذا عن أهل الوجد والتصوف بعيد، فقد أخذوا التصفيق والتصفير والغناء في المساجد؛ شعاراً يزعمون أنه يقربهم إلى الله تعالى!.. بل يثير محبة الله في قلوبهم!.. وهذه عين المعصية والعبث، فكيف يُتقرب إلى الله بمعصيته؟!..

ثم هم مع ذلك؛ يزعمون بلوغ مقامات الأولياء، ومراتب الأصفياء!

ومن اتخذ اللهو واللعب ديناً؛ كان كمن سعى في الأرض بالفساد، ومن طلب الوصول إلى الله تعالى من غير طريق رسوله ﷺ؛ فهو بعيد عن الوصول إلى المراد.

وما اجتمع النبي ﷺ وأصحابه يوماً قط على استماع غناء؛ لا بكف ولا بدف ولا تواجد، وكل ما روي في ذلك كذب باتفاق أهل العلم.

(١) تيسير الكريم للسعدي ص ٣٢٠ .

(٢) انظر: إغاثة اللفهان ١/٢٧٤ .

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١١/٢٩٥ .

وإنما كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا، أمروا واحداً منهم أن يقرأ شيئاً من القرآن، والباقون يستمعون، وكان عمر يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون^(١)، وكان اختيارهم لأبي موسى لحسن صوته، فقد مرَّ به النبي ﷺ وهو يقرأ، فقال له: "لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داود"^(٢).

(١) أخرجه الدارمي. كتاب فضائل القرآن. باب التغيي بالقرآن. ح(٣٤٩٦)، وعبد الرزاق في المصنف. باب حسن الصوت. ح(٤١٩٠)، وابن حبان ١٦٨/١٦. ح(٧١٥٢)، وصححه الأرنؤط في تعليقه على صحيح ابن حبان.
(٢) أخرجه البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن. ح(٥٠٤٨)، ومسلم. كتاب صلاة المسافر. باب وقصرها. باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن. ح(٧٩٣). واللفظ له

الفصل الثالث

أساليب القرآن في بيان الفساد

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: النهي عن الفساد .

المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم .

المبحث الثالث: بيان عاقبته .

المبحث الرابع: ذكر من اتصف به .

تمهيد:

لم تعرف البشرية كتاباً كالقرآن الكريم هدايةً وإرشاداً، فهو ليس كالقوانين الوضعية، والدساتير البشرية، ومن ذلك أنه لم يلتزم في بيانه للفساد أسلوباً واحداً؛ بل غاير في عباراته، ونوع في بلاغاته، ووضع كل خطاب في أنسب مواضعه، ولو أبدل بغيره، لتغير المبني والمعنى^(١).

ولا شك أن ذلك من إعجاز القرآن الكريم، إذ لا يوجد كتاب - غيره - ينهج هذا المنهج. وهكذا كان تنوع الموضوعات؛ هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني، فما هما بالأسلوبين المتعارضين، اللذين لا تربط بينهما صلة، وإنما هو أسلوب واحد، يشتد أو يلين، ويفصل أو يجمل، تبعاً لحال المخاطبين، وهذا سرٌّ من أسرار الإعجاز القرآني. ومن جوانب هذا الإعجاز شمول أساليب القرآن، ويتجلى ذلك؛ في أنه يصرح بلفظ النهي مرّة، ويعرض به أخرى، ويهدد بعقاب الدنيا تارة، وبالعقاب الأخروي تارة أخرى...

وما ذاك؛ إلا لأن درجات الناس متفاوتة، فمنهم من يكفيه النهي الصريح، ومنهم من لا يردعه إلا التهديد، بل فيهم من لا يرتدع؛ إلا بتكرار النهي. ومن شموله؛ أنه لم يترك شيئاً من المفسد؛ سواء أكانت في الاعتقاد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق، إلا ونهى عنه، وسدّ كل طريق توصل إليه. قال الزركشي: "إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى، وتزيهه في صفاته، ودعى إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته، في تحليلٍ وتحريم، وحظرٍ وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية، وما نزل من مثلات الله؛ بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الماضية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجّة والمحتجّ له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباءً عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن. لصبحي الصالح. ص ٢٣٣

الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم" (١).

إن أساليب القرآن في بيان الفساد؛ بما حوته من صور هي الغاية في البلاغة والبيان؛ لم تكن لدفع الفساد فحسب، بل إنها أعظم سبيل لتجفيف منابعه، وسدّ كل مسلك يوصل إليه. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. أي: جاهدهم بالقرآن جهاداً شديداً (٢).

وفي هذا الفصل، عرضٌ لما تيسر من أساليب القرآن في بيان الفساد، جاءت في أربع مباحث، على ما يأتي.

(١) البرهان في علوم القرآن ١٠٣/٢

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١١٦/٦

المبحث الأول
النَّهْيُ عَنِ الْفَسَادِ

جاء النهي عن الفساد في القرآن الكريم مشتملاً على أساليب متنوعة، والمتأمل في تلك الأساليب؛ يجدها على ضربٍ عدّة.

وقد جاء هذا المبحث؛ لیسلط الضوء على جانب يسير منها، فقد اختصرت في عرض أمثلة كل أسلوب منها، إذ إن ذكر الأمثلة لكل نوع من أنواع الفساد، يطول هنا، فإن استفصال بيانها حقيق بأن يُفرد بمبحث مستقل.

وقد جاء النهي عن الفساد على وجوه عدّة؛ فتارة يأتي النهي عاماً صريحاً، كما قال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى وفي مواضع عدّة ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

وتارة نجد النهي عن الفساد؛ منوهاً بأمهات المفسد، والكبائر العظام، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَنزِلَ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنَّمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال ابن عاشور في إشارة لهذا المسلك: "هذا استئناف ابتدائي للانتقال من إبطال تحريم ما ادعوا تحريمه من لحوم الأنعام، إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات، التي علمها حق، وهو أحق بأن يعلموه، مما اختلفوا من افتراءهم، وموهوا بجدلهم.

وعقب بفعل (تعالوا)؛ اهتماماً بالعرض المنتقل إليه؛ بأنه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها، على أسلوب قوله تعالى ﴿يَسَّ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم، وبين ما يدعوهم إليه الإسلام، من جلائل الأعمال؛ فيعلموا أنهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهابهم.

وذكرت فيما حرّم الله عليهم أشياء ليست من قبيل اللحوم؛ إشارة إلى أن الاهتمام بالمحرمات الفواحش؛ أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة، تعريضاً بصرف المشركين همتهم إلى بيان الأطعمة، وتضييعهم تزكية نفوسهم، وكفّ المفسد عن الناس، ونظيره قوله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، إلى قوله

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] (١).

وتارة ثالثة؛ نجد النهي عن الفساد؛ منصباً على مفسدة بعينها، يلحظ من سياق الآي لها، بيان خطرهما والضرر المترتب عليهما، ولربما يعقب ذلك ذكر سبيل الوقاية منها.

ومن أمثلة ذلك؛ آيات الربا في سورة البقرة، فمن تأملها وجد التسلسل الأنف الذكر، حيث

قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ

تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُجُورٌ وَأَمْوَالُكُمْ لَا تُطْلَمُونَ وَلَا تَطْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ

ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ

ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥: ٢٨٠].

وتارة يبين القرآن جملة مفاسد، ضل بها أقوام قبلنا، فتجده يسלט الضوء على أسلوب الأنبياء مع أقوامهم لدفع الفساد والنهي عنه، بكل سبيل.

وهذا كثير في القرآن، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِئْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦].

إلا أنه ليس لزاماً في النهي أن يكون مباشراً، تأمل عندما قال يوسف عليه السلام

للسجينين ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

فلم يقل لهما: إنكما على دين باطل، فالمقام ليس مقام استفزاز ولا حساب، بل

مقام بلاغ، والحق إذا تبين؛ فليس بالضرورة أن يُشتم الباطل الذي يدين به

الشخص المقابل.

ومن ثم فأسلوب النهي في الكتاب العزيز، جاء مراعيًا أحوال المخاطبين، وتزليلهم منازلهم، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [القلم: ٨]، فذلك أبلغ في الإكرام والاحترام، فإن قوله: لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز، ليس هو مثل قوله: لا تطع من يكون متلبسًا بهذه الأخلاق؛ لما فيه من الدلالة على تشريفه ﷺ وبرأته من تلك الأخلاق^(١).

وهذا يفيد أن أسلوب القرآن يتفاوت من موضع لآخر؛ في علاج صور الفساد ومشكلاته. وأساليب القرآن في الإصلاح ودفع الفساد، منهج فريد، ينبغي أن يُحتذى في الدعوة إلى الله تعالى، فتولى القضايا الكبرى العناية اللائقة بها، كما اعتنى بها القرآن الكريم، بدأ بأهمها وهو تحقيق التوحيد ودفع الشرك، كما سبق تقريره. ولذا كانت الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى مطيئة لا مناص منها، فالحكمة وضع الشيء في موضعه^(٢).

ولذا أثنى الله تعالى على لقمان بما أتاه من الحكمة، فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]. وذكر في الآية بعدها حكمته في دعوة ابنه، حيث وعظه مبتدئًا بالتحذير من أعظم المفساد، فقال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وبعد التأمل والنظر في كلام أهل البلاغة والتفسير، أشير هنا إلى طرف يسير، لأساليب القرآن في النهي عن الفساد:

فمن تلك الأساليب: صيغ النهي والتحريم ونفي الحل.
أولاً: ما جاء بصيغة نهي "ينهى":

جاء النهي عن الفساد صريحاً في القرآن، وهذه الصيغة ناهية عن الفساد من أول وهلة، وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٤/١٦

(٢) انظر: الكليات للكفوي ٥٩٦/١

فمن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ففي هذه الآية جاء النهي من الله تعالى.

وقد يأتي النهي منسوباً إلى النبي ﷺ كما في قوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. كما أضيف النهي عن الفساد إلى المؤمنين، كما قال سبحانه ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

ويلاحظ أن النهي بهذه الصيغة يشمل أغلب الشرور والآثام التي نهى الله عنها - إن لم تكن جميعها - كما دلَّ عليه معنى الفحشاء والمنكر والبغي.

بدلالة أن الله تعالى أسند إلى الشيطان الأمر بها، فقال ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال ﴿وَمَن يَتَّبِعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]. قال البيضاوي: معلقاً على قوله ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ "ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام، صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث.

ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر^(١)، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه^(٢)، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية؛ لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقب قوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ للتنبيه عليه^(٣).

(١) انظر: جامع البيان ٢٨٠/١٧

(٢) هو عثمان بن مظعون بن حبيب، أبو السائب الجمحي، صحابي جليل، كان زاهداً عابداً، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرًا، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين.

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤٦١/٤.

(٣) تفسير البيضاوي ٤١٧/٣

ثانياً: ما جاء بصيغة "حرم"، "يحرم".

وهذه الصيغة تختلف عن صيغ النهي الأخرى، فهي تدل على المنع والحظر^(١)، وقد أسندها الله تعالى إلى اسمه الجليل تارة، وإلى ضميره تارة أخرى، وإلى رسوله محمد ﷺ ثالثة.

قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]. وقال في وصف النبي ﷺ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويلحظ في هذه الآيات، أن تشريع التحليل والتحرير؛ حق لله تعالى، ولرسوله ﷺ فقط، فمن خالف هذا التشريع؛ فقد وقع في مفسدة بلا ريب.

وهذا الأسلوب موجه - غالباً - لمن شرعوا لأنفسهم، كما دل عليه قوله في آية النحل ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥]، فإنها آية مكية، نزلت في خطاب المشركين^(٢)، وعلى ذلك يكون المعنى؛ ما حرمت عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، أما ما حرمتوه من البحيرة والسائبة... فليس بحرام كما زعمتم.

ويؤكد ذلك الآية بعدها ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وفي هذا فائدة لطيفة؛ وهي أن معيار الفساد مرتبط بميزان الشرع، ولا عبرة بالآراء الفاسدة؛ المبنية على الأهواء.

قال الشنقيطي: "فقد أوضحت الآية؛ أن المشرعين غير ما شرعه الله؛ إنما تصف ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون، وأنهم يمتعون قليلاً، ثم يعذبون العذاب الأليم"^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

(١) انظر: المفردات للراغب ص ١١٤

(٢) انظر: جامع البيان ٣١٤/١٧، أضواء البيان ٤٦١/٢

(٣) المصدر السابق ٥٣/٧

إِحْسَانًا ﴿[الأنعام: ١٥١]. فالتحريم هنا يتضمن معنى الوصية، وهذا ما عبر عنه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: "من سره أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمة، فليقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ ﴿الآيات الثلاث﴾".^(١)

قال أبو السعود: "لما ظهر بطلان ما ادعوا؛ من أن إشراكهم وإشراك آبائهم، وتحريم ما حرمه بأمر الله تعالى ومشيتته، بظهور عجزهم عن إخراج شيء يتمسك به في ذلك، وإحضار شهداء، يشهدون بما ادعوا في أمر التحريم، بعد ما كلفوه مرة بعد أخرى، عجزاً بيناً؛ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من المحرمات؛ ما يقتضي الحال بيانه على الأسلوب الحكيم، إيداناً بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات، وأما الأطعمة المحرمة؛ فقد بينت بقوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لغير الله به﴾ ﴿[الأنعام: ١٤٥]﴾".^(٢)

ثالثاً: نفي الحل.

نفي الحل من أساليب النهي في القرآن، لأن الحل والحلال؛ نقيض الحرام، وكل شيء أباحه الله تعالى؛ فهو حلال، وما حرّمه؛ فهو حرام. قال الجرجاني: "الحلال كل شيء لا يعاقب عليه باستعماله"^(٣). ومفهوم ذلك؛ أنه متى ما نفي لفظ الحلال، يكون مرادفاً للنهي أو للحرام، كما قال تعالى ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. قال القرطبي: "والآية خطاب للأزواج، نُهوا أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً على وجه المضارة، وهذا هو الخلع"^(٤).

وقد حث سبحانه على اجتناب الكبائر، فقال تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

(١) أخرجه الترمذي. أبواب التفسير. ح (٥٠٦٥). وقال هذا حديث حسن غريب. والبيهقي في شعب الإيمان

٢٠٧/٦. ح (٧٩١٨).

(٢) إرشاد العقل السليم ١٩٧/٣

(٣) التعريفات ص ٩٨

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣٦/٣

نُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ كَرِيمًا ﴿النساء: ٣١﴾.

قال الطبري: "والكبائر هي ما تقدم الله إلى عباده بالنهاي عنه من أول سورة النساء، إلى رأس الثلاثين منها^(١). ومنها قوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩].

ومن أساليب النهي: القصر المتضمن للنهي.

فإن القصر يفيد في النفي والإثبات، أو الحصر والاختصاص، وهو يفيد - ضمناً - الأمر والنهي، في مواضع من القرآن الكريم.

- ومن طرق القصر: النفي بـ(ما)، أو (لا) النافية، أو الاستثناء بـ(إلا) ونحوها.

ومن أظهر الأمثلة القرآنية في ذلك، قضية تحقيق التوحيد لله تعالى، كما في قوله سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فالقصر في الآيتين، يتضمن نهيًا عن الشرك بالله تعالى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وهذا كثير في القرآن؛ يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرم عليهم عبادة ما سواه، فقد حكم وقضى: أنه لا إله إلا هو، ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك؛ وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو؛ فقد أخبر وبيّن وأعلم أن ما سواه ليس بإله، فلا يُعبد، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته، والنهي عن عبادة ما سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا؛ يتضمن الأمر والنهي، كما إذا استفتى شخص شخصاً، فقال له قائل: هذا ليس بمفتٍ، هذا هو المفتي، ففيه نهي عن استفتاء الأول، وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني.

والعابدون إنما مقصودهم؛ أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة، فإذا قيل لهم: كل ما سوى الله ليس بإله، إنما الإله هو الله وحده، كان هذا نهيًا لهم عن عبادة ما سواه، وأمرًا بعبادته^(٢).

(١) جامع البيان ٢٣٣/٨

(٢) مجموع الفتاوى ١٧١/١٤

ومن طرق القصر: تقديم ما حقه التأخير:

ولذلك أسباب منها: الاختصاص، وهذا يتضمن - أيضاً- النهي، ومن أدلة ذلك قوله تعالى بعد ذكر جملة من أنبيائه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِأَنَّهَا قَوْمًا لَيَسُوءُ بِهَا كَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

فتخصيص الأمر بالاعتداء بهؤلاء النبيين، يفيد النهي عن الاقتداء بمن خالفهم، ولذا قال الزمخشري معلقاً على الآية: "فاختص هداهم بالاعتداء، ولا تقتد إلا بهم" (١).

وقال الشوكاني: "تقديم ﴿فَبِهِدَتْهُمْ﴾ على الفعل، يفيد تخصيص هداهم بالاعتداء" (٢).

ومن طرق القصر: القصر بـ(إنما)، لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد أورد الرازي تساؤلاً حول هذا فقال: "كلمة (إنما) تفيد الحصر، فقوله: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي كذا وكذا، يفيد الحصر، والمحرمات غير محصورة في هذه الأشياء؟

والجواب: إن قلنا الفاحشة محمولة على مطلق الكبائر، والإثم على مطلق الذنب، دخل كل الذنوب فيه، وإن حملنا الفاحشة على الزنا، والإثم على الخمر، قلنا: الجنائيات محصورة في خمسة أنواع؛ أحدها: الجنائيات على الأنساب؛ وهي إنما تحصل بالزنا، وهي المراد بقوله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾، وثانيها: الجنائيات على العقول؛ وهي شرب الخمر، وإليها الإشارة بقوله ﴿وَالْإِثْمَ﴾، وثالثها: الجنائيات على الأعراض، ورابعها: الجنائيات على النفوس، وعلى الأموال؛ وإليهما الإشارة بقوله ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وخامسها: الجنائيات على الأديان؛ وهي من وجهين؛ أحدهما: الطعن في توحيد الله تعالى؛ وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾، وثانيها: القول في دين الله من غير معرفة، وإليه الإشارة بقوله ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾. فلما كانت أصول الجنائيات هي هذه الأشياء، وكانت البواقي كالفروع والتوابع، لا جرم جعل تعالى ذكرها جارياً مجرى ذكر الكل، فأدخل فيها كلمة (إنما) المفيدة للحصر" (٣).

(١) الكشاف ٣٤/٢

(٢) فتح القدير ١٣٤/٢

(٣) التفسير الكبير ٥٥/١٤.

ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿إِنبَاءَ لِيُكْفَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

فهذه الآية تضمنت بدلالة الحصر؛ أمراً باتخاذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء، كما تضمنت فهياً عن اتخاذ غيرهم أولياء.

قال أبو السعود: "لما نهاهم الله - عز وجل - عن موالاته الكفرة؛ وعلمه بأن بعضهم أولياء بعض، لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، ويبيّن أن من يتولاهم يكون من حملتهم، يبيّن هنا من هو وليهم؛ بطريق قصر الولاية عليه، كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء؛ لأن بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنما أوليائكم الله ورسوله والمؤمنون، فاخصوهم بالموالاته، ولا تتخطوهم إلى غيرهم" (١).

الأسلوب الثالث: النهي بصيغة النفي.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً﴾ [آل عمران: ٢٨]. فقد عبّر بصيغة النفي لا النهي؛ مبالغة في التقرير؛ لأن اتخاذهم أولياء - بعد أن سفّه الآخرون دينهم، وسفّهوا أحلامهم في اتباعه - يُعدّ ضعفاً في الدين، وتصويباً للمعتدين. (٢)

ونحو ذلك في قوله تعالى ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

"فوردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليغ، والزجر العظيم عن موالاته أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده بلفظ الإنشاء" (٣). والمعنى: من الممتنع المحال؛ أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به، أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلّب في مجانبته أعداء الله، ومباعدتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم...

(١) إرشاد العقل السليم ٥٢/٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧٠/٣.

(٣) أضواء البيان ٥٥٦/٦.

فلا تجد شيئاً أدخل في الإخلاص من موالاته أولياء الله، ومعاداة أعدائه، بل هو الإخلاص بعينه^(١).

ومن هذا الأسلوب، قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا الْمُؤْمِنِينَ إِنْ كَانُوا مُّؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٢]. "أي لا ينبغي لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً، وليس معنى قوله ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي، كقوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ولو كان ذلك على النفي؛ لما وجدت مؤمناً قتل مؤمناً قط، لأن ما نفى الله لم يجز وجوده، كقوله تعالى ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ تُبَدِّلُوا شَجَرَهُمْ﴾ [النمل: ٦٠]، ولا يقدر العباد على إنبات شجرها البتة"^(٢).

ويؤيد هذا التأويل، الأمر بالكفارة ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا^(٣).

الأسلوب الرابع: الأوصاف الدالة على النهي.

لم يكتف القرآن الكريم في نهيه عن الفساد؛ بأساليب النهي المعروفة؛ بل وصف بعض المفسدات بصور تنفر منها، كإخباره بأن الأوثان والخمر والميسر والأزلام؛ رجس، وأن الزنا واللواط؛ فاحشة، وأن الشيطان؛ عدو، كما أخبر عن أعمال بأنها ليست من البر، وغير ذلك. وهذه الأوصاف تُنفّر من ارتكاب المنهيات الموصوفة بها، كما قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

قال الزمخشري: "وسمى الأوثان رجساً، وكذلك الخمر والميسر والأزلام، على طريق التشبيه. يعني: أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء؛ مثل تلك الثفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله ﴿رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ فجعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس محتجب"^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتُوا اللَّهَ بَلُوبٍ

(١) انظر: الكشاف ٤/٤٩٦

(٢) الكشاف والبيان للثعلبي ٣/٣٥٩

(٣) الكشاف ٣/١٥٥

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿[المائدة: ١٠٠].

قال أبو السعود: "حُكْمُ عام في نفي المساواة عند الله تعالى؛ بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال؛ وبين جيدها، قصد به الترغيب في جيد كل منها، والتحذير عن رديتها"^(١).

وكذلك قال تعالى في الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ففي هذا من التحذير شوبٌ من التنفير، أي عاملوه معاملة العدو عدوه^(٢)، وهذا ما يحمل العاقل على عدم الاغترار، والعمل على ما يسوء هذا العدو؛ وهو العمل الصالح.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

"فالبرُّ؛ اسم جامع لمراضي الخصال، والخطاب لأهل الكتابين، فإنهم كانوا أكثروا الخوض في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة، ورأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البرِّ باستقبالهم قبلتهم، فلما تحولوا عنها؛ لمزوهم بأنهم أضعوا أمراً من أمور البرِّ!"^(٣)

فنفي البرِّ عن استقبال الجهات، مع أن منها ما هو مشروع؛ كاستقبال الكعبة؛ إما لأنه من الوسائل لا من المقاصد، فلا ينبغي أن يكون الاشتغال به قُصارى همة المؤمنين، ولذلك قال ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾، فإن ذلك كله من أهم مقاصد الشريعة، وفيه جماع صلاح النفس والجماعة، ونظير هذا قوله تعالى ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩]^(٤).

وقيل: كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب في أمر القبلة، فقيل: ليس البرُّ العظيم الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرِّ؛ أمر القبلة، ولكن البرُّ الذي يجب الاهتمام به، وصرف الهمة؛ برُّ من آمن وقام بهذه الأعمال^(٥).

(١) إرشاد العقل السليم ٨٣/٣

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٣٤/٢١

(٣) إرشاد العقل السليم ١٧٢/١

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٢٧/٢

(٥) انظر: التفسير الكبير ٣١/٥، الكشاف ٢٤٣/١

ومثل ذلك في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ تَبِعُوا لِنَاسٍ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال السعدي: "فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما - من ذهاب العقل والمال، والصدء عن ذكر الله، وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنونه من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر، وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس، عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحميم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية، مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وهذا من لطفه ورحمته وحكمته^(١)، ولهذا لما نزلت، قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا^(٢).

ومن خطاب التنفير، قوله تعالى ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال الزركشي: "فقد جمعت هذه الآية أوصافاً وتصويراً؛ لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أفضع وجه؛ وفي ذلك محاسن، كالاتفهام الذي معناه التفرغ والتوبيخ، وجعل ما هو الغاية في الكراهة موصولاً بالحب، وإسناد الفعل إلى (أحدكم)؛ فيه إشعار بأن أحداً لا يجب ذلك، ولم يقتصر على تمثيل الاعتبار بأكل لحم الإنسان؛ حتى جعله آخاً، ولم يقتصر على لحم الأخ؛ حتى جعله ميتاً، وهذه مبالغات عظيمة، ومنها أن المغتاب غائب، وهو لا يقدر على الدفع لما قيل فيه، فهو كالميت"^(٣).

والمقصود أن هذه الأوصاف وغيرها؛ مما ينفر العبد عن ارتكاب ما وصف بأحد من المنهيات، فإنه حين يقال: هذا حبيث، أو ذاك نجس، أو ليس من البر؛ فإنه لم يقصد بذلك

(١) تيسير الكريم للسعدي ص ٩٨

(٢) أخرجه النسائي. كتاب الأشربة. باب تحريم الخمر. ح (٥٥٤٠)، والترمذي. كتاب تفسير القرآن. ح (٣٠٤٩)، وأحمد

في المسند ١/٤٤٢. ح (٣٧٨)، وصححه ابن المديني. انظر: فتح الباري: ٨/٢٧٩.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٤٩

بمجرد الإخبار فحسب؛ بل قصد نهي المخاطب عن الاقتراب منه أو ملابسته، لأن طبيعة الإنسان السليمة؛ تنفر من تلك الأوصاف.

الأسلوب الرابع: الفعل المقرون بوعيد أو تهديد.

من أساليب النهي عن الفساد في القرآن؛ اقتران المنهي عنه بوعيد أو تهديد، والآيات القرآنية التي تندرج تحت هذا الأسلوب كثيرة جداً، وقد أشرت إلى شيء منها في ثنايا هذه الرسالة، ولعلي اذكر طرفاً من الأدلة على هذا الأسلوب، لمناسبته في هذا الموضع، فمن ذلك:

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

فقد تكرر هذا التهديد في سورة المرسلات، وحيث نزلت هذه السورة في إثبات ما أنكره الكفار؛ من البعث والنشور والجزاء والحساب.

والمعنى: ويل لمن كذب بالآخرة، ثم أعقب ذلك بذكر من أهلك من أمم الأنبياء الأولين، ثم توعد المجرمين من هذه الأمة؛ بأنهم سيلحقون بأمثالهم، إذا استمروا في تكذيبهم.

فكان ذلك زجراً بالغاً؛ بما صحَّ عندهم من أخبار السابقين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَنَابٌ آلِيمٌ﴾ [التغابن: ٥].

ومن ذلك وعيده سبحانه لمفسدي الأخلاق، حيث قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

"فأخبر فيها بوعيد من أحب إظهار الفاحشة والقذف والقول القبيح للمؤمنين، وجعل ذلك من الكبائر التي يستحق عليها العقاب"^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال الشوكاني: "وفي هذه الآية تهديد للمسلمين؛ ليشبتوا على دين الإسلام، ومعنى قوله ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما سيحققه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة، الذي

(١) أحكام القرآن للحصص ١٦٣/٥

يوجبه الإسلام ويستحقه أهله"^(١).

وقريباً من ذلك، قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

قال أبو السعود: "تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين؛ تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب، والافتتان بفتنتهم؛ إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال، ردعاً لهم عن ذلك، وتعليق الرد بطاعة فريق منهم؛ للمبالغة في التحذير عن طاعتهم، وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكليّة، فإنه في قوة أن يقال: لا تطيعوا فريقاً"^(٢).

وللوعيد ألفاظ شتى، وصور مختلفة، منها ما هو واضح جلي؛ كالفظ العذاب أو الخسران، أو اللعن، أو الويل، ومنها ما خفي؛ كاتصاف الله تعالى بأنه عالم بكل ما يعمله الخلق، كقوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقوله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣]، وقوله ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٤٠]، وقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُوسًا بِهِ فَنَنْفُسُهُ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن جَبَلٍ أَلْوِيدٍ﴾ [ق: ١٦].

ومن بديع أساليب القرآن في النهي عن الفساد؛ التذكير بنظر الله تعالى للعبد، وسعة علمه سبحانه، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وإنه لحقيق بمن جعل ذلك نصب عينيه، واستشعره قلبه، أن يترجر عن الشر ويقلع عنه، تأمل قوله تعالى في سياق قصة أبي جهل مع النبي ﷺ حين زجره ونهاه عن الصلاة عند البيت ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وكذلك إخباره - تعالى - بأنه يُرسل عليهم حفظة يكتبون أعمالهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كُنِينًا﴾ ١١ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢، ١٠].

(١) فتح القدير ٣٣١/١

(٢) إرشاد العقل السليم ٦٤/٢

قال الزمخشري: "فإن قلت: الله تعالى غنيّ بعلمه عن كتبة الملائكة، فما فائدتها؟ قلت: فيها لطف للعباد، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه؛ موكلون بهم، يحفظون عليهم أعمالهم، ويكتبونها في صحائف، تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح، وأبعد عن السوء"^(١).

ومن ذلك؛ ما أخبر عنه تعالى بأنه يُنطق الجوارح يوم القيامة، كما في قوله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقوله ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

"قال المفسرون: الإشارة إلى الجوارح المذكورة، يسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم، والعزم على ما لا يجوز"^(٢).

وكذلك إخباره عن الجزاء على الأعمال، كما قال تعالى ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وأعمّ من ذلك قوله جلّ ذكره ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

ففي هذا زجر عن المفاصد كلها، قليلها وكثيرها، لأن أسبابها من جملة الشرور^(٣).

ومن أساليب النهي: النهي عن قربان الشيء.

ذلك أن المفاصد قد يكون لها مقدمات أو دواعٍ، تشتهيها النفس وتحوهاها، ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فتعليق النهي بقربانها؛ إما للمبالغة في الزجر عنها، لقوة الدواعي إليها، وإما لن قربانها داعٍ إلى مباشرتها^(٤).

ومن الفواحش الزنا، وقد أكد - سبحانه - النهي عن قربانه بقوله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالزنا له مقدمات؛ من نظر، أو تأمل، أو لمس، أو قبلة...

(١) الكشاف ٣٢/٢

(٢) زاد المسير ٣٥/٥

(٣) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام. للعز بن عبد السلام ١٦٩/١

(٤) إرشاد العقل السليم ١٩٨/٣

فالنهي عن قربان ذلك؛ أبلغ من قول: لا تزنوا، وفي هذا لطف بالعباد، واحتراس لدينهم، وسلامة لقلوبهم.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والمعنى: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه، لأن النفس المريضة، تشتتهي ماله لعدم من يحميه ويدافع عنه.

قال أبو حيان: "ولما كان اليتيم ضعيفاً عن أن يدافع عن ماله لصغره؛ نص على النهي عن قربان ماله"^(١).

وكذلك قوله جل وعلا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فجاء النهي عن قربانهن؛ تأكيداً للأمر باعتزالهن، وتبييناً للمراد من الاعتزال، وإنه ليس التباعد عن الأزواج بالأبدان، كما كان عند اليهود، بل عدم القربان يراد به الجماع.

فنهى عن مقاربتها الموقعة في الخروج منها، على طريق الكناية؛ لأن القرب من الحد؛ يستلزم قصد الخروج غالباً.^(٢)

ومن أساليب النهي: النهي عن المجاوزة.

فمن أساليب النهي عن الفساد؛ توجيه النهي عن الاعتداء، لأن أصله مجاوزة الحد والقدر والحق. والذي لا تجوز مجاوزته؛ هو الحد الفاصل بين الحلال والحرام، وهو ما عبّر عنه في القرآن بـ(حدود الله)^(٣).

فإن العامل بشرائع الله أوامر ونواهي؛ منصرفٌ في حيز الحق، فإذا تعداه وقع في حيز الباطل، فالنهي عن التعدي هو المقصود، إلا أن الأحوط أن لا يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل؛ كيلا يذهل فيقع في الباطل^(٤).

ومنه قوله تعالى بعد أن ذكر جملة من أحكام الزوجية ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) البحر المحيط ٣٤/٦

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢٥٧/١، التحرير والتنوير ٣٤٨/٢

(٣) انظر: لسان العرب ٣٤/١٥، مادة (عدا).

(٤) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٥٢٠/١

قال ابن عاشور: "والحدود والحواجز؛ نهايات الأشياء التي إذا تجاوز المرء دخل في شيء آخر، وشبّهت الأحكام بالحدود؛ لأن تجاوزها يخرج من حلٍ إلى منع. وحدود الله؛ استعارة للأوامر والنواهي الشرعية، بقرينة الإشارة، شبّهت بالحدود التي هي الفواصل المجعولة بين أملاك الناس، لأن الأحكام الشرعية، تفصل بين الحلال والحرام، والباطل، وتفصل بين ما كان عليه الناس قبل الإسلام، وما هم عليه بعده. وكذلك إطلاق الاعتداء، الذي هو تجاوز الحدّ على مخالفة حكم الشرع، هو استعارة تابعة لتشبيه الحكم بالحدّ.

وجملة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تذييل، وأفادت جملة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حصراً، وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم؛ إلا وهو متعدٍ لحدود الله، فظهر حصر حال المتعدي حدود الله في أنه ظالم^(١).

ومنه قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

"أي: لا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، أو لا تسرفوا في تناول الطيبات، أو جعل تحريم الطيبات اعتداءً وظلماً، فهي عن مطلق الاعتداء؛ ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولياً، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ تعليل لما قبله^(٢).

ومن أساليب النهي عن الفساد: النهي بالمثل والتشبيه:

من أروع أساليب النهي في القرآن الكريم، النهي عن الشيء بضرب مثل له، أو تشبيهه بصورة منفردة، تحمل العقل السويّ، على النفور من تلك المفسدة، والبعد عنها.

"إن الحكمة في ضرب الأمثال؛ أن يتفكر الناس فيها، فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ونظيره قوله ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ويبيّن في موضع آخر؛ أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل

(١) التحرير والتنوير ٣٩٣/٢

(٢) إرشاد العقل السليم ٧٤/٣

العلم، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وبين أيضاً؛ أن المثل المضروب؛ يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] (١).

وحيث أنزل الله كتابه العزيز بلسان عربي مبين، فإنه قد قرر الأحكام، وأظهر الحكم على ما اعتادته العرب في كلامها، وفي هذا يقول سفيان بن عيينة رحمه الله: ليس مثل من أمثال العرب، إلا وأصله في كتاب الله تعالى، قيل له: فأين قول الناس: أعط أحاك تمر، فإن أبي فجمرة - يُضرب لمن يختار الهوان على الكرامة (٢) - فقال: في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

وهذا كثير في القرآن، ولعلي اقتصر على قضية واحدة هي:

مثل فساد المشرك الذي بينه تعالى في قوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١].

قال الزمخشري: "التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهاً مركباً؛ فكأنه قال: من أشرك بالله؛ فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء، فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح؛ حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة.

وإن كان مفروقاً؛ فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان، وأشرك بالله؛ بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره؛ بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة، بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهوي المتلفة" (٣).

وليس عن هذا ببعيد، ما أخبر عنه سبحانه وتعالى بقوله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

(١) أضواء البيان ٢٤٦/٢

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢٤٥/٣، نهاية الأرب في فنون الأدب ١٥/٣

(٣) الكشف ١٥٧/٣

ففيه "تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات، حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق، من شدة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين، أن يسأل نفسه أن لهم أعمالاً من الصلة والمعروف؛ من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتماد، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين؛ تطلبت نفوسهم وجه الجمع بين وجود عمل صالح، وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه، فضرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع الاحتمالات، فشبهت أعمالهم المتجمعة العديدة؛ برماد مكّس، فإذا اشتدت الرياح بالرماد؛ انتثر وتفرق تفرقاً لا يرجى معه اجتماعه، ووجه الشبه؛ هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه"^(١).

ومن أساليب النهي: النهي عن الأدنى تنبيهاً على الأعلى.

فحيث كان الفساد درجات متفاوتة، وبعضه يقود إلى بعض، فرمما اتجه النهي إلى الأدنى؛ احترازاً مما هو أعلى منه في المفسدة والضرر. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله ﴿وَلَا نَهْرُهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك على والديك^(٢).

قال ابن عاشور: "وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما (أف) خاصة، وإنما المقصود النهي عن الأذى الذي أقله الأذى باللسان، بأوجز كلمة، وبأنها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائها، دون شتم أو ذم، فيفهم منه؛ النهي مما هو أشد أذى، بطريق فحوى الخطاب بالأولى"^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٢٤٠/١٢

(٢) انظر: جامع البيان ٤١٧/١٧، تفسير القرآن العظيم ٦٤/٥

(٣) التحرير والتنوير ٥٧/١٤

وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

قال البيضاوي: "ولا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون هو الميل اليسير؛ كالتزبي بزيهم، وتعظيم ذكرهم واستدامه، فتمسككم النار بركونكم إليهم، وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك، فما ظنك؛ بالركون إلى الظالمين، أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه"^(١)، وهي أصل في سدّ ذرائع الفساد المحققة، أو المظنونة.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالآية دليل على أن الوسائل؛ لها أحكام المقاصد، فإن الخضوع بالقول، واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، مُنع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال أن لا تلين لهم القول.

فإذا كان هذا الطمع في أمهات المؤمنين، فلا بد أن يكون في غيرهن من باب الأولى، لأن الله تعالى اختار لنبيه ﷺ أفضل النساء وأعفهنّ، ومع ذلك أمرهنّ بالحجاب، ونهاهنّ عن الخضوع بالقول؛ صيانة لهنّ، فغيرهنّ أولى بالصيانة، والبعد عن أسباب الفتنة.

ودلّ قوله ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ - مع أمره بحفظ الفرج، وثنائه على الحافظين لفروجهم، والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا - أنه ينبغي للعبد، إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش لفعل المحرم؛ عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فلْيَعْرِفْ أن ذلك مرض.

فليجتهد في إضعاف هذا المرض، وحسم الخواطر الرديئة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به^(٢).

(١) تفسير البيضاوي ٢٦٦/٣، وانظر: التحرير والتنوير ٣٤١/١١.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٦٣

المبحث الثاني

ذمُّ أهله والتشهيرُ بهم

من أساليب القرآن في بيان الفساد؛ ذمّ المفسدين والتشهير بهم، ولهذا الأسلوب صور عدّة، تدل بمجموعها على ذمّ المفسدين، والتنفير من صفاتهم. فمن أبلغ الذمّ لأهل الفساد؛ ما وصفوا به من أوصاف سيئة؛ تدل على خروجهم عن الصراط المستقيم، وتلك الأوصاف كثيرة في القرآن. فأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر؛ وصفهم بالإسراف:

قال تعالى على لسان نبيه لوط عليه السلام حين أنكر على قومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

أي: متجاوزون لما حدّه الله، متجرئون على محارمه.

"و (بَلْ) للإضراب الانتقالي، للانتقال من غرض الإنكار، إلى غرض الذم، والتحقير، والتنبية إلى حقيقة حالهم.

والإسراف مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي المترفون في الباطل والجرم، ووصفهم بالإسراف، بطريق الجملة الاسميّة، الدالة على الثبات، أي أنتم قومٌ تمكّن منهم الإسراف في الشهوات؛ فلذلك اشتهاوا شهوة غريبة، لما سئمو الشهوات المعتادة.

وهذه شنشنة^(١) الاسترسال في الشهوات؛ حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء.

ونحوه قوله تعالى عنهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافاً؛ أنه يشتمل على مفسد كثيرة:

منها: استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية؛ لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي وضعها الله لأجله؛ اعتداء على الفطرة، وعلى النوع، ولأنه يغيّر خصوصية الرحلة بالنسبة إلى المفعول به؛ إذ يجعله آلة لقضاء شهوة غيره، على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة، من قضاء الشهوتين معاً، ولأنه مفضّ إلى قطع النسل أو تقليه، ولأن ذلك الفعل يجلب أضراراً للفاعل والمفعول؛ بسبب استعمال محلين في غير ما خلّقا له^(٢).

(١) الشنشنة: الخلق والطبيعة. انظر: الصحاح ٣٩٩/٥، لسان العرب ٢٤١/١٢، مادة (شنن)

(٢) التحرير والتنوير ١٧٩/٨، وانظر: الكشاف ١١٩/٢

ولذا جاء هذا الوصف في ذكر عذاب قوم لوط عليه السلام، فقال تعالى ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤].

كما وُصف فرعون بالإسراف في غير موضع، قال سبحانه ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].
"لقد أسرف في الظلم والفساد، بالقتل وسفك الدماء، أو في الكبر، والعتو، حتى ادعى الربوبية، واسترقَّ أسباط الأنبياء"^(١).

كما أن نبي الله صالح عليه السلام وُصف به المكذبين من قومه، فقال محذراً إياهم ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢].
وكذلك وصف الله بني إسرائيل بعد ذكر جملة من مفسدهم فقال ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].
قال ابن كثير: "وهذا تقرير لهم، وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها"^(٢).

وجاء هذا الوصف عاماً من لم يؤمن بربه، فقال تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَأَيُّنَا فَانْسِينَا ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].
فالإسراف هنا؛ الاعتقاد الضال، وعدم الإيمان بالآيات، ومكابرتها وتكذيبها.

ومن قبيح صفات المفسدين: الإجمام.

فقد وُصف بالإجمام جملة من المفسدين، والإجمام من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن^(٣)، ومن وصف بذلك قوم لوط عليه السلام، على لسان الملائكة حين خاطبهم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨]. أي ذوي جرائم، وهي كبار المعاصي، فيدخل تحت ذلك الشرك وما هو دونه، حيث كثر فسادهم، وعظم شرهم، "وجيء بهم بطريق التنكير؛ ذمًا لهم، واستهانة بهم"^(٤).

(١) إرشاد العقل السليم ١٧١/٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩٤/٣

(٣) التحرير والتنوير ٤٢٩/١٤

(٤) إرشاد العقل السليم ٨٢/٥

وثبت وصفهم به؛ في بيان هلاكهم، فقال تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

بل جمع وصفي الإسراف والإجرام، في آيات هلاكهم، فإن قيل: كيف ذلك، مع أن المسرف غير المجرم، في اللغة؟

أجاب عن ذلك الرازي بقوله "المجرم هو الآتي بالذنب العظيم، لأن الجرم؛ فيه دلالة على العظم، ومنه جرم الشيء، لعظمة مقداره، والمسرف هو الآتي بالكبيرة، ومن أسرف ولو في الصغائر؛ يصير مجرمًا؛ لأن الصغير إلى الصغير، إذا انضم صار كبيرًا، ومن أجرم فقد أسرف؛ لأنه أتى بالكبيرة، ولو دفعة واحدة، فالوصفان اجتمعا فيهم" (١).

كما ذم الله تعالى بذلك عادة قوم هود عليه السلام، حيث قال ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقد كان هود عليه السلام حذرهم من قبل عن ذلك، فقال ﴿وَلَا تَنْوَلُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

كما ذم الله تعالى فرعون وقومه، بسبب إجرامهم، فقال سبحانه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

ولم يزل الإجرام مذمة للمفسدين عبر القرون ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [يونس: ١٣]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَهَرُّ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].
وفي آية ثالثة ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهَلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

كما وصف المنافقين بالإجرام، قال تعالى ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَيْتِهِمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومن ذم المفسدين؛ وصفهم بالضلال.

الضلال يقال: ضلَّ الشيء؛ ضاع وهلك، يضلُّ بالكسر ضلالاً، والضلالة ما ضلَّ من البهيمة للذكر والأنثى، وأرض مَضَلَّةٌ بفتح الضاد وكسرهما، وفتح الميم فيهما؛ أي يضل في الطريق،

وفلان يلومني ضلّةً إذا لم يوفق للرشاد في عذله، ورجل ضليلٌ ومُضللٌ؛ أي ضالٌّ جداً، والضلالُ ضد الرشاد، وقد ضلَّ يضلُّ بالكسر ضلالاً وضلالةً، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَأَنَا ضَالٌّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].^(١)

وعلى هذا؛ فالضلال هو عدم التوفيق للرشاد، وعدم وعي الحق، فالمفسدون الذين طغوا، وأعرضوا عن الهداية، أضلهم الله تعالى، فلا يرون الحق، بل إنه تعالى يمدّهم في طغيانهم، وضلالهم إلى يوم مآثمهم.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]. قال الطبري: "يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد علمهم بها، من أهل الكتاب، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه؛ أوحى إليك كتابه، وصدوا عن الدين الذي بعثه الله به، إلى خلقه وهو الإسلام... ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعني: قد جاروا عن قصد الطريق جوراً شديداً، وزالوا عن المحجة.

وإنما يعني - جل ثناؤه - بجورهم عن المحجة، وضلالهم عنها؛ إخطاءهم دين الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله، يقول: من جحد رسالة محمد ﷺ، وصدّ عما بعث به من الملة، فقد ضلّ، فذهب عن الدين الذي هو دين الله، الذي ابتعث به أنبياءه ضلالاً بعيداً".^(٢) "وأي ضلال أعظم؛ من ضلال من ضلّ بنفسه، وأضلّ غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدايتان"^(٣).

فهذا الضلال سبقه كفر وتكذيب، فأضلهم الله تعالى عن طريق الصواب؛ فلا يعرفوه أبداً، ولا يهتدون إليه.

كما أخبر تبارك وتعالى عن فريق من المفسدين؛ وهم الذين دخلوا الإيمان، ثم خرجوا منه، ثم ازدادوا كفراً، أنهم ضالون، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

فأي خزي كهذا الخزي، وهذا حكم من الله تعالى، لا رجعة فيه أبداً، حتى ولو تابوا، لأنهم

(١) مختار الصحاح ص ٤٠٣، لسان العرب ١١/٣٩٠ مادة (ضلل)

(٢) جامع البيان ٤/٣٧٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص ٢١٥

هم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك.

لكن الله تعالى يغفر الذنوب جميعها، ما دام العبد لم يغرغر، أو لم تطلع الشمس من مغربها. إذاً أي فائدة في هذه الكناية؟ أعني أن كنى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة؟ قال القرطبي في الجواب على هذا: "الفائدة فيها جليلة؛ وهي التخليط في شأن أولئك الفريق من الكفار، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة، التي هي أغلظ الأحوال، وأشدّها، ألا ترى أن الموت على الكفر، إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة".^(١) وقال ابن كثير: "يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، ولهذا قال ههنا ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي"^(٢).

كما ذمّ الله تعالى النصارى على ضلالهم، وأكد في دعاء فاتحة الكتاب؛ أن نسأله أن ينجبنا سبيلهم، قال تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. وقد تبين أن الضالين هم النصارى، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]. فالنصارى ضلوا بعد الحواريين، وأسأوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام، فزعموه ابن الله على الحقيقة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً^(٤).

كما ذمّ بالضلال مشركي العرب^(٤)، فقال تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. فأكد ضلالهم بقوله ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ "والفائدة فيه، أنه قد يضل الإنسان عن الحق، إلا أنه يعود إلى الاهتداء، فبين - تبارك وتعالى - أنهم قد ضلوا، ولم يحصل لهم الاهتداء

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/١٩٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٧٢

(٣) التحرير والتنوير ١/١٩٧

(٤) انظر: معالم التنزيل ٣/١٩٤

قط، وهذا نهاية المبالغة في الذم".^(١)

وهؤلاء لولا ما أضمرته قلوبهم من فساد، وما يدور فيها من مقت الإسلام وأهله، لغير الله تعالى قلوبهم، وصرفها إلى طاعته، قال تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال ابن عاشور: "قوله ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ استئناف مراد به التعليل لجملة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وهذا شأن (إن) إذا وقعت في صدر جملة عقب جملة أخرى، أن تكون للربط والتعليل، وتُغني غناء الفاء.

والمعنى أن هذا الفريق، الذي حقت عليهم الضلالة، لما سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، لم يطلبوا النجاة، ولم يتفكروا في ضلال الشرك البين، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، واثتمروا بأمرهم، واتخذوهم أولياء، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم؛ لأجل اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.

وعطف جملة {ويحسبون} على جملة {اتخذوا} فكان ضلالهم ضلالاً مركباً، إذ هم قد ضلوا في الائتمار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولما سمعوا داعي الهدى لم يتفكروا، وأهملوا النظر، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، لا يتطرق إليهم شك في أنهم مهتدون، فلذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرسول ﷺ، والحسبان الظن، وهو هنا ظن مجرد عن دليل. وعطف هذه الجملة على التي قبلها، واعتبارهما سواء في الإخبار عن الفريق الذين حقت عليهم الضلالة؛ لقصد الدلالة على أن ضلالهم حاصل في كل واحد من الخبرين، فولاية الشياطين؛ ضلالة، وحسابهم ضلالهم هدى؛ ضلالة أيضاً، سواء كان ذلك كله عن خطأ، أو عن عناد، إذ لا عذر للضلال في ضلاله بالخطأ، لأن الله نصب الأدلة على الحق وعلى التمييز بين الحق والباطل"^(٢).

(١) تفسير اللباب لابن عادل ٤٦٥/٨

(٢) التحرير والتنوير ٧١/٨

ومما ذم الله به المفسدين، الفسق:

من الأوصاف التي وصف بها المفسدون الفسق، "والفسق العصيان، والترك لأمر الله تعالى، والخروج عن طريق الحق"^(١).

قال الطبري: "وأصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء. يقال منه: فسقت الرطبة؛ إذا خرجت من قشره، ومن ذلك سُميت الفأرة فُوَيْسِقَةً؛ لخروجها عن جُحرها، فكذلك المنافق والكافر؛ سُميا فاسقين؛ لخروجهما عن طاعة ربهما.

ولذلك قال جل ذكره؛ في صفة إبليس ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، يعني به خرج عن طاعته، واتباع أمره"^(٢).

والفسق أعم من الكفر، حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي، فالفاسق أعم من الكافر، والظالم أعم من الفاسق"^(٣).

وقد جاء وصف المفسدين بالفسق؛ تشهيراً بهم وزجراً لغيرهم.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩].

قال ابن كثير: "أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه، وانتهاك حرماته"^(٤).

كما تحدث القرآن عن قوم نوح، وما كان من فسقهم وعتوهم، فقال ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]. "وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لما تضمنه قوله ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ وتقدير كونهم آية للذين يخافون العذاب؛ من كونهم عوقبوا، وأن عقابهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين"^(٥).

وكذلك جاء هذا الوصف لقوم موسى عليه السلام قال تعالى ﴿أَسَلِكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرِجُ

بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ

(١) انظر: لسان العرب ٣٠٨/٥ مادة (فسق)

(٢) جامع البيان ٤٠٩/١

(٣) انظر: المفردات للراغب ص ٣٨٢

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٥٨/٣

(٥) التحرير والتنوير ٣٥/٢٧

وَمَلَايِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿[القصص: ٣٢].

أي: "خارجين عن حدود الظلم والعدوان، فكانوا أحقأ بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين"^(١).

وقوم لوط عليه السلام كانوا يعلمون الخبائث، وكانوا قوماً فاسقين، لخروجهم عن منهج الله تعالى، ولتركهم للحلال، وذهابهم إلى الحرام الذي حرم عليهم، فبسبب فسقهم نزل عليهم عذاب الله قال تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ أَنبَأَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوَاءً فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

والعذاب نزل عليهم أيضاً بسبب فسقهم، قال تعالى ﴿إِنَّمَا نَزَّلْنَا عَلَيْ أَهْلِهِ هَذِهِ الْقَرْيَةَ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

كما وصف أهل الكتاب بأن أكثرهم فاسقين، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِتًّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

قال الرازي: "فإن قيل: اليهود كلهم فساق وكفار، فلم خصّ الأكثر بوصف الفسق؟ والجواب من وجهين؛ الأول: يعني أن أكثرهم إنما يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون؛ طلباً للرياسة والجاه، وأخذ الرشوة، والتقرب إلى الملوك، فأنتم في دينكم فساق لا عدول، فإن الكافر والمبتدع قد يكون عدل دينه، وقد يكون فاسق دينه، ومعلوم أن كلهم ما كانوا كذلك، فلذلك خصّ أكثرهم بهذا الحكم.

والثاني: ذكر أكثرهم؛ لئلا يُظن أن من آمن منهم داخل في ذلك"^(٢).

كما ذمّ الله تعالى بالفسق؛ المنافقين في عدة مواضع، كقوله ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِن تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

أي: "ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضىٰ عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي"^(٣).

(١) إرشاد العقل السليم ١٣/٧

(٢) التفسير الكبير ٣٠/١٢

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص ٣٤٨

وقد وصف عامة المفسدين من المكذبين بالفسق، كما قال تعالى ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا
 ١٠١﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ
 ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿الأعراف: ١٠١، ١٠٢﴾

قال ابن كثير: "أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه، وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب، أنه رهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره، بلا دليل، ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السليمة، خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك" (١).

وكذلك ذم المفسدين: بضعف العقل والعلم.

فللمفسدين عقولاً، لكنها لا تفهم ما يقال لها، ولو فهموا المراد؛ لتراجعوا عما هم فيه، ولأنهم لا فهم له؛ فقد اطرّد وصفهم بقلة الفهم، وانتفاء العلم.

قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

قال الطبري: "مثل الكافر - في قلة فهمه عن الله ما يتلى عليه في كتابه، وسوء قبوله لما يدعى إليه، من توحيد الله، ويوعظ به - مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها" (٢).

وقال ابن كثير: "أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول، ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط هكذا.

وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم، في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً، ولا تعقله، ولا تبصره، ولا بطش لها، ولا حياة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣١٣/٢

(٢) جامع البيان ٨٤/٢

فيها، وقوله ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً، ولا يفهمونه^(١).
فسلب الله تعالى منهم نعمة الفهم، وتركهم إلى أنفسهم يقلدون غيرهم من أهل الفساد الغواية، بل ويدافعون عن معتقداتهم الباطلة، والأدهى من ذلك، أنهم يموتون في سبيلها، وينفقون كل ما يملكون من أجلها أيضاً.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]
فالمقصود أن هذه الجوارح، لا ينتفعون بشيء منها، مع أن الله جعلها سبباً للهداية.

قال الزمخشري: "وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله؛ نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله؛ سماع تدبير، كأنهم عدموا فهم القلوب، وإبصار العيون، واستماع الآذان، لإعراقهم في الكفر، وشدة شكائهم فيه، فأولئك في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبير " بل هم أضل " من الأنعام، إذ الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار"^(٢).

فهذه الجوارح لم تنفعهم للسير في طريق الحق، ولم تغن عنهم شيئاً، كما قال تعالى عن عاد قوم هود ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْعِدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَّتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].
قال ابن عاشور: "هذا استخلاص لموعظة المشركين بمثل عاد، ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد، قادر على إهلاك من هم دونهم في القوة والعدد، وليعلموا أن القوم كانوا مثلهم، مستجمعين قوى العقل والحس، وأنهم أهملوا الانتفاع بقواهم، فجدوا بآيات الله، واستهزؤوا بها وبوعيده، فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به، وقريش يعلمون أن حالهم مثل الحال المحكية عن أولئك، فليتهيأوا لما سيحل بهم"^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٧٨/١

(٢) الكشاف ١٦٩/٢

(٣) التحرير والتنوير ٤٠١٥

فإعراض أصحاب العقول عن قبول الحجّة والتذكر بها، دليل على أنها سيأتي عليها وقت تتوقف فيه عن الإدراك والعمل، فلن تغني عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء، فلا يستطيعون التوصل بها إلى إدراك المطلوب.

وهكذا؛ كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته، وإن كانت صورته موجودة.

وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

قال ابن كثير: "أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر".^(١)

"والاستفهام تعجبي من حالهم، في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذبة لأنبيائها".^(٢)

فنفي الله عن المفسدين، البصيرة التي تنقل الإنسان إلى التفكير والتدبر؛ ولذا لا يعظمون أمر الشرعية، مما يدل على أنهم لا يفقهون ما ينفعهم مما يضرهم، كما قال تعالى في أهل الكتاب

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

"وهذا تحقير لهم، إذ ليس في النداء إلى الصلاة ما يوجب الاستهزاء؛ فجعله موجبا للاستهزاء سخافة لعقولهم"^(٣).

وقد ذم الله المفسدين بعدم العلم، بسبب اعتقادهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة، كما قال تعالى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

"أي ولكن أكثر المعاندين لا يعلمون أن ذلك لو شاء الله لفعله، ويحسبون أن عدم الإجابة إلى مقترحهم، يدل على عدم صدق الرسول ﷺ، وذلك من ظلمة عقولهم، فلقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر"^(٤).

وقال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

قال السعدي ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٠٥

(٢) التحرير والتنوير ٣/٨٩

(٣) المصدر السابق ٥/١٤٠

(٤) المصدر السابق ٤/٤٩٥

يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. فهم ﴿عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وخطامها؛ فعملت لها، وسعت وأقبلت بها، وأدبرت وغفلت عن الآخرة. ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا؛ إلى أمر يحير العقول، ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية؛ ما فاقوا به، وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون" (١).

وفي هذا تثبيت لأهل الإيمان؛ ألا يغتروا بحال الكافرين، وإن أبدعوا في علوم الدنيا، فهذا في حقيقة الأمر؛ لا يعني عنهم من الله شيئاً.

ومن ذم المفسدين: ضرب الأمثال الدالة على فسادهم وانحرافهم.

وهذا الأسلوب من الأهمية بمكان، كما قال الرازي: "المقصود من ضرب الأمثال، أنها تؤثر في القلوب، ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل؛ تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحسُّ مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب؛ إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له، لم يتأكد وقوعه في القلب؛ كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور، وإذا زُهد في الكفر. بمجرد الذكر، لم يتأكد قبُحه في العقول؛ كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور،

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٣٦

وضرب مثله بنسج العنكبوت، كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً،

ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] (١).

ومن الأمثلة التي ضربها الله في المفسدين، قوله تعالى عن المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

قال ابن كثير: "شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى؛ بمن

استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها،

فبينما هو كذلك، إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا

أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان

عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم

الغي على الرشيد، وفي هذا المثل؛ دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في

غير هذا الموضع، والله أعلم." (٢).

وفي الآية التي تليها قال سبحانه ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْغَعِمٌ فِي آذَانِهِمْ مِنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

قال ابن القيم: "ذكر حالهم بالنسبة إلى هذا المثل المائي، فشبهم بأصحاب صيب، وهو المطر

الذي يصب، أي يتزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم،

اشتدت عليهم زواجر القرآن، ووعيده وتهديده، وأوامره ونواهيته، وخطابه الذي يشبه

الصواعق، فحالهم؛ كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوفه جعل

أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه." (٣).

وقال رحمه الله معلقاً على المثل الأول: "تأمل كيف قال الله تعالى ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحده،

ثم قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي

لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ

(١) التفسير الكبير ٦٦/٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨٣/١

(٣) الأمثال في القرآن لابن القيم. ص ٩

لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة، ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ وَرِئُ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فجمع سُبُل الباطل ووحد سبيل الحق^(١).

كما ضرب سبحانه وتعالى أمثالا للكافرين، كقوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. قال القرطبي: "والمعنى؛ أعمالهم محبطة غير مقبولة، والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء، فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يحرقها كما تحرق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، والعصف شدة الريح وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى".^(٢)

وقال تعالى في وصف حالهم ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾^(٤٩) كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ فَسْوَاقٍ ﴿[المدثر: ٤٩، ٥١]. "أي كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حُمُرٌ مِنْ حُمْرِ الوحش، إذا فرت ممن يريد صيدها، من أسد"^(٣).

وفي اليهود قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

أي: مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى، فحملوا العمل بها، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذبوا بمحمد ﷺ، وقد أمروا بالإيمان به فيها، واتباعه والتصديق به؛ كمثل الحمار يحمل على ظهره كتباً من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد ﷺ مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم ٢٢/١

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠١/٩

(٣) تفسر القرآن العظيم ٥٧٤/٤

فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها^(١).

وقريباً من ذلك قوله تعالى ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهو مثل ضربه الله تعالى للعالم الضال، المنسلخ عن العلم النافع، دائم اللهات وراء شهواته.

ومن بليغ الذم للمفسدين، أنه تعالى نفى المساواة بينهم وبين المؤمنين، كما قال تعالى ﴿مَثَلُ

الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

قال الطبري: "مثل فريق الكفر والإيمان، كمثل الأعمى الذي لا يرى بعينه شيئاً، والأصم الذي لا يسمع شيئاً، فكذلك فريق الكفر؛ لا يبصر الحق فيتبعه ويعمل به، لشغله بكفره بالله، وغلبة خذلان الله عليه، لا يسمع داعي الله إلى الرشاد، فيجيبه إلى الهدى فيهتدي به، فهو مقيم في ضلالتة، يتردد في حيرته، (والسميع والبصير) فذلك فريق الإيمان؛ أبصر حجج الله، وأقر بما دلت عليه من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، ونبوة الأنبياء عليهم السلام، وسمع داعي الله فأجابته، وعمل بطاعة الله"^(٢).

هذا؛ وما ذكرته هنا؛ ما هو إلا إشارات مختصرة، في ذم المفسدين، ومن تأمل ما بين دفتي الكتاب، وقف من ذلك على كثير من الأوصاف والألقاب، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) جامع البيان ٩٢/١٢

(٢) جامع البيان ٢٧/٦

المبحث الثالث

بَيَانُ عَاقِبَتِهِ

من أساليب دفع الفساد؛ بيان عاقبته، وقد عُني الكتاب العزيز بذلك في كل موضع بحسبه، على التفصيل والإجمال.

ومن خلال الآيات التي بيّن الله تعالى فيها عاقبة الفساد، نجد الأسلوب القرآني؛ يتحول من مجرد الإخبار؛ إلى النهي عن سلوك طرق الفساد.

ولهذا الأسلوب صورته المؤثرة، في علاج الفساد، بل إن ذلك من أكثر الأساليب تأثيراً، فهي تجعل للنهي معنى ظاهراً، يدركه الناس على ما بينهم من تفاوت الأفهام، ولها أثر بالغ في زجرهم عن المفاسد والآثام.

ومن صور ذلك؛ أن الله تعالى نفى التسوية بين المؤمنين والمفسدين في العاقبة. قال ابن القيم: "إنكاره سبحانه أن يسوي بين المختلفين، أو يفرق بين المتماثلين، وأن حكمته وعدله؛ يأبى ذلك أما الأول، فكقوله تعالى ﴿فَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْجُرْمِينَ﴾ (٢٥) ما لَكُرِّهَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. فأخبر أن هذا حكم باطل جائر، يستحيل نسبته إليه، كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه.

وقال تعالى ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنّة: ٢١].

فجعل سبحانه ذلك حكماً سيئاً، يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن ينسب إليه".^(١)

وكذا قوله ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، "وهذا استفهام إنكار، فدلّ على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر، أفتظنون أن ذلك يليق بنا، أو يحسن منا فعله، فأنكر سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة، على قبحه، وأنه لا يليق بالله نسبه إليه"^(٢).

فكيف يكون الحال بمن هو متصف بهذا الوصف القبيح؛ أعني الفساد. وجاء القرآن مبيناً عاقبة الفساد الوحيمة، في تشنيع بليغ للفرعون الذي أرداه الفساد إلى

(١) شفاء العليل ص ٢٠٠

(٢) مدارج السالكين ١/ ٢٣٨

أسوأ حال، قال تعالى ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

قال ابن تيمية: "فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار، أي: الآن تؤمن، وقد عصيت قبل، فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولاً، فمن قال إنه نافع مقبول؛ فقد خالف نص القرآن، وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده"^(١).

فهذا تفريع وتوبيخ من الله تعالى لفرعون الذي مات على الكفر، ومن قبل كان يفسد في الأرض؛ بإضلال الناس عن طريق الله تعالى.

وقد جاءت التنبيه على ذلك أيضاً، في ذكر سوء عاقبة قارون حيث ذيلت القصة بقوله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْظِقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والمتدبر للقرآن الكريم، يجده يعرض عاقبة الفساد عرضاً شافياً؛ لأجل درئه، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩) ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٩، ١١٠].

قال ابن كثير: "فإذا استمعوا خبر ذلك؛ رأوا أن الله قد أهلك الكافرين، ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير"^(٢). وفي هذا دعوة لمن يسعى في الأرض فساداً؛ أن يتدبر مصير هؤلاء، وأن ما حلَّ بهم، هو عاقبة فسادهم.

والمقصود: أفلم يسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة المفسدين السابقين لهم، من غيرهم من الأمم، فينظروا آثار آخر أحوالهم، من الهلاك والعذاب، فيعلموا أن عاقبتهم، على قياس عاقبة الذين كذبوا الرسل قبلهم.

(١) مجموع الفتاوى ٢٥٨/٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦٥٢/٢

ولقد تعرّض القرآن الكريم في بيانه عاقبة الفساد، بأسلوب فيه تهديد، ليملي لهم في ضلالهم؛ إملأء يُشعر في متعارف التخاطب؛ بأن المأمور به مما يزيد المأمور استحقاقاً للعقوبة واقتراباً منها.

قال تعالى ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عِقَابُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام، وعلى مصابرتكم، فسوف تعلمون أينما تكون له العاقبة المحمودة.

وطريقة هذا الأمر طريقة قوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وهي التخلية والتسجيل على المأمور؛ بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به، وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصّى عنه، ويعمل بخلافه، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال، وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والثوق بأن المنذر محق، والمنذر مبطل^(١). ثم يبين سبحانه وتعالى أن هؤلاء المفسدين؛ يسيرون على منهج من سبقهم، وكأنها منظومة واحدة، ودرب واحد، يسيرون عليه جميعاً، إذا يكون العقاب موحد لهم جميعاً، لأن هدفهم واحد؛ ألا وهو الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَمِهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

إذاً لا دافع وراء هذا؛ إلا الجهل والسّفه، دون أدنى تمحيص أو نظر.

قال ابن كثير: "أي فانظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم"^(٢).

ومن ثم؛ كانت سنة الله تعالى في عاقبتهم لا تتبدل ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (١٧) ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦، ١٨].

وفي مواضع عدّة، أمر سبحانه بالسير في الأرض ليتبين العباد عاقبة المفسدين، وما نزل بهم،

فقال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

والسير ينقسم إلى قسمين: سير بالقدم، وسير بالقلب.

(١) انظر: الكشاف ٣٧٩/١

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٩/٢

إما السير بالقدم؛ بأن يسير الإنسان في الأرض على أقدامه، أو راحلته، لينظر ماذا حصل للكافرين، وما صارت إليه حالهم.

وأما السير بالقلب: فبالتأمل والتفكير؛ فيما نقل من أخبارهم.

قال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

فالله تبارك وتعالى أهلكت المفسدين بسبب فسادهم، وهؤلاء كانت قوتهم عظيمة، وكان عندهم من الدنيا ما عندهم، إلا أن هذا لم يُعْنِ عنهم من عذاب الله من شيء. وهكذا من فعل ما فعله هؤلاء، حلَّ به ما حلَّ بهم من العذاب، فهل ثم مفرّ من الله؟ ومن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟

قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]. وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخِذَهُمْ اللَّهُ بُدُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١].

هؤلاء المكذبين كانوا أكثر منا قوة، وأشد بأساً، ومع هذا دمرهم الله تعالى، وجعلهم آية للعالمين.

ولم يكن سوء عاقبتهم خيراً يتلى فحسب، بل جعل الله تعالى منها مشاهد للناظرين، آيات للسائلين، قال تعالى ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتُلْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥١، ٥٢]. وقال في فرعون ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنَّاكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

هذا، وسيأتي تباعاً في هذه الرسالة؛ بيان أشمل لعاقبة الفساد في الدنيا والآخرة، وإنما أفردته هنا بمبحث مستقل، للتأكيد على عناية القرآن ببيان ذلك؛ كأسلوب من أساليبه في دفع الفساد.

المبحث الرابع ذِكْرُ مَنْ اتَّصَفَ بِالْفَسَادِ

وفيه سبعة مطالب:

- المطلب الأول: الشيطان .
- المطلب الثاني: مكذبو الرسل .
- المطلب الثالث: أهل الكتاب .
- المطلب الرابع: المنافقون .
- المطلب الخامس: السحرة .
- المطلب السادس: البغاة والمحاربون .
- المطلب السابع: الكبراء والأثرياء .

تمهيد:

من أساليب القرآن الكريم في بيان الفساد؛ ذكر من اتصف به، حيث جاء وصف
المفسدين واضحاً بيناً، ليميز طريق الهدى من الضلال، والغى والرشاد، ويتبين الحق
الذي ينبغي سلوكه، فيهتدي بذلك المهتدون، ولتستبين سبيل المفسدين؛ الموصلة
إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيلهم إذا استبان واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد
منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل. كما
قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥] (١).

وقد ذكرت في هذا المبحث، أبرز من اتصف بالفساد من الخلق، ولم أقصد حصر
جميع المفسدين، والحديث عن جميع صور إفسادهم، فإن ذلك ليس من منهجي في
هذا البحث، إذ المقصود هنا بيان شيء من مظاهر الفساد، التي اتصف بها
المفسدون. للدلالة على أن من منهج القرآن في بيان الفساد؛ ذكره لمن اتصف به.
ثم إن حصر جميع صور الفساد لصنف واحد من المفسدين، حقيق بأن يكون في
بحث مستقل، فأى الكتاب العزيز؛ مطردة في كشف الفساد وأهله.
كيف وقد جمع هذا المبحث جملة من أصناف المفسدين.

وكما إن من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الخير والصلاح، ذكر المصلحين
وصفاتهم، حيث جاءت الآيات مفصلة حال الأنبياء والمرسلين عليهم السلام،
للاقتداء بهم، كما قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ﴾ [الأنعام: ٩٠].
فكذلك ذكر - سبحانه - صفات المفسدين، لبيان شرهم، والتحذير من فسادهم
والتشبه بهم.

ولقد حذر الله تعالى من المفسدين، مع بيانه طرائقهم في الفساد والإفساد غاية
التبيين، فقال عن أهل الكتاب ﴿وَأَحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾
[المائدة: ٤٩]، وقال في شأن المنافقين ﴿هُرَّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وإذا كان هذا الخطاب للنبي ﷺ - وهو المعصوم - فهو خطاب لأئمة من باب
أولى.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥٨.

ومن اللطائف القرآنية في هذا الصدد، أنه كثيراً ما ترد في سورة إشارة مجملة إلى بعض أصناف المفسدين، ثم تفصّل في التي تليها، فذكر في سورة الفاتحة؛ المغضوب عليهم والضالون، ثم جاء التفصيل في سورتَي البقرة وآل عمران، وذكرت القرون المكذبة إجمالاً في الأنعام والفرقان ويس، وجاء تفصيل ذلك فيما يليهنّ؛ الأعراف والشعراء، والصافات.

وقد ضمّ هذا المبحث سبع مطالب، اشتملت على أبرز المفسدين، الذين تحدّث عنهم القرآن الكريم. وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول: الشيطان^(١).

لقد أخذ الشيطان - عياداً بالله منه - العهد والميثاق، لإغواء بني آدم، عداوة منه لهم، فأظهر تلك العداوة؛ منذ أن رفض الانقياد لأمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام، ولهذا حذر تبارك وتعالى من الشيطان وكيده وجنده، وأمرنا أن نتخذة عدواً، قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فكان اتباع الشيطان من أسباب الخسارة في الدنيا والآخرة، فإن هم أطاعوه؛ فقد أحلوا أنفسهم دار البوار، ولن يستنقذهم من النار، إذ كيف ينقذهم منها، وهو خالد فيها؟ ولا ريب أن هذه العداوة الحتمية؛ جعلت الشيطان يبذل وسعه للإفساد والغواية، فلم يألوا جهداً في كل سبيل يصدّ عن الهدى والحق.

ولئن كان هذا الأمر مستقرّاً في الأذهان فهمه، ومن البدهي علمه، إلا أن أكثر الخلق في غفلة عن الحق ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، فأزلهم الشيطان وزين لهم سوء أعمالهم.

واسم الشيطان أول آمارة على فساد طبعه وأعماله، فالشيطان: فيعال من شطن إذا بُعد، فيمن جعل النون أصلاً، وقولهم الشياطين على ذلك.

قال ابن فارس: الشين والطاء والنون أصل مطرد صحيح يدلُّ على البُعد. يقال شَطَنَت الدار تَشْطُن شَطُوناً؛ إذا غَرَبَتْ. ونوى شَطُونٌ، أي بعيدة^(٢). قال النابغة:

نَأَتْ بِسَعَادَ عَنكَ نَوَى شَطُونُ فبانتُ والفؤادُ بها رهينُ^(٣)

وكل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب؛ شيطان، قال جرير:

أيامٌ يدعونني الشيطان من غزل وكنَّ يهويني إذ كنتُ شيطاناً^(٤)

وتشيطان الرجل وشيطان؛ إذا صار كالشيطان وفعل فعله.

وقيل: الشيطان فعلان من شاط يشيط؛ إذا هلك واحترق، مثل هيمان وغيمان، من هام

(١) عقد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" باباً في بيان فساد الشيطان وكيده.

وقد أفدت منه في هذا المطلب، فمن رام الاستزادة فليرجع إليه، ١٢٠/١

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٨٥/٣

(٣) ديوان النابغة ١٠٠/١

(٤) ديوان جرير ٦٦٢/١

وغام.

قال الأزهري "الأول أكثر، والدليل على أنه من شطن، قول أمية بن أبي الصلت يذكر سليمان النبي ﷺ:

أَيُّمَا شَاطِنَ عَصَاهُ عَكَاهُ^(١) ثُمَّ يَلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَغْلَالِ
أراد: أيما شيطان^(٢).

وفي التتريل العزيز ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصفات: ٦٥].

قال الزجاج: وجهه أن الشيء إذا استقبح شبهه بالشياطين، فيقال: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رُوي لرُوي في أقبح صورة.^(٣)

قال ابن القيم: "وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه، جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شرَّ النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه وموضع شركه ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن، وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعود منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة"^(٤).

ولقد أبرز القرآن صور إفساد الشيطان وبيَّنها غاية البيان، كيف وهو مبدأ الفساد ومنتهاه، والقيِّم عليه، والوصي به، والمستخلف عليه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لقد بدأ إفساده من اللحظة الأولى التي استخلف الله فيها الناس في الأرض، فلما طرده الله تعالى من رحمته، وأبعده من جنته، طلب إنظاره إلى يوم القيامة، ليعيث في الأرض فساداً، باذلاً وسعه وطاقته، لا يفتأ ولا يكل.

ولا أبلغ في وصف إفساده وغوايته، من قوله لربه تبارك وتعالى ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِّي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١٦) ثُمَّ لَا يَبِينُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

(١) يقال: عكوته في الحديد والوثاق عكواً، إذا شددته. انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١/٣١٩

(٢) تهذيب اللغة ١١/٢١٤، لسان العرب ١٣/٢٣٧

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/٢٣١

(٤) إغاثة اللهفان ١/١٠٤

شكركم ﴿[الأعراف: ١٦، ١٧].﴾

ولعلي أعرِّج على بعض صور إفساده، فمن ذلك:

أمره بالكفر: فهو من أشنع صور الفساد التي يريدها الشيطان ويسعى إليها، دون كلل أو ملل، قال تعالى عنه ﴿وَقَالَ لَا اتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِتْنَهُمْ وَلَا مُرْتَهُم فليبتكن آذات الأنعام ولا أمرتهم فليغيرت خلق الله^١ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

قال ابن جرير: "يتخذ منهم ذلك النصيب، بإغوائه إياهم عن قصد السبيل، ودعائه إياهم إلى طاعته، وتزيينه لهم الضلال والكفر، حتى يزيلهم عن منهج الطريق، فمن أجاب دعاءه وأتبع ما زينه له، فهو من نصيبه المعلوم، وحظه المقسوم.

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَلَا مُرْتَهُم فليغيرت خلق الله﴾ قال: دين الله^(١). ومعنى ذلك: أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولهذا قال رضي الله عنه "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تحسون فيها من جدعاء^(٢) حتى تجدعوها" ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية^(٣).

"فجمع رضي الله عنه بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلق بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلق التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة إلى الشرك، والخلق إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقه الروح، وهذا تغيير خلقه الصورة"^(٤).

(١) جامع البيان ٤/٢٨٠.

(٢) الجمعاء: السليمة من العيوب مُجمعة الأعضاء كاملتها، فلا جدعَ بها ولا كيِّ. والجدعاء من الجدع: وهو قطع الأنف أو الأذن. انظر: لسان العرب ٨/٥٣.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الجنائز. باب إذا أسلم الصبي. ح (١٣٥٨)، ومسلم. كتاب القدر. باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. ح (٢٦٥٨).

(٤) إغاثة اللهفان ١/١٢٣.

إن الكفر هو أول طريق يسلكه الشيطان مع ابن آدم، كما أخبر بذلك ﷺ بقوله "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آباءك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم"^(١).

إن المتأمل في انحراف البشرية عن دين الله تعالى؛ يرى طرائق قديداً، وذلك برهان ظاهر على عتو إبليس، وشدة تليسه على الناس، وإلا فما تفسير ما تعجّب به الأرض من صور الكفر والإشراك بالله عز وجل.

وصدق جل وعلا إذ يقول ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

ومن صور إفساد الشيطان: وحيه لأوليائه بمجادلة أهل الحق، زعزعة منه لإيمانهم، وقذف الوهن في قلوبهم.

قال سبحانه ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].
فإن المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة، قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة، التي لو كان الحق تبعاً لها؛ لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء الفاسدة وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير"^(٢).

ولربما كان لهذا الوحي الشيطاني، أثره في نفوس بعض المؤمنين، فيصيبهم بفتور الهمة وضعف

(١) أخرجه النسائي. كتاب الجهاد. باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. ح(٣١٣٣)، وابن حبان. باب فضل الجهاد.

١٩/١٩١، ح(٤٦٧٦)، وصححه الألباني في الصحيحة ٦/١١٨٦، ح(٢٩٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٧

القوة، ومن ثمّ قلة الحرص على غلبة أولياء الشيطان، فيظهر الباطل وينتفش، في حال ضعف أهل الحق؛ عن طلبهم استعلاء الحق الذي هم عليه.

وإنا لنراها ظاهرة جلية، فكم من أمرٍ نرى فيه مكيدة أهل الباطل ظاهرة قوية، لا لقوتها؛ بل لضعف أهل الحق عن ردّ الباطل، وبيان الحق والذبّ عنه.

وإن تلك المكيدة الشيطانية تتجاوز المجادلة بالباطل، لتسعى جاهدة في تخويف أهل الإيمان، من أولياء الشيطان، حتى لا يجاهدوهم، فلا يأمرؤا بالمعروف ولا ينهوا عن المنكر، ويخوفهم عند إثارة مرضاة الله، بكل ما يمكن، وما لا يمكن، مما يُدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أي: "يخوفكم بأوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة"^(١)، فهو يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة؛ ومن ثمّ ينبغي أن يفتن المؤمنون إلى مكر الشيطان، وأن يبطلوا محاولته، فإنه يضخّم شأن أوليائه، ويلبسهم لباس القوة والقدرة، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضرر، وما ذاك إلا ليحقق بهم الفساد والشر في الأرض، وليخضع لهم الرقاب، ويطوّع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار؛ وهو صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل، وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع ولا يغلبه من المعارضين غالب.

والشيطان ماكر مخادع، يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يجتاطون لوسوسته، ومن هنا كشف الله كيده ومكره، وعرفّ المؤمنين حقيقة ووسوسته؛ ليكونوا منها على حذر، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم، فهو وإياهم؛ أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته.

ولذلك طمأن الله تعالى المؤمنين الذين يقفون على خط المواجهة مع أولياء الشيطان، فقال لهم ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٢/١

ومن صور إفساده: ما أخبر به سبحانه بقوله ﴿وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].
أي: استخفف - من ذرية آدم - من استطعت بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتاً دون صوت.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو كل داعٍ دعا إلى معصية الله عز وجل، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير^(١). وقال مجاهد: إن صوته هو الغناء، وقال بعضهم: اللهو واللعب^(٢).
ولا ريب أن الغناء رسول إبليس إلى القلوب، إذ به يطرب القلب وتنتشي الأعضاء مما يحرك فيها حب الشهوة والمعصية، ولما سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]، قال: "والذي لا إله غيره هو الغناء، يرددها ثلاثاً"^(٣).

قال الواحدي: "أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث: الغناء"^(٤).
"والغناء رقية الزنا، فهو يزيد الشهوة، وينبت النفاق في القلب، وما استفز الشيطان به الإنسان؛ إلا لأنه يُلهي القلب، ويصدّه عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء؛ لا يجتمعان في القلب أبداً؛ لما بينهما من التضاد.

حب الكتاب وحب ألحان الغناء في قلب عبد ليس يجتمعان^(٥)

فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسّنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغي، فيثير كامنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، وهو جاسوس القلب، وسارق المروءة، وسوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى محل التخيل؛ فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة والحماقة، فبينا ترى

(١) انظر: جامع البيان ١٠٨/٨.

(٢) المصدر السابق ١٠٨/٨.

(٣) جامع البيان ٢٠٢/١٠.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي ٤٤١/٣.

(٥) شرح قصيدة ابن القيم ٥٢١/٢.

الرجل، وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه؛ نقص عقله، وقل حياؤه، وزهبت مروءته، وفارقه بماؤه، وتخلي عنه وقاره، وفرح به شيطانه" (١).

وأما قوله تعالى ﴿وَأَجَلِبَّ عَلَيْهِم بِخَيْكٍ وَرَجِيكِ﴾ فمعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى ﴿الْمُرْتَرَانَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا، وتسوقهم إليها سوقًا" (٢).

وقيل المعنى: أجمع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائل الفتنة والوسوسة لإضلالهم (٣). "قال أهل التفسير: كل راكب وماش في معاصي الله؛ فهو من جند إبليس" (٤).

وأما مشاركتهم في الأموال والأولاد، فإن مشاركتهم في الأموال على أصناف؛ منها: ما حرموا على أنفسهم من أموالهم؛ طاعة له؛ كالبحائر والسوائب (٥) ونحو ذلك.

وما يأمرهم به من إنفاق الأموال في معصية الله تعالى، وما يأمرهم به من اكتساب الأموال بالطرق المحرمة شرعًا؛ كالربا والغصب وأنواع الخيانات، لأنهم إنما فعلوا ذلك طاعة له.

أما مشاركتهم في الأولاد؛ فعلى أصناف أيضًا؛ فمنها: قتلهم بعض أولادهم طاعة له، ومنها أنهم يحسبون أولادهم، ويهودونهم، وينصرونهم؛ طاعة له ومولاة، ومنها تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى، ونحو ذلك، لأنهم بذلك؛ سموا أولادهم عبيدًا لغير الله؛ طاعة له، ومن ذلك أولاد الزنى، لأنهم إنما تسببوا في وجودهم بارتكاب الفاحشة؛ طاعة له،

(١) إغاثة اللهفان ٢٧٠/١ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩٤/٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٥٢/١٥.

(٤) معالم التنزيل ١٠٥/٥.

(٥) البحائر: جمع بحيرة، وهي الناقة التي قطعت أذنها، والسوائب: جمع سائبة، وهي المسيبة المخلاة، كانوا في الجاهلية يفعل ذلك أحدهم ببعض مواشيه، فيحرم الانتفاع بها على نفسه.

قال ابن جرير رحمه الله: (وقد اختلف أهل التأويل في صفات المسميات بذلك، وما السبب الذي من أجله كانت

تفعل ذلك.... وغير ضائر الجهل بذلك إذا كان المراد من علمه المحتاج إليه، موصلًا إلى حقيقته، وهو أن القوم

كانوا يجرمون من أنعامهم على أنفسهم ما لم يجرمه الله، اتباعًا منهم خطوات الشيطان، فوبخهم الله تعالى ذكره

بذلك، وأخبرهم أن كل ذلك حلال. فالحرام من كل شيء عندنا ما حرم الله تعالى ورسوله ﷺ، بنص أو دليل،

والحلال منه ما حلله الله ورسوله كذلك). انظر: جامع البيان ٨٧/٧

إلى غير ذلك" (١).

ويدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد؛ ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، فإنه إذا لم يسم الله تعالى في ذلك، شارك فيه الشيطان.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وسلم "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهم ولد لم يضره" (٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء" (٣).

ومن صور إفساده: دعوته للتعري، وهي فتنة الشيطان لبني آدم، قال عز وجل ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ نَسَمَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]. فحذر - سبحانه - من خديعة الشيطان لبني آدم، مُذَكِّراً إياهم فعلته القبيحة مع أبيهما، حين زين لهما المعصية، فترع عنهما اللباس؛ فبدت لهما العورات، وظهرت بعد أن كانت مستترة عنهما.

ورغم هذا التحذير، المتضمن سوء العاقبة ومغبة المعصية؛ إلا أن فعلة الشيطان ببني آدم، أصبحت الآن أشد وأنكى، فإن مشاهد العري والسفور، أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

وهل ما يعرض في كثير من الصحف والمجلات، وتبثه الشاشات؛ إلا تعرّى صُراح، وفحش بواح!!

لقد أصبح ذاك العري المصوّر؛ ظاهرة مألوفة في كثير من المجتمعات الغربية والشرقية، وامتد أثره إلى بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فتأمل منتهى هذا التزيين من ذاك اللعين، كيف ارتكس بالإنسان إلى رتبة البهائم!

(١) أضواء البيان ٤٤٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الوضوء. باب التسمية على كل حال وعند الوقاع. ح (١٤١)، ومسلم. كتاب

النكاح. باب ما يستحب أن يقوله عن الجماع. ح (١٤٣٤).

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الأشربة. باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما. ح (٢٠١٨).

عندها ستدرك أن تلك المجتمعات الموسومة بالتقدم والحضارة، قد شابهت الجاهلية الأولى.
بل إن فعلتها في التعري أشد.

ومن صور إفساده: الوعود الكاذبة والأمانى الباطلة.

قال تعالى ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

فبين سبحانه؛ أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل، كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند الله زلفى، وأن الله لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب المحرمة، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل الآثمة...

ولعل أشد الوعود إغراءً؛ الوعد بالعمو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة؛ وتلك ثغرة دخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة. فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة؛ وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية، وشمول العفو والمغفرة!

وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع أخرى، كقوله ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، فلا تزال وعوده وأمانيه، تفعل فعلتها في القلب المهين، فيقول له: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول، ستكون لك كما كانت لغيرك، ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه، فلا يزال به؛ حتى يجترأ على كل عمل فاسد قبيح.

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، فأمره بالزنا، ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل؛ فرَّ عنه وتركه، وفيه نزل ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] (١).

قال ابن القيم: "وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته فإنه يتبرأ منه ويسلمه، كما يتبرأ

(١) قصة الراهب أوردها الطبري في تفسير سورة الحشر. انظر: جامع البيان ٤٩/٢٨، قال ابن كثير بعد سياق القصة: "هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها". تفسير القرآن العظيم ٤/٣٤٢.

من أوليائه جملة في النار، كما أخبر سبحانه عنه بقوله ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ^(١).

ولذا فإن العاقل إذا تأمل ما يسوِّله الشيطان من تلك الأماني، وجدته؛ إما باطل لا يقع، مثل ما يسوِّله للناس من العقائد الفاسدة، وكونه غروراً، لأنه إظهار لما لا يقع في صورة الواقع؛ فهو تليس، وإما حاصل لكنه مكروه غير محمود العاقبة، مثل ما يسوِّله للناس من قضاء دواعي الغضب والشهوة، ومحبة العاجل دون تفكير في الآجل. ^(٢)

ومن صور إفساده المتعلقة بوعدده، ما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ومعنى ذلك: أن الشيطان يعدكم بالصدقة وأداء الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم؛ أن تفتقروا، فإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان؛ إذا أمركم بالإمساك، وخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتهم، فليس هذا نصحاً لكم، بل هذا غاية الغش. ^(٣)

ولأنَّ دعوته تلك، توافق شهوة في نفوس عبَاد المال، فإن هؤلاء المساكين، لم يدركوا أنهم يُعاملون بنقيض قصدهم، كما قال ﷺ "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يتزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً" ^(٤).

وبالرغم من أن الشيطان يأمر بالبخل ويخوف المرء بالفقر، إلا أنه مقابل ذلك، يأمره بتبذير المال وإنفاقه في غير مرضاة الله تعالى، قال سبحانه ﴿ وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ۗ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧].

والتبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلاً، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حدَّ السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البر

(١) انظر: إغاثة اللفهان ١/١٢٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/١٥٢.

(٣) انظر: جامع البيان ٣/٨٧، وتيسير الكريم الرحمن ص ١١٥.

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الزكاة. باب قوله (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى). ح (١٤٤٢)، ومسلم. كتاب الزكاة. باب في المنفق

والممسك. ح (١٠١٠).

والصلاح ليس بتبذير.

ولما سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، قال: إنفاق المال في غير حقه، وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق؛ ما كان تبذيراً، ولو أنفق مُدًّا في باطل؛ كان تبذيراً^(١).

ولهذا قيل في معنى الآية: لا تنفق مالك في المعصية، فإن التبذير يدعو إليه الشيطان، لأنه إما إنفاق في الفساد؛ وإما إسراف يستترف المال في السفاسف واللذات، فيعطل الإنفاق في الخير، وكل ذلك يرضي الشيطان، فلا جرم إن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه.

وفي هذا تحذير من التبذير، فإن التبذير إذا فعله المرء؛ اعتاده فأدمن عليه، فصار له خلقاً لا يفارقه^(٢).

إن التبذير بهذا المعنى - وهو الإنفاق في المعصية - يغيب تصوره عند كثير من الناس، فعلى المسلم التنبه لذلك، فإن عدو الله أبلis لا يألوه في الخبال.

ومن صور فساده: بثه للعداوة بين الناس.

فمن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خاصة الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنه فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم؛ بالبعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

والشيطان لا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار، حتى يفسد بين الناس، إذ الحبة والسلام والتأخي والوثام؛ تُعكّر صفوه، وتكدرّ خاطره، فإذا ما حصلت الضغينة والخصام، والقطيعة والفصام، فحينها يطرب ويُسرّ.

وقد سلك في تحقيق ذلك كل مسلك، فمن ذلك: ما أخبر به سبحانه بقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

أي أنه يوقع العداوة بسبب تعاطي الخمر والميسر، لأن السكران يفعل كثيراً من القبائح التي توجب ذلك ولا يبالي، فإذا أفاق من سكرته؛ ندم على فعلته، فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاه؛ ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، لاسيما إذا اقترن

(١) انظر: جامع البيان ٦٨، ٦٩/٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٨١/١٥.

بذلك من السبب، ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وكذلك الأمر في الميسر، فإن غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، هو من أكبر أسباب العداوة والبغضاء، فإن الرجل المقامر لا يبقى معه من المال شيء، فيكون من غلبه وقمره؛ أعدى أعدائه، ويحصل له من الانقباض والقهر ما يدعو إلى الاحتيال لأن يكون غالباً، أو الانتقام الذي ربما يوصل إلى القتل.

ومن صور تلك العداوة التي بثها إبليس لعنه الله، ما قصه الله تعالى من نبأ يوسف عليه السلام مع إخوته، فإن التدابير الواقية من وقوع تلك العداوة، لم تفعل شيئاً مع نزغ الشيطان الرجيم، حيث إن يعقوب أوصى ابنه يوسف عليهما السلام بقوله ﴿يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

فقد أدرك يعقوب عليه السلام بصيرته وحسه، أن وراء هذه الرؤيا شأنًا عظيمًا ليوسف، لم يفصح عنه يعقوب، ولم يفصح عنه سياق القصة أولاً.

وتمر أحداث القصة التي هي من أحسن القصص، وتنقضي الأيام والأعوام، ويذكر يوسف أباه بحسن لطف الله به، من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَوَلَّىٰ رُبِّيَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولقد اشتملت تلك القصة المعبرة بكل مراحلها، على عبر عظيمة، كان من بينها؛ شدة عداوة إبليس للإنسان، مما يحمل على بث العداوة بين أقرب الناس.

لقد عكر الشيطان صفو بيت من أفضل البيوت... إنه بيت النبوة الطاهر.

فما هي حاله - أخزاه الله - مع من هم دون ذلك..!

فشأن عدو الله؛ تفكيك كل تجمع على الخير والبر، لأن بالجماعة تكون القوة، وبالانفراد والعزلة؛ يكون الخور والضعف، فهو لا يريد أن يبقى بيت مسلم، حتى ييث فيه العداوة والبغضاء، فيتهاوى بنيانه، ويتفرق شمله، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة؛ أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته

حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت" (١)

وقد أرشد - سبحانه - إلى السبل الكفيلة، بدرء تلك العداوة، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].
"فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته، من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة.

ولهذا نُهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بمحيدة، فإن الشيطان يترغ في يده، أي: فرما أصابه بها" (٢)، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان يترغ في يده، فيقع في حفرة من النار" (٣).

ومن إفساد الشيطان: التشييط عن الطاعات:

وذلك كما قال فتى موسى، حين قال له موسى عليه السلام آتنا غداءنا لنطعم، فقال ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنَاهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].
أي: ما أنساني الحوت إلا الشيطان.

فنسب فتى موسى - يوشع - النسيان إلى الشيطان، وليس هذا بعيد، فإنه يصد عن المعروف ويأمر بالمنكر، وهل كانت رحلة موسى عليه السلام إلا لطلب العلم، الذي هو من أفضل الطاعات.
قال ابن عاشور: "ومع كون المنسي أعجوبة، شأنها أن لا تنسى، يتعين أن الشيطان ألهاه بأشياء عن أن يتذكر ذلك الحادث العجيب، وعلم يوشع أن الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدین الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها، ولو بتأخير وقوعها؛ طمعاً في حدوث العوائق" (٤).

"وفي هذه الآية الكريمة: دليل على أن النسيان في مثل هذا المقام من الشيطان، كما دل عليه

(١) أخرجه مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس. ح (٢٨١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨٧/٥.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الفتن. باب قوله ﷺ "من حمل علينا السلاح فليس منا". ح (٧٠٧٢)، ومسلم. كتاب البر

والصلة. باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم. ح (٢٦١٧).

(٤) التحرير والتنوير ٣٦٧/١٥

قوله تعالى ﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقوله ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَهُ﴾ [المجادلة: ١٩]، ولذا فإن ذكر الله تعالى يطرد الشيطان، كما يدل قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزُّحُرُفُ: ٣٦]، وقوله ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]. أي: الوسواس عند الغفلة عن ذكر الله" (١).

إن الشيطان لا يريد الخير لأحد، فلو أراد امرئ أن يتعلم الخير؛ لثبطه قائلاً: أتصرف وقتك وجهدك، فيما لا طائل تحته! فلو اشتغلت في غير هذا لكن أنفع لك! ويزيد الأمر، فيقول له: العلماء كثير... والناس ليسوا بحاجة إليك... ورويداً رويداً... حتى ينسلخ المرء الهمام من بغيته، ويتجرّد من همته، فيخلد للراحة والدعة، حتى يكون في عداد الجاهلين.

وما ذاك إلا لأن أهل العلم أثقل شيء على الشياطين، يبصرون الناس بالشر، ويدعونهم إلا الخير، فكم من معقل للشيطان هدموا، وكم من طريق له سدوا، ثم هم مع ذلك يستنقذون الناس - بإذن ربهم - من الظلمات إلى النور.

ولذا بين ﷺ فضل العالم بقوله "وفضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم" (٢)، وفي رواية: "كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب" (٣)، فإذا ظفر الشيطان بالمتعلمين، وصددهم عن السبيل، هان عليه التغيير، وذُلّ له طريق الإفساد دون تعكير.

ومن صور إفساده: الوسوسة والترغ.

فالوسوسة أول خطوة خطاها إبليس مع آدم ﷺ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

ولا يسلم من وسوسته؛ إلا من عصم الله تعالى، فإنه يسعى دوماً للوسوسة في قلوب المؤمنين، يغريهم بالملذات، ويورد عليهم الشبهات، ويحثهم على طاعة أنفسهم، واتباع أهوائهم.

ولقد خاف أصحاب النبي ﷺ على أنفسهم مما يبثه الشيطان في صدورهم، حتى قالوا للنبي ﷺ: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال:

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٥٥.

(٢) أخرجه الترمذي. كتاب العلم. باب فضل الفقه على العبادة. ح (٢٦٨٥)، والدارمي. كتاب المقدمة. باب من قال العلم الخشية وتقوى الله. ح (٢٨٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ح (٤٢١٣).

(٣) أخرجه أبو داود. كتاب العلم. باب الحث على طلب العلم. ح (٣٦٤١)، وابن ماجه في المقدمة. باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. ح (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ح (٤٢١٢).

ذاك صريح الإيمان" (١).

ثم بين النبي ﷺ الأمر في أن الشيطان لا يملّ من وسوسته ولا يكلّ، يجدد أسلحته لها، ويتربص بكم الغفلة على ما في القلوب من توحيد وإيمان، فيعكر صفوه ويحرمكم لذته، ولذلك قال ﷺ "يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا، حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه؛ فليستعد بالله ولينته"، وفي رواية "فليقل: آمنت بالله" (٢).

فقوله ﷺ "ذلك صريح الإيمان، ومحض الإيمان"، معناه: استعظامكم الكلام به، هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه ومن النطق به، فضلاً عن اعتقاده، إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً، وانتفت عنه الريبة والشكوك.

وقيل: معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه، فينكّد عليه بالوسوسة؛ لعجزه عن إغوائه، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء، ولا يقتصر في حقه على الوسوسة، بل يتلاعب به كيف أراد.

وأما قوله "فليستعد بالله ولينته" فمعناه: إذا عرض له هذا الوسواس؛ فليلجأ إلى الله تعالى في دفع شره عنه، وليعرض عن الفكر في ذلك، وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء، فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته، وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها، والله أعلم" (٣).

ولخطورة الوسوسة أمر النبي ﷺ أن يستعيذ بالله العظيم من شرّ الشيطان ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿ [الناس: ١، ٦].

"فإن الله تعالى أمر نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ به من شرّ شيطانٍ يوسوس مرة، ويخنس أخرى، ولم يخصّ وسوسته على نوع من أنواعها، ولا بجنوسه على وجه دون وجه، وقد يوسوس بالدعاء إلى معصية الله، فإذا أطيع فيها خنس، وقد يوسوس بالنهاي عن طاعة الله، فإذا ذكر العبد أمر ربه فأطاعه فيه، وعصى الشيطان خنس، فهو في كل حالتيه وسواس خناس، وهذه

(١) أخرجه مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان الوسوسة في الإيمان. ح (١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب بدء الخلق. باباب صفة إبليس وجنوده. ح (٣٢٧٦)، ومسلم. كتاب الإيمان. باب بيان الوسوسة في الإيمان. ح (١٣٤).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٥١٤/٢.

الصفة صفته" (١).

"وبهذا يُعلم أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله؛ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى؛ التقم القلب وألقى إليه الوسوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل" (٢).

ثم إن عجز الشيطان على أن يصيب العبد بذلك، أصابه بالترغ، قال تعالى ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

والمعنى: إما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، فاستجر بالله واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته.

ولهذا المعنى الدقيق كان الأمر للنبي ﷺ بالاستعاذة من همزات الشياطين، قال سبحانه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

فالنبي ﷺ كان يستعيذ بالله من همزات الشياطين - وهو المعصوم - زيادة في التوقي والالتجاء إلى الله تعالى، وتعليماً لأُمَّته - وهو القدوة - في أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين.

وبعد هذا كله، لا بد من التنبيه إلا أن إبليس يدخل على الناس؛ بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل؛ على مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلمهم.

قال ابن القيم مجملاً ما سبق من حال الشيطان مع ابن آدم: "ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ويمكن حصر شره؛ في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم؛ حتى ينال منه واحداً منها، أو أكثر:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبته معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك؛ صيره من جنده وعسكره، وإستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه.

(١) جامع البيان ٧٥٣/١٢.

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم ٤٩٤/٢.

فإذا يتس منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر؛ وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعدٍ، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها، بقي أيضاً نائبه وداعياً من دعائه.

فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنّة، ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرساً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذلك، لينفّر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها؛ تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فرما أهلك صاحبها^(١)، ولا يزال يسهّل عليه أمر الصغائر، حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها؛ أحسن حالاً منه.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة، وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها. فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة السادسة، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له؛ إذا تضمّن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلّ ممن يتنبه لهذا من الناس.

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيى عليه، سلّط عليه حزبه من الإنس والجن، بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه، ويشغل بجره فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من

(١) كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعاً "إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى جمعوا ما أنضحوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه" أخرجه أحمد ٣٣١/٥، والطبراني في الكبير ١٦٥/٦، قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر. انظر: فتح الباري ٣٢٩/١١، مجمع الزوائد ١٩٠/١٠

شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يبي، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب، ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسر أو أُصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقي الله تعالى^(١). وقال ابن الجوزي: "واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسور أبواب، وفيه ثلَم، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن، تطلب غفلة الحارس، والعبور من بعض الثلم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه، وجميع الثلم، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة، فإن العدو ما يفتر"^(٢).

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٤٨٣/٢

(٢) تلبس إبليس لابن الجوزي، ص ٣٧.

المطلب الثاني: مكذبو الرسل.

من رحمة الله تعالى بعباده؛ أن بعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ [إبراهيم: ١]، ويقول تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].
 فالله تعالى أرسل رسله بالبينات، وهي المعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، وأنزلنا معهم الكتاب، وهو: النقل المصدق، والميزان، وهو: العدل، كما قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما^(١)، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة، ولهذا قال في هذه الآية ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وهو: اتباع الرسل فيما أخرجوا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الإخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي.

ففي الآيات الآتية الذكر؛ بيان ظاهر للحكمة من إرسال الرسل.

وكان من الحكم - أيضاً - قيام الحججة على الخلق ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فما من أمة؛ إلا بعث الله تعالى فيها رسولاً ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وقال ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤] أي: كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه، ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة، لعلمهم يؤمنون وينيبون.

وقد ذكر الله تعالى الأمم المكذبة، في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، وذكر سبحانه أن كل واحدة منهم كذبت رسولها.

فجاء بيان ذلك في وجوه مختلفة، على التفصيل تارة، والإجمال تارة أخرى، وقد تُذكر قصة أمة مكذبة مفردة، وقد يجيء سياق الآيات مبيناً لتكذيب جملة من الأمم، وهذا ظاهر لمن تأمل في آي الكتاب العزيز.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/٣١٥

فمن المواضع التي ذكرت تكذيب جملة من الأمم، قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿الحج: ٤٢، ٤٤﴾.]

وقد بين تبارك وتعالى أن أصل دعوة الرسل واحدة، وهي التي تضمنت دعوة التوحيد - لا إله إلا الله - كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿الأنبياء: ٢٥﴾.]

وبين - تبارك وتعالى - أن من كذب بعضهم؛ فقد كذب الجميع، كما في قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿النساء: ١٥٠﴾، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿البقرة: ١٣٦﴾.]

وقد أوضح تعالى أن من كذب رسولاً واحداً؛ فقد كذب جميع الرسل، ومن كذب نذيراً واحداً؛ فقد كذب جميع النذر، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿الشعراء: ١٠٥﴾، فبين أن تكذيبهم للمرسلين، إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث قال ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتُمْ عَلَيَّ ﴿الشعراء: ١٠٦﴾^(١).]

ولم يزل الكفر والتكذيب؛ دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة ﴿ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ ﴿المؤمنون: ٤٤﴾، مع أن كل رسول يؤتى من الآيات؛ ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقيقة ما جاءوا به.^(٢)

ولكن حين تنتكس الفطر، وينطفئ نور الإيمان، وتنعمي البصائر؛ فإن الضلال يستحكم وقلوب المكذبين، فستبدلوا هداية ربهم بولاية الطاغوت، فأخرجوهم من النور إلى الظلمات وحق عليهم الضلالة.

ولقد جاء البيان القرآني مفصلاً حال المكذبين مع رسلهم، والمتدبر لكلام الله تعالى يرى أنهم وإن تباعدت بهم الأمصار، وتباينت الأعصار؛ إلا أن طرائقهم في التكذيب قد تواطأت،

(١) انظر: أضواء البيان ٤٨٤/٧

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ٣٢٦

وَأَسَالِيهِمْ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَشَابَهَتْ، وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

فَكَانَتْهُمْ لَقْنٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ إِنَّمَا اتَّفَقُوا؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ تُشَبِّهُ قُلُوبَ بَعْضٍ فِي الْكُفْرِ وَالطَّغْيَانِ، فَتَشَابَهَتْ مَقَالَتُهُمْ لِلرَّسْلِ؛ لِأَجْلِ تَشَابَهِ قُلُوبِهِمْ. (١)

ولعلي أعرج على أبرز مظاهر فسادهم، فمن في ذلك: الفرية على الله تعالى:

فَقَدْ جَاءَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، قَالَ تَعَالَى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأَنْوَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ عَلِمْتَ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الصفوات: ١٤٩، ١٥٩].

فَأَمْرٌ - تَعَالَى - نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى غَيْرَهُ، الَّذِينَ عَبْدُوا الْمَلَائِكَةَ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، أَفِيكُونَ لَهُ - سَبْحَانَهُ - الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ؟ فَتَلْكَ قِسْمَةٌ ضَيِزِي، وَقَوْلٌ جَائِرٌ، مِنْ جِهَةٍ جَعَلَهُمُ الْوَلَدَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ جِهَةٍ جَعَلَهُمْ أَرْدَا الْقَسْمِينَ لَهُ - وَهُوَ الْبَنَاتُ - الَّتِي لَا يَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] وَمِنْ جِهَةٍ جَعَلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ، وَحَكَمَهُمْ بِذَلِكَ.

وَبَيِّنْ - سَبْحَانَهُ - كَذِبَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ مَا شَهِدُوا خَلْقَهُمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ قَالُوا هَذَا الْقَوْلُ؛ بِلَا عِلْمٍ، بَلْ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، وَلِذَا وَصَفَ مَقُولَتَهُمْ بِالْإِفْكِ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ (١٥١) وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فَكُلٌّ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَقِيمُ عَلَيْهِ حُجَّةً شَرْعِيَّةً؛ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ مُتَعَمِّدٌ، أَوْ قَائِلٌ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ.

ومن عظيم فريتهم؛ ما أخبرت عنه الآيات تباعاً حيث قال سبحانه ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ فجعل هؤلاء المشركون بالله تعالى بينه وبين الجنة نسباً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سروات الجن^(١)، والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، ليجازيهم عبادةً أذلاءً، فلو كان بينهم وبينه نسب، لم يكونوا كذلك.

فسبحان الملك العظيم، الكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم، وتعالى ربنا وتقدس عما يقول الظالمون علواً كبيراً^(٢). وكفى بهذه الفرية فساداً... وكفى بها إثماً مبيهاً...

ومن فسادهم: الوصاية بالكفر والإعراض عن سماع الحق.

فقد كان المشركون يدركون أن في القرآن تأثيراً عجبياً، وقوة لا تقهر، فقد اعترفوا بذلك، وأعلنوا أن إمكانية غلبتهم؛ مرهونة بردّ هذا التأثير بطريقتين: أولاهما: عدم السماع، وثانيهما: إشاعة اللغو ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فتأمل كيف قالوا: لا تسمعوا، ولم يقولوا لا تستمعوا؟

فهذا اعتراف منهم بقوة تأثير أدنى درجات الاستماع، وهو: "السماع" فكيف بما فوقه؟ وقالوا ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فأشعر ذكر اللغو، وهو الصياح والصفير، وذكر حرف الجر (في)؛ بأن المقصود تداخل ذلك مع أصوات القرآن حتى يكون في أثناءه وخلاله! فأبي تواطأ على الباطل أعظم من هذا!^(٣)

قال ابن كثير: أي تواصلوا فيما بينهم، ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأمره، وإذا ثلّي عليهم لا يسمعوا له، كما قال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني بالمكاء والصفير، والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قريش تفعله^(٤).

والمعنى في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لعلكم بفعلكم ذلك، تصدون من أراد استماعه عن

(١) أي: أشرافهم. انظر: لسان العرب ٣٨٣/١٤، تاج العروس ٢٧٢/٣٨

(٢) انظر: جامع البيان ١٠٥/٢٣، تيسير الكريم الرحمن ص ٧٠٨

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٤

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١٧٤/٧.

استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه؛ لم يتبعه، فتغلبون بذلك محمداً! وهذا بيان بليغ لغايتهم الفاسدة، أن يكونوا من المنتصرين الغالبين، ظناً منهم أن مثل هذه الأساليب، مجدية في صرف الناس عن الحق^(١).

لقد كانوا يحاولون التلبس على القرآن، وهذا ديدن الكفار في كل زمان، يسعون لـصرف الناس عن القرآن؛ لأنهم يعلمون أنهم لو استمعوا له وتفكروا؛ لشق الإيمان طريقه إلى قلوبهم، ولأذعنوا إلى ربهم، ولكنهم يصدون عن ذلك بكل سبيل، ويزينون للناس كل خبيث يشغلهم عن الحق.

ومن توأصيهم بالكفر؛ ما حكاه الله تعالى عنهم، حين دعاهم النبي ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام، فجاء الإنكار من صناديد المشركين ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٥، ٦].

أي: انطلق المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدتكم عن عبادتها صاد، فإن الذي جاء به محمد من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك.

وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق، أو غير حق، لا يردّ قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له، وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده، من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمداً ما دعاكم إلى ما دعاكم، إلا ليرأس فيكم، ويكون معظماً عندكم متبوعاً^(٢).

وفي الآية إشارة إلى سوء أدب المكذبين، مع رسلهم عليهم السلام، وفيها بيان:

أن من فسادهم: إثارة الشكوك والشبه لرد دعوة الرسل: ولهم في ذلك مسالك:

١/ فشككوا في نياتهم: حين اتهموهم بطلب العلو في الأرض: فقولهم ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ جاء مبنياً للمجهول للتحذير، والمعنى: إن هذا الذي يدعوننا إليه محمد ﷺ من التوحيد، لشيء

(١) انظر: جامع البيان ١١/١٠٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٠

يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه^(١).
 وأتهم موسى عليه السلام بمثل ذلك فقال له قومه ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
 وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]

وهكذا أتهم سائر الرسل - عليهم السلام - بهذه التهمة الباطلة.
 ولو كانوا حقاً طلاب رئاسة وزعامة - كما يزعم المفسدون - لسلخوا لتحقيق ذلك طرقاً
 أخرى، أيسر بكثير من طريق الدعوة إلى الله تعالى.
 ولقد بين - سبحانه - أن رُسله لا يمكن بحال؛ أن يجعلوا من الدعوة طريقاً لتعبيد الناس لهم،
 قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]

فقد روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حين اجتمعت الأبحار من
 اليهود والنصارى من أهل بجران، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الإسلام قال
 أبو رافع القبطي^(٢): أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟
 فقال رجل من أهل بجران، نصراني يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد، وإليه
 تدعوننا؟ أو كما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر
 بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني" أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله في
 ذلك من قوليهما ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ الآية^(٣).

لقد كان رسل الله عليهم السلام أبعد من يكون عن هذه التهمة، كيف وقد كانت
 حياتهم وسيرتهم؛ لتحقيق التوحيد لله تعالى وحده ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢/ وتارة يكون التشكيك في منهج الرسل ودعوتهم:

فالمكذبون إذا عجزوا عن الطعن في ذات الدين، والتشكيك فيه صراحة؛ لجؤوا إلى
 التشكيك في منهج الرسل ودعوتهم، فأخذوا بالصاق التُّهم، واحدة تلو

(١) جامع البيان ١٢٦/٢٣

(٢) هو مولى النبي يقال: اسمه ابراهيم، ويقال أسلم، ثابت، هرمز، مات بالمدينة ١٣٤/٦ الإصابة

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٧٨، أسباب النزول للواحد ص ٦٤.

الأخرى. فمن ذلك:

أ) اتهامهم بالضلال:

كما قال قوم نوح لنبیهم ﷺ ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. وكذا قال المكذبون لأتباع الرسل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

وإذا كان المكذبون يرمون الرسل بالضلال، وهم أعرف الخلق بالله تعالى، وأكملهم إيماناً، فأبي هداية أصابوا؟

ب) اتهامهم بالكذب:

ومن ذلك قولهم لنوح ﷺ ﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وقال قوم شعيب ﷺ لنبیهم ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، وقالوا لصالح ﷺ ﴿أَهُ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، وقال تعالى في شأن مشركي قريش ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ [ص: ٤].

ولا مرية؛ أن هؤلاء المفسدين، لا يرتابون أن ما جاءت به الرسل هو الصدق والحق، ولكنهم تبادوا بقذف تلك التهم؛ ظلماً وجحوداً، كما قال تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وورود لفظ (الظن) في الآيات السابقة؛ برهان على أنهم لا علم لهم؛ إلا الظنون والتخرصات الكاذبة^(١).

ج) اتهامهم بالسحر والجنون:

أما التهمة بالسحر والجنون، فلم يسلم منها نبي قط، كما أخبر تعالى بذلك بعد ذكره تكذيب المشركين لنبينا ﷺ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

والعجب أن يتهم المكذبون رسلهم بالجنون! وإنما بعث الله تعالى رُسُلَهُ من خيار الناس، وأعقلهم في أقوامهم، فهذا رسول الله ﷺ كان يعرف بين قومه بالصادق الأمين، وكانوا يعدونه من أرجحهم عقلاً ورأياً، ثم يرمونه بالجنون!.. فأبي تناقض أبلغ من هذا؟

وأما التهمة بالكهانة، فقليل في القرآن، وقد اتهم بذلك النبي ﷺ فبرأه الله مما قالوا، قال تعالى ﴿فَذَكَرْنَا أَنَّكَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

(١) انظر: المخرر الوجيز ٥ / ٥٤٠

قال البغوي: "نزلت في الذين اقتسموا عقاب مكة، يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر"^(١).

وإنما اتهموه ﷺ بالكهانة ليلبسوا على الناس؛ أن ما يدعوهم إليه؛ شبيه بحال الكهان، الذين كانوا يروجون الباطل، بأسجاع تروق للسامعين، فيستميلون بها القلوب، ويستصغون إليها الأسماع، ولكن هيهات أن تكون أسجاع الكهان؛ كآيات القرآن، أو خرافات المشعوذين، كالنور المبين.

وكان هدفهم من تلك التهم والافتراءات؛ ردّ الدعوة والاحتجاج عليها.

وهذا يؤكد أن من فسادهم: كثرة الاحتجاج لرد دعوة الرسل.

فلقد كان من عادة المكذبين؛ اختلاق الحجج؛ للهروب من اتباع الرسل، فمن حججهم الواهية:

(أ) تمسكهم بدين آبائهم الأولين:

وقد جاء ذلك صريحاً، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَان ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي موضع آخر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَان ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وهذا أبلغ من قولهم الأول، فإن قولهم (حسبنا) يفيد انتهائهم إلى عقيدة آبائهم، واستقرارهم عليها، وعدم الرجوع عنها، وكأن الرسل لما أعادوا عليهم الأمر باتباع ما أنزل الله تعالى؛ أرادوا هم تأكيد ما هم عليه، من التمسك بدين آبائهم وانتهائهم إليه، بخلاف قولهم الأول؛ فإنه لا يمنع من رجوعهم عن اتباع آبائهم^(٢).

فهؤلاء اكتفوا بتقليد آبائهم، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأبائهم أجهل الناس وأشدّهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، وهي دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هُددوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن

(١) معالم التنزيل ٤/٢٤٠

(٢) انظر: أسرار التكرار في القرآن. للكرمانى ص ٣٨

جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره؛ تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً^(١).
ولذلك جاء الردّ قوياً في تعلقهم بهذه الشبهة ﴿أُولَٰئِكَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فلا شك أن هذا الاتباع غير سائغ عند ذوي العقول، ولذلك شبههم الله تعالى بالبهائم التي لا تعقل ولا تفهم ولا تسمع ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].
قال ابن عباس رضي الله عنه في الآية: كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول، غير إنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهته عن شر، أو وعظته؛ لم يعقل ما تقول، غير إنه يسمع صوتك.^(٢)

فهم يسيرون كالعميان، وراء عميان، يهدوهم سبيل الضلال، فأني لهم بالهداية!.. وحق فيهم قول الشاعر:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم قد ضلّ من كانت العميان تهديه^(٣)

(ب) ومما احتجوا به لردّ دعوة الرسل؛ زعمهم عدم وضوح الحجة:

قال تعالى حكاية عن قوم هود عليه السلام ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِلَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، أي: ما جئتنا بحجة واضحة، تلجئنا إلى الإيمان بك، والتصديق بما جئت به.

وقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات، وأجري على يديه من المعجزات، مما لا يدع مجالاً لأدنى شك يقطع بصدقهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"^(٤).

والوحي الذي أوتيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم، المعجزة الخالدة إلى قيام

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢٨٢/١.

(٣) انظر: ديوان بشار بن برد ١١٢٠/١

(٤) أخرجه البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب: كيف نزول الوحي وأول ما نزل. ح(٤٦٩٦)، ومسلم. كتاب

الإيمان. باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس. ح(١٥٢).

الساعة^(١).

وهذه المعجزة؛ تحدى الله بها أهل الفصاحة والبلاغة، أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة، فما استطاعوا، ومع هذا قالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ﴿فردَّ اللهُ تعالى عليهم﴾ ﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم آيات في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ ﴿العنكبوت: ٥٠، ٥١﴾.

(ج) ومما احتجوا به: عدم الفهم^(٢):

قال تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ ﴿هود: ٩١﴾، أي: ما نفهم كثيراً من قولك، وليسوا صادقين في قولهم هذا، فما كان شعيب ولا غيره من الرسل - عليهم السلام - ليخاطبوا الناس؛ إلا بلسانهم ولغتهم، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ﴿إبراهيم: ٤﴾.

كيف وقد عُرف شعيب عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته^(٣). ولكن المكذبين لجئوا إلى مثل هذه الحجة الداحضة؛ لإسكات الحق، وتبرير ما هم عليه من الكفر.

(د) واحتجوا - لكفرهم - بالقدر:

فجعلوه ذريعة للاستمرار على الكفر، قال تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿الأنعام: ١٤٨﴾.

"فهذا إخبار منه تعالى، أن هؤلاء المشركين سيحتجون على شركهم، وتحريم ما أحل الله تعالى بالقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة للخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر الله تعالى أنهم سيقولونه، كما في سورة النحل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿النحل: ٣٥﴾.

(١) انظر: فتح الباري ٦/٩.

(٢) انظر: مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب. ص: ٢٦.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٢٢، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٢.

فأخبر - سبحانه - أن هذه الحجة، لم تنزل الأمم المكذبة تدفع بها دعوة الرسل، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، من عدّة أوجه؛ منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة؛ لم تحل بهم العقوبة، ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظنّ والخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ ﴿١﴾ فلو كان لهم علم وهم خصوم الدّاء؛ لأخرجوه، فلما لم يخرجوه؛ علم أنه لا علم عندهم، ومن بنى حججه على الخرص والظن؛ فهو مبطل" (١).

والاحتجاج بالقدر على المعصية؛ ليس في محله، فإن كلامهم مضمونه؛ لو كان الله تعالى كارهاً لما فعلناه؛ لأنكره علينا، والأمر ليس كما قالوا، فإن الله قد أنكره عليهم أشد الإنكار، ونهاهم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

"فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا، أن يقول ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿٢﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رُسله، وأما مشيئته الكونية؛ وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة، ثم إنه - تعالى - قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا، بعد إنذار الرسل" (٢).

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة، ليست حجة لعاصٍ أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدر على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم ولا قهراً.

(هـ) واحتجوا - أيضاً - ببشرية الرسل:

بما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٨

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٦٩/٢

رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٤]، وقد أثار هذه الشبهة؛ أكابر المكذبين للرسول - بعد لقاء سري جري بينهم - ليصدوا الناس عن سبيل الله، فلاقت استحساناً عند العامة، قال تعالى ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

أي: "بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناحيهم بها، وقد استدلوا بكونه بشراً؛ على كذبه في ادعاء الرسالة؛ لا اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، واستلزموا منه؛ أن ما جاء به من الخوارق - كالقرآن - سحر، فأنكروا حضوره، وإنما أسروا به؛ تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره، ويظهر فسادَه للناس عامة" (١).

ولتقوية هذه الشبهة في نفوس الناس قالوا ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، فوصفوه بما يوهم المساواة في كل وصف، فكيف يكون رسولاً دونكم! ولما كان التقدير: فلئن اتبعتموه إنكم لضالون، عطف عليه ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا لَخَّسْتُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، أي: مغبونون، لكونكم فضلتم مثلكم عليكم بما يدعيه، مما نحن له منكرون (٢).

وهذه حجة ضعيفة غريبة، إذ يقال لهم: فإن اتبعكم قومكم في هذا التحذير، فهل سيخرجون عن أن يتبعوا بشراً مثلهم؟! والمكذبون بهذا الاحتجاج لهم سلف إبليس، حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام، فرفض محتجاً بقوله ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فاستحق بذلك الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى.

ولا ريب أن بين الرسل - عليهم السلام - وسائر الناس مشابهة من جهة البشرية، ولوازمها الضرورية، فيصح حينئذ قياس الرسل على غيرهم فيها، وعليه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠].

إلا أن بين الرسل - عليهم السلام - وغيرهم من البشر فروقاً كثيرة: منها: أن الله تعالى اصطفاهم على الناس برسالاته وبكلامه ووحيه، فلا يقاس أحد من الناس بهم حينئذ من هذه الجهة، كما لا يصح قياس غيرهم بهم في سائر خصائصهم التي فصلت في

(١) تفسير البضاوي ٨٢ / ٤

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩٩/٥

غير هذا الموضوع، فالمكذبون لم يميزوا بين القياس الصحيح والفاقد، ولا عرفوا الجامع ولا الفارق، كما سمعت من قياسهم الرسل على غيرهم، وهكذا أتباعهم اليوم ومن هو على شاكلتهم^(١).

ومن فسادهم إنكارهم للبعث:

وجاء ذلك منهم على وجه الاستنكار حيث قالوا ﴿أَءَاذَنَا وَكُنَّا نُرَآبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣]، ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٤٩]، وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَلَيْسَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود:٧].

وقد اشتد نكيرهم للبعث وتعنتهم فيه، قال سبحانه ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]، فاجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان، واستبعدوا ذلك.

فقال تعالى مكذباً لهم، وردّاً عليهم ﴿بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ولا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم يخالفون الرسل، ويقعون في الكفر^(٢).

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُقسم على البعث، وتحقق وقوعه، فقال سبحانه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

ولذا تكرر تأكيد البعث في مواضع عدة من القرآن، وذكر - سبحانه - لإثبات البعث من الدلائل والبراهين؛ ما لا يدع مجالاً للشاكيين المرتابين، فقد جاءت الحجج على قدرة الله تعالى في بعث الخلق بعد الموت.

فمن ذلك: أن من خلق ابتداءً؛ قادر على الإعادة بعد الموت، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الموتى، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] والآيات في تقرير ذلك كثيرة.

لقد أيد الله تعالى الرسل بالحجج الواضحات، والآيات البينات، مما لا يجعل للباطل معه برهان ولا دليل، مصدقاً لقول الله تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ

(١) انظر: مسائل الجاهلية ص ٢٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٧٠/٢.

أَلْوَيْلٌ مِمَّا نَصَفُونَ ﴿﴾ [الأنبياء: ١٨]، فأخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجوده به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه؛ فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية. فلا يورد مبطل شبهة عقلية، ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد" (١).

ولذا كان من فساد المكذبين؛ ممارسة الأساليب القبيحة لقمع دعوة الرسل عليهم السلام، والتضييق عليها، فمن ذلك:

أ) الإخراج:

فأخبر سبحانه ما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب عليه السلام ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال قوم لوط عليه السلام ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وكذا أخبر عن مشركي قريش ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وفي حديث بدء الوحي الطويل، قال ورقة بن نوفل (٢) للنبي ﷺ: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: أوخرجني هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي... "الحديث" (٣).

فهم يلجئون إلى إخراجهم، لضعف مقاومتهم لحجة الرسل وبرهانهم، فاستخدموا القوة والغلبة، ظناً منهم؛ أن هذا الأسلوب، سيكون مجدياً لصد الدعوة وتضييق خناقها.

وتلك هي سجية الكافرين مع الرسل عبر العصور، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٠

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي صحابي جليل . الاصابة ٦/٦٠٧

(٣) أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. ح (٣)، ومسلم. كتاب

الإيمان. باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. ح (١٦٠)

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴿١٣﴾ [إبراهيم: ١٣].

"وهذا أبلغ ما يكون من الردّ، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى؛ بل توعدهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله تعالى أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته، فمن استعان بذلك على عبادة الله؛ حلّ له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً!

فهل هذا، إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكربهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ؛ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر

أوليائه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، بأنواع العقوبات^(١)

ب) السجن:

فالتهديد بالسجن، طريقة من طرق أهل الباطل، ليمنعوا الرسل والمصلحين من تبليغ كلمة الله تعالى إلى الناس، قال تعالى حكاية عن فرعون لما استكبر عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام ﴿قَالَ لِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

فلما لم يجد فرعون لحجابه نجاحاً، ورأى شدة شكيمة موسى عليه السلام في الحق، عدل عن الحجاج إلى التخويف؛ ليقطع دعوة موسى من أصلها.

وهذا شأن من قهرته الحجة، وفيه كبرياء؛ أن ينصرف عن الجدل إلى التهديد.

واللام في قوله ﴿لِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا﴾ موطئة للقسم، والمعنى: أن فرعون أكد وعيده بما يساوي اليمين الجملة التي تؤذن بها اللام الموطئة في اللغة العربية، كأن يكون فرعون قال: عليّ يمين، أو بالإيمان، أو أقسم. ومعنى قوله ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ لأسجنك، فسلك فيه طريقة الإطناب، لأنه أنسب بمقام التهديد، لأنه يفيد معنى لأجعلنك واحداً ممن عرفت أنهم في

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢٣

سجني، فالمقصود؛ تذكير موسى بهول السجن^(١).

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فقد فسّر غير واحد من السلف قوله ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالحبس والقيود والوثاق، وكان هذا الرأي من بعض المشركين الذين اجتمعوا في دار الندوة ليلة الهجرة، ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، وما يصنعون به، بعد ما ظهر أمره، وكثر أتباعه^(٢).

ج) التهديد بالعذاب:

سواء كان العذاب حسيّاً أو معنوياً، فمن ذلك قول أصحاب القرية لرسولهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ٤٠]، وكذا قال المكذبون لشعيب عليه السلام ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِينٍ﴾ [هود: ٩١]، أي: لولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، والرجم من سيء القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم، والإكرام لهم^(٣).

ومن قبل، قال قوم نوح عليه السلام لنبئهم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. "أي لنتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يُقتل الكلب، فتباً لهم ما أقبح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين، الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشرّ مقابلة، لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبئهم بدعوة أحاطت بهم فقال ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [١١٧] فَأَفْجَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ﴿أي أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال ﴿وَيَحْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما دعا عليهم بقوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]^(٤).

وقال موسى عليه السلام لقومه ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

قال الطبري: "والرجم قد يكون قولاً باللسان، وفعلاً باليد، والصواب أن يقال: استعاذ موسى عليه السلام بربه - تعالى - من كل معاني رجهم، الذي يصل منه إلى المرجوم أذى ومكروه،

(١) التحرير والتنوير ١٢٠/١٩

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣٠٣/٢

(٣) انظر: جامع البيان ١٠٤/٧، زاد المسير ١٥٣/٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٥.

شتماً كان ذلك باللسان، أو رجماً بالحجارة باليد" (١).

ولما ذكر الله تعالى تكذيب قريش للرسول ﷺ بين - سبحانه - أنهم سلكوا منهج المكذبين قبلهم، فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] أي ليقتلوه ويهلكوه، فالمكذبون حرصوا على قتل الرسل بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله، وقيل: ليأسروه، والعرب تسمى الأسير أحياناً، فإذا أُسر؛ تمكنوا من إيقاع ما يريدون به، من حبس وتعذيب وقتل وغيره (٢).

وفي التعبير بالأخذ؛ دلالة على الغلبة والقهر والاستصغار مع الغضب (٣).

وهذا أسلوب من أساليب الحرب التي يقصد المكذبون من ورائها؛ ثني العزائم، وبث الشعور باليأس والإحباط في الرسل وأتباعهم، ولذا كان من أساليبهم:

(د) التعجيز.

وهو باب يدخل منه المكذبون ليكون - بزعمهم - برهاناً على عدم صدق الرسل، فيطلبون من أنبيائهم أن يضعوا لهم أشياء خارقة للعادة، تراها أعينهم، وتلمسها أيديهم، حتى يؤمنوا، فإذا أيد الله رسله بالآيات البيّنات، أنكروا ذلك وقالوا: سحر مبین.

ومن مظاهر ذلك ما ذكره الله - تعالى - عن المشركين حين قالوا للنبي ﷺ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١) أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنَبًا نَقْرُوهُ. قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٠].
والتأمل لسياق الآيات قبل بيان تعنتهم، يقرأ قوله تعالى ﴿قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٨، ٨٩].

فالمشركون قصر إدراكهم عن التطلع إلى إعجاز القرآن، فأخذوا يتعنتون في طلب هذه الخوارق، فقالوا لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية ﴿لَنْ

(١) جامع البيان ١٢٠/٢٥

(٢) انظر: جامع البيان ٣٥٣/٢١، النكت والعيون للماوردي ١٤٣/٥.

(٣) انظر: نظم الدرر ٤٨٦/٦.

تُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿١﴾ أي: أثمارًا جارية ﴿٢﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق، والذهب والنجيء ﴿٤﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴿٥﴾ أي: قطعًا من العذاب، ﴿٦﴾ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَلًا ﴿٧﴾ أي: جميعًا، أو مقابلة ومعينة، يشهدون لك بما جئت به ﴿٨﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ ﴿٩﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿١٠﴾ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ﴿١١﴾ رقيًا حسبيًا، ومع هذا ﴿١٢﴾ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ﴿١٣﴾.

ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات؛ كلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق، وسوء الأدب مع الله تعالى، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات. ثم أمره - تعالى - أن يترهه فقال ﴿١٤﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ ﴿١٥﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿١٦﴾ هَلْ كُنْتُمْ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿١٧﴾ ليس بيده شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا، وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة. فلو ﴿١٨﴾ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُوكَ مُطْمَئِنِّينَ ﴿١٩﴾ [الإسراء: ٩٥]، يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم ﴿٢٠﴾ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٢١﴾ ليمكنهم التلقي عنه ^(١). وجاءت الإشارة إلى تعنتهم في طلب إرسال الملائكة في مواضع أخرى، كما قال تعالى ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٢٣﴾ [الأنعام: ٨]، وفي موضع ﴿٢٤﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٥﴾ [الحجر: ٧]، وفي موضع ثالث ﴿٢٦﴾ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نُرَى رَبَّنَا ﴿٢٧﴾ [الفرقان: ٢١]

ومن فسادهم: الأفعال المنكرة أثناء الدعوة:

لقد اتبع مكذبو الرسل أساليب شتى في الإعراض، ومن ذلك بعض أفعالهم القبيحة حين دعوتهم إلى الله تعالى، فمن ذلك:

ما أخبر عنه تعالى بقوله ﴿٢٨﴾ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٦٧

يَكَاذِبُونَ يَسْتُطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴿الحج: ٧٢﴾، وذلك المنكر الذي يعرف في وجوههم - من الكراهية والعبوس - إنما هو لشدة كراهيتهم للحق، ومن الآيات الموضحة لكراهيتهم للحق؛ أنهم يمتنعون من سماعه، ويستعملون الوسائل التي تمنعهم من أن يسمعوه، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِنُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغَشُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وإنما جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم؛ خوفاً أن يسمعوا ما يقوله لهم نبيهم نوح عليه السلام من الحق والدعوة إليه، وفيه دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به، وإلا فإن آذانهم لا تسع أصابعهم كاملة، إنما هم يسدون بها أطراف الأصابع، ولكنهم يسدون بها في عنف بالغ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم؛ ضمناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً!

ولما كان سدّ الآذان لا يمنع من رؤية وجه النبي الصادق، وتعابير وجهه المعبرة المؤثرة، وهو يدعوهم إلى الله تعالى؛ عمدوا لتغطية رؤوسهم، وتغشوا في ثيابهم؛ لئلا يسمعوا، وقيل: إن المعنى أنهم تنكروا حتى لا يعرفهم نبيهم^(١)، وهذه صورة غليظة للإصرار والعناد. ومن بيان القرآن لأفعال المكذبين المنكرة، ما سبقت الإشارة إليه، من قول المشركين ﴿لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْفِ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فترى بعضهم ينهى بعضاً عن سماعه، ويأمرهم باللغو فيه، كالصياح والتصفيق المانع من السماع لكراهتهم للحق، ومحاولتهم أن يغلّبوا الحق بالباطل^(٢).

وقريباً من ذلك؛ ردّ الأيدي في الأفواه: قال تعالى عنهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]. وقد اختلف المفسرون في معنى ذلك، فقيل: إنهم أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمرهم بالسكوت، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم؛ تكديماً لهم، وقيل: وهو عبارة عن

(١) انظر: جامع البيان ٢٤٨/١٢، تفسير القرآن العظيم ٢٣٢/٨.

(٢) انظر: أضواء البيان ٣٤١/٥.

سكوتهم عن جواب الرسل، وقيل: عضوا عليها غيظاً^(١).
وهذا الفعل منهم دليل على سوء أدبهم مع أنبيائهم، وأتياهم بما إمعان في الجهر والتكذيب.
هذا، وما سبق بيانه عن فساد المكذبين، ما هي إلا نماذج لصور فسادهم، وآي القرآن
متضافرة في تقرير ذلك.

(١) انظر: جامع البيان ٤٢٣/٧، تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٤.

المطلب الثالث: أهل الكتاب.

لقد امتن الله - تعالى - على أهل الكتاب بنعم عظيمة، لم تكن لسابقيهم من الأمم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

غير إنهم قابلوا نعم الله تعالى بالجحود، ودعوة رُسله بالإعراض والصدود. وقد أبان الكتاب العزيز، جملة من مفسادهم، حتى إن المتأمل يجدها ظاهرة في خطابها لهم، وحكايتها لفسادهم وانحرافهم.

قال ابن القيم: "ذكر أهل الكتاب - في القرآن - على أربعة أقسام: فإذا جاء بصيغة (الذين آتيناهم الكتاب)، فهذا لا يذكره الله؛ إلا في معرض المدح، وإذا ذكروا بصيغة (أوتوا نصيباً من الكتاب)؛ فلا تكون إلا في معرض الذم، وإن قيل فيهم (أوتوا الكتاب) فقد يتناول الفريقين؛ لكنه لا يفرد به الممدوحون فقط، وإذا جاءت (أهل الكتاب) عمّت الفريقين كليهما، فيتناول الممدوح منهم والمذموم"^(١).

وعليه يتبين؛ أن في وصف أهل الكتاب بالفساد ليس لجميعهم، بل إن فيهم مؤمنون بالله - تعالى - ورسله عليهم السلام، كما أخبر عن ذلك بقوله ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

بيد إن الفساد صبغة ظهرت على أكثرهم، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولذا حكى القرآن بعض فسادهم، ونسبه لجميعهم، مما يدل على رضاهم به، وهذه قاعدة فيما ذكر الله تعالى عن بني إسرائيل الذين كانوا في عهد النبوة، حيث وبخهم سبحانه على أفعال أسلافهم، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وغيرها من الآيات.

ومن المعلوم؛ أن اليهود في عصر النبوة ليسوا هم الذين قالوا ذلك. ومن ثم؛ فإن المتتبع لأي الكتاب العزيز، يجد أن بيانها لفساد اليهود أظهر منه في

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٠٤

حق النصارى، ولذا جاء هذا المطلب وفاقاً لذلك.

فمن أعظم فسادهم: نسبتهم النقص إلى الله تعالى.

إن الإنسان إذا ما تعبد لمعبود، فإنه عقله يهديه إلى أن يخلع عليه صفات الكمال، وإن لم يكن لها بأهل، فتجد من يعبدون الحجر والشجر؛ يصفون معبوداتهم بالكمال! فكيف بمن عبد الله جل وعلا، وهو الذي له المثل الأعلى، ولا يوصف بالكمال المطلق؛ إلا هو تعالى وتقدس، ولا تبلغ الألسنة مهما أحسنت ثناءً عليه سبحانه وتعالى.

وأهل الكتاب في ذلك؛ من أخط الناس قدراً، وأرداهم حظاً، فلاكت ألسنتهم الفرية والبهتان، وافتروا على ربهم جلّ في علاه أفرى الفرى.

فلعمر الله لو دنسوا ضوء النهار، ولو ثوا ماء البحار، لكان هيناً عند ذات البارئ جلّ جلاله، وتقدست أسمائه.

فمن افترائهم على الله، أن نسبوا إليه الفقر - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - قال سبحانه ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُورُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتت اليهود النبي ﷺ حين أنزل الله ﷻ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقالوا: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟ فأنزل الله الآية ^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس ^(٢)، فوجد من يهود أناساً كثيراً، قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأخبارهم، ومعه حر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً ﷺ رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما

(١) العجاب في بيان الأسباب ٢ / ٨٠٤

(٢) "بكسر الميم، مفعول من الدرس، والمراد به كبير اليهود، ونسب البيت إليه لأنه هو الذي كان صاحب دراسة

كتبهم، أي قراءتهما" انظر: فتح الباري ١٢ / ٣١٨

استقرض منا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد؛ لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال؛ فضربت وجهه، فجدد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه قوله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١).

وهذا يدل على شناعة وقبح، وسوء أدب مع الله تعالى.

ومن عدوان أولئك اللثام، مقولة لعنوا بها إلى قيام الأنام ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن جرير: "وهذا خبر من الله - تعالى ذكره - عن جرأة اليهود على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته، تويخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيه صلى الله عليه وسلم قدم جهلهم، واغترارهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم، وعفوه عن عظيم إجرامهم، ويعنون بذلك: أن خير الله ممسك، وعطاؤه محبوس عن الاتساع عليهم"^(٢).

وقد قالوا ذلك تعليلاً لبخلهم، فالله - بزعمهم - لا يعطيهم إلا القليل، فكيف ينفقون؟ وقد بلغ من غلظ حسهم وجلافة قلوبهم؛ ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الذي أرادوه - وهو البخل - بلفظه المباشر، فتلفظوا بما هو أشد قبحاً، وأعظم جرماً، وأصرح كفراً، فقالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فاستحقوا جزاء قولهم الشنيع؛ الطرد من رحمة الله.

تباً لهم... أيقولون ذلك؛ وآلاء الله على كل مخلوق ظاهرة للعيان، ناطقة بكل لسان، شاهدة له بالفضل والإحسان، لكن يهود لانطماس بصيرتهم، وفساد قلوبهم، لم تر ذلك، ولم تعرف لربها حقاً، فيا لجحود النعم، ونكران المنعم.

ومن سوء أديهم؛ نسبتهم التعب إلى الله، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، قال سبحانه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٨٢٩/٣، جامع البيان ٥٣٥/٣.

(٢) انظر: جامع البيان ٦٤٣/٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

قال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتألوله ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(١)، أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿أَوْلَوِيْرُوْا أَنْ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلٰى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِىْنَ بَلِ ۤإِنَّهٗ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]^(٢).

ومن سوء أدبهم مع الله: نسبتهم الولد له سبحانه وتعالى عما يشركون، قال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرٌ أُنْبُؤُا اللّٰهَ وَقَالَتِ النَّصْرٰى الْمَسِيْحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوْا مِنْ قَبْلُ قَسَبَلَهُمُ اللّٰهُ أَنْ يُوْفٰكُوْا﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذه المقالة؛ وإن لم تكن مقالة لعامتهم، فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن فيهم من الخبث والشر؛ ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة، التي تجرؤوا فيها على الله، وتنقصوا عظمتة وجلاله.

وقد قيل: إن سبب ادعائهم في عزير أنه ابن الله؛ أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وذهب الباقون من علمائهم، ودفنوا التوراة في الجبال، فجاءهم عزير بعد ذلك حافظاً لها، أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.^(٣)

وأما مقولة النصارى في عيسى عليه السلام، لأن ولادته جاءت على غير عادة البشر، إذ لم يكن لمرأة أن تلد صغيراً دون أن يكون لها زوج، وهذا ما استنكرته مريم حين قالت ﴿أَنَّى يَكُوْنُ لِيْ غَلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِيْ بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، فكان الجواب الذي يدل على كمال قدرته عز وجل ﴿قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلٰى هٰٓئِنٍ وَلِنَجْعَلُهٗ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

فإن الله تعالى يُري عباده من خوارق العادات؛ ما يكون برهاناً على كمال قدرته.

وقد اختلف النصارى في شأن عيسى عليه السلام، فمنهم من قال هو ابن الله، ومنهم من قال هو

(١) جامع البيان ٤٣٥/١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٠٩/٧.

(٣) انظر: جامع البيان ٣٥١/٦، تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٤.

الله، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة، فردَّ الله فرية الظالمين فقال ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٣٢) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ [مریم: ٣٥].

لقد جاء النص المبين، بكفر هؤلاء المعتدين على مقولتهم الشنيعة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧١]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ذلك القول الذي قالوه، قولهم بأفواههم، فلم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام، ولهذا قال ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا، قول المشركين الذين يقولون: "الملائكة بنات الله" تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

ثم أعقب ذلك بدمهم فقال سبحانه ﴿قَنَالَهُمُ اللَّهُ أَنفَ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

إن عقولهم غيبت عن تأمل قول عيسى عليه السلام - أول ما تكلم - ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مریم: ٣٠]، فقد أقرَّ على نفسه بالعبودية لله عز وجل، أول ما تكلم؛ لئلا يتخذ إلهاً. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تنفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فاتخذوا علمائهم وعبادهم مشرعين، يحلون لهم ما حرم الله؛ فيحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله؛ فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها. وكانوا أيضاً؛ يغلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة، وكذلك المسيح ابن مريم عليه السلام اتخذوه إلهاً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على ألسنة رسله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالحببة

والدعاء، فنبذوا أمر الله تعالى، وأشركوا به ما لم يتزل به سلطاناً^(١).
وقد نفى الله تعالى الولد عن نفسه؛ في ثمانية عشر موضعاً في الكتاب العزيز، عشر منها قرنها بالتسبيح، وثمان من غير اقتران، وذلك لأن الأمم ظلت في هذا الباب، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وما أعظم حلم الله بهم، كيف لم يخسف بهم الأرض، أو يسقط عليهم كسفاً من السماء!..
وما أصبره - سبحانه - على أذاهم، فما أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، فعن
أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله،
إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافهم ويرزقهم".^(٢)

ومن فساد اليهود: عداوتهم للملائكة.

فلم يكتف اليهود بتكبرهم على البشر، واستعلائتهم عليهم، وعداوتهم لغيرهم، بل وصلت دناءة معتقدتهم، وسوء أخلاقهم، إلى عداوة ملائكة الله تعالى.

قال عز وجل ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨].

قال ابن جرير: "أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً، على أن هذه الآية، نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك؛ من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته"^(٣).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه، لتتابعنني على الإسلام، فقالوا: ذلك لك، فجعلوا يسألونه صلى الله عليه وسلم وهو يجيبهم، وهم يصدقوه،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٣٥.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأدب. باب الصبر على الأذى. ح (٥٧٤٨).

(٣) جامع البيان ١/٤٦٧.

حتى قالوا: أنت الآن تحدثنا، من وليك من الملائكة؟ فعندها نتابعك أو نفارقك، قال: فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط؛ إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة؛ تابعتك وصدقناك، قال: "فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل الآية.^(١)

فهذا نوع آخر من قبائح اليهود، ومنكرات أقوالهم، فتأمل حنقهم، وشدة غيظهم، كيف جعلوا جبريل الأمين عليه السلام عدواً لهم، والسؤال: لماذا تلك العداوة؟ وما سببها؟ من المثير في ذلك أن اليهود - وهم أهل كتاب - يعلمون أن جبريل ملك من الملائكة، يفعل ما يؤمر به من عذاب، أو رحمة، أو وحى، ولكن هوى النفوس، أعمى أبصارهم، وطمس قلوبهم، فقالوا: إن جبريل عدونا؛ يتزل بالقتال والشدة، ورسولنا ميكائيل؛ يأتي بالبشر والرخاء فلو كان هو الذي يأتيك آمننا بك^(٢).

ومن صور فسادهم: قتل الأنبياء.

وذلك من أقبح الأشياء التي فعلها اليهود، إذ كيف يُقتل الأنبياء وهم أفضل البشر، اختارهم الله للدعوة إلى دينه، وتبليغ شرعه.

وإن هذا ليعظم في أمة نزل فيهم كتاب الله، وكثرت فيهم الرسل تقيم لهم الدين، ففي الصحيح: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي"^(٣).

غير إنهم كما أساءوا الأدب مع الله تعالى؛ أساءوا الأدب مع رسله، قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وتأمل في قوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل (فريقاً قتلتم)، لأنه أراد بذلك؛ وصفهم في المستقبل أيضاً، فلقد هموا بقتل النبي ﷺ بالسِّمِّ والسِّحْرِ، قال ﷺ "ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١/١٨١، وجامع البيان ١/٤٧٦، والحديث أخرجه أحمد ١/٢٧٦، والطبراني في الكبير ١٢/١٩١ ح (١٣٠١٢)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) انظر: جامع البيان ١/٤٧٧، تفسير القرآن العظيم ١/٣٤٠.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح (٣٢٦٨)، ومسلم. كتاب الإمارة. باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ح (٤٨٧٩).

انقطاع أهري^(١) (٢).

ورغم أن اليهود شرذمة قليلون، وربما كانوا مستضعفين في بعض الأماكن، إلا إنهم يسعون دائماً إلى إثارة الفساد بالغدر والخيانة، فقد كانوا في المدينة والمسلمون في عزّة ومنعة، ورغم ذلك خططوا لقتل النبي ﷺ أكثر من مرة، فعزموا على ذلك بسحره ﷺ، كما فعل لبيد بن الأعصم اليهودي، ومرة أخرى وضعوا له السمّ في لحم الشاة، ولما سأل النبي ﷺ المرأة التي وضعت له السمّ، قالت: أردت قتلك، فقال: "ما كان الله ليسلطك على ذلك" أو قال: "ما كان الله ليسلطك علي"^(٣).

فهؤلاء اليهود، أصل الخيانة والغدر؛ أرادوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرّة، ولم يفلحوا، لأن الله حافظ نبيه ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فلما أراد الله إكرامه بالشهادة؛ ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن من السمّ، ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً، وظهر سرّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود ﴿أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فجاء بلفظ "كذبتهم" بالماضي الذي قد وقع منه وتحقق، وجاء بلفظ "تقتلون" بالمستقبل، الذي يتوقّعونه وينتظرونه. والله أعلم.

ومن قبل كانوا يقتلون النبيين بغير حق، فكيف يرتجى منهم وفاءً بعهد أو ميثاق؟ أم كيف يأمل منهم سلاماً أو أماناً!

ومن صور فساد اليهود: الفرية والافتام بالباطل.

قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].
ففي الآية تنبيه للمؤمنين، وتذكير لهم؛ ألا يؤذوا رسولهم ﷺ بقول يكرهه، أو فعل لا يحبه منهم، فيكونوا كالذين آذوا موسى ﷺ، فرموه بالعيب كذباً وباطلاً، فبرأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور؛ بما أظهر من البرهان على كذبهم.

كيف تجرّوا على ذلك؛ وموسى ﷺ ذا جاهٍ ومترلة رفيعة، غير أنهم لا يراعون عن قبائح

(١) الأهر: عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة. انظر: النهاية في غريب الأثر ١ / ١٨

(٢) أخرجه البخاري. كتاب المغازي. باب مرض النبي ﷺ ووفاته. ح(٤٤٢٨).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المغازي. باب الشاة التي سمّت للنبي ﷺ بخير. ح(٤٢٤٩)، ومسلم. كتاب السلام. باب

السمّ. ح(٢١٩٠).

الخصال، وسيء الفعّال.

لقد كانت فريتهم على موسى عليه السلام تنبئ عن فحش، وسوء خلق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً، لا يرى من جلده شيء؛ استحياءً منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر؛ إلا من عيب بجلده؛ إما برص؛ وإما أدرّة^(١)؛ وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلأ يوماً وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدّاً بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فأراه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه، ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله **﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾** [الأحزاب: ٦٩] ^(٢).

وفي هذا المسلك الموعج، كانت الفرية على مريم العذراء، قال تعالى **﴿وَيَكْفُرهم وَقَوْلهم عَن مَّرِيمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ١٥٦]، أي: بافترائهم عليها، ورميهم إياها بالزنا، وهو البهتان العظيم، لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به - بغير ثبت ولا برهان - بريئة، فبهتوها بالباطل من القول ^(٣).

وبرغم أن الله تعالى قد أقام عليهم الحجة والبرهان، في رد هذا البهتان، حيث أنطق سبحانه عيسى في المهدي، ولكن اليهود أرباب الغدر والخيانة والافتراء، حاولوا قتله فلم يفلحوا، فوسموا مريم بالزنا، وسطروا ذلك في كتبهم المحرفة، وخاصة كتابهم "التلمود".

فأنزل الله تعالى براءتها، وزكاها بقوله **﴿وَمَرِيمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾** [التحريم: ١٢].

ومن فسادهم: التلبيس والمغالطة:

قال تعالى **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [آل عمران: ٧١]. إن التلبيس والمغالطة أسلوب ماكر، قل أن يتفطن له عامة الناس، فوبّخهم - سبحانه - على

(١) الأدرّة بالضمّ: نفخة في الخصية. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٥/١.

(٢) أخرجه البخاري. أحاديث الأنبياء. باب: حديث الخضر ح(٣٤٠٤)، ومسلم الحيض. باب جواز الاغتسال. ح(٣٣٩).

(٣) جامع البيان ٣٥٠/٤.

لبس الحق بالباطل، وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين؛ يضلون من انتسب إليهم. قال السعدي: "فأهم - سبحانه - عن شيئين: عن خلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم تمييز الحق من الباطل، وإظهار الحق؛ ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحججة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته؛ ليميز الحق من الباطل ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم، ومن لبس الحق بالباطل فلم يميّز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكنتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره؛ فهو من دعاة جهنم؛ لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم فاحتاروا لأنفسكم إحدى الحالتين" (١).

بل إن الله تعالى، قد أخذ عليهم العهد في ذلك، كما قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِيمَا كَثُرُوا﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ولكنهم أخلفوا عهد الله وميثاقه، حيث أخبر - تعالى - عما هممت به هذه الطائفة الخبيثة، من إرادة المكر بالمؤمنين، فقال ﴿وَقَالَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَّهَ النَّهَارَ وَكُفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] (٢).

قال السدي: "كان أحبار قري عريية اثني عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمداً حق صادق، فإذا كان آخر النهار؛ فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدثونا أن محمداً كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم، لعلمهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك" (٣).

ولقد كان هذا ديدنهم منذ سالف عهدهم، إلى يومنا هذا؛ يشهدون أن الحق واضح، وأن هذا الدين حق، كما جاءهم به البينات، ثم يلبسون على الناس، فهم قوم بُهت بشهادة بعض أحبارهم، ففي الصحيح أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥١.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٣٤.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٧٨، جامع البيان ٣/٣١٢.

فادعهم، فاسألهم عني، قبل أن يعلموا أي قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أي قد أسلمت، قالوا في ما ليس في، فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ "يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أي رسول الله حقاً، وأي جنتكم بحق، فأسلموا"، قالوا ما نعلمه، قالوا للنبي ﷺ، قالها ثلاث مرار، قال: "فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام"، قالوا: "ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم، قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قالها ثلاثاً، قال: يا ابن سلام اخرج عليهم، فخرج فقال: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو؛ إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ"^(١)، وفي رواية "قالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه".^(٢)

فانظر إلى مغالطتهم، كيف بدأوا بالثناء على عبدالله بن سلام، ثم انقلبوا عليه فذمّوه. ولقد حاولوا أن يدسّوا في كتاب الله ما ليس منه، من تحريفات ظاهرة، ولكن يأبى الله إلا أن يحفظ كتابه المبين، من عبث العابثين، فلما علموا ذلك أرادوا دسّ السموم في كتب التفسير والسنة، فقيض الله لها الجهابذة، فدادوا عنها، حتى بذلوا في ذلك المهج والأرواح^(٣). ثم تأمل كيف كان أمرهم فيما بينهم حيث قالوا ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]. أي: لا تطمئنوا وتظهروا سرّكم وما عندكم؛ إلا لمن اتبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم.

غير إنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة، لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلام، لأمكن تأثيرها في قلب من ضُغف إيمانه. فازداد يقين المسلمين بدينهم، وأما هم فلما افتضحوا في هذه الحيلة، صار ذلك؛ رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس^(٤).

ولما انقطع الوحي، صار لتلبيس هؤلاء المفسدين صوراً تناسب مجريات الزمان، وتطور الملابس، فجاءوا ببدعة الاستشراق، والتي بذلوا فيه جهدهم لدراسة الموضوعات

(١) أخرجه البخاري. كتاب مناقب الأنصار. باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. ح(٣٩١١).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب خلق آدم وذريته. ح(٣٣٢٩).

(٣) صنّف في ذلك كتب وبحوث. منها كتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د. محمد أبو شهبه

(٤) انظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٦٠/٢.

الإسلامية بشتى صورها، ثم دسوا السمَّ في العسل، للأमीين الذين لا يفقهون شيئاً في الدين، حتى أنظلت أكاذيبهم على بعض المسلمين وأعجب بأفكارهم بعض المفتونين، حتى صار منهم، ويسعى لتحقيق أهدافهم، وإن كان من بني جلدتنا ويتكلم بألستنا.

لقد سعى أهل الكتاب للبس الحق بالباطل؛ منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، بكل سبيل، فها هي حملاتهم المتتابعة حين بعد آخر، للطعن في القرآن الكريم، وفي سيرة سيد المرسلين ﷺ، والصحابة الكرام ﷺ.

ولقد بين الله تعالى أن كتمان الحق وإخفائه من سماهم:

كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فكتم الحق؛ أسلوب ماكر من أساليبهم في إنكار دعوة الرسل، قد لا يتنبه له الكثير، وهو دليل على فساد نيتهم، وسوء طويتهم، فما كتم الحق؛ إلا جاحد معاند.

ففي الآية بيان ما وقع منهم في كتمان صفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، فأخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرّر عندهم، وعرفوا أن محمداً رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك؛ كما تيقنوا أبناءهم؛ بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حدٍّ لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنهم، وهم يعلمون.^(١)

وثمة صورة لفسادهم ليست عن هذا بعيد، بل إن تلبسهم بها أكثر، وغشيانهم لها أظهر؛ تلكم هي؛ تحريفهم للكتب المنزلّة:

ولئن كانت هذه الفعلة القبيحة؛ من تلبس الحق بالباطل، وكتمان الحق؛ إلا أن الله - تعالى - خصّها بالذكر فقال ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِحُجُورٍ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

أي يتأولونه على غير تأويله، بعد أن فهموه عنك، وعرفوا مواضعه التي أرادها الله عز وجل وبين أحكامه.

"والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢

الأمر برجم من أحسن منهم، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم^(١)، والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم؛ فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله، قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرحم؛ فلا تتبعوه في ذلك"^(٢).

وقد وردت الأحاديث في ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له؛ أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يجني على المرأة يقبها الحجارة^(٣).

ومن ذلك قوله تعالى ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَا أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

فتحريفهم ذلك إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم؛ تزييل الصفات التي ذكرت في كتبهم، والتي لا تنطبق ولا تصدق إلا على النبي ﷺ؛ على إنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتماهم ذلك. فحالمهم هذه في العلم؛ أشر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق.

وأما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنهم يقولون ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما

(١) التحميم: تسويد الوجه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٣٦/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٣.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب المناقب. باب قوله ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ ح (٣٦٣٥)، ومسلم. كتاب

الحدود. باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا. ح (١٦٩٩).

تجب، بل مسمع ما تكره، ﴿وَرَعَيْنَا﴾ قصدهم بذلك الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم؛ إلى الطعن في الدين والعيب للرسول ﷺ، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فهذا قال ﴿لِيَأْبَ أَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾^(١).

ومن تحريفهم؛ ما تضمنته التوراة المحرّفة من تبديل للألفاظ والمعاني، فإن فيها ما يجزم العاقل؛ أنه ليس من عند الله تعالى، فأبيّ كتاب سماوي يتّره عن تلك النقائص والعيوب والتناقض في الأخبار، واختلاق الأكاذيب على أفضل الخلق؛ وهم رسل الله وأنبيائه، حيث نسبوا إليهم السكر والخمر والزنى، وغير ذلك من القبائح، التي يتّره العاقل نفسه أن يتصف بشيء منها، فضلاً عن مقام النبوة الشريف.^(٢)

وكان من بواعث التحريف عندهم؛ كثرة المبشرات - في كتبهم - بني هذه الأمة ﷺ، وتنوعها، وعجزهم عن كتمانها، أو تغيير لفظها، فلجأوا إلى تحريف معناها. ولم يقف حدّ التحريف على كتبهم، بل حالوا تحريف القرآن الكريم، فأبطل الله كيدهم لأنه سبحانه تكفل بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وحيث عجزوا عن اللفظ لجأوا لتحريف المعنى، إما عن طريق تفاسيرهم المعربة المظللة، أو عن طريق ترجماتهم إلى لغات أخرى، وكل ذلك دليل على مكرهم وكيدهم، وعدائهم للإسلام وأهله.

وقد خص الله اليهود بتحريف كلامه في مواضع كثيرة، وهامم اليوم يجددون هذا المسلك بما أعلنت عنه وزارة خارجية إسرائيل، من إطلاق مشروع عالمي لتفسير القرآن بعنوان: "قرآنت" ليكون - بزعمها - وسيلة تربوية^(٣).

فعلى المسلمين أن يحدروا من الوقوع في هذا الفخ، وليتأملوا جيداً قول الذي خلقهم وكشف أستارهم ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٨٠.

(٢) انظر: البحر المحيط ٥٢٧/٢.

(٣) المصدر: "العربية نت" الثلاثاء ١٣ جمادى الثانية ١٤٢٩ هـ - ١٧ يونيو ٢٠٠٨ م.

ومن قبيح صفاتهم التعنت والتشدد:

وظهر تشدد بني إسرائيل وتعنتهم في أكثر من حال، مما يؤكّد قسوة قلوبهم، وهذا ظاهر في القرآن في قصة البقرة، قال سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَجِدْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. فبدأوا بطرح الأسئلة التي تدل على تعنت صاحبها، فسألوا عن لوئها، وعن أوصافها، وهذا من تشددهم.

فعن ابن عباس وابن سيرين وأبي العالية رضي الله عنهم أنهم قالوا: فلو لم يعترضوا البقر؛ لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا؛ فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً.^(١) وهذا مثال ضربه الله عز وجل، ليبين للأمة المحمدية؛ أن التشدد يفضي أمره إلى تعنت وتشديد في الحكم.

ولذلك كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم "يسروا ولا تعسروا"^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم "إن الدين يسر"^(٣). فالتيسير أمر ظاهر في شريعة الإسلام، ليعد كل من دخل تحت مظلتها؛ من أن يتأثر بفعل أهل الكتاب، الذين شددوا؛ فشدد الله عليهم بفعلهم، ولا يظلم ربك أحداً. وأما تعنتهم، فإن الله تعالى لما امتنَّ على موسى وقومه؛ ونجاهم من بطش فرعون وكيده، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حوله، وكانت بيوتهم قد أخذها العماليق^(٤)، ففرض الله عليهم الجهاد؛ ليخرجوا هذا العدو من ديارهم، فذكرهم موسى صلى الله عليه وسلم ووعظهم حتى يقدموا على الجهاد، فقال لهم ﴿يَقْوِمُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَالًا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

فذكرهم بالنعم الدينية والدينية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال لهم ﴿يَقْوِمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كُنَّا لَكُمْ وَلَا تَزِدُّوا عَلَيْهَا ذَرْبًا فَأَنْقَلِبُوا

(١) انظر: جامع البيان ١/٣٧٩، وابن أبي حاتم ١/١٣٦، تفسير القرآن العظيم ١/٢٩٧.

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد والسير. باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب. ح (٣٠٣٨)، ومسلم. كتاب الجهاد والسير. باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. ح (١٧٣٢).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان. باب الدين يسر. ح (٣٩).

(٤) سموا بـ"العماليق" لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح صلى الله عليه وسلم. انظر تاريخ الطبري ١/١٢٥.

خَسِرِينَ ﴿[المائدة: ٢١]﴾. وهذا خبر تطمئن به نفوسهم؛ إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله تعالى، وأن الله كتب لهم النصر على عدوهم، فأبي اطمئنان كهذا.

ولكن ظهر عليهم التعنت والعصيان في كلامهم فقالوا ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. فهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا لو كان معهم رشد، لعلموا أن القوي من أعانه الله، وأيده بنصره.

فانبرى لهؤلاء المعاندين رجالان منهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي ليس بينكم وبين النصر على العدو؛ إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتم؛ فإنهم سيهزمون بإذن الله، وذكرهم الرجال بالتوكل على الله، لأنه بحسب يقين الإنسان بنصر الله؛ يكون تحقيق النصر.

ثم تأتي أشنع الكلمات منهم في مواجهة أمر الله وتعنتهم حين قالوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج، الذي دعت إليه الضرورة، لنصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

ثم كانت نتيجة ذلك ما أخبر به تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]، فأسلمهم - سبحانه - وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدروس، وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها، هنالك يصلب العود، ويتعلم القلب الشجاعة التي حُرِّمَها أسلافهم.^(١)

ومن تعنتهم قولهم لموسى عليه السلام ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ولذا حذر الله تعالى المؤمنين من مشابهم فقال سبحانه ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

قال ابن كثير: "والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء؛ على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكديماً وعناداً".^(٢)

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧٥/٣، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٥٣/١

ومن صور فساد النصارى الابتداع في الدين:

قال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

فالرهبانية لم تكن موجودة في شريعة عيسى عليه السلام، ولكن خلفاً من خلف النصارى؛ هم الذين أحدثوها، وأدخلوها في الدين.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقليل لملكهم: ما نجد شيئاً أشد علينا من شتم يشتمناه هؤلاء، أنهم يقرءون ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، هؤلاء الآيات، مع ما يعيونا به في قراءتهم، فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا به، قال: فدعاهم فجمعهم، وعرض عليهم القتل؛ أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل؛ إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك، فدعونا، قال: فقالت طائفة منهم؛ ابنوا لنا اسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم؛ دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب وشرب الوحوش، فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة؛ ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم، وليس أحد من أولئك إلا وله حميم فيهم، قال ففعلوا ذلك، فأنزل الله جل ثناؤه هذه الآية^(١).

"وخصت الآية الرهبانية بالابتداع؛ لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية؛ فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع التكسب"^(٢).

والرهبانية اسم للحالة التي يكون الراهب متصفاً بها في غالب شؤون دينه.

والراهب: هو العابد من النصارى المنقطع للعبادة، وهو وصف مشتق من الرهب: أي الخوف، لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى، أو من مخالفة دين النصرانية، وقيل: سميت بذلك بسبب الخوف من الجبابرة الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود، وأن الجبابرة

(١) جامع البيان ٦٩٠/١١، وتفسير القرآن العظيم ٣١٨/٤، والحديث أخرجه النسائي. كتاب آداب القضاة. باب تأويل

قوله عز وجل "ومن لم يحكم بما أنزل الله..". ح(٥٤١٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي. ح(٥٤٠٠).

(٢) البحر المحيط ٢٢٦/٨.

ظهروا على المؤمنين بعيسى، فقاتلوهم حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية؛ وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين^(١).

ويلزم هذه الحالة في عُرْف النصارى، العُزلة عن الناس تجنباً لما يُشغل عن العبادة؛ وذلك بسكنى الصوامع والأديرة، وترك التزوج تجنباً للشواغل، ويمتنع من مخالطة الأصحاب؛ خشية أن يلهوه عن العبادة، ويترك لذائد المآكل والملابس؛ خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، ولأنهم أرادوا التشبه بعيسى عليه السلام في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال تعالى ﴿أَبْتَدَعُوهَا﴾ أي أحدثوها، فإن الابتداع الإتيان بالبدعة، والبدع وهو ما لم يكن معروفاً، أي أحدثوها بعد رسولهم، فإن البدعة ما كان محدثاً بعد صاحب الشريعة.

والمعنى: أنهم ابتدعوا العمل بها، فلا يلزم أن يكون جميعهم اخترع أسلوب الرهبانية، ولكن قد يكون بعضهم سنّها، وتابَعه بقيتهم.

وقيل: إن ابتداعهم الرهبانية؛ بأنهم نذروها لله، وكان الانقطاع عن اللذائد، وإعنات النفس، من وجوه التقرب في بعض الشرائع الماضية، بقيت إلى أن أبطلها الإسلام^(٢).

وأما قوله سبحانه ﴿فَمَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: "فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في الدين ما لم يأمر به الله تعالى، والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله عز وجل"^(٣).

وظاهر الآية؛ أن جميعهم قصرُوا تقصيراً متفاوتاً، في أداء حقها. وفيه إشعار بأن ما يكتبه الله على العباد من التكليف؛ لا يشق على الناس العمل به.

فهذه الرهبانية التي عرفها تاريخ النصارى، كانت اختياراً منهم، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله، وابتعاداً عن الشهوات، ولم يكتبها الله عليهم ابتداءً، ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم؛ صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها، من تطهّر وترفّع وقناعة وعِفّة وذكر وعبادة، مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله تعالى، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية المبتدعة.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٨/ ٢١٣، تفسير الكشاف ٤/ ٤٧٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٩.

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر، خالية من الروح، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة، فلا يصبر على تكاليفها إلا قليل منهم^(١).
والله سبحانه وتعالى لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح، إنما يأخذهم بالعمل والنية، ولا تصح نية بلا إخلاص، ولا يقبل عمل بلا اتباع.

ومن تتبع آي القرآن؛ وجد آيات مفصلات، في بيان فساد أهل الكتاب، وما ذكرناه منها، ما هو إلا إشارة إلى انحرافهم عن صراط الله المستقيم.
وعند ما يقف المؤمن عند تلك الآيات، يدرك حينها ما استحقه اليهود من غضب الله ومقته، وما آل إليه النصارى من الغواية والضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) للاستزادة انظر: (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام) لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

المطلب الرابع: المنافقون.

ذكر الله تعالى في وحيه المبارك، كثيراً من أوصاف المنافقين، لخطورتهم على الإسلام وأهله، فكشف التزليل أسرارهم، وهتك أستارهم، وبيّن دقائق نفوسهم. ذلك أن حقيقة المنافقين - كما صورها القرآن، ومما يشهد به واقعهم - هي صورة مخالفة لصورة المؤمن الحقيقي، والكافر الصريح، فإن الكفرة على اختلاف مللهم كفرهم ظاهر، قد بان للمؤمنين كفرهم، وظهرت عداوتهم، واتضح وجوب منابذتهم، ومخالفتهم في الدين، فلا يجنح إليهم من في قلبه إيمان صحيح. ولكن بليّة الإسلام، ومدخل الشر إليه في هذا الصنف من المفسدين؛ الذي يرتدي زي الصديق الذي يظهر الخير، ويبطن الشر، فلا ريب أن خطر أهل النفاق وشرهم أعظم أثراً، وأنكى جرحاً.

فمن فسادهم: الإعراض عن حكم الله تعالى:

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّلْعُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠].

فهذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وجاء في سبب نزولها أن رجلاً من الأنصار ورجلاً من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وجعل الأنصاري يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وقيل: نزلت في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك^(١).

قال ابن كثير: "والآية أعم من ذلك كله، فهي دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطواغيت هاهنا.

وعقب ذلك جاء التصريح بوصف حال المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

(١) انظر: أسباب نزول القرآن للواحدي ص ١٦٤

ثم قال تعالى في ذمهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْإِحْسَانَ وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك، ثم جاؤك يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك، إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبر تعالى عنهم في قوله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢] (١).

وهي دائماً دعوى كل من يجيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته؛ أنهم يريدون اتقاء الإشكالات والمتاعب والمصاعب، التي تنشأ من الاحتكام إلى شريعة الله! يريدون - بزعمهم - التوفيق بين العناصر المختلفة، والاتجاهات المتباينة والعقائد المختلفة... إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - وحجة المنافقين المتلويين، في كل حين! والله - سبحانه - يكشف زيفهم، ويخبر رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم، ومع هذا يوجهه إلى أخذهم بالرفق، والنصح لهم بالكف عن هذا الإلتواء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

ومن فسادهم: سوء ظنهم بالله تعالى:

قال تعالى ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. والمقصود بهذه الطائفة هم المنافقون، فقد ظنوا بالله تعالى ظن الملة الجاهلية، التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل. والمنافقون لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنيعة عليها في شغل، يظنون بالله تعالى الظنون الكاذبة، ظن أهل الشرك، شكاً في أمر الله تعالى، وتكديماً لنبيه ﷺ، فحسبوا أن الله خاذل نبيه، ومعلٍ عليه أهل الكفر، وهذا شأن أهل الريب، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٥٢٠

الشيعة.

ومن سوء ظنهم؛ ما أخبر الله تعالى بقوله ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ففي غزوة الأحزاب، ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً، عندها ظهر سوء ظن المنافقين، فأبى عليهم نفاقهم؛ إلا أن ييوح بما في قلوبهم من الشك والريب، وعدم اليقين بوعد الله تعالى، وهذه عادة المنافق عند الشدة والحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة، فيصدق ظنه الأثيم، ما أملاه قلبه السقيم.

وقد أظهر الله تعالى هذا الظن وجلاؤه فقال ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَٰ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

فإن المنافقين قد ظنوا؛ بل اعتقدوا أن المؤمنين سيقتلون، وتستأصل شأفتهم، وتستباد حضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر^(١).

قال ابن القيم: "وقد فُسرَّ هذا الظنُّ الذي لا يليق بالله، بأنه سبحانه لا ينصرُ رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يُسلمه للقتل، وقد فُسرَّ بظنهم أن ما أصابهم؛ لم يكن بقضائه وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسولهِ ويُظهره على الدين كله، وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنَّه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة الفتح حيث يقول ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، فمن ظنَّ أنه يدلُّ الباطل على الحق، إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق، اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره؛ لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء.

وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السوء، فيما يختصُّ بهم، وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلمُ عن ذلك إلا مَنْ عرف الله تعالى، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجبَ حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من رَوْحه، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/١٩٠.

ولو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ، لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه؛ خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثرٌ، وفَتَّشَ نَفْسَكَ هل أنت سالمٌ من ذلك؟

فإن تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا^(١)
فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضع، وليتُبْ إلى الله تعالى، وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظنَّ السَّوِّءِ، وليظنَّ السَّوِّءَ بنفسه التي هي مأوى كلِّ سوء، ومنبَعُ كلِّ شرٍّ، المركَّبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظنِّ السَّوِّءِ من أحكم الحاكمين، وأعدلِ العادلين، وأرحمِ الراحمين^(٢).

ومن فسادهم أذيتهم للنبي ﷺ:

فقد تناولوا على النبي ﷺ فأذوه في ذاته الشريفة، وأذوه أيضاً في عرضه الشريف.
أما أذيتهم له في ذاته، فقد حكاها تعالى عنهم بقوله ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، أي من قال له شيئاً؛ صدَّقه فينا، ومن حدَّته؛ صدَّقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدَّقنا، فهو يقبل كل ما يقال له، ولا يميز بين صادق وكاذب .
وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم غير مكترثين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه، فهذا مطلوبهم، وإن بلغه، اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.
فأساءوا كل الإساءة، من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم، الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك، إلى الهدى والسعادة، ومنها: عدم اهتمامهم أيضاً بذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأذية، ومنها: قدحهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه، وتفريقه بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم إدراكاً، وأتقبهم رأياً وبصيرة.
ولهذا قال تعالى ﴿ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]. أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً، وأما إعراضه، وعدم تعنيه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم^(٣).

(١) البيت نسبه الجاحظ لـ"الأسود بن سريع"، انظر: البيان والتبيين ١/١٩٢

(٢) انظر: زاد المعاد ٣/٢٢٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٣٦٧، تيسير الكريم الرحمن ١/٣٤٢.

ومن أذيتهم له ﷺ أن وصفوه بالظلم، حين عابوا عليه وطمعوا في قسمته للصدقات، فقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة ذي الخويصرة، لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم الغنائم حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، قال: ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت، إن لم أكن أعدل، فقال عمر رضي الله عنه دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتَلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أنني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ" (١).

وأما أذيته في عرضه ﷺ فما وقع من رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول، حين اتهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنا، فهو الذي تولى كبره، وأشاع هذه الفاحشة وروج لها، حتى قطع الله - تعالى - لسانه؛ بتزول براءتها من فوق سبع سماوات، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْتِزِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١]. (٢)

فأي فساد أعظم من أذية رسول الله ﷺ!

ومن فسادهم: تولي الكافرين:

قال الله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

فوصفهم - عز وجل - بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا حلو إليهم: إنما نحن معكم. فأنكر الله تعالى عليهم هذا المسلك الفاسد، وبيّن أن ما يرجون من العزة والمنعة باتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، لن يغني عنهم من الله شيئاً، فإن العزة لله جميعاً، ونواصي العباد بيده، ومشيتته نافذة فيهم، وقد تكفل - سبحانه - بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين.

وفي موضع آخر، أخبر - سبحانه - عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من

(١) أخرجه البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. ح (٣٦١٠)، ومسلم. كتاب الزكاة. باب: ذكر

الخوارج وصفاتهم. ح (١٠٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢٧٠/٣

اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، فقال تعالى ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوْلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

فالمنافقون لا تطمأن قلوبهم، ويهدأ بالهم؛ حتى يمدوا أيديهم إلى الكفار؛ ليستنصروهم. ولا غرابة في ذلك، فالقرآن يشهد بكفرهم وخيانتهم، قال تعالى ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]. لقد ظن المنافقون أنهم بذلك يكسبون جميع الأطراف، وجعلوا الكذب والخداع مطيبتهم، ولكن الله تعالى كذبهم وفضحهم، فقال سبحانه ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّوكَ﴾ [الحشر: ١٢].

ومن فسادهم: التربص بالمؤمنين:

وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالَوا لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا لَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فهم يتربصون بالمسلمين دوائر السوء، ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفر عليهم، وذهاب ملتهم، ومن كيدهم؛ أنهم إن كان النصر والغلبة للمسلمين فهم يُبدون الولاء والانتماء، جرياً وراء مصالحتهم، وحظهم من الغنيمة، وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين - كما وقع يوم أحد - أظهروا لهم التودد، وقالوا نحن قد ساعدنكم في الباطن وخذلناهم، حتى امتنعوا منكم وانصرفوا.

فكانوا يصنعون هؤلاء وهؤلاء، ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذلك إلا لفساد قلوبهم، وقد وصفهم الله تعالى بذلك بقوله ﴿مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وقد أوقعهم نفاقهم وفسادهم في الريب والشكوك، قال تعالى ﴿وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهَرَّتْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]، وقال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، فتأمل كيف قالوا (إننا معكم) مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك؛ لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين، وقومهم لا يشكون في بقائهم

على دينهم.^(١)

وبعد أن كشف الله للمؤمنين حقيقة المنافقين وأفعالهم، جاءت المواجهة صريحة بين معسكر الإيمان ومعسكر النفاق، فقال تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

أي: "هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما؛ إما ظفراً بالعدو، وفتحاً لنا بغلبتنا لهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإما قتلاً من عدونا لنا، ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكتاهما مما يُحب ولا يُكره، ونحن ننتظر بكم، أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة، تهلككم أو بأيدينا، فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا، وما إليه صائر أمر كل فريق منا ومنكم".^(٢)

وليس عن هذا ببعيد سعيهم للتفريق بين المؤمنين، وإليه الإشارة في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

فقد نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وله شرف في الخرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، بارز هذا الفاسق بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة، بمائلهم على حرب رسول الله ﷺ، فقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، ولما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً، يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد الضرار، ولما فرغوا منه، جاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٩١/١

(٢) جامع البيان ١٥١/١٠

إليهم فيصلي لهم فيه، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشتائية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، نزل عليه جبريل عليه السلام بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.^(١)

فهذا المسجد - مسجد الضرار - اتخذ مكيدة للإسلام، وإضراراً بالمسلمين، وستاراً للمتأمرين على هذا الدين، ومن ثم جاء الأمر من الله تعالى بعدم الصلاة فيه مطلقاً، والحث على الصلاة في مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم بنائه على طاعة الله ورسوله، وجمع كلمة المسلمين، ومعقلاً للإسلام وأهله ﴿لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رَجُلٌ يَجُوبُ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وأمثال هذا المسجد لا تزال تُتخذ في صور شتى ثلاثم ارتقاء الوسائل الخبيثة، التي يتخذها أعداء هذا الدين، في صور ظاهرها الإسلام، وباطنها هدم الدين، وتفريق كلمة المسلمين، يرفع أولئك رايات يزعمون نصرتها للدين، وسهامهم هي التي ترميه.

"وفي الآية دليل على أن العمل - وإن كان فاضلاً - تغييره النية، فينقلب منهيًا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار، عملهم إلى ما ترى".^(٢)

وقد استخدم المنافقون الأيمان الكاذبة لتبرير مؤامرتهم ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

مما يؤكد أن من فسادهم: اتخاذ الأيمان الكاذبة.

قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]. قال ابن كثير: "أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة، ليُصدِّقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقد أنهم مسلمون، فرموا اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطل لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

(١) انظر: جامع البيان ٢٣/١١، تفسير القرآن العظيم ٣٨٩/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٥٢

يَعْمَلُونَ ﴿١﴾

فكانت أيمانهم جنة: أي تقيّة يتقون بها القتل، فلما عصمت دمائهم وأمواهم بالإسلام الذي أظهره، أصبحوا يستخدمون أيمانهم الكاذبة لاختلاق الأعذار؛ ليستقوا عن أنفسهم التكليف الشرعية.

فمن ذلك؛ استخدامهم للأيمان الكاذبة للتخلف عن الجهاد، قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلَّفُونَ بِاللَّهِ لِيُؤْتُوا لِحُجَّتِنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

فأخبر تعالى موجباً للذين تخلفوا عن غزوة تبوك، واستأذنوا النبي ﷺ في ذلك، مظهرين أنهم ذووا أعذار، ولم يكونوا كذلك، ولذا كشف الله تعالى عوارهم في صدر هذه الآية، وبيّن أن طول المسافة، وصعوبة السفر، جعلتهم يتشاقلون الخروج، وأن تلك الأيمان الكاذبة، لن تغني عنهم شيئاً، بل إنهم أوجبوا لأنفسهم بحلفهم الكاذب؛ الهلاك والعطب، لأنهم يورثونها سخط الله تعالى، ويكسبونها أليم عقابه. (٢)

ومن ذلك أيضاً: أنهم اتخذوا أيمانهم تبرئة لأنفسهم من الكفر، كما قال تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو أَلْمَٰنٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فقد اختلف المفسرون في سبب نزولها، فمنهم من قال: نزلت في الجلاس بن سويد، وقيل: في عبد الله بن أبي بن سلول. (٣)

والشاهد من الآية أن المنافقين كانوا يتكلمون بكلام الكفر، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك؛ جاعوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، فقال تعالى مكذباً لهم ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ فإسلامهم السابق؛ وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر، فكلامهم الأخير، ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر. (٤)

لقد تمكن الكذب والحلف عليه، من نفوسهم، حتى إنهم يأتون به يوم القيامة!

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٦٩

(٢) انظر: جامع البيان ٦/٣٨٠

(٣) انظر: جامع البيان ٦/٤٢٣، معالم التنزيل ٤/٧٥، تفسير القرآن العظيم ٤/١٧٩

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٤

قال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْطَفُونَ لَهُ، كَمَا يُحْطَفُونَ لَكَ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، "وهذا يقتضي توغلهم في النفاق، ورسوخه فيهم، وأنه باقٍ في أرواحهم بعد بعثهم؛ لأن نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلقة به، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثاً، في عالم التكليف".^(١)

ومن صور فسادهم: الاستهزاء:

وقد جاء الإخبار باتصافهم بذلك في عدة مواضع، فقد اخبروا عن أنفسهم أن إظهارهم للإيمان عند المؤمنين، إنما هو استهزاء وسخرية، قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وإذا كان حالهم في إظهارهم للإيمان الاستهزاء، فلا عجب أن يقع منهم استهزاء بأهل الإيمان، بالقول والفعل، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، وكان استهزائهم هذا؛ حين قال رجل منهم في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطوننا، ولا أكذب ألسننا، ولا أجب عن اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، ولأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فأننا رأيتاه متعلقاً بحقب^(٢) ناقية رسول الله ﷺ تنكبه^(٣) الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول "أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون"^(٤).

وفي هذه الآيات، دليل على أن من أسرَّ سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكن فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول، أو تنقصه، فإنه كافر بالله

(١) التحرير والتنوير ٥٢/٢٨

(٢) حقب الناقة: هو الحبل المشدود على حَقْو البعير أو من حَقَبْتَهُ، وهي الزيادة التي تُجْعَل في مؤخَّر القَتَب، والوعاء الذي يجمع الرجل فيه زاده. (انظر: النهاية في غريب الحديث ٤١١/١)

(٣) أي لثمته. لسان العرب مادة (نكب) ٧٧٠/١

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٨٣٠/٦، جامع البيان ١٧٢/١٠

العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيماً.^(١) ونهوا عن الاعتذار في قوله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، لأنها اعتذارات كاذبة فهي لا تنفع، فقد أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان، لأنهم كانوا يسرون الكفر، فأظهروه باستهزائهم.^(٢)

ومن استهزائهم؛ لمزهم للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩] فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة، كنا نحامل^(٣) فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأئي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فترلت الآية.^(٤)

فلا يسلم من عيبهم ولمزهم أحد، حتى أهل البذل والإنفاق! قال السعدي: "جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير، منها: تتبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم، ومنها: طعنهم بالمؤمنين، لأجل إيمانهم، كفراً بالله تعالى، وبغضاً للدين، ومنها: أن اللمز محرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح، ومنها: أن من أطاع الله، وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي هو إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشيبتهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه، ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مُراءٍ، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأي شر أكبر من هذا؟ ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: الله غني عن صدقة هذا، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة المنتصدق بالقليل والكثير".^(٥)

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٣

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط ٦٨/٥

(٣) نحامل: أي تكلف الحمل بالأجرة ليكتسب ما يتصدق به تحاملت الشيء: تكلفته على مشقة.

انظر: النهاية في غريب الحديث ٤٤٣/١

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الزكاة. باب اتقوا النار ولو بشق تمره. ح(١٤١٥)، ومسلم. كتاب الزكاة. باب الحمل

بأجرة يتصدق بها. ح(١٠١٨)

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٦

فهذا دأب المنافق؛ شرُّ على المسلمين، فإن رأى أهل الخير لمزهم، وإن رأى المقصرين لمزهم، وهذا برهان على ما انطوى عليه قلبه من خبث وفساد.

والمنافقون في زمننا هذا إذا رأوا أهل الخير والدعوة، وأهل الحسبة، قالوا: هؤلاء متشددون، رجعيون، ولربما ألصقوا بهم التُّهم جزافاً، دون بينة أو برهان.

فما أشبه منافقي اليوم، بمنافقي الأمس!

ومن فسادهم: تناقلهم عن الطاعات:

قال تعالى عن المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]

فلو لم يكن للنفاق آفة؛ إلا أنه يورث الكسل عن العبادة، لكفى به ذماً، فكيف ببقية آثاره السيئة؟!

ولما كشفت سورة المنافقون جملة من مفاسدكم، جاءت خاتمتها بوصايا لأهل الإيمان، قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنَّهُمْ ءَمَوْا بِمَا ءَمَرُوا لَكُم وَلَا ءُؤَلِّدُكُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ففي ذلك تحذير من فتنة المنافقين، الذين غفلوا عن ذكر ربهم، إذ هذه علامتهم، ولذا فإن كثرة ذكر الله تعالى؛ أمان من النفاق، والله تعالى أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل^(١).

ومن خبر تناقلهم في الطاعة، قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ءَجَلُّوا بِهِ ءَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]. وفي موضع آخر قال سبحانه ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فهم متصفون بالبخل.

ولا غرو، فهل ترجى نفقة؛ ممن أبطن الكفر وحارب الإسلام وأهله!

فقبض الأيدي؛ كناية عن الامتناع من البذل، وهو آمارة على النفاق، كما أن بسط اليد كناية عن الإنفاق والبذل، وهو أية على الإيمان.

ولم يقتصر تشبيطهم على أنفسهم، بل تجاوز ذلك إلى غيرهم من المؤمنين، قال تعالى ﴿قَدِّعَاكُمْ عَنْهُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كَيْدٍ عَدِيبٍ﴾ [الأحزاب: ١٨].

(١) انظر: الوابل الصيب لابن القيم ص ١١٠

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره، قد يعلم الله الذين يعوقون الناس منكم عن رسول الله ﷺ، فيصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقاً منهم، وتخليلاً عن الإسلام وأهله، والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، أي: تعالوا إلينا ودعوا محمداً، فلا تشهدوا معه مشهده، فإننا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه" (١).

فإذا كان هذا هو التثبيط قبل الخروج للجهاد، فإن من قبيح أفعالهم وأخطرها على الصف المسلم، ما فعله رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ، يوم أحد حين رجع بثلاث الجيش إلى المدينة؛ خذلاناً منه للمؤمنين (٢).

ولأجل هذا كره الله تعالى انبعاثهم في غزوة تبوك، وثبّطهم عن الخروج، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]. وهذا من حكمته سبحانه أنه ما أراد إعانتهم على الخروج، بل خذلهم وأقعدهم، وقد ذكر سبحانه الحكمة في ذلك ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَغْوَنَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: ما زادوكم إلا نقصاً، ولسعوا في الفتنة والشب بينكم، وفرقوا جماعتكم، وهم حريصون على إلقاء العداوة بينكم. وللأسف الشديد، فإن من المسلمين من يستمع إلى إرجاف المنافقين وتخليطهم، ويغتربون بدعواهم.

فإذا كانت هذه مفسدة حاصلة بأقاويلهم، فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم! (٣) وكثيراً ما يستغل أهل النفاق المواقف - لاسيما الحرجة منها - لبث الشائعات لأهداف سيئة، قال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣].

فكان حالهم أنهم يشيعون الأخبار ويفشونها، وذلك أن النبي ﷺ كان يبعث السرايا، فإذا غلبوا أو غلبوا، بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيفشون ويحدثون به، قبل أن يحدث به

(١) جامع البيان ١٣٩/٢١

(٢) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، ص ١٤٥

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٩

رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين^(١).

وقد يتلقاه عنهم بعض المؤمنين من ذوي النوايا الحسنة، فيساهمون في بثه وإشاعته عن حسن قصد، فتعظم الفتنة، ويكثر القيل والقال، كما وقع ذلك في حادثة الإفك، قال تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

أي: يلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، والأمران محظوران، وتحسبونه هيناً، فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين - الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك - وهو عند الله عظيم.

وهذا فيه زجر بليغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسبانته شيئاً، ولا يخفف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى^(٢).

تلك بعض أوصاف المنافقين الفاسدة، ترجع إلى طبع واحد، يحمل صاحبه على سوء النية، وخبث الطوية، ولوم السريرة.

لقد بلغ المنافقون من الفساد منتهاه، حتى طبع الله على قلوبهم، ومن طُبع على قلبه، كيف يستصلح منه ما فسد؟

قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

ولخطر هؤلاء المفسدين وضررهم على أهل الإيمان، حذر سبحانه المؤمنين منهم، فقال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فالله تبارك وتعالى نهى عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يُطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم، لا يألون المؤمنين خبالاً، فهم يسعون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعنت المؤمنين، ويخرجهم ويشق عليهم.

فليحذروا أن يظهروهم على سرائرهم، أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم هم

(١) انظر: معالم التنزيل ٤٥٦/١

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٤

الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء، فظهرت على أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر مما يُسمع منهم^(١).

وبعد هذا العرض الموجز لفساد المنافقين، يدرك المؤمن خطر هذا الصنف من المفسدين. وقد جاء في صحيح السنّة؛ استحباب قراءة سورتي الجمعة والمنافقون في صلاة الجمعة^(٢)، ولعل من الحكمة في ذلك: أن يُصحح الناس قلوبهم ومسايرهم إلى الله تعالى كل أسبوع، وأن يقرع أسماعهم التحذير من المنافقين كل جمعة^(٣).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٣٩٩، تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٤

(٢) أخرجه مسلم. كتاب الجمعة. باب ما يُقرأ في صلاة الجمعة. ح(٢٠٦٣)

(٣) للاستزادة انظر: (صفة النفاق ودم المنافقين) للفريابي، وكتاب(المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم) لمحمد

جميل غازي، وكتاب(المنافقون في القرآن الكريم) د.عبدالعزیز الحميدي.

المطلب الخامس: السحرة.

سبق بيان تعريف السحر، وحُكمه، وما اشتمل عليه من المفاصد العظيمة، مما لا يدع مجالاً للريب أنه من أعظم الفساد.

وقد جاء التصريح بأن السحرة من جملة المفسدين، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّا الْقَوْأَ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]

والسحر أمره مدموم عند الناس، بل هو مستقبح عند عقلائهم؛ فإن دعاوى السحرة والمنجمين، مما أنكره الناس على مر العصور، حيث أدركوا ضلال هذا العلم، وكذب أهله، حتى صار بهتانهم مشهوراً بين الناس كافة، فهو بلاء قديم في الأمم، أجمعت الشرائع على تحريمه^(١).

وأخبر القرآن عن قدمه في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرْنَا سَلَمًا وَلَا يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فقد نصت الآية على أن السحر كان موجوداً في بابل، ورجح ابن كثير

أنها بابل العراق^(٢)، والناظر في تاريخ بابل يجد أن دين الصائبة ودين الجوس كان سائداً فيها من عبادة النار، إلى عبادة النجوم والكواكب، وهذا يعطي دلالة واضحة على تمازج السحر بالكفر، وأن هناك علاقة وطيدة بينهما.

كما أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام، كان يكثر فيهم السحرة والكهان، يقول قس بن ساعدة^(٣):

علم النجوم على العقول وبال	وطلابُ شيءٍ لا ينال ضلال
هيهات ما أحد بغامضِ فطنةٍ	يدري كم الأرزاق والآجال
إلا الذي فوق السماء مكانه	فلوَجَّهه الإكرام والإجلال ^(٤)

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٨٦

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١ / ١٤٣

(٣) هو قس بن ساعدة بن عمرو، من بني إياد، أحد حكماء العرب في الجاهلية، وأحد خطبائهم. كان أسقف

نجران، توفي سنة ٢٣ قبل الهجرة. انظر: البداية والنهاية (٢/٢١٤)، و بلوغ الأرب (٢/٢٤٤).

(٤) انظر: المحاسن والمساوي للبيهقي ص ٣٢٧، التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام للمشعبي ص ٢٠٧.

ولعل من أبرز جوانب فساد السحرة ما يلي:

أولاً: فسادهم في أنفسهم:

فلسحرة طرق قبيحة لا يتوصلون إلى مرتبة عالية من السحر؛ إلا من خالها، فهذه الطرق لا تتأتى لهم أبداً؛ حتى يتقربوا من الشياطين.

"ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين؛ كان سحره أقوى وأنفذ، ولهذا كان سحر عباد الأصنام، أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام"^(١).

فلا بدّ للساحر أولاً؛ أن يستعيد من الجن، كما كان يفعل أهل الجاهلية.

وشبيه هذا في كتاب الله قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. قال ابن تيمية: "كان الرجل من الإنس يتزل بالوادي والأودية مظان الجن، فإنهم يكونون بالأودية أكثر مما يكونون بأعالي الأرض، فكان الإنسي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فلما رأت الجن أن الإنس تستعيد بها؛ زاد طغيانهم وشرهم، وبهذا يجيئون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم، فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه، فيحصل لهم بذلك من الرئاسة والشرف على الإنس؛ ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سُؤْلهم، لاسيما وهم يعلمون أن الإنس أشرف منهم، وأعظم قدرًا، فإذا خضعت الإنس لهم، واستعادت بهم؛ كان بمتزلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليقضي له حاجته... والإنسان إذا فسدت نفسه، أو مزاجه؛ يشتهي ما يضره ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقًا يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله، والشيطان هو نفسه خبيث، فإذا تقرب صاحب العزائم والأقسام وكتب الروحانيات السحرية، وأمثال ذلك إليهم بما يجبونه من الكفر والشرك؛ صار ذلك كالرشوة والبرطيل^(٢) لهم. فيقضون بعض أغراضه، كمن يعطي غيره مالا ليقتل له من يريد قتله، أو يعينه على فاحشة، أو ينال معه فاحشة.

ولهذا كثير من هذه الأمور يكتبون فيها كلام الله بالنجاسة - وقد يقلبون حروف كلام الله

(١) بدائع الفوائد ٤٦٠/٢

(٢) البرطيل: بالكسر، حجر أو حديد طويل صلب خلقة، ليس مما يطوله الناس ولا يُحدِّدونه تُنقر به الرّحى، والجمع براطيل، والبرطيل في الأساس الرشوة، وقد قيل: البراطيل تُنصَّر الأباطيل، وفي القاموس: برطلة فتبرطل: رشاه فارتشى. انظر: تاج العروس للزبيدي ٧٥/٢٨، لسان العرب ٤٧١/٧ مادة (برطل).

عز وجل، إما حروف الفاتحة، وإما حروف (قل هو الله أحد)، وإما غيرهما - إما دم وإما غيره، وإما بغير نجاسة، أو يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان، أو يتكلمون بذلك. فإذا قالوا أو كتبوا ما يرضاه الشياطين، أعانتهم على بعض أغراضهم؛ إما تَعْوِير ماء من المياه، وإما أن يُحمل في الهواء إلى بعض الأمكنة، وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس، كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين، ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتي به، وإما غير ذلك" (١).

ويؤكد عظم فسادهم؛ اتصاهم بالشياطين:

فقد أخبر عنه ربنا في قوله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقد تواتر النقل عن بحث أحوال السحرة، في إثبات علاقة بين السحرة والشياطين، فالسحرة يتقربون إلى الشياطين بما يجنون من العقائد الفاسدة، والأعمال الضالة، وأكل المحرمات والخبائث، فتعينهم الشياطين على مقاصدهم.

قال الألوسي: "ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان، بارتكاب القبائح قولاً؛ كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان، وتسخيره، وعملاً؛ كعبادة الكواكب، والتزام الجناية وسائر الفسوق، وإعتقاداً؛ كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبتة إياه، وذلك لا يستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط التضام والتعاون، فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أختيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخيانة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً" (٢).

وقد قال تعالى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]

أي: كذوب في قوله، وهو الأفَّاك الأثيم، الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين، كالكهان وما جرى مجراه من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة، فهم ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهُمْ كِذْبًا﴾ [الشعراء: ٢٢٣] أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من

(١) مجموع الفتاوى ٣٣/١٩

(٢) روح المعاني ٣٣٨/١

الإنس فيتحدثون بها، فيصدّقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال: "إنهم ليسوا بشيء"، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني، فيقرّرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائه كذبة"^(١).

ففي هذا، دلالة على أن للشياطين أولياء من بني آدم، وأنه كلما زاد كفر الآدمي، وزاد قربه من الشياطين؛ فإن الشياطين تتحول إلى خدمته^(٢).

ولذا كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا - وهم اليهود - من أكثر الناس ممارسة للسحر^(٣)، قال تعالى في وصفهم ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرِيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرُوا سُلَيْمَانَ ۖ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا بِالنَّاسِ السَّحَرِ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴿البقرة: ١٠١، ١٠٢﴾].

قال السعدي: "ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية؛ أن من ترك ما ينفعه وأمكنه الانتفاع به، فلم ينتفع؛ ابتلى بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن؛ ابتلى بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه؛ ابتلى بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله؛ أنفق في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه؛ ابتلى بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلى بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود؛ لما نبذوا كتاب الله؛ اتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان عليه السلام، بل نزهه الصادق في قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ۗ أَي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا﴾ بذلك... فهؤلاء اليهود يتبعون

(١) أخرجه البخاري. كتاب التوحيد. باب قراءة الفاجر والمنافق. ح(٧١٢٢)، ومسلم. كتاب السلام. باب تحريم الكهانة ح(٢٢٢٨)

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٣٥٤

(٣) لئن سبق بيان جملة من مفاسد اليهود؛ فإن الإشارة هنا إلى فسادهم في هذا المسلك أظهر، لوقوع السحر منهم ومن غيرهم.

السحر الذي تُعلمه الشياطين، والسحر الذي يُعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكلُّ يصبو إلى ما يناسبه" (١).
ولم يكتف هؤلاء الأشرار بالتشيع على نبي الله سليمان عليه السلام، بل أرادوا قتل نبينا محمد صلى الله عليه وآله باستخدام السحر (٢).

ومن فساد السحرة:

منازعتهم لله تعالى في علم الغيب، والنفع والضرر، فإن آيات القرآن الكريم تثبت علم الله تعالى للغيب، وتنفيه عما سواه؛ مما يدل على أنه من خصائص ربوبيته عز وجل، قال تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وفي آية النمل ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ولا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولكن الله تعالى يكشف ما شاء من غيبه لمن شاء من عباده، كما قال تعالى ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣) إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُولِي فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].
كما أن النفع والضرر من الله تعالى، لا يملكهما أحد من الخلق؛ مهما علت منزلته، أو عظمت قوته، أو كثر جمعه، قال تعالى ﴿وَإِنْ يَمَسُّكُ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وكل طريق يتوصل بها إلى علم الغيب، أو يزعم صاحبها أنه ينفع الناس، أو يضرهم؛ فهي طريق ضلال وشرك بالله تعالى، ومنازعة له سبحانه في ربوبيته، وصاحبها يسعى في تعبيد البشر لغير ربهم وخالقهم ومدبرهم جل جلاله.
ولا ريب أن من أعظم ما يُخِلُّ بهذين الأصلين العظيمين وينقضهما: السحر والتنجيم، والكهانة والعرافة، وقراءة الكف والفتجان، ومعرفة الحظ، والخط بالرمل، والضرب بالحصى، ونحو ذلك، مما يقوم به دجالون، يفسدون عقائد الناس، ويسلبون أموالهم، ويزرعون الشكوك والوساوس في قلوبهم، ويخرجونهم من نعيم الإيمان والطمأنينة، إلى شقاء الشكوك والظنون.

ومدَّعو علم الغيب والنفع والضرر من السحرة والكهان، موجودون في القديم وفي الحديث، ويحتالون على الناس بشتى الوسائل لنشر باطلهم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٥

ومن فسادهم:

ما أخبر عنه سبحانه بقوله ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

"أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة؛ أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله: قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت" (١).

"وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر؛ ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق، أو نحو ذلك، أو عقد، أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة" (٢).
"وفي هذه الآية وما أشبهها؛ أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير؛ فإنها تابعة للقضاء والقدر؛ ليست مستقلة في التأثير" (٣).

ومما يظهر فساد السحرة وكيدهم؛ تكرار حديث القرآن الكريم عن سحرة فرعون، وفي ثنانيا هذه القصة؛ تبرز مكيدة أهل الفساد بأهل الحق ودعاة الإصلاح، وجُرم صنيع السحرة المفسدين، بأهل الإيمان والدين.

فقد زعم الطاغية فرعون أن الآيات البينات التي آيد الله بها موسى عليه السلام ما هي إلا سحر أراد به إخراجهم وقومه من أرضهم ﴿قَالَ أَجئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧، ٥٨]، فاستخدم السحر أداةً لصد دعوة موسى عليه السلام.

كما يظهر من سياق القصة؛ أن حب الدنيا قد تمكن من قلوب السحرة حتى سيطر عليها، حيث أخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام،

(١) أخرجه مسلم. كتاب صفة الجنة والنار. باب تحريش الشيطان وبعثه. ح (٢٨١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ١٤٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦١

فوعدهم ومناهم إن غلبوه؛ ليشينهم وليعطينهم عطاءً جزياً، ويجعلنهم من جلسائه والمقرين عنده، وما ذاك إلا ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى، فلما توثقوا من فرعون، ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فهذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام، كما جاء في الآية الأخرى ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ لَقِيَ﴾ [طه: ٦٥] فقال لهم موسى عليه السلام ﴿الْقَوْمَ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجتهم ومحالمهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له، والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان^(١).

ولذا صدع موسى بالحق ليدمغ به الباطل ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

قال ابن عاشور: "وإنما كان السحرة مفسدين؛ لأن قصدهم تضليل عقول الناس؛ ليكونوا مسخرين لهم، ولا يعلموا أسباب الأشياء، فيبقوا آلة فيما تأمرهم السحرة، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً، أما السحرة الذين خاطبهم موسى عليه السلام فإفسادهم أظهر، لأنهم يحاولون إبطال دعوة الحق والدين القويم، وترويج الشرك والضلالات"^(٢).

وهكذا يتبين أن من أعظم سبلهم في صدّ الناس عن الحق: تعليق قلوبهم بغير الله تعالى، وصرفهم إلى الخرافات والشعوذات التي يقوم بها السحرة والكهان والمنجمون والعرافون، فيخدعون بها من رقق دينهم، وضعفت عن إدراك الحقائق عقولهم، فلم يعودوا يميزون بين ما يضرهم وما ينفعهم، ولا يدركون من يصدق معهم ممن يكذب عليهم.

بيد إن البلية العظمى: أنهم في هذا الزمن استطاعوا الوصول إلى الناس في بيوتهم، فمع تطور وسائل الاتصال زادت نسبة خداعهم الناس، والكذب عليهم، والاستخفاف بعقولهم، وإفساد عقائدهم، بزعم إيجاد حلول سريعة لمشاكلهم، عن طريق السحر والكهانة والشعوذة، وقد ازدهرت سوق ترويج السحر والكهانة، حتى بلغت مبيعات كتبها أرقاماً قياسية، وبعض الصحف في بعض الدول الإسلامية

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٢٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ١١/٢٥٧.

أرباحها الكبرى من موارد إعلانات السحر الشعوذة^(١).

ولما تطور البث الفضائي، وتيسر الحصول عليه؛ استغل ذلك من يتاجرون بآلام الناس ومصائبهم، فبرزوا إليهم عبر الشاشات، في قنوات فضائية خُصت للشرك بالله تعالى، وعبادة الشياطين، وكُرسَت برامجها للسحر والشعوذة والكهانة، يدَّعي ضيوفها علم الغيب، وامتلاك النفع والضرر، ويمارسون سحرهم وكهانتهم وتنجمهم على الملأ، والمقدمون لهم؛ ينعونهم بالعلم والولاية والمشيخة، ويخلعون عليهم ألقاب التبجيل والوقار، ويزعمون أنهم إنما كرسوا أوقاتهم لخدمة الناس، وحل مشاكلهم، وإزالة همومهم وغمومهم!!

إن أكبر سبب للإقبال على السحرة والشعوذة، هو ضعف الإيمان بالله تعالى، وسوء الظن به، والاعتماد على غيره، ثم إن الظروف المعيشية الضاغطة على الناس، ومحبتهم للشراء السريع، واستبداد الجشع بهم، وخوفهم من المستقبل المجهول، وإقبالهم على الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة، قد أدى بكثير منهم إلى الخوف والاضطراب والقلق، فأتاهم أبالسة الناس من نقطة الضعف هذه، فأوردوهم مهالك لم تُزلْ همومهم، ولا حلت مشاكلهم، ولكنها استترفت أموالهم، وأفسدت عقائدهم، فلا أصلحوا لهم دنياهم، ولا أبقوا لهم دينهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "قبول المحل لما يوضع فيه؛ مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل باعتقاداً ومحبة؛ لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع.."، إلى أن قال: "وسر ذلك: أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله؛ لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته.."^(٢).

ولا يشك عاقل في أن هذه القنوات التي تبث السحر والكهانة، تفرغ قلوب مشاهديها والمتصلين بها من محبة الله تعالى، والتعلق به، إلى التعلق بشياطين الإنس

(١) نُشرت إحصاءات ودراسات حول هذه القضية في عدة صحف منها: صحيفة الوطن السعودية في ١٨/٦/٢٠٠٣،

وجريدة الحياة في ٢٩/٦/٢٠٠٣، وفي ١٥/٨/٢٠٠٥، وصحيفة المغربية اليومية في ١٦/٥/٢٠٠٧.

(٢) الفوائد لابن القيم ص ٢٩.

في سحرهم وشعوذاتهم، وربطهم بشياطين الجن، فيرجون نفعهم، ويخافون ضرهم.
والله تعالى يقول ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩]، فإذا كان الساحر لم يفلح في نفع نفسه،
حتى إن السحرة هم من شر الناس حالاً ومالاً، وواقعهم يدل على ذلك، فكيف يفلح في
نفع غيره؟ نعوذ بالله تعالى من الهوى والردى.

المطلب السادس: البغاة والمخاربون.

البغي في اللغة، يقال: بغى الشيء يبغيه بُغَاءً وَبُغْيًا: أي طلبه وابتغاه، والبُغْيَةُ: الحاجة، وأبغني وأبغ لي: أي أعطني. والبُغْيَةُ في الولد: نقيض الرشد، وَبَعَتِ الْأُمَّةُ تَبْغِي بَعْيًا وَبِغَاءً، وهي بَغِيٌّ: عهرت وزنت، وقيل: البَغِيُّ الفاجرة؛ حرّة كانت أو أمة، ولا يقال للرجل: بَغِيٌّ. والبُغْيُ: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تجاوزه أو لم يتجاوزه، فتارة يعتبر في القدر، الذي هو الكميّة، وتارة يعتبر في الوصف، الذي هو الكيفيّة، يقال: بغيت الشيء إذا طلبت أكثر ما يجب، وابتغيت كذلك، قال تعالى ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ٤٨]، وقال تعالى ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

والبغي على حزين: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشبه، كما قال ﷺ "إنّ الحلال بين، وإنّ الحرام بين، وبينهما مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه"^(١).

ولأن البغي قد يكون محموداً ومذموماً، قال تعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]، فخصّ العقوبة ببيغيه بغير الحق. والبغي في أكثر المواضع مذموم. والفئة الباغية: الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام المسلم^(٢).

والبُغَاةُ في اصطلاح الفقهاء: هم الخارجون على الإمام يريدون إزالته عن منصبه، أو هم قوم لهم شوكة ومنعة خرجوا على الإمام بتأويل سائغ^(٣). والذي يظهر من التعريف، أنه يشترط في تحقيق مدلول الكلمة؛ أربعة صفات لحكم بكونهم بغاة^(١):

(١) أخرجه مسلم. كتاب المساقاة. باب أخذ الحلال وترك الشبهات. ح(١٥٩٩).

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٧٩/٨، المفردات للراغب ص ٥٥، لسان العرب ٧٥/١٤ مادة (بغا)

(٣) العدة شرح العمدة: ٨٤٥/٢، الروض المربع: ص ٤٩٨

- الأولى: أن يخرجوا عن جماعة المسلمين وإمامهم.
 - الثانية: أن يكونوا جماعة.
 - الثالثة: أن تكون لهذه الجماعة شوكة ومنعة وقوة.
 - الرابعة: أن يكون لهم تأويل سائغ.
- فإن اختلَّ شرط من هذه الشروط؛ بأن كانوا جمعاً يسيراً، أو لا شوكة لهم، أو لم يخرجوا بتأويل، أو خرجوا بتأويل غير سائغ فقطاع طريق^(٢).

معنى المحاربة:

المحاربون جمع محارب، مشتقة من حارب يحارب حِراباً، والحرب بسكون الراء، ضد السلم، وفتحتها: أن يُسلب الرجل ماله، يقال: حربته يحربه إذا أخذ ماله، وقيل: حرية الرجل ماله الذي يعيش به، ورجلٌ حربٌ ومحربٌ بكسر الميم ومحرابٌ؛ شديدُ الحرب شجاعٌ، والحربةُ الألةُ دون الرُمحِ وجمعها حِرابٌ، ودار الحرب بلادُ المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين.^(٣)

والحرابة في اصطلاح الفقهاء: الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمتنع المارة عن المرور وينقطع الطريق، سواء أكان القطع من جماعة أم من واحد، بعد أن يكون له قوة القطع، وسواء أكان بمباشرة الكل، أم التسبب من البعض بالإعانة والأخذ؛ لأن القطع يحصل بكل ما ذكر كما في السرقة، ولأن هذا من عادة قطاع الطرق.^(٤) وبه يظهر أن قُطَاعَ الطرق، قوم لهم منعة وشوكة، بحيث لا تمكن للمارة مقاومتهم، يقصدون قطع الطريق، بالسلاح أو بغيره.

وذهب جمهور الفقهاء، من اشتراط المنعة والقوة في المحاربين؛ لأن أخذ المال على سبيل

(١) اختلف الفقهاء في الشروط التي يجب توافرها في الباغي، وعلى الرغم من اختلاف عباراتهم في تحديد معنى الباغي، فأما تنفق في كون المبغي عليه هو الإمام الذي ثبتت إمامته، كما أنها تكاد تشترك في تحديد الغرض من الخروج، وهو الامتناع عن الانقياد بمنع حق لله، أو حق لأدمي توجه عليهم، أو لإرادة خلعه.

انظر: بدائع الصنائع: ١٤٠/٧، المغني والشرح الكبير ٥/١٠، مواهب الجليل: ٢٧٨/٦، مغني المحتاج: ٣٩٩/٥.

(٢) انظر: الروض المربع ٣/٣٣٥

(٣) انظر: لسان العرب ١/٣٠٢. مادة (حرب)

(٤) للحرابة تعريفات أخرى، لا تُخرج في مفهومها عن هذا المعنى. انظر: بدائع الصنائع ٧/٩٠، والمغني ٨/٢٨٦.

التحايل والمخادعة يعتبر اختلاساً، وقد نفى ﷺ القطع عن المختلس فقال "ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع"^(١)، فدل هذا على اعتبار المنعة في المحارب، ولا يشترط السلاح؛ لأن قطع الطريق يكون بقطع المارة، وهو يتحقق بالسيف وبغيره.^(٢) وقد استفاض الإمام القرطبي رحمه الله في ذكر أقوال فقهاء الإسلام، في تحديد المراد بجريمة الحراية والإفساد في الأرض، وفي عقوبتها مع مناقشتها^(٣).

الفرق بين الحراية والبغي:

الحراية جريمة تختلط بالبغي اختلاطاً كبيراً، لذا لا بدّ من التفريق بينهما، ويظهر ذلك فيما يأتي^(٤):

- أن الحراية والبغي يتشابهان في الخروج، إلا أنّهما يختلفان في المقصد، فالحراية القصد منها إخافة السبيل على المارة العاديين، أما البغي فالقصد من ورائه خلع الإمام، أو الخروج على طاعته، وينبغي على ذلك أن المحارب يهدف إلى أخذ المال، ولو أدى ذلك إلى قتل المأخوذ منه، أما الباغي فإنه يهدف أساساً إلى خلع الإمام، أو عدم طاعته، أو الامتناع عن أداء حق وجب عليه.
- أن البُغاة قوم لهم تأويل سائغ - سواء كان حقاً أو باطلاً - يخرجون به على الإمام، بُغية عزله، فإن خرجوا ولا تأويل لهم؛ فهم محاربون تسري عليهم أحكام الحراية.
- أن ما أتلّفه البُغاة أثناء حربهم مع أهل العدل لا يضمنون فيه شيئاً من مال أو غيره؛ لأنّ في إسقاط الضمان ترغيباً لهم في الرجوع إلى الحق، وفي تضمينهم تنفير لهم عن هذا الرجوع، أما المحاربون فما أتلّفوه أثناء الحراية مضمون عليهم.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في الخائن والمختلس والمنتهب ح (١٤٤٨)، وقال فيه "هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم"، والنسائي في السنن الكبرى: كتاب قطع السارق، باب ما لا قطع فيه، ح (٧٤٦٢)، قال ابن حجر: "هو حديث قوي، صححه أبو عوانة والترمذي وقد اجمعوا على العمل به." انظر: فتح الباري: ٩٤/١٢.

(٢) انظر: المغني والشرح الكبير: ١٠/١٤٥، الروض المربع. ص ٤٩٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/١٤٨.

(٤) انظر: جريمة قطع الطريق وأثرها في تشديد العقوبة، د. محمد إسماعيل أبو الريش. ص ٣٩.

- أن البُغاة لا بد أن تكون لهم شوكة ومنعة، يخرجون بها على الإمام، أما المحارِبين فهم قوم يخرجون على أفراد من الناس بُغية أخذ أموالهم وانتهاك حرمتهم.
- أن العقوبة المترتبة على الحُرابة متنوعة، وهذا ثابت بنص آية الحُرابة، أما العقوبة المترتبة على فعل البغي فهي القتل فقط.

وقد جاء النهي عن البغي في جملة من أمهات الكبائر، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا تُمَّ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال سبحانه ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وعليه، فلا ريب أن البُغاة والمحارِبين من جملة المفسدين، فإن الله تعالى ذكر عقوبة هاتين الفئتين، وفصل الحكم المتعلق بهما.

قال تعالى في شأن البُغاة ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَعَنَيْتُمَا الَّتِي بَغَتْ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [١] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

قال السعدي: "وفي هاتين الآيتين من الفوائد: أن الاقتتال بين المؤمنين؛ مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال، كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح، بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البُغاة، حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا، لغير أمر الله، بأن يرجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم" (١).

قال البغوي: "وفي هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين، يدل عليه ما روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام سئل - وهو القدوة - في قتال أهل البغي، عن أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال: لا من الشرك فروا، فقيل: أمناقون هم؟ فقال: لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٠١

قال: إخواننا بغوا علينا"^(١).

والبغاة ليسوا سواء، بل هم أصناف^(٢)، ومن أصنافهم الخوارج الذين قال فيهم النبي ﷺ "يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"^(٣)، وقال ﷺ "يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة"^(٤).

ومما ينبغي قبل قتال البغاة^(٥)، أن يدعوهم الإمام إلى العودة إلى الجماعة، والدخول في الطاعة، رجاء الإجابة وقبول الدعوة، لعل الشر أن يندفع بالتذكرة، لأنه تُرجى توبتهم، ويسألهم عن سبب خروجهم، فإن كان لظلم منه أزاله، وإن ذكروا علة يمكن إزالتها؛ أزالها، وإن ذكروا شبهة كشفها، لأن الله تعالى بدأ الأمر بالإصلاح قبل القتال، فقال سبحانه ﴿وإن طائفتان من المؤمنين أفقتلوا فأصلحوا بينهما﴾ [الحجرات: ٩]، ولأن المقصود دفع شرهم، لا قتلهم، وإن أصروا على دعواهم، حاول إرسال أميناً ناصحاً لدعوتهم، نصحهم بوعظ؛ ترغيباً وترهيباً، وحسن لهم جمع الكلمة، وعدم شماتة الكافرين، كما أرسل علي ابن عباس ﷺ إلى الخوارج، ليدعوهم إلى العدل، فناظرهم ابن عباس ﷺ، وأزال الشبهات الموجودة عندهم بالحجة البالغة، والدليل القاطع، فرجع منهم كثير، وأما الذين أصروا على العناد والمقاتلة، فقاتلهم علي ﷺ^(٦).

(١) معالم التنزيل ٣٤١/٧، وأثر علي ﷺ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٧٣/٨ ح (١٦٤٩٠)، ومصنف ابن أبي شيبة. كتاب الجمل وصفين والخوارج في مسير عائشة وعلي وطلحة والزبير. ٥٣٥/٧. ح (٣٧٧٦٣).

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ٥٨/١٠

(٣) أخرجه البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب إثم من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به. ح (٤٧٧١)،

ومسلم. كتاب الزكاة. باب ذكر الخوارج وصفاتهم. ح (١٠٦٤)

(٤) أخرجه البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب إثم من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به. ح (٤٧٧٠)

(٥) أفرد الفقهاء في كتبهم، باباً في الأحكام المتعلقة بالبغاة، انظر مثلاً: كشاف القناع للبهوتي ١٥٨/٦، والمغني ٥٨/١٠.

(٦) السنن الكبرى للنسائي. كتاب الخصائص. ذكر مناظرة ابن عباس الحرورية. ح (٨٣٠٦)، والطبراني في المعجم

الكبير، ح (١٠٤٠٩)، وعبدالرزاق في المصنف. كتاب اللقطة. باب ما جاء في الحرورية. ح (١٨٠٠٨)، والحاكم

في المستدرک. كتاب قتال أهل البغي. ح (٢٦٥٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

فإذا أصرَّ هؤلاء البغاة على حرب الإمام الحق، وأبوا من الرجوع والصُّلح؛ قوتلوا، ولا يقتل أسيرهم، ولا يتبع مدبرهم، ولا يذفف^(١) على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم ولا أموالهم.^(٢) ويجب على الناس معاونة الإمام على قتلهم، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "من أتاكم وأمركم على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه" وفي رواية "إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع فاضربوه بالسيف، كائناً من كان"^(٣). وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه ما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "من أعطى إماماً صفقة يده، وثمره فؤاده، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه؛ فاضربوا عنقه الآخر"^(٤). ولا ريب أن بالناس حاجة إلى إمام تجتمع به كلمتهم، لحماية المجتمع، والذب عن الحوزة^(٥)، وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ويجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس، من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا الدنيا؛ إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم"^(٦)، فأوجب رضي الله عنه تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ويقال: ستون سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة بلا سلطان. والتجربة تبين ذلك"^(٧).

(١) ذيفُ الجريحُ الإجهازُ عليه وتَحْرِيرُ قَتْلِهِ . لسان العرب ١١٠/٩ مادة (ذذف)

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦٧/١٦.

(٣) أخرجه مسلم . كتاب الإمارة. باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع، ح(١٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الإمارة. باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. ح(١٨٤٤).

(٥) الحوزة: الناحية، وحوزة الرجل ما في ملكه، وحوزة الإسلام حدوده ونواحيه. انظر: المعجم الوسيط ٢٠٦/١

(٦) أخرجه أبو داود. كتاب الجهاد. باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم. ح(٢٢٥٦)، والبيهقي في السنن الكبرى. جماع

أبواب آداب السفر. باب القوم يؤمرون أحدهم إذا سافروا. ح(٩٧٢٢)

(٧) السياسة الشرعية ص ١٣٧.

وأما الحراية؛ فهي من كبائر الذنوب بدلالة الكتاب العزيز، قال تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد اختلف العلماء فيمن نزلت فيه آية الحراية، على أربعة أقوال^(١):

- أحدها: أنها نزلت في ناس من عرينة، قدموا المدينة فاجتووها^(٢) فبعثهم رسول الله ﷺ

في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، وارتدوا عن

الإسلام، وقتلوا الراعي، واستاقوا الإبل، فأرسل ﷺ في آثارهم، فجيء بهم فقطع

أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمر أعينهم، وألقاهم بالحرّة، حتى ماتوا^(٣).

- والثاني: أن قوماً من أهل الكتاب كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا

العهد، وأفسدوا في الأرض، فخيّر الله رسوله بهذه الآية، إن شاء أن يقتلهم، وإن شاء

أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

- والثالث: أن أصحاب أبي بردة الأسلمي ﷺ، قطعوا الطريق على قوم جاؤوا يريدون

الإسلام، فنزلت هذه الآية.

- والرابع: أنها نزلت في المشركين.

وأياً كان سبب النزول، فالآية عامة في كل من أخاف السبيل، وقطع الطريق، وسعى في

الأرض فساداً، لبيان عقوبته، واختار ذلك ابن كثير وجماعة^(٤).

فالآية بعمومها؛ تتناول كل من أجرم جرائم الحراية، سواء كان من المسلمين أم من غيرهم،

فيحكم عليه بموجب حكمها.

وفيها؛ بيان أحكام الحراية وأنواع قطع الطريق وعقوباتهم، وأخذ منها الفقهاء فوائد:

قال الإمام الحصص^(١): أطلق الله - سبحانه وتعالى - على قطع الطريق محاربي لله تعالى

ورسوله ﷺ، للأموار التالية:

(١) انظر: زاد المسير ٣٤٣/٢.

(٢) اجتووها: أي لم يوافقهم طعامها، قال ابن العربي: داء يأخذ من الوباء، وفي رواية أخرى (استوخموا) وهو بمعناه،

وقيل داء يصيب الجوف. انظر: تحفة الأحوذى ٢٠٣/١

(٣) سبق تخريجه. انظر ص ٣٠

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٩/٢

- أنه سُمِّي الذين يخرجون ممتنعين مجاهرين بإظهار السلاح وقطع الطريق محاربين؛ لما كانوا بمنزلة من حارب غيره من الناس ومانعه، فسمّوا محاربين تشبيهاً لهم بالمحاربين من الناس، كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٥]، ومعنى المشاققة: أن يصير كل واحد منهما في شقٍّ يباين صاحبه، ومعنى المحادّة: أن يصير كل واحد منهما في حدٍّ على وجه المفارقة، وذلك يستحيل على الله تعالى.

- يحتمل أن يكونوا سمّوا بذلك؛ تشبيهاً بمظهري الخلاف على غيرهم، ومحاربتهم إياهم من الناس، وخُصت هذه الفرقة بهذه السّمة؛ لخروجها ممتنعة بأنفسها؛ لمخالفة أمر الله تعالى، وانتهاك الحرم وإظهار السلاح، ولم يُسم بذلك كل عاص لله تعالى؛ إذ ليس بهذه المنزلة في الامتناع، وإظهار المغالبة في أخذ الأموال وقطع الطريق.

- ويحتمل أن يريد الذين يحاربون أولياء الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، والمعنى: يؤذون أولياء الله، ويدل على ذلك أنهم لو حاربوا رسول الله ﷺ لكانوا مرتدين بإظهار محاربة رسول الله ﷺ.

قال القرطبي: "وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر؛ لأن فيها سدّ سبيل الكسب على الناس؛ لأن أكثر المكاسب وأعظمها التجارات، ورُكنها وعمادها الضرب في الأرض، كما قال عز وجل ﴿وَأَخْرُونَ بَصْرِيَّةً فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الزّمل: ٢٠]، فإذا أحيى الطريق؛ انقطع الناس عن السفر، واحتاجوا إلى لزوم البيوت؛ فانسد باب التجارة عليهم، وانقطعت أكسابهم، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلظة، وذلك الخزي في الدنيا، وردعاً لهم عن سوء فعلهم، وفتحاً لباب التجارة التي أباحها لعباده لمن أرادها منهم".^(٢)

إن العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات، بغياً على الإنسان في دينه وعقله وماله وعرضه، ويشمل صنوف التخويف والأذى والتهديد والقتل بغير حق، وما يتصل بصور الحرابة وإحافة السبيل وقطع الطريق، وكل فعل من أفعال العنف أو التهديد، يقع تنفيذاً لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم أو

(١) أحكام القرآن للجصاص ٥١/٤

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٧/٦

تعريض حياتهم أو حریتهم أو أمنهم أو أحوالهم للخطر، ومن صنوفه إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق والأماكن العامة، أو الخاصة، أو تعريض أحد الموارد الوطنية أو الطبيعية للخطر؛ فكل هذا من صور الفساد في الأرض التي نهى الله تعالى المسلمين عنها بقوله ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] (١).

وذلك من أكبر الجرائم في نظر الشرع، ومن أجل ذلك أغلظ الله العقوبة على من يجترف هذه الجريمة ويسلك سبيلها، لأن فعله مهما كان؛ فإنه لن يخرج عن كونه فساداً في الأرض.

ويكمن خطر هذا الصنف من المفسدين على الأمن العام، بما تشتمل عليه أعمالهم من إدخال الرعب والخوف على النفوس، بصورة غير محددة.

ورعاية الأمن العام، من المصالح العامة، ومواجهة الحراية وردع المحاربين، من الواجبات التي تلزم ولاية الأمور، وعلى عامة المسلمين أن يكونوا من ورائهم في تحقيق ذلك الواجب. قال القرطبي رحمه الله: "وإذا أخاف المحاربون السبيل وقطعوا الطريق، وجب على الإمام قتالهم... ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين". وقال: "وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليّ من حارب، فإن قتل محارب أخ امرئ أو أباه، في حال المحاربة، فليس إلى طالب الدم من أمر المحارب شيء، ولا يجوز عفو ولي الدم، والقائم بذلك الإمام، جعلوا ذلك بمنزلة حدّ من حدود الله تعالى" (٢).

والذي عليه أكثر أهل العلم، أن عقوبة المحاربين الواردة في الآية، كالآتي (٣):

- إذا قتلوا وأخذوا المال؛ قتلوا وصلبوا.
- وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال؛ قتلوا ولم يصلبوا.
- وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا؛ قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.
- وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً؛ نفوا من الأرض.

(١) انظر: قرار مجمع الفقه الإسلامي في دورته ١٦ المنعقدة في: ٢١-٢٧ شوال ١٤٢٢هـ

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١٥٥.

(٣) السياسة الشرعية ص ٦٦

"وقتل هؤلاء أوكد من قتال الطوائف الممتنعة عن شرائع الإسلام، فإن هؤلاء قد تحزبوا لفساد النفوس والأموال، وهلاك الحرث والنسل"^(١).

قال السعدي: "وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات، وأجلّ الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض"^(٢).

والتوبة في الحراية تجب ما قبلها، فإذا تاب المحارب قبل قدرة السلطان عليه، بأن يأتي إلى الحاكم عن طوع واختيار، ويظهر التوبة عنده، صح ذلك وقبل منه، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

ومفهوم الآية؛ ألا يسقط عنه شيء بالتوبة بعد الظفر عليه، لأن الظاهر أن التوبة قبل ذلك توبة إخلاص، ولترغيبه في التوبة، وبعده الظاهر أنها تقية من إقامة الحد عليه، ولا حاجة لترغيبه في التوبة؛ لأنه قد عجز عن الفساد والمحاربة^(٣).

ولا يسقط عنه حقوق الناس الشخصية؛ كحدّ القذف والقصاص وضمن الأموال، إذ لا دليل على إسقاطها، وكذلك اتفق الفقهاء على إسقاط عقوبة الباغي - وهي القتل - بالتوبة؛ لأن القصد من عقابه توفير الطاعة والولاء والعدول عن البغي^(٤).

(١) السياسة الشرعية ص ١١٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٠

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص: ٢/ ٣١٤، أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٦٠، المغني لابن قدامة: ٨/ ٢٩٥، السياسة الشرعية لابن تيمية: ص ٦٨.

(٤) انظر: مغني المحتاج: ٤/ ١٢٧، المغني لابن قدامة ٨/ ١١٤.

المطلب السابع: الكبرياء والأثرياء.

أبرز القرآن هذا الصنف من المفسدين بأعيانهم، وبيان صفاتهم، وذكر الأثر المترتب على فسادهم.

والمقصود في هذا المبحث كشف المفسدين من الكبرياء والأثرياء، لا أن الكبرياء والأثرياء كلهم مفسدون، فإن الشرع لم يذم الجاه والثراء لذاته، بل لما يقترفه من فتنٍ بهما من فساد. وإلا فإن من أكابر الناس وأثريائهم، من هم على خير وهدى وصلاح وتقى.

لقد منّ الله تعالى على دواد وسليمان عليهما السلام وهم من الرسل الأبرار، والمصطفين الأخيار، فاتاهما الملك والحكم والنبوة، قال سبحانه عن داود ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] ومن في البشر من أتى ملك سليمان عليه السلام وقد دعا ربه فقال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وقال على يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

إلا أن الشكور من عباد الله قليل، كما قال تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ولقد كان من سنن الله تعالى في خلقه، أن يكون بعضهم فوق بعض، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى ﴿لَنْ نَجْعَلَ لَكُمُ الْيَتِيمَ فِي الْيَتَامَىٰ وَنَجْعَلَ لَكُمُ الْوَارِثَ فِي الْوَارِثَاتِ﴾ [الزخرف: ٣٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: "جاءت الشريعة بصرف السلطان والمال في سبيل الله، فإذا كان المقصود بالسلطان والمال؛ هو التقرب إلى الله، وإنفاق ذلك في سبيله، كان ذلك صلاح الدين والدنيا، وإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان؛ فسدت أحوال الناس، وإنما يمتاز أهل طاعة الله، عن أهل معصيته، بالنية والعمل الصالح، كما قال النبي ﷺ "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم"^(١).

ولما غلب على كثير منهم إرادة المال والشرف، صاروا بمعزل عن حقيقة الإيمان، وكمال

(١) أخرجه مسلم. كتاب البر والصلة. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. ح(٦٧٠٧).

الدين، ثم منهم من غلب الدين وأعرض عما لا يتم الدين إلا به من ذلك، ومنهم من رأى حاجته على ذلك، فأخذه معرضاً عن الدين، لاعتقاده أنه منافٍ لذلك، وصار الدين عنده في محل الرحمة والذل، لا في ملح العلو والعز.^(١)

ولئن كان عامة المفسدين من الكبراء والأثرياء؛ من جملة المكذبين، إلا أن القرآن الكريم كشف هذا الصنف، وخصّه بمزيد بيان، وما ذاك إلا ليتجلى الفساد العريض للمفتونين بالجاه والمال.

فمن فسادهم ما أخبر عنه تبارك وتعالى بقوله ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

أي: كما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصدّ عن سبيل الله، كبر جرمهم، واشتد طغيانهم، كذلك كانت الرسل من قبلك يُتَلَوْنَ بذلك، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. فلا يكاد الإجماع ينفك عن عليّة القوم وكبرائهم، وذلك لأن اتباعهم للرسول يلزم منه تخليهم عن كثير من حظوظهم ونزواتهم.

وهذا المكر بالخدعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل واتباعهم، بالقول والفعل، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢].

بل قد جاء الدليل واضحاً على أن مكرهم، هو الأمر بالكفر، كما في المجادلة بينهم وبين الضعفاء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتَضَعُّوْا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

وفي موضع آخر؛ اعترفوا بأن طاعتهم للكبراء هي سبب ضلالهم، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. وهذا ظاهر الدلالة في أن هؤلاء السادة والكبراء؛ ما كانوا يأمرهم بالخير أبداً، بل كانوا يأمرهم بالكفر والعصيان، وردّ دعوة الرسل، وهذا الذي أحلهم دار البوار؛ فأرادوا أن يشتفوا منهم، فقالوا ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].^(٢)

(١) انظر: السياسة الشرعية ص ١٤٠

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/٤٨٤، تيسير الكريم الرحمن ص ٦٧٣

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا بردّ الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤَقِّقَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعُجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجّر على فضل الله وإحسانه. فردّ الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهو أعلم - سبحانه - حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه^(١).

ولذا كان استعلاؤهم على دعوة النبي ﷺ إذ لم يكن - بزعمهم - في مكاتبتهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزُّحُرْف: ٣١]، أي: هلاً كان إنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم، من أهل مكة والطائف!

"وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول ﷺ بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا هُزُواً هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

فردّ الله تعالى عليهم في هذا الاعتراض بقوله ﴿أَهْمَرِيقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزُّحُرْف: ٣٢]. أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا يتزها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً^(٢).

وكان إباؤهم على الجلوس عند النبي ﷺ، حيث رفضوا الإذعان لدعوته، لأن أراذل الناس - زعمهم - سبقوهم إلى ذلك.

قال الشنقيطي: "لقد أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسل ضعفاء الناس، ولما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان ﷺ عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشرف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل^(٣).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم/٣٣١، تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٢

(٢) تفسير القرآن العظيم/٢٢٦/٧

(٣) أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. ح(٧)، ومسلم. كتاب الجهاد والسير. باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام. ح(٤٧٠٧).

فإذا عرفت ذلك، فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك؛ فتنة بعض الناس ببعض، فإنَّ أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير؛ لما سبقنا إليه هؤلاء؛ لأننا أحق منهم بكل خير، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، فهذا إنكار منهم أن يمنَّ الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد ردَّ الله قولهم هنا بقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر، كقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ١١]، وقوله ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، فهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل، ومتاعاً من ضعفاء المسلمين، اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير، وأن أتباع الرسول ﷺ لو كان خيراً ما سبقوهم إليه، وردَّ الله افتراءهم هذا بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ [مريم: ٧٤].^(١)

ومن قبل قال قوم نوح لنبيهم ﴿مَا نُرَبِّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نُرَبِّكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن كَفُرُوا إِلَّا فِي سَبِيلِنَا وَمَا نُرَبِّكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَنَرُّوهُمْ كَمَا نُؤَدُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١١]. وقالوا في اعتراض ساحر ﴿أَنْتُمْ مِنْ لَدُنَّا وَأَنْتُمْ لَنَا كَذِبٌ أُولَىٰ وَآبَاءُ آبَائِنَا لَكَ كُذِبٌ أُولَىٰ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف أو الأرذال، بل الحق الذي لا شك فيه؛ أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه؛ هم الأرذال، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثِرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقولهم ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، بل لا بدَّ من اتباع الحق والحالة هذه، لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكر هاهنا إلا غبي أو عيبي^(٢).

لقد زعم سادة المشركين؛ أنه لولا أن من المؤمنين ناساً أهل خصاصة في الدنيا، وأرقاء لا

(١) أضواء البيان ١/ ٤٧٩

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٤٣

يدانهم، ولا يستأهلون الجلوس معهم، لآثوا إلى مجالسة النبي ﷺ واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله، إذا غشيه سادة قريش.

فقد أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مرّ الملاء من قريش بالنبي ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت هؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك! فلعلك إن طردتهم أن تتبعك! فأنزل الله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] ^(١).

بل أمر الله نبيه ﷺ بمجاهدة النفس على صحبة هؤلاء الضعفاء، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى، وحذرهم أن يجاوز ببصره إلى الدنيا ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن في ذلك من الضرر ما يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر ربه، ويقبل على لذاته وشهوته، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ^(٢).

لقد كان الضعفاء أقرب إلى الإيمان، لأن الدنيا لم تأسر قلوبهم، ولم تُعم بزينتها بصائرهم، أما أهل الجاه والثراء، فكثير منهم حجبهم حب الدنيا عن الطاعة والإيمان.

ومن أشهر الكبراء وأشدّهم طغياناً وكفراً، فرعون الذي حكى الله قصته مع موسى عليه السلام في مواضع عدّة من كتابه العزيز، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّهُمْ وَأَتَاءَهُمْ وَيَسْتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فقد بلغ في الاستعلاء ذروته، فعلا على رعيته، بل علا على وزرائه وخاصته، وعلا حتى على الله - عز وجل - فادّعى الألوهية، وهذا منتهى الاستعلاء والطغيان والتكبر.

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيه تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون، ذلك أن فعله

(١) جامع البيان ٣٧٤/١١

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٣٩/٨، تيسير الرحمن الكريم ص ٤٧٥.

هذا اشتمل على مفساد عظيمة^(١):

- التكبر والتجبر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفساد حجة، من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم.
- أنه جعلهم شيعاً وفرقتهم أقساماً، وجعل منهم شيعاً مقربين منه، وذلك فساد في الأمة، لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه.
- أنه استضعف طائفة من رعيته فجعلها محتقرة مهضومة الجانب، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به غيرها، والمراد بالطائفة: بنو إسرائيل.
- أنه أمر بذبح أبناءهم، وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم، حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.
- أنه استحى نساء بني إسرائيل، أي يستبقي حياة الإناث، ليصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمزلة تذيب الأبناء، إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

ولذا بين الله تعالى منته على بني إسرائيل بخلاصهم من طغيان فرعون، فقال ﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

ومن صور فساد الكبراء؛ إكراههم للناس على المعاصي، قال تعالى على لسان سحرة فرعون بعد أن صدعوا بإيمانهم في وجه فرعون ﴿إِنَاءَ مَا نَرَبِنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

فالأية دليل على أن فرعون أكره السحرة على تعلم السحر، حتى يقفوا في صفه لمعارضة الحق. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفرما^(٢)، وقال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد في الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنه ما: فهم من الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهم الذين قالوا ﴿إِنَاءَ مَا نَرَبِنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٠

(٢) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر. انظر: معجم البلدان للحموي ٤/٢٢٥.

خَطَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١﴾.

بل إن فرعون - قبل ذلك - أكره الناس على الكفر بالله تعالى، حتى إنه لم يؤمن بموسى منهم إلا قليل، قال تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: "كان إيمان من آمن من ذرية قوم موسى، على خوف من فرعون أن يفتنهم بالعذاب، فيصدّهم عن دينهم، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله" (٢).

ولم يكن هذا فعل فرعون وحده، بل هذه فعلة أكابر المجرمين، فقد روى صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه... الحديث، وفيه أن الغلام آمن بالله تعالى وكفر بدين الملك، فلما عزم الملك على قتله ولم يستطع، قال الغلام للملك: "إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني... ففعل؛ فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخذت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري فإنك على الحق" (٣).

فالحديث ظاهر الدلالة على أن الملك كان يستعين بالساحر على أمور ملكه، وأنه اختار هذا الغلام ليخلف هذا الساحر وأكرهه على تعلم السحر بعد ما تبين له أن أمر الراهب خير من الساحر، ثم إنه أكره الناس على الكفر بالله تعالى، وفي ذلك أنزل الله تعالى سورة البروج، وفيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٨٩/٩

(٢) جامع البيان ١٥١/١١

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الزهد والرقائق. باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام. ح (٣٠٠٥).

ومن صور الإكراه، ما مارسه المشركون مع المؤمنين المستضعفين في مكة من أذية وتعذيب، لصددهم عن الإيمان، فقد أخذ المشركون عمار بن ياسر رضي الله عنه فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كيف تجد قلبك؟" قال: مطمئناً بالإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: "إن عادوا فعد"^(١). ونزل قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال الطبري: ذكر أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، وقوم كانوا أسلموا، ففتنهم المشركون عن دينهم، فثبت على الإسلام بعضهم، وافتتن بعض. ومن فسادهم: ردّ الحق والإعراض عنه، إثارة للسلطة والمال، فقد قصّ الله تعالى خبر مؤمن آل فرعون وما وعظ به قومه قائلاً ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْنَا مِنْكُمْ أَبِيسَ اللَّهُ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، فقال فرعون معارضاً له في ذلك، ومغرراً لقومه أن يتبعوا موسى ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذي رأى؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له. وكذب في قوله ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا قلبٌ للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق الذي جاء به موسى عليه السلام؛ اتباع للضلال^(٢).

وظهر هذا أيضاً من هرقل عظيم الروم، حين أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام "فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكَرَةٍ^(٣) له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبائعوا هذا النبي؟ فحاصوا

(١) انظر: جامع البيان ١٤/١٨٢، والبيهقي في السنن الكبرى. كتاب المرتد. باب المكره على الردة. ح (١٦٦٧٣)،

والحاكم في المستدرک. كتاب التفسیر. ح (٣٣٦٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخجراه.

وقال الحافظ ابن حجر: "وهو مرسل ورجاله ثقات، وقد روي مرسلًا من طرق أخرى، يقوي بعضها ببعض".

انظر: فتح الباري ١٢/٣١٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧١.

(٣) الدسكرة: بناء على هيئة القصر فيه منازلٌ ويؤت للخدم والحشم، وليست بعريّة محضة انظر: النهاية في غريب الأثر ٢/٢٦٧

حيصة^(١) حُمِر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً؛ أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل".^(٢)

ويبدو ظاهراً؛ كيف أن هؤلاء الكبراء اتقنوا التلبيس والمخادعة؛ إبقاءً لمكتسباتهم، فمن تلبيسهم أنهم يصفون أهل الحق بالفساد، قال تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [إغافر: ٢٦].

فزعم أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، ولما ألهمهم بهذا الكلام إلى مما لأثم له على موسى ﷺ، زاد في ذلك بقوله ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، فسمى الصلاح - لمخالفته لطريقته الفاسدة - فساداً، وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، كما هو شأن كل مفسد مع المصلحين، وهذا من التمويه والترويح الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ﴾ [الزحرف: ٥٤].^(٣)

قال الزمخشري: وقوله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربه، وكان قوله ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونهم، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفرع، فإنه كان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يُزيل عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله؛ أن يعاجل بالهلاك.^(٤)

وفي موضع آخر من سياق قصة موسى مع فرعون، يظهر جلياً؛ أثر وشاية الكبراء بأهل الإيمان، قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُ مِوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَدْرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ

(١) أي: حالوا جولة يطلبون الفرار، والحيص: المهرب والحيد. انظر: النهاية في غريب الأثر ١ / ٤٦٨

(٢) سبق تخريجه ص (٢٦٣)

(٣) انظر: نظم الدرر ٦/٧٥٢، تيسير الكريم الرحمن ص ٧٣٦

(٤) الكشف ٤/١٦٥

سَنُقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَجِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿[الأعراف: ١٢٧]

فلما غلبوا بالحجة فزعوا إلى الوشاية بدعوى الإفساد في الأرض، وتحويل الرعيّة عن دينهم!

وقد لجأت قريش إلى هذا الأسلوب، مع المهاجرين إلى أرض الحبشة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارّة بن الوليد بهديّة، فلما دخلا على النجاشي سجداً له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالوا: له إن نفرأ من بني عمنا نزلوا أرضك، ورجبوا عنا، وعن ملتنا، قال: فأين هم، قال: هم في أرضك، فابعت إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلمّ ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك، قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: وما ذاك، قال: إن الله عز وجل بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه، قالوا: نقول كما قال الله عز وجل؛ هو كلمة الله وروحه؛ ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسه بشر، ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض؛ ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان؛ والله ما يزيدون على الذي نقول فيه؛ ما يسوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك؛ لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه، وأمر بهديّة الآخرين فردت إليهما^(١).

وأما فساد أهل الثراء، فيكمن في كون المال قوة اعتبارية يعطيها الأثرياء الأهمية الكبرى، سعياً لتوسيع دائرة التملك، وبسط النفوذ، وتلبية الشهوات، وتحقيق المآرب المبنية على الفخر والخيلاء، والعلو في الأرض.

وما ييلث الثراء بصاحبه؛ حتى يكون مملوكاً للمال بدلاً من أن يكون هو مالكه،

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٦١/١ ح (٤٤٠٠)، والحاكم في المستدرک. كتاب التفسیر. ح (٣٢٠٨)، وحسنه ابن حجر في الفتح ١٨٩/٧، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد قوي، وسياقه حسن. انظر: البداية والنهاية ٦٧/٣.

فيأسر قلب صاحبه، وَيَشَدُّ وثاقه؛ كما يُشَدُّ الأسير بالسلاسل والأغلال، عندها يكون المال قوة تفسد قلب صاحبه خاصة، وتحمله على البغي والإفساد في الأرض بعامة. (١)

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج للفساد الأثرياء، كان من أكثرها شهرة - حتى صار مضرب المثل - قارون، قال تعالى ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيْنَهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

قال ابن عاشور: "ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة، فضرب في هذه السورة، لحال تعاضمهم بأموالهم مثلاً؛ بحال قارون مع موسى، وأن مثل قارون؛ صالح لأن يكون مثلاً لأبي لهب، ولأبي سفيان بن الحارث قبل إسلامه، في قرابتهما من النبي ﷺ وأذاهما إياه، وللعاص بن وائل السهمي في أذاه لخباب بن الأرت وغيره، وللوليد بن المغيرة من التعاضم بماله وذويه، قال تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١، ١٣].

وفي ثنايا هذه القصة يظهر أثر المال في طغيان صاحبه، فإن المال حملة على الكبر والبغي والظلم، فإن قارون كان رجلاً من بني إسرائيل، وإنما عدل هنا عن أن يقال: كان من بني إسرائيل، إلى قوله ﴿مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ إيماءً بقرابة قارون لموسى عليه السلام، وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه. (٢)

ولكنه بغى على قومه وطغى وتكبر وتجر، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية، فقد أوتي من كنوز الأموال شيئاً كثيراً، حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها. فإذا كانت هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟

ففرح بالدينا، حتى طغى ونسي الآخرة، حتى قال له قومه محذرين له ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

ووعظوه، فقالوا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

(١) سيأتي - إن شاء الله - بيان فتنة المال وأثرها الفاسد؛ في أسباب الفساد.

(٢) جامع البيان ١٩/٦١٦، التحرير والتنوير ١١/١٣.

ولكن هذه الموعظة لم تلق إلا قلباً معرضاً، أصيب بمرض الكبر والطغيان، إذ قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

وهكذا ينكر المفتونون فضل الله عليهم، وحينها لا ينفع مع هؤلاء؛ إلا التهديد والوعيد ﴿أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [الفصص: ٧٨].

لقد كان المال عند الأثرياء المفسدين، وسيلة للظهور والعلو في الأرض، وفتنة لبعض ضعاف النفوس؛ ممن زعموا أن من أوتي ذلك فهو ذو حظ عظيم ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلدُّنْيَا نَجِلٌ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [الفصص: ٧٩].

ولذا بين الله تعالى بعد أن أهلك قارون شر مهلكة، أن العاقبة في الآخرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فقال ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣].

الباب الثاني

أسبابُ الفسادِ وموانعُه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الفساد .

الفصل الثاني: سُبُلُ مُدَافَعَةِ الفسادِ وعِلاجِه .

الفصل الأول

أسبابُ الفساد

وفيه أحد عشر مبحثاً:

- المبحث الأول: الكفر والذنوب
- المبحث الثاني: تزوين الشيطان
- المبحث الثالث: التقليد المذموم
- المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم
- المبحث الخامس: اتباع الهوى
- المبحث السادس: الكبر
- المبحث السابع: الحسد
- المبحث الثامن: الغلو
- المبحث التاسع: الترف
- المبحث العاشر: الظلم والعدوان
- المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية

تمهيد:

الأطباء يقولون: "إن تشخيص الداء نصف الدواء"، وإذا كنا قد تعرفنا على الداء - وهو الفساد - فلا بدّ من معرفة أسبابه ودوافعه؛ من خلال النصوص القرآنية، التي تصف الواقع في كل زمان ومكان، لنضع له العلاج الناجح من كتاب ربنا، ومن سنة نبينا ﷺ.

ومن القواعد المعينة على معرفة ذلك؛ "أن يُعلم أنه إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتاً للكمال.

وذلك: بأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال، إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج وبرّ الوالدين وصلّة الأرحام والعدل والإحسان، كان ناهياً عن الشرك وعن ترك الصلاة وترك الزكاة وترك الصوم وترك الحج وعن العقوق والقطيعة والظلم والإساءة، وحيث نهى عن الشرك وترك الصلاة... إلى آخر المذكورات، كان أمراً بالتوحيد وفعل الصلاة إلى آخرها"^(١).

وفي هذا الفصل؛ نشير إلى أبرز أسباب الفساد، دون استيفاء وحصر؛ إذ لا ريب أن كل فساد قد يختص بأسباب دون غيره، ومن ثمّ؛ فإن حصر أسبابه يعزّ هنا، غير إن المتأمل في آيات القرآن الكريم؛ يجد أن الأمر ظاهرٌ جليّ؛ ومن ذلك ما ذكرته مجملاً في المباحث الآتية، فقد جعلت كل مبحث منها مشتملاً على سبب من أسباب الفساد، وهي كما يلي:

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي. ص ٩٩

المبحث الأول
الكُفْرُ والذُنُوبُ

سبقت الإشارة إلى تعريف الكفر^(١)، ونجد مادته تدور حول معنى الستر والتغطية، والمعنى الشرعي لا ينفك عن المعنى اللغوي، فكلاهما يعني ستر الإيمان والحق وجحودهما ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]

وفي القرآن نماذج كثيرة لهذا الصنف من أهل الكفر، الذين حملهم كفرهم على الفساد والإفساد في الأرض، من هؤلاء:

قوم ثمود الذين أرسل الله لهم صالحاً عليه السلام بالتوحيد، لكنهم كفروا بالله، وما جاء به رسوله عليه السلام، قال تعالى ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهَطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]. كانوا تسعة رجال في المدينة التي يسكنها ثمود من أشرفهم، لهم أثرهم وخطرهم في القبيلة، حتى كان الواحد منهم رهط بنفسه، فلا يتأتى منهم صلاح بحال من الأحوال.^(٢) قيل: كانوا من أوجه القوم وأغناهم، وكانوا أهل كفر، وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون.^(٣)

وخص التسعة بالذكر، مع أن أهل الكفر كلهم - في الأرض - مفسدون، لأنهم:

- دعوا قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام.
- سعوا في عقر الناقة وتعاونوا على ذلك، لهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، يعني صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبهم الله.
- تحالفوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، بأن يبيتوه في أهله ليلاً، فيقتلوه غيلةً، ثم يقولون لأوليائهم من أقربائه، إنهم ما علموا بشيء من أمره.^(٤)

إن جرثومة الفساد استشرت في قوم ثمود جميعاً، بسبب رؤوس الكفر التسعة، مع أن صالح عليه السلام حذر قومه من طاعتهم، فقال كما حكى القرآن عنه ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢]. لكن صوت التحذير؛ لم يلق إلا آذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً.

(١) انظر: ص ٣٦

(٢) انظر: التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي ٢/ ٧٩٥، ٧٩٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢١٥/١٣

(٤) انظر: جامع البيان ١٩/١٧٢، وتفسير القرآن العظيم ٣/٣٦٨

وإذا كان الكفر دافعاً من دوافع الفساد عند قوم ثمود، فإنه بارز أيضاً في قصة فرعون، كما في قوله تعالى ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۙ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ۚ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۗ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ٩، ١٢]. لذا ناسب أن تأتي الإشارة عن فرعون بعد ذكر ثمود. قال السعدي رحمه الله: "فأكثرها فيها الفساد، هو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل، وصدّ الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتوّ ما هو موجب لهلاكهم؛ أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصِدِ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤].

ولا غرو في كون الكفر أعظم أسباب الفساد؛ فهو أعظم الذنوب على الإطلاق، بل هو محض الفساد، كما سبق تقريره. (١)

ذلك أن الكافر قد انطمست بصيرته عن العبادة والهداية فصار في ذاته مظهرًا من مظاهر الكفر. فهو فاسد ومفسد لغيره بأفعاله، وظهر هذا في نصوص كثيرة؛ كقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَّضَعُفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]. فالكفار الأصليون كانوا يزينون الكفر والضلال، في الليل والنهار، ويقولون على الحق إنه باطل، وما زالوا بضعفاء النفوس؛ حتى أوقعوهم في الكفر.

ولم يقف فساد الكافرين على الضعفاء فقط، بل صرحوا بذلك للمؤمنين، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَمِيلِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وهذا غاية الضلال والفساد؛ أن يدعون المؤمنين إلى الكفر، ويرغبونهم فيه!

وهكذا لا يزال الكفر بصاحبه؛ يزين له سوء عمله، ويزيده ضلالاً، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَ، عَامًا وَيُكْرِمُونَ، عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُبَيْنٌ لَهُمْ سَوْءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

قال الطبري: "النسيء: مصدر من قول القائل: نسأت في أيامك، ونسأ الله في أجلك، أي: زاد الله في أيام عمرك ومدة حياتك، حتى تبقى فيها حيًّا... والمعنى: إنما التأخير الذي يؤخره

(١) انظر: ص ٣٠ وما بعدها.

أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهنّ حلالاً، والحلال منهنّ حراماً، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته" (١).
وقد تقرّر - في وصف المفسدين - كيف أفضى الكفر بكثير منهم؛ للوقوع في صور من الفساد.

أما الذنوب، فقد جعلها الله تعالى سبباً للفساد في برّ الأرض وبحرها، كما قال تعالى ﴿ظَهَرَ
الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، قال الحسن:
أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض وبرّها، بأعمالهم الخبيثة. (٢)
واختلف العلماء، في معنى ظهور الفساد (٣):

- فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو نقصان البركة بأعمال العباد، وظهور الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم.
- وقيل: الفساد هو المعاصي وقطع السبيل، أي صار هذا العمل، مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كله متقارب.
- وقيل: هو القحط وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف.
- وقال مجاهد: فساد البرّ: قتل ابن آدم أخاه؛ يعني قتل قابيل لهابيل، وفساد البحر: الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً (٤).

وتعقّب الإمام الشوكاني هذا القول وغيره؛ بأنه تخصيص لا دليل عليه، فقال: "والظاهر من الآية، ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء، كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله - سبحانه - بسبب ذنوبهم، كالقحط وكثرة الخوف إلخ.. (٥)

ويؤيد هذا ابن القيم رحمه الله، حيث أورد كلام ابن زيد الذي يقول فيه: "ظهر الفساد في

(١) جامع البيان ١٤/٣٤٣

(٢) المصدر السابق ٢٠/١٠٨

(٣) انظر: زاد المسير ٦/٣٠٥

(٤) جامع البيان ٢١/٥٠

(٥) انظر: فتح القدير ٤/٣٢٤

البر والبحر يعني الذنوب"^(١). ثم تتبع هذا الرأي قائلاً: أراد، أن الذنب سبب الفساد الذي ظهر، والمراد بالفساد؛ هو النقص والشر والآلام التي يحدثها الله تعالى في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً؛ أحدث الله لهم عقوبة، كما قال بعض السلف^(٢): "كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة"^(٣).

ولقد كانت الدنيا تنعم بالخير، وتسعد بالرخاء، ويعمها الأمن والسعة، لقلّة الطمع في الدنيا، وعدم التكالب عليها، وظلّ الإنسان في عيش هنيئ، حتى ظهّرت الذنوب، واستشرى الفساد، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين؛ ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، فوقع الصراع بين الحق والباطل.

ومن خطورة الذنب؛ أنه سبب لذنوب آخر، فتتسع بذلك رقعة الفساد، لذا جاء التحذير من ذلك، كما في قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فانظر لهذا الترتيب: بدأت المعصية بسوء الظن، الذي يحمل صاحبه على التجسس، ثم الغيبة، فالمعاصي تتوالد، كالعمل الصالح، لكن البون شاسع والفارق كبير، فتأمل كيف قرن الله بين أكل الطيبات، وعمل الصالحات، في قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

فأكل الحلال الطيب مما يعين العبد على فعل الصالحات، كما أن أكل الحرام، أو الوقوع في المشتبهات، مما يثقل العبد عن فعل الصالحات.

وَمَنْ حُبِسَ عَنِ طَاعَةٍ؛ فَإِنِ الْخِذْلَانُ يَكُونُ حَلِيفَهُ، فليكن المرء على وجل؛ من أن يكون ممن خذله الله وثبطهم عن الطاعة، كما تثبط المنافقين، فقال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن خطر الذنب؛ نسيان العلم وتبديله، كما أخبر - سبحانه - عن بني إسرائيل في قوله جلّ وعلا ﴿فِيمَا نَقَضُوا صَيْتَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحِرْفُونَ أَلَا لَكُم مَّوَاضِعٌ﴾ [المائدة: ١٣].

(١) جامع البيان ٤٩/٢١

(٢) عزاه السيوطي لأبي الشيخ عن مالك بن دينار. انظر: الدر المنثور ٦١٨/٤

(٣) انظر: الجواب الكافي. ص ٤٢

قال ابن كثير في قوله ﴿يُحْرِفُونَ أَلْكَامَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ "أي: فسدت فهمهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك، ﴿وَسُوْأَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ "أي: وتركوا العمل به؛ رغبة عنه" (١). ونسيان العلم سبب لانتشار الجهل، واتخاذ الناس رؤوساً جهالاً، يُسألون؛ فيفتون بغير علم، فينتشر الفساد في الأرض.

إن الذنوب لتسري في المجتمع، فتنتشر فيه انتشار النار في الهشيم، حتى إذا جثت عليه؛ سلخته من القيم والأخلاق؛ فيصبح المنكر فيه مألوفاً، كما حكى الله - تعالى - عن بني إسرائيل ﴿لُعِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. وقد سُئل حذيفة رضي الله عنه: «هل تركت بنو إسرائيل دينهم؟! أي: حتى عُذبوا بأنواع العذاب الأليم، كمسخهم قرده وخنازير وأمرهم بقتل أنفسهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم، كما ينسلخ الرجل من قميصه» (٢).

ولا يلزم أن يكون تخليهم عن الدين دفعةً واحدة، وإنما كان ذلك بسبب المعاصي والفجور حتى انسلوا من دينهم انسلالاً متتابعاً؛ كما يخلع الرجل ثوبه شيئاً فشيئاً. إن كل صاحب ذنب، أُشرب قلبه حبّ الذنب؛ فإنه لن يرعوي في ارتكاب أي محذور؛ حتى يصل إلى الذنب الذي يريده.

وهكذا، يتبين أن الذنوب والمعاصي، لها ارتباط وثيق بالفساد العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، بل ربما كانت سبباً في التخلي عن الدين بكليّة.

لذا ذُكرت الكفر والذنوب أول أسباب الفساد، وهذا أشبه بالعام الذي يعقبه الخاص، فإن المباحث الآتية، وإن كانت لا تخرج عن إطار الذنوب؛ إلا أن المتأمل في آي الكتاب العزيز؛ يجدها ظاهرة جليّة؛ في دلالتها على السببية في الفساد.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٤/٢

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان. فصل في الطبع على القلب أو الرين. ح (٦٩٣٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

المبحث الثاني تزيينُ الشَّيْطَانِ

تزيين الشيطان للمعاصي ميدان واسع، وهو من أعظم أسباب الفساد، فإن الشيطان حين طُرد من الجنة؛ أخذ على عاتقه مهمة تزيين الباطل وتحسينه، وخداع الناس به، فقال كما حكى القرآن ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿[الحجر: ٣٩، ٤٠]، أي: لأحسننَّ لهم المعاصي، ولأحبيبنَّها إليهم، ولأضلنَّهم عن سبيل الرشاد.

فحدَّد عدته في أنها تزيين القبيح وتجميله، والإغراء به، وهكذا لا يقترف الإنسان شراً؛ إلا وعليه من الشيطان مسحة تزيينه وتجميله، وتظهره في غير حقيقته وردائه، فليفتن المرء إلى عدة الشيطان؛ وليحذر كلَّما وجد في أمر تزييناً، وكلَّما وجد من نفسه اشتهاً إليه. "فالشيطان هو الذي سحر العقول، حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة، والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعه الأرحام، ووآد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم بالفوز بالجنات، مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى، وعلوه وتكلمه بكتبه؛ في قالب التثريه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله (عليكم أنفسكم)".^(١)

وما دام تزيين الشيطان يرد بهذه الصورة، فلا غرابة أن نجده يركِّز على خداع النفوس، فيسوّل لها الاستزادة من المعاصي، وإظهارها بمظهر الشيء الجميل المحبب إلى النفس، ومركبه في ذلك هوى النفس.

ومن نظر في تاريخ البشرية وأدكر، وتأمل واعتبر، أدرك أن تزيين الشيطان بلغ مبلغه في الغواية والضلال، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة؟ إلا تزيين الشيطان ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿[الأعراف: ٢٠، ٢١].

وهكذا تراه زين لآدم وزوجه، ما نهما الله عنه، ويقسم لهما أنه من جملة الناصحين، فلما

(١) إغاثة اللفهان ١/١٣٠.

اغترا بكلامه، وغلبت الشهوة على العقل، نزلهما عن رتبهما العالية، وهي البعد عن الذنوب والمعاصي؛ إلى التلوث بأوضارها^(١) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

ولا غرو؛ فهو "صاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية، حين خسف بهم وأتبعوا بالرحم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه، حين أخذوا الأخذة الرابعة، وصاحب عبّاد العجل حين جرى عليهم ما جرى.^(٢)

وما الذي أوقع كثير من الأمم في الشرك بالله تعالى؛ إلا تزيين الشيطان ﴿تَأْتِيهِمْ آيَاتُ اللَّهِ فَتَكْفُرُ، أَفَلَا تُعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٣] وقال سبحانه ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

قال الرازي في قوله ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ يعني عبادتهم لغير الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني عبادة الله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بواسطة الرسل^(٣).

حتى أن منهم من عبد الشمس والقمر، كبلقيس ملكة سبأ وقومها، كما أخبر هدهد سليمان عليه السلام فقال ﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

يعني صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين، عن الطريق الواضح وهو الإيمان بالله وتوحيده^(٤). وترى الشيطان قد بالغ في أمره للمشركين، حتى أغراهم بالدفاع عن الباطل، والصد عن الحق، ولو كان ذلك على حساب أرواحهم، قال سبحانه ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ كَفَّصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٤٨].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٨٥.

(٢) إغاثة اللهفان ١ / ١٣١

(٣) التفسير الكبير ٢٥ / ٥٨

(٤) فتح القدير ٤ / ١٦١

كما زينَ لمشركي مكة؛ خروجهم لقتال المسلمين يوم بدر، وحسنَ لهم ذلك، وحرصهم على المؤمنين، وقال لا غالب لكم اليوم من بني آدم، وطمأنهم وبشّرهم بأنه سيعيدهم ويمنعهم، فلما تزاخفت جنود الله من المؤمنين، وجنود إبليس من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، رجع القهقري، لأنه رأى الملائكة الذين بعثهم الله مدداً للمؤمنين، ففرَّ هارباً قائلاً ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وبلغ تزيينه للقبیح ببعضهم، أن جعل الباطل في صورة الحق؛ فالتبس عليهم، حتى حملهم على قتل أبنائهم، كما حكى القرآن عن المشركين ذلك، فقال ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمُ دِينَهُمْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يُرذوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة^(١)، فحسّنوا لهم وأد البنات، ليهلكوهم، وليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا؛ بفعلهم ما حرم الله عليهم، ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم؛ لم يفعلوه، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوهم.^(٢)

إن تزيين الشيطان قد يبلغ منتهاه، حتى إن الزواجر والنذر لا تفعل شيئاً في قلوب المعرضين، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

وما زال كيد الشيطان متوالياً في تزيين المعاصي والموبقات، حتى يكون العبد إلى الكفر أقرب، إذ المعاصي بريد الكفر، وهذا واضح كل الوضوح؛ في تزيينه لعابد بني إسرائيل، قال تعالى ﴿كَذَّبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

قال البيضاوي: "أغراه على الكفر؛ إغراء الأمر بالمأمور، فلما كفر تبرأ منه؛ مخافة أن يشاركه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٥

(٢) انظر: جامع البيان ٣٥٢/٥

في العذاب، ولم ينفعه ذلك كما قال^(١).

ولم يصل الشيطان بالعبد إلى الكفر جملة واحدة، وإنما بالتدرج، لذا حذر الله تعالى من استدراج الشيطان، فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُورًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة/١٦٨].

فتسمية استدراج الشيطان "خطوات" فيه إشارتان:

الأولى: أن الخطوة مسافة يسيرة، وهكذا الشيطان؛ يبدأ بالشيء اليسير من البدعة أو المعصية، حتى تألفها النفس.

الثانية: أن قوله "خطوات": دليل على أن الشيطان لن يقف عند أول خطوة في المعصية. وإذا لم يظفر الشيطان في تزيين الكفر، سعى إلى إغراق الناس في الشهوات والشبهات، فيأخذهم في طريق الفساد.

ولشدة خطر الشيطان وعداوته للإنسان، أمر - تبارك وتعالى - بالاستعاذة منه، فقال سبحانه ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وإن المسلم ليدرك خطره، حين يتأمل سورتي المعوذتين، فيجد في سورة الفلق؛ تعوذ بصفة واحدة، من أربعة أشياء عظيمة، بينما في سورة الناس؛ تعوذ بثلاث صفات من شيء واحد؛ ليعلم المرء حينئذ؛ أي عدو يلازمه؟

وقد يكون هذا التزيين إيعازاً من الشيطان لأوليائه، مما يدل على أنه لا يلزم أن يباشر التزيين بنفسه، وهذا أبلغ ما يكون في الغواية وتزيين الفساد، ولذا تؤكد تحذير العبد بالاستعاذة من

الشيطان، فقال ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦].

قال قتادة: إن من الناس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن^(٢).

وخلاصة الأمر؛ أن طاعة الشيطان؛ فساد للقلوب والأعمال، وإذا تتبعنا كل فساد، نجد إن من أسبابه تزيين الشيطان لصاحبه.

(١) تفسير البضاوي ٣٢٢/٥

(٢) تفسير الصنعاني ٤١٠/٣

المبحث الثالث

التقليد المذموم

إن الله تعالى خلق في بني آدم التأسى، فالطفل منذ أن يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم ينمو علمه، وتتسع مداركه؛ بالتقليد، فإن كان المقلد صالحاً؛ كانت الأعمال من جنس صاحبها، ولذلك جعل الله تعالى نبيه ﷺ أسوة للمسلمين، فقال سبحانه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأما إن كانت القدوة غير صالحة؛ جرت على المقلدين ويلات وبلايا، فالتقليد إما أن يكون ممدوحاً؛ كمن يقلد في الخير، وإما أن يكون مذموماً؛ كمن يقلد في الشر، والممنوع شرعاً. وعلينا ابتداءً، تحديد مفهوم التقليد، فهو لغة يدور حول:

- جمع الشيء، كجمع الماء في الحوض، واللبن في السقاء.^(١)

- الاتباع، يقال: قلّد فلاناً؛ اتبعه فيما يقول أو يفعل، من غير حجة ولا دليل.^(٢)

أما المفهوم الاصطلاحي، فكما قال الجرجاني: "التقليد عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمل في الدليل، وكأن هذا المتبع جعل قول الغير، أو فعله قلاباً في عنقه".^(٣)

وهذا التعريف يشمل التقليد الممدوح والمذموم، لكن الفساد ناتج عن التقليد المذموم. ولقد ذمّ الله تعالى المشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، وعاب الله على مقلديهم الذين اكتفوا بما عليه آبائهم وأجدادهم من المسالك، فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

قال البغوي في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ﴾ "في تحليل الحرث والأنعام وبيان الشرائع والأحكام، ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، ولو كان في آبائهم كفاية ومعرفة؛ لهان الأمر، ولكن آبائهم ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَا يُعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾"^(٤).

(١) انظر: لسان العرب ٣/٣٦٥ مادة (قلد).

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/٧٥٤ : مادة (قلده).

(٣) التعريفات ص ٦٤ .

(٤) معالم التنزيل ٣/١٠٩

فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً، وهدى وإيقاناً.^(١)

فهؤلاء المكذبين؛ ليس لهم مستند، ولا حجة عقلية، تبرر ما هم فيه من الشرك؛ سوى تقليد الآباء والأجداد؛ بأنهم كانوا على أمة ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وقد ذهب بعض أهل العلم، إلى القول بالإجماع في حظر التقليد ومنعه، ومن ذلك ما قاله الثعالبي - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، "والألف في قوله سبحانه ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ للاستفهام؛ لأن غاية الفساد في الالتزام؛ أن يقولوا: تتبع آباءنا، ولو كانوا لا يعقلون، فأقروا على التزامهم هذا، إذ هذه حال آبائهم، وقوة ألفاظ هذه الآية؛ تعطى إبطال التقليد، وأجمعت الأمة على إبطاله في لعقنائهم^(٢) أنواع التقليد عند المشركين؛ أنهم لا يرون أن مخالفة آبائهم ضلال، وأن تقليدهم هو الهدى الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، لذا قال تعالى ﴿قُلْ أَوَلَوْ حِثُّكُمْ بِأَهْدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]

ثم حكى القرآن الكريم، أنهم ليسوا بدعاً ممن سبقهم، فنظرائهم في تكذيبهم للرسول من الأمم السابقة، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل قولهم ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فإن من أعظم البلايا التي يواجهها المجتمع، تقليد الضلال لأسلافهم في الكفر.

وهذا ما جعل الزمخشري يقول: فما أقبح التقليد، والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين، حيث استدرجهم إلى أن قلدوا آبائهم في عبادة التماثيل، وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم^(٣).

ومن ذلك ما حكاه الله تعالى من احتجاج الكفار بتقليدهم لآبائهم؛ منذ أن أرسل إليهم الرسل، فقال حكاية عن قوم نوح عليه السلام حين ردوا دعوته ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٤٦

(٢) انظر: تفسير الثعالبي ١/١٢٨.

(٣) انظر: تفسير الكشاف ٣/١٢٢

[المؤمنون: ٢٤]، وتشابهت حججهم الواهية؛ مع حجة قوم إبراهيم عليه السلام حين سألهما عما يعبدون ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّهَا عَنْ كَيْفَيْنِ ۗ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۗ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۗ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧١ : ٧٤].

فأنكر إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأصنام، فقال لأبيه وقومه: ماذا تعبدون؟ قالوا: أصناماً نعبدها، ونقيم على دعائها، وتحول السؤال إلى خطاب عقلي، يمسّ شغاف القلوب، ويشكك العقل فيما يعتقد، فقال ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۗ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۗ﴾ فأجابوا: بأنهم مقلدون، فإجابتهم تحمل فحوى الإقرار؛ بأن الأصنام المعبودة؛ لا تسمع الدعاء، ولا تنفع ولا تضر، لكنهم رأوا الآباء يفعلون هذا؛ فهم على آثارهم يهرعون. فما منعهم من قبول دعوته؛ إلا التقليد الأعمى للآباء، وهذا التقليد من أعظم أسباب الفساد في الكون، إذ ليس بعد الكفر ذنب، وليس بعد الكفر فساد.

وهذا ديدن ثابت، وأسلوب واضح، في ردّ دعوة الأنبياء، وكأها كلمة يرددها الكفار في كل زمان، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ [القصص: ٣٦].

قال ابن عاشور: "وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آباءهم، حتى تصل إليهم بواسطة آباءهم الأولين؛ دليلاً على بطلانها، وذلك آخر ملجأ يلجأ إليه المحجوج المغلوب، حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهات".^(١) ومن ثم كانوا يستخدمون إلهاب مشاعر ضعفاء العقول، بقولهم (آبائنا)، لما يعلمون أن المرء بطبيعته يميل إلى تقليد أبيه وجده، فكأنهم ينقلونهم من الصراع بين الحق والباطل إلى صراع العصبية والقبليات.

وكما أنهم احتجوا في ردّ دعوة الأنبياء؛ بتقليدهم للآباء، احتجوا أيضاً على جزئيات الشرع؛ باتباعهم لدين آباءهم، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ ۗ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]

قال البيضاوي: "وإذا فعلوا فعلة متناهية في القبح، احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، وردّ الثاني بقوله ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا

يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿١﴾؛ لأن عاداته سبحانه وتعالى؛ جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال^(١)

وقلّدهم كذلك في التحليل والتحرّيم، كما حكى الله عنهم حين قال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ لَا يُعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهذه الآية، جاءت في ختام مجموعة من الآيات، يقول الله فيها ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، فحين أمرهم الله تعالى بالأكل من الحلال وترك الحرام، والبعد عن اتباع خطوات الشيطان الذي يقود إلى الهلاك، كانت الحجة الواهية في فعل الحرام؛ هي اتباع ما وجدوا عليه آبائهم.

وهنا لطيفة حين يتدبر المرء هذه الآيات؛ نبه عليها الرازي بقوله: "إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان؛ تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابع التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل"^(٢).

ولم يتوقف التقليد المذموم في تقليد الكافرين بعضهم بعضاً، وإنما وقع التقليد المذموم من بعض المؤمنين، وما هذا إلا بسبب الجهل، وعدم تمكن الإيمان من القلوب.

جاء هذا المعنى عندما كتب الله النجاة لبني إسرائيل من عدوهم فرعون، حين نجّاهم الله وجاوز بهم البحر، فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، وطلبوا من موسى عليه السلام طلباً في غاية الغرابة، بل وفي غاية الضلال، لقد نسوا نعمة الله عليهم فقالوا ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فكان الردّ البليغ من موسى عليه السلام ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فأبي جهل أعظم ممن جهل ربه وخالقه، وأراد أن يسوّي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

ولقد تسرّب هذا التقليد إلى هذه الأمة، كما في قصة الشجرة في غزوة حنين، التي رواها أبو واقد الليثي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر، مرّ بشجرة للمشرّكين يقال لها (ذات أنواط) يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات

(١) انظر: تفسير البيضاوي ١٥ / ٣

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥

أنواط، فقال النبي ﷺ: "سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾
والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم" (١)

وهذا الداء العُضال تسرّب إلى كثير من أهل البدع؛ كالمتصوفة الذين كُثر فيهم الضلال،
وما هذا التقليد الذي تلقوه في عبادتهم لله - على حد زعمهم - بتقرّبهم إلى أصحاب
القبور، حتى تمثلوا قول المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وهذا مصداق قول النبي ﷺ: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شيراً بشيراً، وذراعاً بذراع، حتى
لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟" (٢)
وظهر هذا جلياً؛ في اتباع بعض المسلمين لعادات اليهود والنصارى، وتقليدهم لهم في
أعيادهم واحتفالاتهم، ويمضي بهم التقليد حتى يأخذهم شيئاً فشيئاً، بعيداً عن دين ربهم،
وسنة نبيهم ﷺ.

وبلغ الحال بالمقلّدة، أن آثروا اتباع كلام الرجال؛ على كلام النبي ﷺ، مع وضوح ما يؤخذ
منه، فإذا قيل لأحدكم مثلاً: إن النبي ﷺ هُي عن كذا، لم يطع، وقال: فلان يجيز ذلك!
وإذا قيل له: إن نكاح التحليل باطل؛ لأن النبي ﷺ لعن فاعله، أجابك بقوله: لا، بل هو
جائر في المذهب الفلاني!

وهكذا إلى مئات المسائل... ولهذا؛ ذهب كثير من المحققين - كالرازي في تعليقه الأنف
الذكر - إلى أن أمثال هؤلاء المقلّدين؛ ينطبق عليهم قول الله تعالى في أهل
الكتاب ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا أَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ومن خلال ما سبق ذكره، نصل إلى نتائج ظاهرة، بيّنها كالتالي:
أولاً: أن التقليد المذموم من موانع الهداية، فولعهم بالتقليد أوقعهم في خسارة فادحة، كانت
نتيجتها عدم هدايتهم، وتوفيقهم للإيمان؛ فكثر الفساد بارتكاب الآثام والوقوع في الفواحش.
ثانياً: أن التقليد حملهم على أن ألغوا عقولهم، ففسدت قلوبهم.

(١) رواه الترمذي: كتاب الفتن. باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم. ح (٢١٨٠)، وأحمد/٥/٢١٨ ح (٢١٩٤٧)، وابن

جان/١٥/٩٤ ح (٦٧٠٢)، وابن أبي شيبة ٤٧٩/٧ ح (٢٠٧٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة ٣/١٤٨٨ ح (٥٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح (٣٤٥٦)، ومسلم. كتاب العلم. باب

اتباع سنن اليهود والنصارى. ح (٢٦٦٩).

ثالثاً: التقليد المذموم يسوق إلى الجدال، كما في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿[لقمان: ٢٠، ٢١].

والحق أن الإصرار على التقليد لما كان عليه الآباء والأسلاف، ليس الغرض منه اتباع سبيل الهداية، إنما هو التعصب الممقوت، الذي يراد به طمس هوية الحق، والانتصار لأهل الباطل في باطلهم، ومن هنا تتأكد علاقة التقليد الأعمى بالفساد، ولاسيما فساد المعتقد.

المبحث الرابع

مُوالاةُ المُفسدينَ واتباعهم

لما كانت موالاتة المفسدين واتباعهم سبب من أسباب توالد الفساد، نهى الله تعالى عنها المؤمنين في أكثر من موضع، فقال ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةً وَيَحذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء"، لأنهم حينئذ لا يكونون من حزب الله ولا من أوليائه في شيء. (١)

فقوله ﴿لَا يَتَّخِذِ﴾ فيه النهي للمؤمنين عن موالاتة الكفار لسبب من الأسباب، متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين، استقلالاً أو اشتراكاً، وفي هذه الآية تهديد شديد، وتخويف عظيم لعباده؛ أن يتعرضوا لعقابه بموالاتة أعدائه. (٢)

وفي سبب نزولها أربعة أقوال: (٣):

أحدها: أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه كان له حلفاء من اليهود، فقال يوم الأحزاب: يا رسول الله: إن معي خمسمائة من اليهود، وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو، فترلت.

والثاني: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين، كانوا يتولون اليهود ويأتونهم بالأخبار، يرجون لهم الظفر من النبي صلى الله عليه وسلم، فنهى الله المؤمنين عن مثل فعلهم.

والثالث: أن قوماً من اليهود، كانوا يباطنون نفراً من الأنصار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فنهاهم قوم من المسلمين عن ذلك، وقالوا: اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبوا؛ فترلت.

والرابع: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك.

وفي الآية؛ أن الولاء والبراء، لا يكون إلا لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ لئلا يترتب على ذلك مفسد، كما أن الآية ليست خاصة بسببها، فهي لجميع المؤمنين، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن الله تعالى يحذر المؤمنين في تذييل الآية من عقابه.

(١) جامع البيان ٦/٣١٣.

(٢) انظر: فتح القدير ١/٣٣١.

(٣) زاد المسير ١/٣٧١.

(٤) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعيب بن سهل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى

يقال إنه حالف الزبير، شهد بدرًا، توفي: ٣٠هـ. انظر الاصابة ٢/٥

ثم بيّن - سبحانه وتعالى - أن علة النهي عن موالاته المفسدين من الكافرين والمنافقين وغيرهم؛ ليست بالتعرض لعقابه فحسب، بل تتعلق بالضرر الواقع منهم على المؤمنين، كما في قوله ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وعلق ابن كثير على هذه الآية فقال: "يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم، وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم؛ لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة؛ ويودون ما يعنت المؤمنين، ويخرجهم ويشق عليهم".^(١)

وأضاف الشوكاني أن المراد بقوله ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ "يعني لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، والخبال والخبيل: الفساد في الأفعال والأبدان والعقول".^(٢)

ومن ضمن ما ذكرته الآية ﴿قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ وهو ما بدا لهم منهم بألسنتهم، كإقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمون من الضلالة، فذلك من أوكد الأسباب في معادتهم أهل الإيمان، لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين؛ هي العداوة التي لا زوال لها؛ إلا بانتقال أحد المتعادين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلى ضلالة، كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك.

فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبين الدلالة لأهل الإيمان؛ على ما هم عليه لهم من البغضاء والعداوة.^(٣)

ومن ثم؛ يخطيء من ظن أن التودد لأعداء الله، والسعي في تقييهم؛ سوف يجلب محبتهم، ويدفعهم إلى أن يبادلوه حباً بحب، فمن ينتظر منهم الرضى أو ينشده؛ كمن يؤمل من السراب الخادع ماءً، والثقة بدهم وهم كبير، وغفلة عن وقائع التاريخ المتكررة في كل زمان ومكان، ولذلك جاءت النصوص الكثيرة؛ تأمر بمقاطعتهم وعداوتهم؛ مهما تظاهروا بالحببة الكاذبة، التي طالما اصطادوا الناس بشباكها.

ولذا خشى الصحابة رضي الله عنهم من اتخاذ غير المسلمين أولياء.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨٨/١

(٢) فتح القدير ٣٧٦/١

(٣) جامع البيان ٤٥/٧

فقد أخرج ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة، حافظاً كاتباً، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين.^(١)

وأكد - تعالى - على هذا المعنى، فقال ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ ءَأُولِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١]. وتأمل؛ كيف تحول خوف الصحابة إلى رد فعل قوي، لمجاهة موالاة المفسدين، حيث يقول القرطبي: "وروي أن أبا موسى الأشعري قدم على عمر رضي الله عنه ما بحساب، فرفعه إلى عمر فأعجبه، فقال لأبي موسى: أين كاتبك، يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ فقال: إنه لا يدخل المسجد، فقال: لم! أجنب هو؟ قال: إنه نصراني؛ فانتهره، وقال: لا تُدِنهم؛ وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم؛ وقد أهانهم الله، ولا تأمنهم؛ وقد خَوَّنهم الله، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: لا تستعملوا أهل الكتاب؛ فإنهم يستحلون الرِّشأ، واستعينوا على أموركم، وعلى رعيّتكم، بالذين يخشون الله تعالى.

يقول القرطبي معقباً على أثر عمر رضي الله عنه: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان؛ باتخاذ أهل الكتاب؛ كتبه وأمناء، وتسوّدوا بذلك عند الجهلة الأغبياء."^(٢) وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى."^(٣)

ومما أوقع أهل الكتاب في الفساد؛ أنهم سلكوا سبيل المفسدين من علمائهم وعبّادهم، وجعلوهم أرباباً لهم، يحلّون ويحرّمون ويشرعون ما ينافي ما جاءت به رسالتهم، كما قال تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِلَهًا إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قال حذيفة وابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية، أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا.^(٤)

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧٤٣/٣

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٨/٦

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الأحكام. باب بطانة الإمام وأهل مشورته. ح(٦٧٧٣).

(٤) انظر: جامع البيان ٢١٢/١٤

لهذا كان تحذير موسى عليه السلام لأخيه هارون، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

قال ابن كثير: "استخلف موسى عليه السلام على بني إسرائيل أخاه هارون عليه السلام، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير؛ وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء".^(١)

وقال ابن جرير في الآية: "أي لا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض، بمعصيتهم ربهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم ربهم، ولكن اسلك سبيل المطيعين ربهم"^(٢).

ومن الإصلاح - كما قال ابن جريج - أن يزجر السامري، فقلوه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تسلك سبيل العصاة، ولا تكن عوناً للظالمين.^(٣)

قال ابن عاشور: "فيه تحذير من الفساد بأبلغ صيغة، لأنها جامعة بين نهي - والنهي عن فعلٍ تنصرف صيغته أول وهلة إلى فساد المنهي عنه - وبين تعليق النهي باتباع سبيل المفسدين.

والمفسد من كان الفساد صفة، فلما تعلق النهي بسلوك طريق المفسدين؛ كان تحذيراً من كل ما يستروح منه مآل إلى فساد، لأن المفسدين قد يعملون عملاً لا فساد فيه، فنهى عن المشاركة في عمل من عُرف بالفساد، لأن صدوره عن المعروف بالفساد؛ كافٍ في توقع إفضائه إلى فساد، ففي هذا النهي سدّ ذريعة الفساد، وسدّ ذرائع الفساد من أصول الإسلام".^(٤)

ومن مفاصد اتباع المفسدين؛ الهلاك والخراب، لهذا تحركت عاطفة الأبوة في قلب نوح عليه السلام، لإنقاذ ابنه من غرق محقق، عند تلاطم الأمواج واندفاعها لتغرق أهل الفساد ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ،

وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

قال البيضاوي: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال"^(٥)، فإن سلوك طريق المؤمنين ومجالستهم، والانحياز إليهم؛ هو سبيل النجاة الحقة؛ لأنهم في كنف الله وعنايته، حتى وإن

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٣

(٢) جامع البيان ٨٨/١٣

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٩/٤

(٤) التحرير والتنوير ٢٧٢/٨

(٥) تفسير البيضاوي ٢٣٦/٣ .

تقاذفتهم الفتن، وكانت أسبابهم يسيرة، كسفينة من خشب في أمواج كالجبال، كما أن سلوك طريق الكافرين والمنافقين، والانحياز إليهم؛ هو سبيل الهلاك، حتى وإن توفرت لهم الأسباب المادية المنيعة، كالجبال في علوها وصلابتها.

وقد حذر سبحانه نبيه محمداً ﷺ من موالاته المفسدين، فقال ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]

فأمره بالمداومة على اتباع شريعته، فالأمر لطلب الدوام مثل قوله ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

وبين قوله ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ محسن المطابقة بين الأمر بالاتباع، والنهي عن اتباع آخر، و﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم المشركون، وأهواؤهم: دين الشرك، والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوا لم يأمر الله بها، ولا اقتضتها البراهين.

والمقصود من هذا الخطاب؛ إسماع المشركين، لئلا يطمعوا بمصانعة الرسول ﷺ إياهم، حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم، وحين يسمعون في القرآن بالصفح عنهم. وفيه أيضاً تعريضٌ للمسلمين؛ بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون.

قال البغوي: "كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك فإنهم أفضل منك، فقال تعالى ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾" (١).

فهذه الجملة؛ تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمن تعليل الأمر باتباع شريعة الله، فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله - من اتباع شريعته - ما يوقع في غضب الله وعقابه، فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه (٢).

كما بين سبحانه وتعالى - في موضع آخر - ثمة موالاته المفسدين، مقارنة بولايته لأوليائه فقال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

(١) معالم التنزيل ٧/٢٤٤

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٨

قال بعض العلماء: الطاغوت: الشيطان، ويدل لهذا قوله ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والحق أن كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، والحظ الأكبر للشيطان. (١)

وقال السعدي: "فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً، ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم؛ عقوبة لهم، فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزاً، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة؛ إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾". (٢)

لهذا كان التحذير والوعيد؛ من هذا الاتباع المشين لأهل الفساد، قال سبحانه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] فمن الالههم واتبعهم فإن مصيره في الدنيا الخذلان، وفي الآخرة جهنم وبئس المصير.

(١) أنظر: أضواء البيان : ٧٣ ، ٧٤

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١١١ .

المبحث الخامس

اتباع الهوى

من أسباب الفساد اتباع الهوى، إذ هو الدافع القوي لكل طغيان، وكل تجاوز وعصيان، فهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقلَّ أن يؤتى الإنسان؛ إلا من قبل هواه، فإن داء الجهل؛ يُعالج بالعلم، أما الهوى؛ فهو آفة النفس التي يعزّ جهادها.

وأصل الهوى؛ الميل إلى الشيء، ثم إن اتباع الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات، من غير داعية الشرع^(١)، فلا تحكيم لعقل ولا لشرع، ومن ثم يأتي الفساد.

وسبب تسميته بالهوى؛ فكما قيل: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار^(٢). ولذلك ورد ذمُّ الهوى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله هوىً في القرآن؛ إلا ذمه، قال الله تعالى ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَشَاطِرٌ مِّثْلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾^(٣) [الأعراف: ١٧٦].

قال تعالى محذراً من مغبة اتباع الهوى ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فنهى الله تعالى داود عليه السلام عن اتباع الهوى، وهو نبي معصوم، فكيف بمن لا عصمة له، فاتباع الهوى سبيل إلى الضلال، لا سيما في مجال الأحكام.

وخاطب الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم؛ مبيناً خطر أهل الكتاب، ناهياً إياهم عن اتباع أهواءهم ﴿وَأَن أَحْكَم بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]

وفي خطابه سبحانه لنبيه موسى عليه السلام قال ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آئِنَةٌ أَسَدُ أُخْفِيهَا لَتَجْزِي أَكُلَ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَتَرَدَّى﴾ [طه: ١٦].

"زيادة ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَتَرَدَّى﴾ - في الآية - للإيماء بالصلة إلى تعليل الصد، أي: لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة؛ إلا اتباع الهوى، دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة، كما أشار إليه قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾^(٤).

(١) التعريفات ٣٢٠/١

(٢) انظر: التفسير الكبير ٥٣/١٢

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦٧/١٦

(٤) التحرير والتنوير ٢٠٣/١٦

وخشي النبي ﷺ على أمته من الهوى فقال: " إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى" (١).

وتخوّف من اتباع الهوى على هذه الأمة، العقلاء منها فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: " أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى؛ يصدّ عن الحق، وطول الأمل؛ ينسي الآخرة." (٢)

وهذا التحذير من اتباع الهوى؛ لما يترتب عليه من فساد المرء، ومن ثمّ المجتمع، فالنفس إذا مالت للشهوات؛ فإنها تميل كذلك بالقلب، وفي هذا يقول ابن الجوزي رحمه الله: " رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائداً في المقدار، حتى إنّها إذا مالت؛ مالت بالقلب والعقل والذهن، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من البدن" (٣).

فالهوى هو أول فتنة طرقت العالم، إذ باتباعه ضلّ إبليس، وبه ضلّ كثير من الأمم عن اتباع رسلهم وأنبيائهم، ولهذا حكم الله تعالى؛ أنه لا أحد أضلّ ممن اتبع هواه، فقال سبحانه عن أهل الكتاب ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِّنْ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

قال الطبري: "إن لم يجبك هؤلاء القائلون للتوراة والإنجيل، فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم، وأن الذي ينطقون به، ويقولون في الكتابين، قول كذب وباطل، لا حقيقة له، ومن أضلّ عن طريق الرشاد، وسبيل السداد؛ ممن اتبع هوى نفسه، بغير بيان من عند الله، إن الله لا يوفق لإصابة الحق، وسبيل الرشد، القوم الذين خالفوا أمر الله وتركوا طاعته، وكذبوا رسوله، وبدلوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم؛ إثارةً منهم لطاعة الشيطان على طاعة ربهم" (٤).

ثم إن الهوى سبب في كثير من الأدواء القاتلة، التي أصابت البشرية على مرّ عصورها، وإن هذا الصنف من الناس؛ هم الذين يتبعون الفساد في الأرض، وما وقعت المصائب والمفاسد إلا باتباع الهوى، فما كُذبت الرسل، وما أمر بالمنكر، ونُهي عن المعروف؛ إلا بسبب اتباع

(١) رواه أحمد من حديث أبي برزة الأسلمي ٤/٤٢٠. ح (١٩٣٤٨)، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب ١/١٢٠ ح (٥٢)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف. كتاب الزهد. ح (٣٣٨٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان. ح (١٠١٨٧)، وأبو نعيم

في الحلية ١/٧٦. ح (٢٣١)

(٣) صيد الخاطر ص ٥٤.

(٤) انظر: جامع البيان ١٩/٥٩٢.

الهوى.

ومن المفسد التي تولدت عن اتباع الهوى؛ الاستكبار والتكذيب للرسول، وربما قتلهم، إذ لما قتلت بنو إسرائيل رسلها؛ جاء نعتهم بالعتو والعناد، والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهوائهم، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوء المعاملة، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون.

وما ذاك؛ إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإزامهم بأحكام التوراة، التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فالهوى بطبيعة الحال من أشد وأخطر الأعداء على الإنسان، فهو يقود صاحبه إلى الغواية والضلال، ومن ثم إلى الهلاك.

إن غواية الهوى بصاحبه تبعد به عن الحق، حتى يكون إلهه هواه، كما قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "أي بما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه؛ كان دينه ومذهبه، كما قال ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ولهذا قال هاهنا ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني، وترك الأول".^(١)

واعلم أن الهوى إله يعبد من دون الله، لذا قال الشنقيطي - رحمه الله - : "وإيضاح أقوال العلماء المذكورة في هذه الآية؛ أن الواجب الذي يلزم العمل به، هو أن يكون جميع أفعال المكلف؛ مطابقة لما أمره به معبوده جلّ وعلا، فإذا كانت جميع أفعاله تابعة لما يهواه، فقد صرف جميع ما يستحقه عليه خالقه من العبادة والطاعة إلى هواه، وإذن فكونه اتخذ إلهه

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٢١

هو اه في غاية الوضوح، وإذا علمت هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم: أن الله جلّ وعلا بيّنه في غير هذا الموضع، في قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍو وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ ۖ وَقَلْبُهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقوله ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ استفهام إنكار، فيه معنى النفي، والمعنى: أن من أضله الله فاتخذ إلهه هواه، لا تكون أنت عليه وكيلاً، أي: حفيظاً تهديه وتصرف عنه الضلال الذي قدره الله عليه؛ لأن الهدى بيد الله وحده لا بيدك، والذي عليك إنما هو البلاغ، وقد بلغت^(١).

فاتباع الهوى أمره خطير؛ إذ لا يستقيم معه الإنسان، ولا يجدي فيه الهدى، لأن المتبع هواه يعرف الحق، بيد إن الهوى الجامح قد سيطر عليه.

لهذا قال ابن عاشور: "والمعنى: أن حجاجهم المسلمين مُركّز على اتباع الهوى والمغالطة، فلا نهوض لحجتهم؛ لا في نفس الأمر، ولا فيما أرادوه، وأنهم لا يرجي لهم اهتداء لأن الله خلقهم غير قابلين للهدى، فلا يستطيع غيره هداهم، وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى؛ الباعث للمؤمنين على أعمالهم، ويتركوا اتباع أدلة الحق^(٢).

ومما سبق يتبين أن الهوى؛ كان ولا يزال سبباً في الشرك والكفر، وقد تقرر أن هذا النوع من الفساد، هو أعظم الأنواع، وأشدّها خطراً، وذلك لتعلقه بحق الله تعالى، وفي بيان علاقة الهوى بذلك، يقول تبارك وتعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

والهوى يقود النفس إلى الشهوة، فإذا تمكنت من الإنسان، وانقاد لها؛ كان بالبهائم أشبه منه بالناس، لأن أغراضه ومطلوباته وهمته؛ تصير أبداً متجهة إلى الشهوات والملذات فحسب، وهذه هي عادة البهائم ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ (٤٣) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ومن يكون بهذه الصفة يقلّ حيأؤه، ويستحب الفواحش، ويسرّ بمعاشرة السخفاء، ويغلب

(١) أضواء البيان ٦ / ٣٣٠

(٢) التحرير والتنوير ١٤١/٢٠

عليه الهزل، وقد يصير من هذه الحال إلى الفجور، وارتكاب الفواحش، والتعرض للمحظورات، وربما دعتة محبة اللذات؛ إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها، وربما حملته على الغضب والخيانة، وأخذ ما ليس له بحق، فإن اللذات لا تتم إلا بالأموال والأعراض، فمحب اللذة إذا تعذرت عليه الأموال من وجوهها؛ جسرتة شهوته على اكتسابها من غير وجوهها، ومن تنتهي به شهواته إلى هذا الحد؛ فهو أسوأ الناس حالاً، ويصبح من الأشرار الذين يخاف خبثهم.^(١)

فلا بد من مخالفة الهوى، وقد قيل:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال^(٢)

(١) انظر: تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ١٦، ١٥

(٢) "هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك، ولم يقل شعرا غيره" انظر: الكامل للمبرد ٦/٢، أدب الدنيا والدين ص ٣٩

المبحث السادس

الكبير

من المفاسد التي تضر بالقلب؛ الكبر، والكبر بالكسر: الكبرياء، والكبر: العظمة والتجبر، وقيل: الرفعة في الشرف^(١)، وهذه المعاني تعطي إشارة إلى ارتباطه برّد الحق، وظلم الخلق برؤية النفس، لهذا قال الإمام الغزالي: الكبر: هو استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير^(٢)، وقد بين النبي ﷺ معنى الكبر فقال: "الكبر بطر الحق، وغمط الناس"^(٣).

قال النووي: "بطر الحق؛ هو دفعه وإنكاره؛ ترفعاً وتجبراً، وغمط الناس؛ معناه احتقارهم"^(٤). ولقد ذكر ابن قدامة؛ أن للكبر درجات فقال: "واعلم أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاثة درجات: الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، وقد قطع أغصانها. الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فتري العالم يصغر خده للناس؛ كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقدر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف؛ يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد؛ إلا بالتقوى، قال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك التكبر بالمال، مما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم، والتكبر بالجمال أكثر، كما يجري بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب..^(٥) إلى غير ذلك من المفاسد التي يتسبب فيها الكبر. والكبر سبب من أسباب الإعراض عن الحق، كما حدث مع إبليس، حين أمر بالسجود لآدم عليه السلام تعظيماً لقدره، وليس عبادة له، فأعرض عن السجود

(١) انظر: لسان العرب ٥ / ١٢٥، مادة (كبر)

(٢) احياء علوم الدين ٣ / ٣٥٣

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر وبيانه. ح (١٤٧).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ٩٠.

(٥) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٣٣

استكباراً، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]

قال ابن كثير: "لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم؛ إلا أنه كان قد تشبه بهم، وتوسم بأفعالهم، لهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر".^(١)

ثم وجه الله تعالى سؤالاً لإبليس؛ لذكر علة امتناعه عن السجود؛ إثر الأمر به، فقال تعالى ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وكانت الإجابة أن قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

والمعنى - على مراد إبليس - لو كنت مساوياً لآدم في الشرف؛ لكان يقبح أمري بسجودي له؛ فكيف وأنا خير منه؟ ثم يبين خيrote بأن أصله من النار، وهي أشرف من الطين، لذا فهو خير من آدم بزعمه.^(٢)

وعلق الشنقيطي على ذلك، فقال: "بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعة النار الحفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعة الطين الرزانة والإصلاح، تودعه الحبة فيعطيكها سنبله، والنوأة فيعطيكها نخلة، فانظر إلى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة؛ تعلم أن الطين خير من النار"^(٣).

فتأمل أثر الكبر؛ الذي نقل إبليس من رحاب العبودية، إلى مستنقع الفساد والكفر.

وورث إبليس الكبر لأعوانه، كما هو حال قوم نوح، حيث قال في وصفهم ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرًا فِي إِذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وكذا ثمود، الذين حملهم الكبر؛ أن لا ينقادوا للحق الذي اتبعه الضعفاء، فأصروا على

كفرهم، قال تعالى ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ آتَعْلَمُونَ

أَنْتَ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ [٧٥] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي

ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٧

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٦/ ٢١٢

(٣) أضواء البيان ١/ ٣٤

وأخبر - سبحانه - عن استكبار قوم عاد ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

وحكى القرآن ذلك - أيضاً- عن صنديد الكبر والكفر، لما جاءهم موسى بالبينات، فقال تعالى ﴿وَقَرَّبُوا فِي فِرْعَوْنَ وَهَمَزُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]. وقال ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٥٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥: ٤٧]. وقال ﴿وَاسْتَكْبَرَهُ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

ولما ذكر الله تعالى فساد عقيدة النصارى، وغلوهم في عيسى عليه السلام، وبيّن أنه عبده ورسوله، ذكر أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، قال تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]. أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ولا الملائكة المقربون، فترههم عن الاستنكاف، ونفي الشيء؛ فيه إثبات ضده، فعيسى عليه السلام والملائكة المقربون؛ قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها، بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا إلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار. ^(١) والاستنكاف: التكبر والامتناع بأنفة، فهو أشد من الاستكبار، ونفي استنكاف المسيح؛ إمّا إخباراً عن اعتراف عيسى بأنه عبد الله، وإمّا احتجاجاً على النصارى بما يوجد في أناجيلهم.

قال الله تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]. وعطف الملائكة على المسيح، مع أنه لم يتقدم ذكر؛ لمزاعم المشركين بأن الملائكة بنات الله، حتى يتعرض لرد ذلك، إدماج لقصد استقصاء كل من ادعت له بنوة الله، ليشمله الخبر بنفي استنكافه عن أن يكون عبداً لله، فذكروا هنا للدلالة على اعترافهم بالعبودية.

والآية تخلص إلى تهديد المشركين، كما أنبأ عنه قوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣] ^(٢).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٦

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣٣٧/٤

ومع ذلك؛ فالنصارى أقرب لأهل الإيمان، من اليهود والمشركين؛ فقد بين - تعالى - أن من أسباب ذلك؛ عدم الاستكبار، فقال سبحانه ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

قال ابن كثير: "ما ذاك؛ إلا لأن كفر اليهود؛ عناد وجحود ومباهة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة"^(١).

وراحت أدواء الفساد تتناقل من جيل إلى جيل، وكان الكبر أحد وسائل نقلها، وسبيل الصد عن الحق.

كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

"لقد استكبروا في أنفسهم؛ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجراءة! فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين! حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟"^(٢).

لقد صددهم الكبر عن الحق، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، "فهم يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله، وما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدتهم هو الموضوع"^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ١٦٦/٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٥٨١

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٥١/٧

وقال تعالى عن المنافقين، مبيناً إعراضهم عن الحق؛ بسبب استكبارهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

ولخطورة الكبر، فقد تربّع على عرش أركان الكفر، فقد ذكر ابن القيم أن أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة، فالكبر يمنع الانقياد، والحسد يمنع قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنع العدل، والشهوة تمنع التفرغ للعبادة، فإذا تهدم ركن الكبر؛ سهل عليه الانقياد، وإذا تهدم ركن الحسد، سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا تهدم ركن الغضب؛ سهل عليه العدل والتواضع، وإذا تهدم ركن الشهوة؛ سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها؛ أيسر من زوال هذه الأربعة عن بلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة، وملكات، وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة، ولا تزكو نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل؛ أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات؛ متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب؛ أرتته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا، وبعدت منه الآخرة، وإذا تأملت كفر الأمم؛ رأيت ناشئاً منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته؛ بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه؛ فتح عليه أبواب الشرور كلها، عاجلاً وآجلاً، ومن أغلقها على نفسه؛ أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الانقياد، والإخلاص، والتوبة، والإنابة، وقبول الحق، ونصيحة المسلمين، والتواضع لله ولخلقة. (١)

ولابد للقلب من طهارته؛ إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر، حتى تتمكن حقائق الإيمان من دخوله، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

فالكبر صارف من صوارف الهداية، قال تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال البغوي عند تفسيره لهذه الآية: قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد الذين يتجبرون على عبادي، ويجاربون أوليائي، حتى لا يؤمنون بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي، والتصديق بها،

فَعُوقِبُوا بِجِرْمَانِ الْهُدَايَةِ؛ لِعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُودُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].
وقال سفيان بن عيينة^(١): سأمنعهم فهم القرآن.^(٢)

وفي قصة صاحبي الجنيتين في سورة الكهف، دليل على الأثر السيء للكبر، قال تعالى ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا^(٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤، ٣٦].
فحمله الكبر - عياداً بالله - على الكفر بخالقه، وإنكار البعث، والتعالي على الخلق.

فأنكر عليه صاحبه ذلك، كما حكى القرآن عنه ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾^(٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨].
"فبين - جل وعلا - أن ذلك الرجل المؤمن - المضروب مثلاً للمؤمنين، الذين تكبر عليهم أولو المال والجاه من الكفار - قال لصاحبه الآخر الكافر - المضروب مثلاً لذوي المال والجاه من الكفار - منكرًا عليه كفره؛ ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾، لأن خلقه إياه من تراب ثم من نطفة، ثم تسويته إياه رجلاً، كل ذلك يقتضي إيمانه بخالقه؛ الذي أبرزه من العدم إلى الوجود، وجعله بشراً سويًا، ويجعله يستبعد منه كل البعد الكفر بخالقه الذي أبرزه من العدم إلى الوجود. وهذا المعنى المبين هنا بينه في مواضع أخرى، كقوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ لِيُمِيتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]"^(٣).
وختمت القصة لتبين أن عاقبة أمر هذا الكافر المتكبر هي الخسار ومن اللطائف أن هذه القصة جاءت بعد أمر الله لنبيه أن يصبر نفسه مع ضعفاء المؤمنين، خلافاً لكبراء قريش الذين تكبروا عن الجلوس معهم، فكان عاقبتهم الخسار كما كانت عاقبة صاحب الجنيتين.^(٤)

(١) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي، ثم المكي، الإمام الكبير، حافظ العصر وشيخ الإسلام، ولد بالكوفة ١٠٧هـ، أخذ عن: عمرو بن دينار والأعمش والزهري، وخلق غيرهم، وعنه: الشافعي وأحمد بن حنبل وابن راهوية وغيرهم، مات بالكوفة ١٩٨هـ وله ٩١ سنة.

انظر: سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨، وتذكرة الحفاظ ٢٦٢/١.

(٢) انظر: معالم التنزيل ٢٨٢/٣

(٣) أضواء البيان ٢٧٤/٣

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١٥٧/٥

المبحث السابع

الحَسَد

الحسد مفسدة عظيمة، ينبني على ظلم الغير، به يعم الفساد، وتوغر الصدور، وتتقطع أواصر الحب بين الناس، لهذا عُرِف الحسد: بأنه تمنى زوال نعمة المحسود، وحسدُه يحسده، ويحسده حسداً، وحسدُه: إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما.^(١)

وفي الاصطلاح: هو تمنى زوال نعمة المحسود إلى الحاسد^(٢)، فهو خلق ذميم، مع إضراره بالبدن، وإفساده للدين.^(٣)

والحسد داءٌ عُضال سرى في الدنيا؛ منذ أن خلق الله آدم عليه السلام، وهو ناتج عن البغض والكراهية، والانفعال من أعماق النفس، كما في مكنون نفس اليهود، إذ قال تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فالآية تدل على أن الحسد مرض مكنون في أغوار النفس الأمارة بالسوء، لهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، ولا يخلص إلا القليل من الناس، ولهذا يقال لا يخلو جسد من حسد، لكن اللثيم يديه، والكريم يخفيه".^(٤)

وقال البغوي: "نزلت هذه الآية في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، بعد وقعة أحد: لو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا، فنحن أهدي سبيلاً منكم، فقال لهم عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت. فقالت اليهود: أما هذا فقد صبا، وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله رباً، وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبالكعبة قبله، وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قد أصبتما الخير، وأفلحتما"، فنزلت الآية"^(٥).

(١) لسان العرب ٣/ ١٤٨ مادة (حسد).

(٢) التعريفات. ض ٨٧

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٣٢٣

(٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٢٥

(٥) انظر: معالم التنزيل ١/ ١٣٦، والعجاب في بيان الأسباب ١/ ٣٥٦

والمعنى: تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود، لو يردونكم يا معشر المؤمنين من بعد إيمانكم كفاراً؛ و(حسداً) نُصب على المصدر، أي يحسدونكم حسداً من تلقاء أنفسهم، ولم يأمرهم الله بذلك، من بعد ما تبين لهم الحق في التوراة؛ أن قول محمد ﷺ صدق ودينه حق. (١)

لهذا لو تأملت الآية لوجدتها "دليلاً واضحاً؛ على أن حرمان التوفيق أقعدهم عن الإيمان، فإنهم لم يحسدوا غيرهم عليه، إلا بعد أن تبينت لهم حقيقته، إذ محال أن يحسدوا غيرهم على ما هو باطل عندهم، وفي أيديهم ما يزعمون أنه خير منه" (٢). ومما لا شك فيه؛ أن الحسد تترتب عليه مفساد تتكاثر بنيران الشر التي توقد في القلوب.

ومن مفساد الحسد؛ أنه سبب لسوء الظن بالله:

إن أول مفساد الحسد التي يجنيها الحاسد، بنفسه الخبيثة، هو سوء الظن بالله تعالى، فإن الحساد الذين يريدون زوال نعم الله عن أصحابها ويتموها لأنفسهم، قال تعالى عنهم ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل الحامل لهم على قولهم؛ كونهم شركاء الله، فيفضلون من شاؤوا؟ أم الحامل لهم على ذلك؛ الحسد لرسول الله ﷺ، وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببعيد، ولا غريب على فضل الله ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ "وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته؛ من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أنبيائه؛ كداود وسليمان، فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة، والنصر، والملك، لمحمد ﷺ أفضل الخلق، وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأحشاهم له" (٣).

وهذا الحسد من سوء نفوسهم وخبثها، وهل تجد أخبث من نفس اليهود، الذين أساؤا الظن برهم؟! وكفروا ببعثة محمد ﷺ؛ لأنه لم يبعث منهم، فكفروا به حسداً وغلاً، اعتراضاً منهم على عطاء الله لغيرهم، وعُجِبَ بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي

(١) معالم التنزيل ١/١٣٦

(٢) نكت القرآن للقصاب ١/١٣٢

(٣) تيسير الكريم الرحمن : ١٨٣

رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه، فردّ الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين^(١)، فهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يضع رسالته، لكن الحسد الذي يعمل في قلوب اليهود؛ هو الدافع لهذا الظن السيء بالله عز وجل.

وإذا كان الكفر ملة واحدة، فلا غرو أن مشركي مكة يحسدون النبي ﷺ، فقالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

والمعنى - كما سبق بيانه في فساد الكبراء^(٢) - لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم من مكة والطائف، وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول ﷺ، بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه "الأمين"^(٣).

ومن مفاسد الحسد أنه سبب في المعصية:

والحسد داء متأصل في النفوس الخبيثة، قديم قدم هذه الدنيا، وأول ما ظهر الحسد، ظهر من إبليس اللعين، حين أمر الله تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لآدم بقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وما كان السجود من الملائكة؛ إلا بعد أن أظهر الله لهم فضيلة آدم عليه السلام حين أخبرهم بأسمائهم وعلمهم شيئاً ما علموه، لكن إبليس تعيظ من ذلك؛ فامتنع من السجود، وقد برّر موقفه بمبرات فاسدة تقدم بها أمام ربه تبارك وتعالى عندما سأله الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

كما ظهر أثر الحسد في إبليس، حيث قال ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٢٧١

(٢) انظر: ص ٢٧٤ وما بعدها.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٣٣٢

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، فضلّ أبلّيس عن السبيل، وسعى - حسداً وبعياً - في إضلال ذرية من فضّله الله عليه.

ولذا قال الطبري في تفسير الآية: "واذكر يا محمد، تمادي هؤلاء المشركين في غيهم وارتدادهم، عتوا على ربهم، بتخويفه إياهم، تحقيقهم قول عدوّهم وعدوّ والدهم - حين أمره ربه بالسجود له فعصاه وأبى السجود له، حسداً واستكباراً - ﴿لَئِن أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِذْ قَلِيلًا﴾ وكيف صدّقوا ظنه فيهم، وخالفوا أمر ربهم وطاعته، واتبعوا أمر عدوّهم وعدوّ والدهم" (١).

وهذا ما دفع بعض السلف لأن يقول: "الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام، وأول ذنب عُصي الله به في الأرض، يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله" (٢)، وهكذا يُعمي الحسد بصيرة صاحبه؛ فيأتي بالأقيسة الفاسدة، التي خلّفت معصيته لرب العالمين، وسنّ سنة سيئة إلى يوم الدين حيث أصبح إبليس قدوة للحساد.

ومن مفاسد الحسد أيضاً أنه سبب في القتل:

فقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته؛ فيحمّله على إيصال الأذى للمحسود، بإتلاف أسباب نعمته، أو إهلاكه رأساً.

وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه، ولم يقبل قربان الآخر، كما قصّه الله تعالى في سورة العقود (٣)، قال تعالى ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رُبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠، ٢٧].

"ففي هذه الآيات إشارة إلى أن الحسد يطمس البصيرة، ويوقر المسامع، وأن الحاسد لا همّ له؛ إلا أن يُفرغ سُمّ نفسه الخبيثة في المحسود، وذلك لأن قابيل بعد تلك الموعظة المؤثرة؛

(١) جامع البيان ١٧/٤٨٨

(٢) أدب الدنيا والدين. ص ٣٢٣

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥١

غلبته نفسه الأمانة، فهوت في عينه قتل أخيه وسهله، فقتل أخاه، فحسر بذلك دنياه وأخرته، وأصبح إماماً لكل سفاح".^(١)

وقد جاء مرفوعاً "لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل".^(٢)

فانظر إلى هذا الفساد الذي ترتب على الحسد، أنتج أن أصرة المحبة قد تلاشت من قلب الأخ، فانتهت بقتله لأخيه.

ومن ثم قال تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وتخصيص بني إسرائيل بالذكر، لأن الحسد كان منشأ ذلك الفساد، وهو غالب عليهم، وقيل: إنما ذكروا دون الناس؛ لأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، وتمادياً، حتى قتلوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكأنه قيل: بسبب هذه العظيمة كتبنا في التوراة تعظيم القتل، وشددنا عليهم، وهم بعد ذلك لا يزالون، ووصفهم بالإسراف في الفساد فقال ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وحذف متعلق (مسرفون) لقصد التعميم، والمراد مسرفون في المفاصد التي منها؛ قتل الأنفس، بقرينة قوله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فقد كثر في استعمال القرآن ذكر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مع ذكر الإفساد.^(٣) ولم تنته المفاصد عند هذا الحد؛ فإن الحسد سبب في الكيد.

فلا يزال الحسد موجوداً في قرارة النفوس، يجري في الدماء، إلا من طهر الله دمه من هذا السم القتال، والداء العضال، وقد ذكر لنا القرآن قصة عظيمة هي أحسن القصص، قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وبدأت القصة بقول يوسف لأبيه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وكان يعقوب عليه السلام يعرف ما قد يلقيه الشيطان من حسد؛ في قلوب إخوة يوسف عليه السلام

(١) من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان ٣٠٩/١.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٢

(٣) روح المعاني ١١٧/٦

فحذره من أن يخبر إخوته فقال له ﴿يَبْنِي لَكَ نَقْصَ رِيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

ولما رأى إخوة يوسف؛ ما يُكنّه يعقوب ليوسف وأخيه من حبٍّ صادق؛ ظهر الحسد جلياً واضحاً، فدبروا الأمر لقتل يوسف، ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (١) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿يوسف: ٩، ١٠﴾، ودارت عجلة الأحداث التي آلت بيوسف وأبيه.

ومن ذلك؛ كيد اليهود الذي بلغ حدّه، حيث لجؤا إلى أساليب قبيحة، دفعهم الحسد - الذي تغلغل في قلوبهم - أن يسلكوها، قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. "قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا؛ حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾" (١).

وكذلك كيد مشركي مكة، كما في قوله تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

قال السعدي: "ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة مجنون، وتارة ساحر، وتارة شاعر" (٢).

ومن مفاسد الحسد: تمني وقوع الناس في الكفر.

فلا شك أن العاصي؛ يتمنى أن لو كان الناس مثله، يتمرغون في أحوال المعصية، وكذلك أهل الكفر على اختلاف مشاربهم، ومن ذلك اليهود الذين تمنوا أن لو ارتد المسلمون عن

(١) جامع البيان ٣٣٥/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٨٨٢

دينهم، قال تعالى ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. قال ابن كثير: "يحذر تعالى عباده المؤمنين؛ عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم، وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والإحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح".^(١)

ومن شدة حسدهم الذي فضحه الله تعالى به، أن حاولو التشكيك في دين الله تعالى، كما قال سبحانه إخباراً عن قولهم ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا بآخِرِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وهذا من شدة حقدهم، وفساد نياتهم، وحبث طويتهم، وثبت في السنة النبوية شدة حسد اليهود خاصة، كما قال النبي ﷺ "ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين"^(٢). وهذا ناتج مكنون ما تحوي عليه قلوبهم وما يعتمد في صدورهم.

ولخطورة الحسد والحاسد أمر الله بالتعوذ من الحاسد إذا حسد، لذا قال ابن القيم: "وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يُخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه؛ إلا بما يجب الله، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد؛ إلا من عصمه الله، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق وحسد، ورتب على حسده مقتضاه؛ من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم هذا كله حسد تمني زوال النعمة".^(٣)

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٢/١

(٢) رواه ابن ماجه. كتاب إقامة الصلاة. باب الجهر بآمين. ح(٨٥٦)، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته. انظر: مصباح الزجاجة ١/١٣٤، وصححه الألباني. انظر: صحيح الترغيب والترهيب ١/١٢٤

(٣) بدائع الفوائد ١/٢٣٦

فالحسد الذي يتمنى معه العبد زوال نعمة أخيه مذموم، ومستعاذ منه، كما قال الفخر الرازي: "من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه".^(١)

المبحث الثامن

و و
الغلو

من أسباب الفساد؛ الغلو: وهو في اللغة: "يدلُّ على ارتفاع ومجاورة قدر. يقال: غَلَ السَّعْر يَغْلُو غَلَاءً، وذلك ارتفاعه، وغَلَ الرَّجُلُ فِي الْأَمْرِ غُلُوءًا، إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ"^(١).

وفي الشرع: مجاوزة الحدِّ؛ أن يزيد في حمد شيء أو ذمّه، على ما يستحق.^(٢) وقيل: هو المبالغة في الشيء والتشديد بتجاوز الحدِّ^(٣).

والغلو يدخل في الاعتقاد، ويدخل في الأعمال، ويدخل في السلوك، فلا يكتفي العبد بمطلوب الشرع، فيغالي ويزيد من عنده؛ تشدداً وتنطعاً، إما في الأشخاص؛ بتجاوز الحدِّ في حقهم، ورفع قدرهم إلى ما لا يستحقون، أو في الأحكام الشرعية؛ بفعل ما لا يدركون فيتأتى الفساد.

والغلو محرّم شرعاً؛ لتضافر النصوص في النهي عنه والتحذير منه، وبيان سوء عواقبه على أهله في العاجل والآجل، قال تعالى ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

فانظر كيف أدى الغلو بأهل الكتاب إلى فساد معتقدهم، لذا يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: "ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحدِّ في عيسى عليه السلام، حتى رفعوه فوق المتزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز التبوّة إلى أن اتّخذوه إلهاً من دون الله؛ يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممّن زعم أنّه على دينه، فادّعوا فيهم العصمة، وأتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].^(٤)

وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ

(١) مقاييس اللغة ٤/٣١٢

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٨٩

(٣) انظر: فتح الباري ١٣/٢٧٨، الاعتصام للشاطبي ٣/٣٠٤

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٥٨٩.

قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿المائدة: ٧٧﴾.

قال الطبري معقباً على هذه الآية: "يقول: لا تُفِرطوا في القول فيما تدينون به؛ من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه." (١)

ومن هذا الغلو في دين النصارى؛ جاءت معظم انحرافاتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال، من سائر الطوائف، وإياهم نهي الله عن الغلو في القرآن." (٢)

بل إن أصل الشرك وسبب وقوعه في بني آدم؛ هو الغلو في الصالحين المعظمين، وتجاوز الحد في إطرائهم ومدحهم والثناء عليهم، قال الله تعالى في قوم نوح عليه السلام ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك، فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة. (٣)

وقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ وأمته ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

ففي هذه الآية أمر بالاستقامة وهي الاعتدال والوسط، بين الإفراط والتفريط، وهذا ما يفيد قوله ﴿وَلَا تَطَّغَوْا﴾، فهو أمر بالاستقامة دون غلو أو مبالغة تميل بهذا الدين من يسر إلى عسر. قال القرطبي: "وفيها نهي عن الطغيان، وهو مجاوزة الحد." (٤)

كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) جامع البيان ٦ / ٣١٦

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٢٨٩

(٣) انظر: جامع البيان ٢٣ / ٦٢٩، تيسير الكريم الرحمن ص ٨٨٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٧١

ففي الآية تحذير من تعدي الحدود، والأمر بلزومها، فتعديها؛ تجاوزها وعدم الوقوف عليها، وهذا التعدي هو الذي يسعى إليه الشيطان، إذ إن مجمل ما يريد تحقيقه أحد الانحرافين؛ الغلو أو التقصير.

يقول ابن القيم: "وما أمر الله بأمر؛ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة؛ وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر؛ مضيع له، فالغالي فيه؛ مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد، وقد نهى الله عن الغلو بقوله ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

والغلو نوعان: نوع يخرج عن كونه مطيعاً؛ كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخور الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً، أو نحو ذلك عمداً، وغلوٌ يخاف منه الانقطاع والاستحسار، كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد؛ الذي قال فيه النبي ﷺ: "إن هذا الدين يسرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحد؛ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا ويسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة".^(١) يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر؛ بالسير فيها".^(٢)

والمعنى؛ لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية، ويترك الرفق؛ إلا عجز وانقطع فيغلب. وقد أكد النبي ﷺ على القصد في العبادة، وحذر من الغلو والتشديد؛ في غير ما موضع، فقال ﷺ: "ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد"^(٣)، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: "هلك المنتطعون، قالها ثلاثاً".^(٤)

قال النووي: "هلك المنتطعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم".^(١)

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٢

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٩٦

(٣) أخرجه البخاري. كتاب أبواب التهجد. باب ما يكره من التشديد في العبادة. ح(١٠٩٩).

(٤) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب هلك المنتطعون. ح(٢٦٧٠).

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا" (٢) وكما بين أن الغلو؛ سبب هلاك الأمم قبلنا، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والغلو، وإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين". (٣)

وسدّ ﷺ باب الغلو في الأشخاص؛ مهما بلغ قدرهم، حتى لا تقع هذه الأمة في الانحراف الذي وقع فيه النصارى، فعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله". (٤)

والمراد: لا تمدحوني، فتغلوا في مدحي، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام، فادعوا فيه الربوبية والألوهية، وإنما أنا عبد الله، فصفوني بما وصفني به ربي، وقولوا: عبد الله ورسوله. إلّا أن الضلّال أبوا إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، وناقضوه أعظم المناقضة، فغلوا فيه، وبالغوا في إطرئه، وادعوا فيه ما ادعت النصارى في عيسى، أو قريباً منه، فسألوه مغفرة الذنوب، وتفريج الكرب، وشفاء الأمراض، ونحو ذلك، مما هو مختص بالله وحده لا شريك له، وكل ذلك من الغلو في الدين.

فخشى النبي ﷺ من الخروج عن جادة الحق والصواب، مع اعتقاد الغالي بأنه على الحق، كما هو الحال مع الذين يدعون مع الله أحداً، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى كمغفرة الذنوب، ورزق الأولاد، إلى غير ذلك...

ولعل الحكمة في تحريم الغلو في الدين والتحذير منه، هو ما ينتج عنه من فساد عقدي، وفساد تعبدية، وفساد سلوكي، إضافةً إلى أنه منفرٌ لا تحتمله طبيعة البشر، وإن تحمّله فئة من فئات المجتمع؛ ضاقت به ذراعاً جل الفئات، كما أنه لا يخلو من جور على حقوق الآخرين؛ التي يجب مراعاتها، وواجباتهم التي ينبغي أدائها.

(١) شرح مسلم للنووي ٢٢٠/١٦

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الإيمان. باب أحب الدين إلى الله أدومه. ح(٤٣)، ومسلم. كتاب صلاة المسافرين. باب أمر من نعى في صلاته. ح(٧٨٥).

(٣) أخرجه النسائي. كتاب مناسك الحج. باب إلتقاط الحصى. ح(٣٠٥٧). وابن ماجه. كتاب المناسك. باب قدر حصي الرمي. ح(٣٠٢٩)، وأحمد/٥/٢٩٨، والطبراني في الكبير ٢٨٩/١٨. ح(٧٤٢)، وصححه الحاكم ٦٣٧/١.

ح(١٧١١)، ووافقه الذهبي، وصححه - أيضاً - الألباني. انظر: السلسلة الصحيحة ٣/٣٥٧. ح(١٢٨٣).

(٤) أخرجه البخاري. كتاب الأنبياء. باب قوله "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها". ح(٣٢٦١).

لهذا قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما حين بلغه انهماكه في العبادة؛ انهماكاً أنساه حق أهله عليه: "يا عبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقال: قلت: بلى يارسول الله، فقال: "فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك^(١) عليك حقاً..".^(٢)

"فيه التحذير من الغلو في الديانة، والتنطع في العبادة، بالحمل على النفس فيما لم يأذن فيه الشرع، وقد وصف الشارع الشريعة بأنها سهلة سمحة"^(٣).
ثم إن الغلو؛ باعث على السامة والملل، ولذا لما كبر عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ".

قال النووي: "ومعناه أنه كبير وعجز عن المحافظة على ما التزمه؛ ووظفه على نفسه عند رسول الله ﷺ، فشقق عليه فعله لعجزه، ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى لو قبل بالرخصة فأخذ بالأخف"^(٤).

إن مكن خطر الغلو أنه ابتداء في شرع الله تعالى، حمل عليه الجهل بالشريعة، وضعف البصيرة، وإن الغالي ليفسد في هذا الدين من حيث أراد الإصلاح، فإن حمل النفس على المشقة، تشديد وتعسف، ينفر الخلق عن الدين، ويفتح الباب للاتجاهات المنحرفة لنبد الشريعة؛ بدعوى عدم ملائمتها لواقع الحياة.

ومن ثم ينشأ جيل منحرف؛ يتمرد على الدين، ويحطم القيم. ناهيك عما أحدثه الغلو في جسد هذه الأمة؛ من تفرق واختلاف، وفتح باباً عظيماً للفتنة بين أهل الإسلام، وهلاك للحرث والنسل.

فواجب على المسلم أن يكون على صراط الله المستقيم، بعيداً عن الغلو وعن الإجحاف، فإنه في أشرف مقاماته حينما يكون واقفاً بين يدي الله - عز وجل - يسأله السلامة من فعل

(١) قوله: "لزورك" بفتح الزاي: أي لضيفك. انظر: فتح الباري ١/١٢٨

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الصوم. باب حق الجسم في الصوم. ح(١٨٧٤)، ومسلم. كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر. ح(١١٥٩).

(٣) فتح الباري ١٢/٣٠١

(٤) شرح النووي على مسلم ٨/٤٣

اليهود والنصارى، كما قال ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]. أي أخرجنا من غلو النصارى، وإجحاف اليهود.

فينبغي العناية بتحقيق هذا الأصل العظيم، بسلوك سبيل الوسطية والاعتدال؛ الذي هو محل فضل الله عز وجل، وامتنانه على هذه الأمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

المبحث التاسع

الثرف

الترف داء عُضال، ومرض مُهلك، إن استشرى في أمة ذهب بزهره شباهها، وأورثهم خمولاً ودعةً، وعلّق قلوبهم بالحياة الدنيا وزخارفها، فعمّ الفساد وانتشر، فحق عليهم القول. والمترف: المتنعم المتوسّع في ملاذ الدنيا وشهواتها، وقيل: المترف الذي أبطرتة النعمة، وسعة العيش. (١)

ولا شك أنّ للترف أثره على قلب المرء وسلوكه، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: "إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين" (٢).

وهذا محمول على المبالغة في التنعم والمداومة في قصده، وذلك لأنّ الإفراط في التنعم - ولو كان بالمباح - يوجب الأُنس به، ويُخشى من غائلته، من نحو بطر وأشر، ومداهنة، وتجاوز إلى مكروهه، ونحو ذلك، وممكن خطره؛ أنه يورث المرء ارتياحاً إلى الدنيا، وركوناً إليها، ويبعد عن الخوف الذي هو جناح المؤمن.

ويجدر التنبيه هنا، أن الغنى ليس متعلقاً بالترف ضرورةً، فالغنى قد يؤدي إلى الترف ويسوق إليه، لكن ليس ذلك حتماً، فكم من غني شاكراً، بعيد عن الترف، مترفع عنه. فالغنى مرتبة اقتصادية تشير إلى حجم الثروة التي يملكها فرد من الناس، ولكنها لا تقف عند مجرد الرقم الحسابي؛ بل تترك آثاراً في نفس الغني وفي سلوكه، لكن بعض الناس يترفع عن التأثير السلبي بالثروة، ويتخلق بأخلاق الصالحين ويتصف بصفاتهم.

ولذا فشرعية الإسلام؛ تربي المسلم على منهج؛ يمنع تحول الثراء إلى أداة سيطرة يستبد بها الأغنياء بعامّة الناس، وبذلك يكون الغنى مهما فحش؛ مرتبة مقبولة في الاقتصاد الإسلامي، شريطة أداء الحق الواجب، والإنفاق في سبيل الله تعالى، والإخلاق الحميدة، والحكم الصالح، وهذا سياق محكم يمنع الغنى أن يتحول إلى أداة فساد.

ومن ثمّ؛ فالترف صفة زائدة على الغنى، حيث يفهم من تجاوز المصرف المعتاد، في إشباع الحاجة، ليصل إلى حدّ الإسراف والتبذير، ويظهر بذخاً في الثياب والطعام وأداة الركوب والمسكن، كما هو المألوف من حال المترفين.

ولقد ذكر الترف في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، كلها في معرض الذم له.

(١) انظر: تهذيب اللغة ١٤/١٩٣، لسان العرب ٩/١٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، والبيهقي في سننه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٦٨).

ومن الحكم في ذلك - والله أعلم - أن المترفين هم معظم أهل الشرك بمكة، وأما أهل الإيمان يومئذ فهم ضعفاء، قال الله تعالى ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١] (١).

ومما يدل على ارتباط الترف بالفساد، قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَاهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

والمعنى: "أمرنا مترفيها بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به، (ففسقوا) أي: خرجوا عن طاعة ربهم، وعصوه، وكذبوا رسله ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَرْنَاهَا﴾ أي: أهلكتها إهلاكاً مستأصلاً، وأكد فعل التدمير بمصدره؛ للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية، تشهد له آيات كثيرة، كقوله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فتصريحه - جل وعلا - بأنه لا يأمر بالفحشاء؛ دليل واضح على أن قوله ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا﴾ أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى؛ أمرناهم بالفسق ففسقوا، لأن الله لا يأمر بالفحشاء (٢).

"وتعليق الأمر بخصوص المترفين، مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس، لأن عصيانهم الأمر الموجه إليهم؛ هو سبب فسقهم، وفسق بقية القوم، إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر؛ اتبعهم الدهماء، فعمّ الفسق، أو غلب على القرية، فاستحقت الهلاك" (٣).

وأعقب الله تعالى هذه الآية؛ بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

فضرب مثلاً لإهلاك القرى الذي وصف سببه، وكيفيته في الآية السابقة، وعقب ذلك بتمثيله؛ لأنه أشد في الكشف، وأدخل في التحذير المقصود.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤٤/١٤

(٢) انظر: أضواء البيان ٧٥/٣

(٣) التحرير والتنوير ٤٥/١٤

وفي قوله ﴿مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ إشارة إلى أن زعماء الكفر من قوم نوح؛ مترفين، فهم الذين قالوا ﴿مَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا لَدِينِكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَأْدَى الرَّأْيِ وَمَا نَزَّلْنَاكَ إِلَّا لَدِينِكَ﴾ [هود: ٢٧]، وقال لهم ﷺ ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]^(١).

ومن الآيات الدالة على هذا، قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

فقوله في هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ...﴾ الآية، لفظ عام في جميع المترفين من جميع القرى، أن الرسل أمرتهم بطاعة الله فقالوا لهم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم، والآيات بمثل ذلك كثيرة^(٢).

وعليه؛ فالمترفون تأصل فيهم الفساد؛ فأبطرهم النعمة ورغد العيش، وهم أشد الناس حرصاً على الزيادة في الأحوال، وتوفير الحاجيات، والوصول إلى أكبر قدر من تحصيل الملذات، وكأنهم فيها من المخلدين، وإلى الله ليسوا راجعين.

وإذا كان الشرع قد دعا إلى مجانية الترف، فإن هذا لا يعني ترك النعم والملذات، وتحريم الطيبات، كيف؛ وقد قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] وإنما المراد عدم تعلق القلب بها، والركون إليها، حتى لا يصل الفساد للقلب؛ فتفسد الجوارح، ومن ثم يؤل الحال؛ إلى فسادٍ وانحلال، فيقل أهل الإصلاح، الذين قال الله تعالى عنهم ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

فبين الله تعالى أن حلول العذاب بالأمم الخالية؛ إنما كان سببه؛ أهل الترف الذين لم يكن فيهم من ينهى عن الفساد، ويأمر بالرشاد، إلا قلة من أهل الفضل والعقل.

وقوله ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: أنهم اتبعوا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه، فالمترف أثر ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة.

(١) انظر: التحرير والتنوير ٤٦/١٤

(٢) أضواء البيان ٧٥/٣

وقوله ﴿وَكَاوُوا مُجْرِمِينَ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم، وهي معطوفة على أترفوا، أي: وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين، والإجرام: الأثام، والمعنى: أنهم أهل إجرام؛ بسبب اتباعهم الشهوات، واشتغالهم بها عن الأمور التي يحق الاشتغال بها. (١)

وتأمل هذه الصورة من صور الترف، التي تمثلت في الاستخفاف بعقول الناس، وجعلت صاحبها يغتر ويفخر بملكه، كما قال تعالى ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزحرف: ٥١، ٥٤].

ففرعون تبجح أمام القبط (٢) بقوله: أفلا تبصرون أيها القوم، ما أنا فيه من النعيم والخير، وما فيه موسى من الفقر وعي اللسان، فافتخر عدو الله بملكه مصر، وما قد مكن له من الدنيا، استدراجاً من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك، ناله بيده وحوله، وأن موسى عليه السلام، إنما يصل إلى الذي يصفه من النعم، لهذا نسبه إلى المهانة، محتجاً على جهلة قومه؛ بأن موسى عليه السلام لو كان محقاً فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحراً؛ لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك، جهلاً بالله، واغتراراً منه بإملائه إياه. (٣)

وما من نبي أرسله الله في قرية إلا كذبه المترفون بها، واتبعه الضعفاء فيها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وأخبر تبارك وتعالى عن المترفين المكذبين؛ افتخارهم بكثرة الأموال والأولاد، واعتقادهم أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائهم بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

(١) انظر: فتح القدير ٧٧٠/٢ .

(٢) جيل بمصر، وقيل هم أهل مصر، لسان العرب مادة (قبط) ٣٧٣/٧ .

(٣) انظر: جامع البيان ١٩٥/١١ .

وهيئات لهم ذلك، قال الله تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].^(١)

ولهذا قال الله تعالى تسلياً لقلب نبيه ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (٢٣) قُلْ أُولُو عِثْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وهكذا ترى أن مما حمل هؤلاء وأولئك على التكذيب والكفر؛ هو الترف.

وما حدث مع ثمود قوم صالح من مفساد، خير شاهد على صدق ذلك، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَصْحَابُهَا قَالُوا يَمُرُّ بِكُمْ يَأْكُلُ مِنْ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

فقال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لبيهم، وتكديماً وتحذيراً منه ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.^(٢)

وقد بين تعالى أن الكفرة المترفين كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن

أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٢].

إلى قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤) عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦]. فلا ينبغي لمن رأى مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف،

أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا.

ومن ثم كان الترف سبباً لاستحقاقهم العذاب، كما قال تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيَةٍ كَانَتْ

ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧١٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن. ص ٥٥١

أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿[الأنبياء: ١١، ١٣].

وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، أي متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم بالعذاب، ووجدوا مسه؛ إذا هم يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه. (١)

وكما كان الترف من أسباب هلاكهم في الدنيا، فهو سبب لعذابهم في الآخرة، قال تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١، ٤٥].

ولم يكن الترف سبباً لفساد الكافرين فحسب؛ بل طال أثره السيء أهل الإسلام. فقد كان أداة هدر لطاقات الأمة مقدراتها، حيث أغراهم بالإحلال إلى الأرض، والاعتراف من الملذات والشهوات، والخوض في سفاسف الأمور ودناياها، والتعلق بالمناصب والجاه والمال، ونسيان المعاني العلية، وترك بذل النفس في ذات الله تعالى، والنفور من ارتكاب الصعب من الأمور - لا لشيء؛ إلا لأنه يشقُّ على النفس - والميل إلى السهل من الأعمال، حتى قاد ذلك؛ إلى الضعف والهوان.

لقد كان الترف ولا يزال؛ معول هدم للدول والشعوب، في القديم والحديث، وتلك سنة كونية لا تتبدل ولا تتغير، وقد مرَّ آنفاً قوله جل ذكره ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

إن الأمم التي تقع في الترف واللهو، وتصرف أموالها، في غير محلها، مآلها إلى الهلاك والدمار، والتاريخ شاهد على أثر الترف في أمم ودول، سادت ثم بادت، وأمثلة ذلك تعزُّ عن الحصر (٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٥

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين

ابن الخطيب السلماني، وغيرها.

فالترف مُعدٍ ككل آفة؛ فحين لا يُعالج؛ فإنه ينتشر ولا بد؛ فيتعمق ويتجذر في الأمة، حتى يدمرها، وقد ظهرت معالم ذلك وآثاره، في سقوط بلاد الشام في يد الصليبيين، ثم سقوط بغداد في يد المغول، وزوال الدولة العباسية، فإنهم بعد أن استتب لهم الملك؛ أخذ الترف يسري بينهم سريعاً، خاصة بفعل الحاشية المفسدة، فانعكس ذلك على ضعفهم، وعدم قدرتهم على القيادة، وتسيير أمور الناس.

ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار، وشيئاً فشيئاً؛ غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد.

وبلغ الترف مبلغه في بلاد الأندلس حتى آل الأمر إلى نهاية مفعجة، وعاقبة سيئة، سلب فيها أهل الإسلام؛ قطراً عزيزاً من بلادهم.

وكذا الأمر في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انغمس السلاطين والحكام، في طلب الشهوات، وسقطوا في فخ الترف، والبذخ والإسراف، فاستترفوا أموال البلاد، وضيعوا حقوق العباد، وفرغت قلوبهم من خشية الله، واستعبدهم الرغبات والشهوات؟ إن أثر الترف على صاحبه وخيم، ولو لم يكن من آثاره؛ إلا الغفلة عن الله تعالى والدار الآخرة؛ لكفى بذلك مفسدة.

ذلك أن العبد إذا تقلب في المتع والمباهج، وتعلق بها قلبه، ملكت عليه حياته، وصار لا يستطيع الخلاص منها، بل أصبحت همته متعلقة في الازدياد منها، فما يلبث أن يكون في عداد المترفين، وينظم في سلوكهم، ويقفوا آثارهم، ولا تسأل حينئذ عن ضعف الإيمان وتتبع الرُّخص، والتساهل في أمر الصغائر.

لذا حذرنا ربنا من هذه الدنيا أشد التحذير، فقال تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُمْصِغًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال النبي ﷺ محذراً أصحابه، وأمته من بعدهم "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما

تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم".^(١)

فالتترف يضعف دين المرء؛ فيضعف حينئذ ورعُه، فيهلك شيئاً فشيئاً، فإن من الورع؛ ترك كثير مما لا بأس به من المباح، إبقاءً على صيانة التقوى في النفس، وخوفاً عليها؛ أن يتكدر صفوها، ويُطفأ نورها، فإن كثيراً من المباح يكدر صفو الصيانة، ويُذهب بهجتها، ويطفئ نورها، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم رحمهما الله، في شيء من المباح: "هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة، فالعارف يترك كثيراً من المباح؛ إبقاءً لصيانة دينه، ولا سيما إذا كان ذلك المباح؛ برزخاً بين الحلال والحرام".^(٢)

(١) أخرجه البخاري. كتاب الرقاق. باب ما يجذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها. ح(٦٠٦١)، ومسلم. كتاب الزهد

والرقاق. ح(٢٩٦١).

(٢) انظر: مدارج السالكين ٢٦/٢

المبحث العاشر

الظلمُ والعُدْوَان

من أسباب الفساد؛ الظلم والعدوان، وأصل الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه^(١).
وقيل: إن أصله؛ الجور ومجاوزة الحدّ، ومنه قوله ﷺ في حديث الوضوء "فمن زاد أو نقص،
فقد أساء وظلم"^(٢).

ومن معاني الظلم في القرآن؛ النقص، كما في قوله تعالى ﴿كَلَّمَا الْجِنِّينَ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ
شَيْئاً﴾ [الكهف: ٣٣].

وجاء بمعنى الشرك في قوله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ءَأُولَئِكَ لَهُمُ ءَلْمَنٌ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فقد فسرها النبي ﷺ بالشرك، كما في قوله تعالى حكاية عن لقمان ﴿يَنْبَغِي لِأَنْتَشْرِكَ بِٱللَّهِ إِنْ
ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وكما جاء بمعنى الميل عن القصد^(٣).

والظلم في الاصطلاح: هو وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة؛ عبارة عن التعدي عن
الحق إلى الباطل، وهو الجور، ومجاوزة الحد^(٤).

والمشهور في مذهب الأشاعرة وغيرهم؛ أن الظلم: هو التصرف في ملك الغير بغير حق، أو
التصرف في ملك الغير بغير إذنه.

وهذا قول مردود، فليس الظلم: التصرف في ملك الغير بغير إذنه، أو بغير حق، فهذا ليس
بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق؛ ولا يكون ظالماً، وقد يتصرف في
ملكه بغير حق؛ فيكون ظالماً.

وعلى هذا قالوا: إن الظلم لا يمكن أن يقع من الله؛ لأن كل شيء ملك لله جل وعلا
يتصرف فيه، فهو يتصرف في ملكه، وإذا ملك مخلوقاً شيئاً؛ فهذا تمليك مستعار، وإلا
فالحقيقة أن الملك لله، فإنه المالك لكل شيء.

وكيف ينفي الرب جل وعلا عن نفسه شيئاً لا يقع، كما قال جل وعلا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ
لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

(١) المصباح المنير ص ١٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود. كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثاً. ح (١٣٥)، وحسنه الألباني في سنن أبي داود

(٣) انظر: لسان العرب، بصائر ذوي التمييز ٥٤/٣.

(٤) التعريفات: للجرجاني ص ٤٨.

قال المفسرون في هذه الآية: الظلم هو أن تكتب عليه سيئة لم يعملها، والهضم: أن يؤخذ من حسناته التي عملها، وكذلك يقول جل وعلا في الحديث القدسي: "إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً"^(١)، فهل يحرم شيئاً لا يمكن وقوعه، هذا لا يمكن!^(٢)

"ويجوز أن يُحمل الظلم على ارتكاب الذنوب؛ بقرينة السياق، كإطلاقه في قوله تعالى ﴿فِظْلِمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]."^(٣)

والظلم ثلاثة أنواع:

أما الأول: فظلم بين الإنسان وربّه، وأعظمه الكفر والشرك والنفق، ولذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وإياه قصد بقوله ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قال الراغب: "وكل هذه الثلاثة في الحقيقة؛ ظلم للنفس، فإن الإنسان أول ما يهّم بالظلم؛ فقد ظلم نفسه"^(٤).

أما العدوان، فهو كما قال الجرجاني: "أن يتمكن في القلب، قصد الإضرار والانتقام"^(٥). وإذا تأملت الظلم والعدوان؛ تجد ترابطاً وثيقاً بينهما، فالظلم نتيجة للعدوان، والعدوان يمرّ بمراحل، إضرار في النفس، ثم ترجمة بالتعدي، ومن يفعل ذلك فهو من الظالمين، وقد قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وتذليل الآية أفاد الحصر، وهو حصر حقيقي، إذ ما من ظالم؛ إلا وهو متعدٍ لحدود الله، واسم الإشارة في قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مقصود منه تمييز المشار إليه؛ أكمل تمييز، وهو من يتعدى حدود الله تعالى، اهتماماً بإيقاع وصف الظالمين عليهم^(٦).

(١) أخرجه مسلم . كتاب البر . باب: تحريم الظلم ح (٢٥٧٧)

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٥٠٧/٨، منهاج السنة النبوية ٩٦/٥

(٣) التحرير والتنوير ١٤٧/١٢

(٤) المفردات ص ٣١٥ .

(٥) التعريفات ص ١٥٢ .

(٦) انظر: التحرير والتنوير ٦٥٠/٣

لقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، ونهى عن الظلم والبغي، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النساء: ٥٨] والفساد إنما ينتشر بتعدي حدود الله، ومن ثم يكون المرء ظملاً لنفسه، وقد جاء التحذير من ذلك، في حال الطلاق أو الإمساك، قال تعالى ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فصرح - تعالى - في هذه الآية بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها، لأجل الاعتداء عليها، بأخذه ما أعطاها، لأنها إذا طال عليها الإضرار؛ افتدت منه ابتغاء السلامة من ضرره^(١). فكلمة ﴿لِنَعْنَدُوا﴾ تشمل الاعتداء على الزوجات، وعلى أحكام الله تعالى، وقوله ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ جعل ظلمهم نساءهم ظملاً لأنفسهم، لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة، واضطراب حال البيت، وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة^(٢).

قال ابن القيم مبيناً سببية الظلم في الفساد: "وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن عدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما؛ أما الأول؛ ففي قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني؛ فكقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]"^(٣).

ولعظيم مفسدة الظلم؛ فصل القرآن أخبار الظلمين، وما جرى لهم، حتى اقترن وصفهم بالظلم مع ذكر هلاكهم، تنبيهاً على عظم جناية.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، وقال ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، وفي آية ثالثة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨].

وهكذا نجد القرآن الكريم، حافل بطائفة من الآيات التي تؤكد أن الظلم والعدوان سبب

(١) أضواء البيان ١/ ١٤٩

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ٦٥٦

(٣) الفوائد ص ٨١.

رئيس للفساد.

فالفساد العقدي - كما سبق - أعظم الظلم، لأنه صرف للعبادة الخالصة إلى غير الله سبحانه، فهذا استحق صاحبه حرمان الجنة، والخلود في النار، قال تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

لقد ولد الظلم فساداً عريضاً في الأرض؛ تمثل في إنكار الحق الذي جاءت به الرسل، ولذا لما حكى الله تعالى عن الأمم السابقة تكذيبهم للرسل علل ذلك بظلمهم، فقال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

كما أخبر تبارك وتعالى أن العدوان المتأصل في نفوسهم؛ كان باعثاً لهم على تكذيب الرسل، حيث قال ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

فقوم نوح عليه السلام بلغوا من الظلم مبلغاً، قال تعالى ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: ٥٢].

قال الطبري: "وأنه أهلك قوم نوح، من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً برهم، وأشد طغياناً وتمرداً على الله، من الذين أهلكهم من بعد من الأمم"^(١).

ولشناعة ظلمهم، جاء الرفض الإلهي؛ للشفاعة فيهم، حين أذن الله بعذابهم، قال تعالى ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

قال أبو السعود: "وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل؛ ولا تدعني فيهم، وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية، أكد التعليل فقيل: إنهم مغرقون، أي محكوم عليهم بالإغراق، قد مضى به القضاء، وجف القلم، فلا سبيل إلى كفه، ولزمتهم الحجة، فلم يبق إلا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين، ومثلاً للآخرين"^(٢).

وكذا جاء تأكيد ظلمهم بعد عذابهم، قال سبحانه ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

(١) جامع البيان ٥٣٩/١١

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٠٦/٤

كما بين الله تعالى أن هلاك من بعدهم هو بسبب كثرة ظلمهم، فقال في حق ثمود ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

"أي كفروا بها، ومنعوا شربها، وقتلواها؛ فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر".^(١)

وقال واصفاً عذابهم ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا﴾ [هود: ٦٧]، وكذا قال في مدين ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثِيمًا﴾ [هود: ٩٤].

وفي فرعون وأتباعه من الظالمين، أنزل قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرَكِيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]. وقال سبحانه ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٥٤].

بل جاء صريحاً؛ أن سبب كفرهم وجحودهم؛ ما هو إلا الظلم والعدوان ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

لقد عزم فرعون الطاغية على استئصال موسى عليه السلام، ومن معه من بني إسرائيل؛ عدوان وظلماً، ولكن أحزاه الله؛ فأهلكه بالغرق ﴿وَجَوْرَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

ومما يدل على أثر الظلم، وأنه باعث له على الفساد، ما ذكر عز وجل عن بني إسرائيل، في قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ

خَطِيئَتِكُمْ وَسَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة؛ فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا، وقالوا: حبة في شعرة"^(٢).

كما قال تعالى عنهم ﴿وظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىَ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٧/٣

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأنبياء. باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام ح (٣٢٢٢)، ومسلم. كتاب التفسير. ح (٣٠١٥).

قال ابن كثير: "أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا كما قال ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥]، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوراق العادات"^(١).

ولما كان الظلم باعثاً على الفساد، فإن الله تعالى نهي عن الميل إلى الظالمين، والرضا لما هم عليه، فقال ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

بل أكد النهي عن موالاتهم؛ ولو كانوا من الأقربين، ومن خالف ذلك فهو عداد الظالمين، قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال البيضاوي: "نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة، قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرتنا وذهب تجارتنا وبقينا ضائعين، وقيل: نزلت نهيًا عن موالات التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة.

والمعنى: لا تتخذوهم أولياء بمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالات في غير موضعها"^(٢).

من جهة أخرى، إذا تأملنا المفاصد التي نهي عنها الشارع الحكيم، وجدنا أثر الظلم فيها ظاهراً، مما يعني عناية الشريعة بدفع المظالم بين الناس، وقد سبقت الإشارة لذلك في موضعه^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ١/١٣٧

(٢) تفسير البيضاوي ٣/١٣٧

(٣) انظر: الفصل الثاني من الباب الأول ص ٣٥.

المبحث الحادي عشر
الفتن الدنيوية

الفتن جمع فتنة، وهي في الأصل مأخوذة من قولك: فتنْتُ الفضة والذهب؛ إذا أذبتهما بالنار؛ لتمييز الرديء من الجيد^(١)، وتعني؛ الاختبار والامتحان والابتلاء، لهذا قال الجرجاني: "الفتنة هي ما يبيِّن به حال الإنسان من الخير والشر"^(٢).

والقرآن الكريم حافل بآياته الكثيرة التي تدل على هذا المعنى، كقوله تعالى ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فلقد ابتلى الله عباده بالخير والشر، وبالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً^(٣)، وكقوله تعالى ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٤] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وقوله عن بني إسرائيل ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١]

فالفتنة في هذه الآية؛ تعني "أنهم ظنوا، ألا يصيبهم بلاء وعذاب من الله، بسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء، لزعمتهم الباطل أنهم أبناء الله وأحباؤه"^(٤).

وفي القرآن جاءت الفتنة بمعنى الكفر، كما في قوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]

وبمعنى الشرك، كما في قوله ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وبمعنى القتل، كما في قوله تعالى ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١]

وبمعنى الضلالة، كما في قوله ﴿فَاتَّكُرْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [١١١] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفِتْنِينَ﴾ [الصفات: ١٦١، ١٦٢]،

وبمعنى الصدود عن الحق، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة في القرآن.

(١) انظر: لسان العرب، مادة فتن ص ٣٣٤٤

(٢) التعريفات ص ١٧١.

(٣) انظر: الدر المنثور ٥٣١/٢، تيسير الكريم الرحمن. ص ٥٢٢.

(٤) أضواء البيان ٤١٨/١ .

وإذا تأملت معاني الفتنة؛ من كفر، وشرك، وقتل، وضلالة، وصد عن الحق؛ تجدها مفساد عقدي، وسلوكية، وأخلاقية؛ ويتأكد حينها أن الفتن الدنيوية؛ من أهم دوافع الفساد. وفي الحديث الصحيح ما يبين أثر مفساد الفتن على القلب، فعن حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تعرض الفتن على القلوب، كالحصير عوداً عوداً، فأىُّ قلبٍ أشربها؛ نكت فيه نكتة سوداء، وأىُّ قلبٍ أنكرها؛ نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض، مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرَبَّاداً، كالكوز مجحياً^(١)، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه"^(٢).

ولعل حديثي في هذا المبحث يقتصر على أبرز الفتن، وهي كما يأتي:

١/ فتنة المال والولد

والحقيقة أن الناس جميعاً بلا استثناء يجب الأموال والأولاد ؛ لأنهما زينة الحياة الدنيا وهذا ما أخبر به الحق سبحانه وتعالى فقال ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

"وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا، لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوةً ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن مع قرينة الصفة للمال والبنين، لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقرة، فلا تتبعوها نفوسكم"^(٣).

وسرُّ تقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، وليرغب فيه الصغير والكبير، والشاب والشيخ، ومن له من الأولاد ما قد كفاه"^(٤).

أما عن حقيقة هذه الفتنة، فإذا كان الأموال والأولاد زينة، فإن لهذه الزينة وجهان: الوجه الأول: أنها زينة حقيقية يتمتع بها المرء، شريطة أن يفهم معنى الزينة على مراد الله سبحانه وتعالى، لتكون وسيلة للقرب منه، لا لتكون الغاية من الدنيا؛ جمع الأموال، وإنجاب

(١) يقال: جنح الكوز فتجحى، كبيتته فانكب. لسان العرب مادة (جنخا) ١٤/١٣٣.

(٢) أخرجه مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يارز بين المسجدين. ح (٢٣١)، وذكر الحميدي أن هذا الحديث رواية من حديث حذيفة المتفق عليه، ولو ذكر في المتفق عليه لكان أولى، انظر: جامع الأصول ١٠/٢٢، وحديث حذيفة بلفظ قريب عند البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. ح (٣٥٨٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠/٤١٣.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/٧٧.

الأولاد فقط، بل يجب أن يكون المال والولد؛ خطوة من خطوات القرب إلى الله عز وجل. الوجه الثاني: أن تكون النفس هي التي زينت حب الأموال والأولاد، فحينئذ ينساق المرء وراءها، فيضل عن الطريق، وتكون سبب غوايته، إذ تجعله يقدم محبة المال والولد؛ على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ.

ومع كون المال والولد زينة إلا أنهما فتنة، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

ومفهوم الفتنة في هذه الآية: الابتلاء والاختبار، ويفسر ذلك قول الله تعالى ﴿وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وتأمل قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]. تجد هذا النص القرآني، يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية، ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة، فالأموال والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله تعالى.

وكلمة (فتنة) في الآية تحمل معنيين:

الأول: أن يفتنكم الله بالأموال والأولاد، بمعنى يختبركم فانتبهوا لهذا، وحاذروا، وكونوا أبدأً يقظين، لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتجردوا لله، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار؛ ليخلصه من الشوائب.

الثاني: أن هذه الأموال والأولاد، فتنة لكم توقعكم بفتنتها؛ في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة، لا تجرفكم وتبعدكم عن الله، مع أن الله نهي أن تلهنا أموالنا وأولادنا عن الاشتغال بذكره سبحانه وتعالى، وهذا من المفاصد العظيمة، لما يترتب عليها من الخسارة في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَأَنَّهُمْ كَرِهُوا أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

والمح الخطر في تقديم حب المال والولد، وجميع المحاب؛ على حب الله تعالى ورسوله ﷺ، في قوله ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ؕ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فقوله ﴿فَرَبِّصُوا﴾ أي انتظروا ما يحل بكم من عقاب ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله ورسوله شيئاً من المذكورات^(١)، فكل نعمة تصل بالبعد إلى البعد من الرب فهي فتنة ونعمة.

ولقد صور القرآن الكريم أثر الفتنة بالمال على المرء؛ مما يحمله على التماذي في الفساد، فقال تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فيطغى العبد ويظلم، إذا رأى نفسه غنياً، ويتناسى أن الذي أغناه هو الذي خلقه.

كما جاء ذكر الوعيد مقروناً بسبب هذه الفتنة، كما في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الذرى: ١] ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [٢] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣].

وفي الآية تصوير لشدة حبه للمال، حين يظن أن لا حياة له بلا مال، فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حياً، ومن كان كذلك استحق الوعيد بالويل في أول السورة، لأنه بهذا عبداً للمال على الحقيقة^(٢)، وفي الحديث الصحيح "تعس عبد الدينار"^(٣)، وبهذا ينكشف سر من أسرار ما يتناقل من حين لآخر، من أخبار الانتحار بسبب الفقر أو الخسائر المالية، فإن القلوب تعلقت بها تعلقاً كبيراً.

والمال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيراً فقال ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، وإنما يقع الذم المعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما لشدة حرصه، أو تناوله من غير حلّه، أو حبسه عن حقه أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ومن ثم يكون الفساد.^(٤)

٢/ ومن الفتن الدنيوية: فتنة النساء.

إن الإسلام اعتنى بالمرأة عناية فائقة، إذ جعلها في مكانة عالية، فهي الدرّة المصونة، واللؤلؤة المكنونة، فوضع لها من الضوابط لصيانتها في لباسها وزينتها؛ سداً لذريعة الفساد، وتجفيفاً لمنابع الفتنة بها، ورسم طريقها المستقيم؛ لتصل في نهايته إلى الجنة، لكنها إن انحرفت عن هذا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٢ .

(٢) انظر: التفسير الكبير ٣٢ / ٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد. باب الحراسة في الغزو في سبيل الله. ح (٢٧٣٠)

(٤) انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ٦١/٣

الطريق، وتعدت تلك الضوابط، فإن التبرج يكون حليفها، والشيطان يكون صديقها، والفساد يكون ديدنها، وقد بين تبارك وتعالى أن النساء من جملة الشهوات المحببة للناس، قال تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ولا تثريب على المرء في حبه لزوجته وولده، بل تلك جبلة فطرية، وسنة شرعية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنما حُب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة"^(١).

إلا أن المحذور الفتنة بهنّ، وهذا سرّ تقديم النساء على الباقي من المفاتن المذكورة في الآية، لأن الفتنة بهنّ أشدّ.

قال ابن حجر: "فجعلهنّ من حب الشهوات، وبدأ بهنّ، قبل بقية الأنواع؛ إشارة إلى أنهنّ الأضل في ذلك، وقد قال بعض الحكماء: النساء شرّ كلهنّ، وأشرّ ما فيهنّ؛ عدم الاستغناء عنهنّ، لأنها ناقصة العقل والدين، تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين، وحمله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد."^(٢)

لذا، فإن القرآن الكريم قد بين خطر الفتنة بالنساء، كما في قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٤] ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهم به عن العمل الصالح، كقوله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ولهذا قال هاهنا ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم. وقال مجاهد في الآية: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه^(٣).

(١) أخرجه النسائي. كتاب عشرة النساء. باب: حب النساء. ح(٣٩٣٩)، وصححه الألباني في سنن النسائي.

(٢) فتح الباري ٤١/٩

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣٩/٨

وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهِمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفورٌ﴾^(١).

لهذا نجد التحذير الشديد من ذلك فيما رواه الشيخان من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ "ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء"^(٢).

وبيّن النبي ﷺ أن المرأة ربما تكون ألعوبة في يد الشيطان، إذ أنها سهمه الذي إذا رمى به لم يُخطِ، فقال ﷺ "المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان"^(٣)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"^(٤).

وكما حذر النبي ﷺ متخوفاً على أمته، من مفسد هذه الفتنة، فقد تخوفها العقلاء من هذه الأمة أيضاً.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "ابتلتم بفتنة السراء فصبرتم، وستبتلوا بفتنة السراء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء"^(٥)، وهذا سعيد بن المسيب بعد أن جاوز الثمانين، وقد ذهبت إحدى عينيه، والأخرى لم تكن سليمة، ومع هذا كان يقول: ما شيء عندي أخوف من النساء^(٦). وهذا الخوف والتحذير ليس من الافتتان بزينتها فقط، وإنما لأنها تسرق لبّ الرجل، وتسحرقه، لهذا قال النبي ﷺ "ما رأيت من ناقصات عقل، ولا دين؛ أغلب لذي لبّ

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣٣٥٨/١٠

(٢) أخرجه البخاري. كتاب النكاح. باب ما يتقى من شؤم المرأة. ح(٤٨٠٨)، ومسلم. كتاب الذكر والدعاء. باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء. ح(٢٧٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي برقم (١١٧٣) وقال: حسن غريب، ورواه ابن حبان برقم (٣٢٩)

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الذكر والدعاء. باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء ح (٢٧٤٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الفتن باب: ما ذكر في فتنة الدجال ح ٣٧٢٨١

(٦) لم أقف على تخريجه. وقال القاري في مرقاة المفاتيح ٢٦٠/٦: "رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وقال ابن حجر:

مختلف في صحته"، وذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٦٤

منكن".^(١)

وما فتىء المفسدون؛ يستخدمون المرأة أداةً لتحقيق مآربهم الفاسدة، هدماً لدين الأمة، وتدميراً للشبابها، فتفننوا في عرض الفساد والرذيلة، والدعوة إلى البغاء والفاحشة، دون مراعاة للآداب المرعية والحقوق الشرعية، وهل القنوات التي ملأت الفضاء، إلا أنموذج لهذه الفتنة، التي يراد منها القضاء على مكتسبات المجتمع، من الدين والخلق؟

٣/ فتنة العلم.

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل مطلب، وأنفع مكتسب، لأن شرفه يُثمر على صاحبه، وفضله ينمي على طالبه، لهذا قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل، لما قد خص به العالم من فضيلة العلم، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فنفي أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً، أو يفهم منه زجراً^(٢).

والمقصود من العلم؛ تحقيق العبودية لله تعالى، برفع الجهل، وتبصرة عباد الله بما شرع، ولذا كان أهله أجدر الناس بالسلامة من فتنة الشيطان، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

قال السعدي: "لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله،

(١) أخرجه البخاري. كتاب الحيض. باب ترك الحائض الصوم. ح(٢٩٨). ومسلم. كتاب الإيمان. باب بيان نقصان

الإيمان بنقص الطاعات. ح(١٣٢).

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٤٩.

بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يُقيِّض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبهة، ﴿فَتُخِيتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم" (١).

ولهذا قال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته (٢).

وجعل الله أهله؛ سبباً لدرء الناس عن الفتنة، كما في قصة قارون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

فإذا انحرف العالم أو المتعلم عن ذلك؛ فقد ضلّ وأضل، ولذا حذر الله تعالى نبيه ﷺ - بعد الذي آتاه من العلم - من اتباع أهواء المفسدين، فقال ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا نصيرٍ﴾

[البقرة: ١٢٠]، وقال ﴿وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

كما أن العلم قد يكون وبال على صاحبه - عياداً بالله - كما أخبر سبحانه عن اختلاف الذين أوتوا الكتاب؛ رغم ما آتاهم من العلم، فقال ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وضرب لنا نموذجاً ممن علموا، لكن فسدت قلوبهم، وعقولهم فضلوا، قال تعالى ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَه يُلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

والمعنى: أتلى يا محمد على اليهود وعلى غيرهم، هذا الخبر المهم الخاص بالذي آتيناه آياتنا، وأوقفناه عليها وعلمناها له، ولكنه لم يعمل بها، وتركها وراءه ظهرياً، عازماً على عدم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٤٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨٩.

العودة لها أبداً، وقد سبق شيطانه في الفساد سبقاً ملحوظاً، فكان من الغاوين الضالين المفسدين. . هذا الذي أوتي علماً بالكتاب، ولم يعمل به بل صارت روحه مدنسة، وقلبه مظلماً^(١).

"وقد تفرّع على هذه الحالة، تمثيله بالكلب اللاهث، لأن اتصافه بالحالة التي صيرته شبيهاً بحال الكلب اللاهث، تفرّع على إخلاده إلى الأرض، واتباع هواه، فالكلام في قوة أن يقال: ولكنه أخلد إلى الأرض، فصار في شقاء وعناد، كمثل الكلب"^(٢).
فهذا وأشباهه؛ فسد وأفسد، لأنه لم يعمل بعلمه، لذا قال يحيى بن معاذ^(٣): مسكين من كان علمه حجيجه، ولسانه خصيمه، وفهمه القاطع بعذره"
وقد قيل:

إذا العلم لم تعمل به كان حجةً عليك ولم تُعذر بما أنت حامل
فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما يصدّق قول المرء ما هو فاعل

ولذا تخوف سفيان الثوري رحمه الله من ذلك، فقال: ليتني لم أكتب العلم، وليتني أنجو من علمي كفافاً، لا عليّ ولا لي"^(٤).
وتخوف أبو الدرداء رضي الله عنه فقال: أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول:
"قد علمت، فماذا عملت بما علمت"، وقال بعض الحكماء "خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع" لهذا قال عليّ بن أبي طالب: "إنما زهد الناس في طلب العلم، لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم"^(٥).
وقال الإمام أحمد: "عزيز عليّ، أن تذيب الدنيا أكباد رجال، وعت صدورهم القرآن"^(٦).

فانظر كيف تحسر هذا الإمام على من هذه حالهم!؟

(١) التفسير الواضح /١ / ٧٨٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٣/٨

(٣) يحيى بن معاذ أبو زكريا الواعظ ، روى عنه أهل الريوهمدان وسكن نيسابور إلى ان مات بها وقدم بغداد ،

توفي عام ٢٥٨هـ — تاريخ بغداد ٢٠٨/١٤

(٤) اقتضاء العلم العمل. للخطيب البغدادي ص ٢٤ .

(٥) أدب الدنيا والدين ص ١٠٤ .

(٦) الآداب الشرعية ٢٤/٢

ولعله استنبطه من قوله تعالى ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

كل هذا بسبب حب الدنيا التي أحبوا من أجلها، وكرهوا من أجلها، وقد قال تعالى ﴿يَعْلَمُونَ
ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].
قال الشنقيطي: "يجب على كل مسلم في هذا الزمان، أن يتدبر هذه الآية تدبراً كثيراً، ويبين
ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس.

وإيضاح ذلك: أن من أعظم فتن آخر الزمان - التي ابتلي بها ضعاف العقول من المسلمين -
شدة إتقان الإفرنج لأعمال الدنيا، مع عجز المسلمين عنها، فظنوا أن من قدر على تلك
الأعمال على الحق، وأن العاجز عنها ليس على حق، وهذا جهل فاحش، وفي هذه الآية
إيضاح لهذه الفتنة، وتخفيف لشأهما، فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه، وأحسن تعليمه".^(١)

لهذا جاءت سورة الكهف محذرة من تلك الفتن؛ ليأمن المرء من غوائل الفتنة، فقد جاءت
مفتحة بذكر القرآن، وهو أعظم وسيلة للنجاة من كل فتنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ
وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، واختتمت بالتوحيد، وهو الحسنة العظمى التي لا يبقى معها أثر
لأي فتنة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]
وبينهما أربع فتن كبار؛ فتنة الدين، وفتنة المال، وفتنة العلم، وفتنة الجاه. فمن أوى إليها؛
كانت نجاة له من الفتن.

كيف وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ
من الدجال".^(٢)

قال النووي: "قليل سبب ذلك ما في أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن
بالدجال وكذا في آخرها".^(٣)

(١) أضواء البيان ١٦٦/٦

(٢) أخرجه مسلم. كتاب صلاة المسافرين. باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي. ح (٨٠٩).

(٣) شرح النووي على مسلم ٩٣/٦.

وقد أخبرنا سبحانه عن حقيقة هذه الفتن بقوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ

أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۗ ﴾ [الكهف: ٨].

فإنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأثمار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنه واختباراً ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية.

وستعود الأرض صعيداً جرزاً، قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أثمارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاعترت بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يده من التفریط والسيئات".^(١)

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٤٧٠

الفصل الثاني

سُبُلُ مُدَافَعَةِ الْفَسَادِ وَعِلَاجِهِ

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين .

المبحث الثاني: الإخلاص .

المبحث الثالث: الصلاة .

المبحث الرابع: الدعاء .

المبحث الخامس: التخويف بالله تعالى .

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف .

المبحث السابع: إقامة الحدود والزواج الشرعية .

المبحث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

المبحث التاسع: الجهاد والمدافعة .

المبحث العاشر: الأمر بغض البصر وحفظ الفرج .

تمهيد:

عُني الإسلام ببيان سبل دفع الفساد؛ حفاظاً على المجتمع، وقد أشرت هنا إلى أبرز السبل في دفع الفساد، بعد ما بينت أسبابه ودوافعه، في الفصل السابق. وحيث كانت صور الفساد كثيرة ومتشعبة؛ فإنه يعزُّ هنا حصر جميع السبل؛ التي تقي من الفساد بجميع صورته، ولذا آثرت في هذا الفصل؛ ذكر أبرزها، وإلا فهي بحاجة إلى مزيد بحث وتفصيل.

إن مظاهر الفساد إذا كثرت في مجتمع من المجتمعات، فإن آثاره الوخيمة؛ ستأتي بالوبال على الأخضر واليابس، وتعمّ الصالح والطالح، لذا رمت في هذا الفصل؛ بيان بعض سبل دفع الفساد، لأن الإسلام جاء ليصلح لنا الدنيا والآخرة، وما أسرف في شيء على حساب شيء آخر، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. فأرشد إلى حلول كثيرة لدفع الفساد، تنقية للمجتمع من كل شائبة، لأن الهدف العام؛ هو تحقيق العبودية لله تعالى، وإحياء الفضيلة، ونشرها في المجتمع، وإماتة الرذيلة، وإزالتها قدر المستطاع.

ومن هذا المنطلق؛ كان لزاماً علينا تأمل السبل الناجعة في دفع الفساد وعلاجه، والتي أولاهها القرآن الكريم عناية بالغة، وقد فصلتُ أهمها، في عشرة مباحث، على النحو الآتي:

المبحث الأول

بَيَانُ عَاقِبَةِ الْمُفْسِدِينَ

دعا القرآن الكريم أصحاب العقول إلى التفكير والتدبر، فيما آل إليه حال المفسدين، من أجل أن يرتدع الناس عن ممارسة أي عمل أو قول يجعل صاحبه من الذين وصفوا بالفساد. (١)
وقد حث الكتاب العزيز، على السعي في الارض؛ من أجل أخذ العظة والعبرة، قال تعالى ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةً وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا يهتمون بها ويعلمون (٩) ثمر كان عقبة الذين استنوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ [الروم: ٩، ١٠].

وقال تعالى ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١٠) ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ [محمد: ١٠، ١١]
فتراه في عدة مواضع، يلفت الأنظار؛ إلى سوء عاقبة المفسدين، ومن أمثلة ذلك بيان جزاء أمة مدين قوم شعيب عليه السلام، بعد أن نصحهم بقوله ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ينقوموا عبدوا الله ما لكم من إله غيرة. قد جاءكم بينة من ربكم فآفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا أنفسكم في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين (٨٥) ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجاً وأذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وأنظروا كيف كان عقبة المفسدين﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

قال ابن كثير في قوله ﴿وأنظروا كيف كان عقبة المفسدين﴾ "أي من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال؛ باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسوله". (٢)
ثم توالى الآيات في النصيح من شعيب عليه السلام، والتهديد من قومه له، لهذا استحق قومه المصير المحتوم ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جثمين (٩١) الذين كذبوا شعيباً كأن لهم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخسيرين﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢].
فذكر هنا أن عذابهم كان رجفة، وفي سورة هود بين أن عذابهم كان صيحة، وأخبر في سورة الشعراء أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، ولا تناقض.

(١) استفاض القرآن في بيان عاقبة المفسدين، كل بحسبه، وذكرت شيئاً من ذلك فيما سبق، انظر: ص ١٦٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٠٩/٢

قال ابن كثير: "وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم، فيها نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وحمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ﴾" (١).

وفي القرآن آيات كثيرة تحدثت عن بيان عاقبة المفسدين، ولعل السبب في كثرتها؛ أن القرآن جاء لإصلاح البشرية، فإذا ورد فيه بيان العقاب للمفسدين، كان هذا أدعى إلى أن يكون رادعاً لمن تسول له نفسه بالفساد في الأرض.

ومن هذه الآيات ما ورد في قصة ثمود، كما في قوله تعالى ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفًا مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ إلى قوله ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فنوّل عنهم وقال يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿الأعراف: ٧٣-٧٩﴾.

ولم يبين هنا سبب رجفة الأرض بهم، ولكنه بين في موضع آخر أن سبب ذلك صيحة الملك بهم، وكما في قوله ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِّمِينَ﴾ [هود: ٦٧]. والظاهر أن الملك لما صاح بهم، رجفت الأرض من شدة الصيحة، وفارقت أرواحهم أبدانهم، والله جل وعلا أعلم. (٢)

إن الفساد كان السبب في عقاب أمثال هؤلاء، وعلى هذا؛ فإن من شاكل هؤلاء في أفعالهم حلّ به ما حلّ بهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ولا يتأتى الهلاك المترتب على الفساد؛ إلا بسبب مقت الله لهم، وهذا يعني أنهم غرقوا في الفساد، وتعلقت به قلوبهم.

وهذا من دوافع نهي الرسل أقوامهم، عن الفساد في الأرض.

وتأمل نصائح الوعاظ لقارون، قال تعالى ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٩/٢

(٢) أضواء البيان ٣٥/٢

نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

فجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ علة للنهي عن الإفساد، لأن العمل الذي لا يجبه الله لا يجوز لعباده عمله^(١).

لهذا جاءت نهاية قارون، مؤيدة لما ذهب إليه أهل العلم والبصر بالدنيا والآخرة، فأضاع دنياه وأخرته ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

مما بيّنه القرآن الكريم في عاقبة المفسدين؛ أنها ليست على درجة واحدة، فكل حسب درجة تكذيبه، فقال تعالى ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِتِهِمْ وَزَيْتِ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

"أي فكلاً من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ على قدره وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أي عذاباً يحصبهم، كقوم عاد، حين أرسل عليهم الريح العقيم، التي ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقارون، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما^(٢).

وهذا التباين في العقاب، يعتبر دليلاً مادياً للمتبعين للحق، وللمعاندين له أيضاً، فالمتبعين يزيد الإيمان في قلوبهم، بسبب ما يشاهدونه من آيات في الأرض، تدل على صدق كلام الأنبياء والمرسلين، وأما المعاندين؛ فعليهم أن يُعملوا عقولهم، ويتفكروا في مصير هؤلاء المكذبين،

(١) التحرير والتنوير ١٦/١١

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٣١.

وهل أغنت عنهم قوتهم، أو استطاعوا أن يجاربوا الله عز وجل فينتصروا عليه؟

ومن بيان الكتاب العزيز لعاقبة المفسدين، ما حكاه من نداءات التحذير، وصوت النذير من مؤمن آل فرعون لقومه، كما قال الله تعالى عنه ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصْرِفُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ٣١ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ٣٢ يَوْمَ نُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٢٩: ٣٣].

أي "يا قوم إني أخاف عليكم؛ بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزبوا على رسل الله نوح وهود وصالح فأهلكهم الله بتجرئهم عليهم فيهلككم كما أهلكهم".^(١)

لهذا: لما مرّ النبي ﷺ بالديار التي جعلها الله آية للعالمين، أمر الناس أن يتدبروا فيما حدث لهؤلاء القوم المفسدين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال " لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم".^(٢)

يقول ابن حجر: قوله (لا تدخلوا) كان هذا النهي لما مروا مع النبي ﷺ بالحجر ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك، وقوله: (إلا أن تكونوا باكين) ليس المراد الاقتصار في ذلك على ابتداء الدخول، بل دائماً عند كل جزء من الدخول، وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولية.^(٣)

بهذا الحديث ثبت أنه ﷺ لم يتزل، ولم يُصَلِّ هناك، بل إنه ﷺ لم يرتضِ فعل بعض الصحابة حينما أرادوا الانتفاع من ماء هؤلاء القوم المعذنين.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود،

(١) جامع البيان ١٠/١٤٠

(٢) أخرجه البخاري كتاب: أبواب المساجد باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب ح ٤٢٣

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١/٥٣٠

فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة".^(١)
قال النووي: وفي هذا الحديث فوائد منها النهي عن استعمال مياه بئر الحجر، إلا بئر الناقة، ومنها؛ لو عجن منه عجيناً؛ لم يأكله، بل يُعلفه الدواب، ومنها؛ مجانية آبار الظالمين.^(٢)

ومما سبق، يتضح أن بيان القرآن والسنة لعاقبة المفسدين؛ يبعث في نفوس المصلحين الأمل في الثبات على الحق، وتسليتهم بما يلقون من أهل الفساد، لهذا قال تعالى في أعقاب معركة أحد ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهَدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

ففيها تعزية للمؤمنين وتسلية لهم، بأنه قد مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة أمتحنوا، وابتلوا المؤمنون منهم بقتال الكافرين، وكانت العاقبة للمتقين، والنصر لعباد الله المؤمنين، ثم أمر الله بالسير بالأبدان والقلوب؛ للنظر في عاقبة المكذبين، فلا نجدهم إلا معذيين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارتهم، وذهاب عزهم وملكهم، وزوال بزخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد، على صدق ما جاءت به الرسل^(٣).

(١) أخرجه مسلم. كتاب: الزهد والرقائق. باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ح(٢٩٨١).

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/١٨

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٩.

المبحث الثاني

الإخلاصُ

يندفع الفساد بالإخلاص، وهو من: خَلَصَ الشيء؛ صار خالِصاً، وخَلَصَ إليه الشيء؛ وصل، وخَلَصَهُ من كذا تَخْلِيصاً؛ أي نجاه فَتَخَلَصَ، والإِخْلَاصُ أيضاً في الطاعة؛ ترك الرياء، وقد أَخْلَصَ لله الدين، وخَالَصَهُ في العِشْرَةِ صافاه، وهذا الشيء خَالِصٌ لك؛ أي خاصة، واستَخْلَصَهُ لنفسه استحضه^(١).

واصطلاحاً: قال الكفوي: هو القصد بالعبادة إلى أن يُعبد المعبود بها وحده، وقيل: تصفية السرِّ والقول والعمل^(٢).

وعرّفه ابن القيم فقال: "الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد"^(٣).

وقال الهروي^(٤): "الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب"^(٥).

وترجع أهميته؛ إلى أنه شرط لقبول الأعمال، لهذا قال تعالى ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

"أي جاعلين دينهم خالِصاً له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين، حنفاء مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام"^(٦).

"والمقصد من الآية؛ إبطال الشرك في عبادة الله تعالى، وفي إبطاله؛ تحقيق لمعنى القسط الذي في قوله ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]"^(٧).

بل إن الإخلاص إذا انتفى عن العمل، فلا ثواب لصاحبه، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

قال الشوكاني: "هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل؛ لأن الله سبحانه قد عصمهم عن

(١) لسان العرب ٢٦/٧ مادة (خلص)

(٢) الكليات للكفوي ص ٦٤.

(٣) مدارج السالكين ٥٢٧/١

(٤) عبدالله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي الحلبي الصوفي ت/٤٥٨هـ هداية العارفين ٢٣٥/١

(٥) منازل السائرين ص ٤٠

(٦) إرشاد العقل السليم ١٨٥/٩

(٧) التحرير والتنوير ٦٩/٨

الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه؛ التحذير والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير؛ فهو محبط لعمل غيرهم من أهمهم بطريق الأولى.

قيل: وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ولقد أوحى إليك لئن أشركت، وأوحى إلى الذين من قبلك كذلك^(١).

ولقد امتدح الله تعالى؛ الرسل في إخلاصهم، فقال عن موسى عليه السلام ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

قال الطبري: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بكسر اللام من المخلص. بمعنى: إنه كان يخلص لله العبادة ويفرده بالألوهة من غير أن يجعل له فيها شريكاً، وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة، خلا عاصم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام من مُخْلَص^(٢)، بمعنى: إن موسى كان الله قد أحلصه واصطفاه لرسالته، وحمله نبياً مرسلًا.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أنه كان عليه السلام مخلصاً عبادة الله، مُخْلَصًا للرسالة والنبوة، فأبئتهما قرأ القارئ؛ فمصيب الصواب^(٣).

وإذا كان تزوين الشيطان سبباً من أسباب الفساد، فإن الإخلاص لله تعالى؛ يكون عاصماً لصاحبه من الوقوع في مكائد الشيطان، فالشيطان لا سبيل له إلى المخلصين، لهذا ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَأُعْتَبِنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. والاستثناء يُعد إقراراً من الشيطان بضعفه على عدم تمكنه من إغواء المخلصين.

لذا قال الزمخشري: "استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه"^(٤). إضافة إلى أنهم فرغوا قلوبهم لله تعالى، فلم تكن المنكرات مزينة في نفوسهم، من هنا نجد

(١) فتح القدير ٦٧٥/٤

(٢) انظر: الحجة في القراءات السبع للحسين بن أحمد بن خالوية ص ١٩٤

(٣) جامع البيان ٣٨٠/٨

(٤) الكشاف ٦٤١/١

الداعي المظلوم، والمضطر قد فرغ قلبه لله، ولا يزين في نفسه شيء يلهيه عن دعوته؛ حتى يتحقق مراده.

وقال الشنقيطي: "أقسم الشيطان بعزة الله، على أنه سيُضِلُّ بني آدم؛ بتزيين الشهوات لهم، وإدخال الشُّبُه عليهم، حتى يصيروا غاوين جميعاً، ثم لما علم أن كيده لا ينجح إلا في أتباعه، وأحزابه من أهل الكفر والمعاصي، استثنى من لا يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، فقال ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الشيطان الرجيم".^(١)

وقد ذكر سبحانه أن الشيطان لا سلطان له على المخلصين، فقال ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

وقد ضرب الله تعالى نموذجاً لأثر الإخلاص في دفع الفساد، فقال في حق نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

قال البيضاوي: "الذين أخلصهم الله لطاعته، وقرأ ابن كثير^(٢) وأبو عمرو^(٣) وابن عامر^(٤) ويعقوب^(٥)؛ بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام^(٦)، أي الذين أخلصوا دينهم لله"^(٧). ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

(١) أضواء البيان ٦/٢٦٤

(٢) عبد الله بن كثير الداري المكي أبو معبد إمام في القراءة ت/١٢٠هـ. تهذيب الكمال ١٥/٤٦٨

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني المقرئ ت/١٥٤هـ تقريب التهذيب لا بن حجر ٦٦٠

(٤) عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي ت/١١٨هـ. تهذيب الكمال ١٥/١٤٨

(٥) يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي المقرئ ت/٢٠٥هـ تهذيب الكمال ٣٢/٣١٤

(٦) انظر: الحجة في القراءات السبع ص ١٩٤

(٧) تفسير البيضاوي ٣/٢٨٢

والمعنى: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.^(١)

فقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، بأن عصمهم عما هو قاذح فيها.^(٢) وإذا كان الإخلاص هو سبب نجاة العبد من كيد الشيطان وتزيينه وإغوائه، والوقوع في برائته، فإن انتفاء الإخلاص، أو ضعفه؛ يجعل الشيطان مستحوذاً عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعاً له من فعل ضد ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يخلص لربه الدين، ولم يفعل ما خلق له، وفطر عليه، عوقب على ذلك، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه، حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله تعالى".^(٣) "وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله، الذين فيهم نوع من الشرك، فامرأة العزيز كانت مشركة، فوقع مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته، ومرادتها له، واستعانته عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة؛ عصمه الله بإخلاصه لله"^(٤).

ولما تحدّث ابن القيم رحمه الله عن داء العشق، الذي ابتلي به من ابتلي، قال: "ودواء هذا الداء القتال؛ أن يعرف أن ما ابتلي به من هذا الداء المضاد للتوحيد؛ إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله، فعليه: أن يعرف توحيد ربه وسننه وآياته أولاً، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه؛ في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٠٣، ٤٠٧

(٢) إرشاد العقل السليم ٢٦٧/٤

(٣) مجموع الفتاوى ١٠٧/٣

(٤) المصدر السابق ٧٠/٤

وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاقه.

فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله؛ لم يتمكن منه عشق الصور؛ فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ؛ كما قال (١):

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا (٢)

ومن ثم؛ فكلما كان العبد موحداً مخلصاً لله تعالى؛ كان أكثر طمأنينة وسعادة، وكلما كان بعيداً عن الله تعالى؛ كان أكثر حيرة وضلالاً، كما قال سبحانه ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْهُدَىٰ أَتَيْنَاهُ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِّرْنَا لِلْأَعْلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، فلا سبيل لدفع الفساد إلا بالإخلاص، حتى لا يقع العبد فريسة للشيطان.

والناس قاطبة، يدركون أثر الإخلاص؛ فيلجأون إليه ساعة الضر، قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) فلما أنجئهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق يتأبها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متع الحيوة الدنيا ثم إلتنا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴿[يونس: ٢٢، ٢٣].

قال السعدي: "انقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة؛ إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا ﴿لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢) فلما أنجئهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق ﴿أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله الذي اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد إلا هو، ولا يدفع عنهم المضايق إلا هو، فهلاً أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما

(١) البيان والتبيين ص ٢٣٣

(٢) الجواب الكافي ص ١٥٠.

أخلصوها في الشدة؟ ولكن هذا البغي يعود وباله عليه".^(١)

فالمشركون حينما يُضَيَّقُ عليهم يعلنون الإخلاص؛ رجاء النجاة مما هم فيه من هلاك، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَّحْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

"فالكفار إذا مسَّهم الضر في البحر، واشتدت عليهم الرياح فغشيتهم أمواج البحر؛ كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت؛ كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت؛ إلا الله جل وعلا وحده، لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب، وغيره من الكروب؛ إلا هو وحده جل وعلا، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده؛ في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرَّج عنهم، ووصلوا البر؛ رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا بَجَّحْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾".^(٢)

كما تقرر ذلك - أيضاً - في قوله تعالى ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّحْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].
قال أبو السعود: "﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد، بما دهاهم من الدَّوَاهِي والشَّدَائِدِ"^(٣).

إذا الإخلاص في الأعمال يكتب لصاحبها النجاة، وعلى هذا فإن أهل الإخلاص لله تعالى؛ أولى بالأمن من غيرهم، لأنهم قوم نقوا أنفسهم مما سوى الله تعالى.
وفي قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم صخرة الغار؛ ما يدل على ذلك، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل؛ فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة؛ إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم...". الحديث.^(٤)

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣١٦

(٢) أضواء البيان ٢٤٢/٣

(٣) إرشاد العقل السليم ٣٠٣/٥

(٤) أخرجه البخاري الاجارة باب : من استاجر أجيراً. ح(٢١٥٢).

ولما أدرك المشركون حقيقة توحيد الله تعالى؛ كرهوا إخلاص العبادة له سبحانه، لهذا قال جل وعلا ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]. والمعنى: "ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة؛ الكافرون المشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأنداد".^(١)

قال السعدي: "ولما كانت الآيات تثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك؛ بالفاء الدالة على السببية، فقال سبحانه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

والمعنى: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتتقربون به إليه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده، غاية الكراهة، وهذا واضح غاية الوضوح، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]."^(٢)

وهذا يؤكد عظم فسادهم في عدم إخلاصهم لله تعالى، في كل أحوالهم، فلما فقدوا إخلاص العمل لله؛ كان الفساد ملازماً لهم. ومن هنا؛ فإن الله تعالى اشترط ذلك، وذكر أنه لا خلاص لأهل الكتاب عن فسادهم، إلا بالإخلاص لله تبارك وتعالى، كما في آية آل عمران ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

(١) جامع البيان ٨/٨٩

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٢١

والإخلاص يطهر كل شائبة؛ ظاهرة كانت أو باطنة، ولذا فالمخلصون يقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]. أي: لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً^(١).

وفي بيان أثر الإخلاص على صاحبه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن المخلص لله، ذاق من حلاوة عبوديته لله؛ ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله؛ ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب؛ لا أحلى، ولا ألد، ولا أطيب، ولا ألين، ولا أنعم؛ من حلاوة الإيمان، المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيباً إلى الله، خائفاً منه، راغباً راهباً.

كما قال تعالى ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه، وحصول مرغوبه، فلا يكون عبداً لله ومحبه؛ إلا بين خوف ورجاء؛ قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وإذا كان العبد مخلصاً له؛ اجتنابه ربه فيحبي قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك، من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك؛ بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ بعطفه أماله.

فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة؛ فيبقى أسيراً عبداً لمن لو اتخذته هو عبداً له؛ لكان ذلك عيباً ونقصاً وذمماً، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يُثني عليه، ولو بالباطل، ويعادي من يذمه، ولو بالحق، وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله. ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له، قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً؛ وإلا استعبده الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين،

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٩٠١.

وصار فيه من السوء والفحشاء؛ ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه؛ وإلا كان مشركاً^(١).

ولن يصل العبد بأعماله إلى الجنة محاطة برحمة الله، إلا إذا كانت مكلّلة بالإخلاص، لهذا قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].
ومدح الله تعالى أهل الجنة فقال ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

(١) رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٩.

المبحث الثالث

الصلاة

من وسائل دفع الفساد الصلاة، فإذا حافظ عليها العبد؛ كانت سبباً في منعه من الوقوع في الفساد، لهذا قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
 "ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها، وشروطها، وخشوعها؛ يستنير قلبه ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل، أو تُعدم رغبته في الشر، فبالضرورة مداومتها، والمحافظة عليها، على هذا الوجه؛ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها".^(١)

فهي تشتمل على ترك الفواحش والمنكرات، إذ إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك.^(٢)
 قال ابن تيمية رحمه الله: "وأمر الصلاة عظيم، فهي قوام الدين وعماده، وتعظيمه تعالى لها في كتابه؛ دليل على أنها فوق جميع العبادات، فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة، ويقرنها بالزكاة تارة، وبالصبر تارة، وبالنسك تارة، كقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٢] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وتارة يفتح بها أعمال البر، ويختمها بها، كما ذكره في سورة سأل سائل، وفي أول سورة المؤمنون، قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ١ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠].^(٣)

وكيف لا تكون دافعة للفساد؛ وهي أعظم شعار الدين، وركنه الركين، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بني الإسلام على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان".^(٤)

ولقد ذُكرت الصلاة في القرآن في مواضع كثيرة، وذلك لشرفها وعظيم قدرها، فكل التكليف؛ جاءت بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، عدا الصلاة التي فرضت مباشرة من الله لنبيه ﷺ ليلة الإسراء، وهو في السماء السابعة، بل إنها العبادة الوحيدة، التي لا رخصة في

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ٦٣٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٩/٣

(٣) مجموع الفتاوى ٤٣٠/٣

(٤) أخرجه البخاري. كتاب: الإيمان. باب الإيمان وقول ﷺ: "بني الإسلام على خمس" ح (٨).

سقوطها، بخلاف بقية الأركان غير الشهادتين، لهذا فإن من تركها فقد كفر، كما ورد في حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة".^(١)

فقد جعلها الله من ميثاقه على عباده، وشرطاً لصلاحهم، فقال في شأن بني إسرائيل ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي...﴾ [المائدة: ١٢].
وكم كانت شرطاً لقبول توبة المشركين ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوُنُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

ولذا لما عظم فساد المنافقين؛ ثقلت عليهم الصلاة؛ وكان القرآن يشير إلى أن مثل هؤلاء لا سبيل إلى صلاحهم وهذه حالهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

ومن حافظ عليها كانت سبباً في نجاته في الدنيا من الذنوب والآثام، وفي الآخرة من الخزي والحسرة، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر الصلاة يوماً، فقال: "من حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف".^(٢)
ومن عظيم حكمة الله تبارك وتعالى؛ أن الصلوات خمس مفرقة على ساعات النهار والليل، فلو كانت الصلاة في وقت واحد من اليوم؛ ربما كان هذا معناه أن الله يُذكر في وقت واحد من اليوم، لكن جعلها الله كذلك؛ ليكون المسلم على اتصال بالله تعالى في كل حين من حياته، فإذا كان دائم الصلة بالله تعالى في الليل والنهار؛ فسيكون بعيداً عن دائرة الفساد.

(١) تقدم تخريجه ص (٣٩)

(٢) حديث حسن ورواه الإمام أحمد في مسنده ١٦٩/٢

فالصلاة عبادة لها مغزى ومعنى، وليس المراد منها هو الحركات المجردة، دون إعمال الفكر والتدبر، وقد قال تعالى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. قال السعدي: "قوله ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها؛ إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة"^(١).

فالصلاة لها ثمرات تعود على صاحبها، ومن ثمراتها؛ أن تنهاه صلاة عن أفعال المفسدين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: "إنه سينهاه ما يقول"^(٢).

لهذا قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر، إن لم يكن معنياً بها، ما يتلى فيها؟

قيل: تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش، لأن شغله بها يقطع عنه الشغل بالمنكر^(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "من لم يطع صلاته؛ لم يزد من الله إلا بُعداً، وذلك أن طاعته لها؛ إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها؛ مزدجر عن الفحشاء والمنكر"^(٤).

وعلى هذا؛ فإن المحافظة على الصلاة المفروضة؛ تكفر الذنوب السالفة، ويدل لذلك، قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

قال ابن عاشور: "انتقل إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة، بقريظة أن المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعينة للصلوات الخمس.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٠٣

(٢) حديث صحيح ورواه أحمد في مسنده ٤٤٧/٢

(٣) جامع البيان ١٥٥/٢٠

(٤) ذكره السيوطي في الدر وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد في الزهد وابن جرير وغيرهم. الدر المنثور ٤٦٥/٦

وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٢٥٨/٢

وجملة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات، وتأكيد الجملة بحرف (إن)؛ للاهتمام وتحقيق الخبر، و(إن) فيه؛ مفيدة معنى التعليل والتفريع، وهذا التعليل؛ مؤذن بأن الله جعل الحسنات يذهبن السيئات، والتعليل مشعر بعموم أصحاب الحسنات، لأن الشأن أن تكون العلة أعم من المعلول، مع ما يقتضيه تعريف الجمع باللام من العموم، وإذهاب السيئات؛ يشمل إذهاب وقوعها؛ بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً، كقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، فضلاً عن الله على عباده الصالحين، ومحمّل السيئات هنا؛ على السيئات الصغائر التي هي من اللّم. (١)

إذا الصلاة تقي العبد من التماذي في السير في طريق المفسدين، لأنه إذا حافظ على الصلاة فإن ذنوبه تمحى، ودليل ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة حرام، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك، فأنزلت عليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مَنْ اللَّيْلِ﴾. فقال الرجل: أليّ هذه؟ قال صلى الله عليه وسلم: "لمن عمل بها من أمي". (٢)

ومما يدل على محوها آثار الفساد التي يقترفها العبد، قوله تعالى ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال القرطبي: "لم يختلف أحد من أهل التأويل، في أن الصلاة في هذه الآية؛ يراد بها الصلوات المفروضة، وخصّها بالذكر؛ لأنها ثمانية الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة". (٣)

ويضيف ابن عاشور معنى آخر على ما قاله القرطبي، فيقول: "والمقصود أن الصلاة تيسر للمصلي ترك الفحشاء والمنكر، وليس المعنى: أن الصلاة صارفة المصلي عن أن يرتكب

(١) التحرير والتنوير ٢١٤٩

(٢) أخرجه البخاري كتاب: التفسير، سورة هود، ح (٤٤١٠)

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩٣/٩

الفحشاء والمنكر، فإن المشاهد يخالفه، إذ كم من مصلٍ يُقيم صلاته، ويقترف بعض الفحشاء والمنكر، كما أنه يصح أن يكون المراد؛ أنها تصرف المصلي عن الفحشاء والمنكر، ما دام متلبساً بأداء الصلاة، لقلّة جدوى هذا المعنى، فإن أكثر الأعمال يصرف المشتغل به؛ عن الاشتغال بغيره، وإذ كانت الآية مسوقة للتنويه بالصلاة، وبيان مزيتها في الدين، تعيّن أن يكون المراد؛ أن الصلاة تحذّر من الفحشاء والمنكر، تحذيراً هو من خصائصها.

وللمفسرين طرائق في تعليل ذلك منها: ما قاله بعضهم: إن المراد به ما للصلاة من ثواب عند الله، فإن ذلك غرض آخر، وليس منصباً إلى ترك الفحشاء والمنكر، ولكنه من وسائل توفير الحسنات، لعلها أن تغمر السيئات، فيتعين لتفسير هذه الآية تفسيراً مقبولاً؛ أن نعتبر حكمها عاماً في كل صلاة، فلا يختص بصلوات الأبرار، وبذلك تسقط عدّة وجوه، مما فسروا به الآية، وفي الصلاة أعمال قلبية؛ من نية، واستعداد للوقوف بين يدي الله، وذلك يذكر بأن المعبود؛ جدير بأن تمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه، فكانت الصلاة بمجموعها؛ كالواعظ الناهي عن الفحشاء والمنكر، فإن الله قال ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، ولم يقل: تصدّ وتحوّل، ونحو ذلك، مما يقتضي صرف المصلي عن الفحشاء والمنكر".^(١)

ومما يؤكد نهي الصلاة عن المنكر؛ ذكرها في ثنايا النهي عن الربا قال سبحانه ﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٦، ٢٧٧].

ولما كان أثرها عظيماً في درء الفساد؛ فقد اجتهد الشيطان؛ لصدّ الناس عنها بكل سبيل؛ لما يعلمه - عدو الله - من أثر الصلاة على صلاح أهلها، فقال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. لهذا أمر الله تعالى بالاستعانة بهما، كما في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

لما فيها من تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى الحذر من الدنيا، المسلية للنفوس عن زينتها وغورها، المذكورة بالآخرة، وما أعد الله فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها؛ المعونة لأهل طاعة الله على الجدِّ فيها.^(١)

فهي صفة المصلحين ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾
[الأعراف: ١٧٠] وأهل الصلاة هم المنتفعون بالندارة ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

وقد قال ﷺ: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة"^(٢).

(١) جامع البيان ١/٣٩٨

(٢) حديث حسن ورواه احمد في مسنده ١٢٨/٣

المبحث الرابع

الدَّعَاء

الدعاء في اللغة: يدور حول معان، منها؛ الاستغاثة واللجوء إلى الله والرغبة إليه، وعليه فالدعاء: واحد الأدعية، وأصله دُعَاوٍ، لأنه من دَعَوْتُ، إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف هُمَزَتْ، ودَعَا الرجلَ دَعْوًا ودُعَاءً؛ ناداه، والاسم الدعوة، ودَعَوْتُ فلانًا؛ أي: صَحْتُ به واستدعيتَه. (١)

وفي الاصطلاح: أفاد معنى التذلل، كما عرفه الطيبي: بأنه إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله، والاستكانة له، وما شرعت العبادات؛ إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه. (٢)

وهو في القرآن؛ إما دعاء العبادة، أو دعاء المسألة، وهو: دعاء ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع؛ فإنما هو المعبود بحق.

أما دعاء العبادة؛ فهو ما يتضمن الثناء على الله بما هو أهله، ويكون مصحوباً بالخوف والرجاء، والدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان، فالعبد يدعو للنفع، أو لدفع الضر؛ دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاءً؛ دعاء العبادة، فكل دعاء عبادة؛ مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة؛ مستلزم دعاء العبادة.

وقد ورد المعنيان جميعاً في قوله تعالى ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

وأما قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإنه يتناول نوعي الدعاء أيضاً، وبكل منهما فسرت الآية، قيل: المعنى أعطيه إذا سألتني، وقيل: أتبيه إذا عبدني، والقولان متلازمان. (٣)

فإذا دعا العبد ربه أن يبعده عن الفساد وأهله، فإن الله يستجيب دعاءه. ولا يليق بالعبد أن يفتر عن الدعاء، مهما كان تقصيره في جنب الله تعالى، فلقد استجاب الله دعاء شر خلقه إبليس حين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].

(١) انظر: لسان العرب ٢٥٧/١٤ مادة (دعا) .

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٩٥/١١

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢٣٧/١٠، ١٠/١٧ .

وفي القرآن الكريم تضافرت الآيات في الأمر بالدعاء، كما في قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [إغافر: ٦٠].

قال ابن كثير: "هذا من فضله تبارك وتعالى، وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه من سألته، فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه؛ من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب".^(١)

فالدعاء عبادة نتعبد به، كما كان منهج الأنبياء عليهم السلام، وعباد الله الصالحين، لأنه التجاء إلى الله تعالى، وطلب الحماية منه، ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات، ومع هذا كان يطلب من ربه سبحانه وتعالى المزيد، فعن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترمّ أو تنتفخ قدماه، فيقال له، فيقول: "أفلا أكون عبداً شكوراً".^(٢)

ولما كان الدعاء بهذه المنزلة العالية، كان مطلباً لكل الصالحين، حكى ذلك القرآن الكريم كما في قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

أي يفرعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء والشدّة، وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرغبة متلازمان.^(٣)

وأضاف العلامة السعدي: "أن المعنى أنهم يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا، من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون، لا غافلون لاهون، ولا مدلون".^(٤)

والدعاء هو سبيل عباد الله المتقين في كل زمان؛ لدرء شر المفسدين، قال تعالى ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦١) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

(١) تفسير القرآن العظيم ١٠٩/٤

(٢) أخرجه البخاري كتاب: الرقاق باب: الصبر عن محارم الله. ح(١٠٧٨). ومسلم. كتاب: كتاب صفات المنافقين

وأحكامهم باب إكثار الأعمال ح ٢٨١٩

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٩/١١

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٣٠

الْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال الإمام الطبري: "لم يعتصموا إذ قُتل نبيهم؛ إلا بالصبر على ما أصابهم، ومجاهدة عدوهم، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم".^(١)

"فما كان قولهم إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم - مع كونهم ربانيين - هضمًا لها، وقدّم الدعاء والاستغفار من الذنوب، على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب، والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة".^(٢)

إنّ هؤلاء مع ما هم فيه من جهد ومشقة؛ إلا أنهم لم يغفلوا الدعاء؛ من أجل التواصل الذي هم في حاجة إليه مع الله تبارك وتعالى، لهذا قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فكانت النتيجة ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ

وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿[البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

"وذكر تعالى عن نوح وموسى عليهم السلام التشديد في الدعاء على قومهما، فقال عن نوح

الطَّبِئُ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢١﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَتْلُونَ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا﴾

[نوح: ٢٧]، وقال عن موسى الطَّبِئُ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

والظاهر أن نوحاً وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، ما دَعَوْا ذلك الدعاء على

قومهما؛ إلا بعد أن علما من الله، أنهم أشقياء في علم الله، لا يؤمنون أبداً، أما نوح فقد

صرح الله تعالى له بذلك في قوله ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]،

وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة

(١) جامع البيان ٤٦٤/٣

(٢) تفسير النسفي ١٨٣/١

المذكورة في "الأعراف" وغيرها".^(١)

قال القرطبي: "وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؟ فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، دليله قوله لنوح عليه السلام ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ وعند ذلك قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ والله أعلم"^(٢). وقال عليه السلام في دعائه ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] "والتبار الهلاك والخسار، فهو تخصيص للظالمين من قومه بسؤال استتصالحهم، بعد أن شملهم وغيرهم بعموم قوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ حرصاً على سلامة المجتمع الإنساني من شوائب المفسد، وتطهيره من العناصر الخبيثة"^(٣).

وفي دعاء لوط عليه السلام إشارة إلى ذلك ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠] وهذا إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء دعى ربه أن ينجبه وذريته أعظم الفساد، فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. فدعاء المؤمن في شدة الأزمات والشدائد، دعاء عبد يئس من المخلوقين، وتعلق قلبه بالخالق وحده، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]. وتأمل حال الشدة التي عاشها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في غزوة بدر، صورها الله تعالى بقوله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]. يقول القرطبي: "واستغاثتهم؛ أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال، طفقوا يدعون الله، ويقولون: أي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا".^(٤)

(١) أضواء البيان ٢/٢٤٨

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٧٥

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/١٩٩

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٣٢

وكان النبي ﷺ يكثر من بعض الدعوات يسأل فيها ربه الثبات على الحق، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ: " يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، فَقُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعِينَ مِنْ أَصْبَاعِ اللَّهِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ".^(١)

وهذا نبي الله يوسف السليمان لما استعانت عليه امرأة العزيز بنساء المدينة، استعان عليهن بالله عز وجل، حيث قال ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤]

والتأمل في الآيتين؛ لا يجد صيغة الدعاء ظاهرة، لهذا قال الزمخشري: " وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء، لأن قوله "إلا تصرف عني" فيه معنى طلب الصرف، والدعاء باللفظ".^(٢)

إذاً الدعاء هو سلاح المؤمن في كل حين، فإذا أهمله؛ فهو على وشك الهلاك، وإذا كان المسلم على اتصال دائم بالله تعالى، يدعوه ليلاً ونهاراً، فإن الله تعالى لا يتخلى عن عباده الذين يدعونه أبداً، كما لم يتخل عن يوسف السليمان.

ولذلك باشر النبي ﷺ الدعاء؛ في التاليف القلوب وإصلاحها، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، على النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله: إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال ﷺ: "اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم".^(٣)

وإذا جلت بقلبك مع هذا النص القرآني ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتِ بِبَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِقَاتِهِمْ وَلَا ذَخِنَهُمْ جَنَّتِ بَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٥]، تجد أن الله تعالى أجاب دعاء عباده سريعاً.

لهذا قال ابن عاشور: "دلت الفاء على سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودلت على أن مناجاة العبد ربه بقلبه، ضرب من ضروب الدعاء قابل للإجابة".^(٤)

(١) رواه الترمذي في سننه كتاب القدر. باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. ح(٢١٤٠)

(٢) الكشف ٥٨٥/١

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الجهاد. باب: الدعاء للمشركين. ح(٢٧٧٩).

(٤) التحرير والتنوير ١٧٤٢

"وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله، وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب، وشروطه، وآدابه من غيرهم، وكان عمر رضي الله عنه يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنده، وكان يقول للصحابة: لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء، وكان يقول: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء معه، فإن الإجابة معه".^(١)

فإذا توفر الإيمان في القلوب، واتجه الناس بالدعاء لربهم؛ استجاب دعاءهم، وهذا من مظاهر تأييد الله لعباده الصالحين.

ومن الموطن التي يتجلى فيها أثر الدعاء في دفع الفساد؛ أمره سبحانه إيانا؛ أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة في صلاتنا؛ أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وهم أولو الهدى والرحمة، ويجنبنا طريق المغضوب عليهم؛ وهم ضد المرحومين، وطريق الضالين؛ وهم ضد المهتدين، ولهذا كان هذا الدعاء؛ من أجمع الدعاء، وأفضله، وأوجهه.^(٢)

ولذا كان دعاء فاتحة الكتاب من أنفع الدعاء وأجمعه لاشتماله على طلب العون في فعل الصالح وترك الفاسد.

قال ابن القيم: "فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاذه وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء؛ فإذا هو سؤال العون على

مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]."^(٣)

وقال رحمه الله: "ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة، لا سبيل إلى نيله؛ إلا بمعرفة الحق، وإيثاره على غيره، وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق، والبغي يمنعه من إرادته؛ كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت؛ أن يهديه الصراط المستقيم، تعريفاً، وبيانا وإرشاداً، وإهاماً وتوفيقاً، وإعانةً، فيعلمه ويعرفه، ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه،

(١) الجواب الكافي ص ٩.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان ١٧٥/٢

(٣) مدارج السالكين ٧٨/١

فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم، الذين عدلوا عنه على عمد وعلم، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال.

وكان السلف يقولون: من فسد من علمائنا؛ ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا؛ ففيه شبه من النصراري، وهذا كما قالوا؛ فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود.. وأما من فسد من العباد، فعبد الله بمقتضى هواه، لا بما بعث به رسوله.. فشبهه بالنصارى ظاهر. فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد، إلى هذا الدعاء الذي ليس للبعد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأن حاجته إليه؛ أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقدر بفوقهما موته، وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين. آمين^(١).

وقد تحدث القرآن الكريم عن الفساد المحقق؛ لمن أمن مكر الله تعالى، وغفل عن دعائه، فهؤلاء الذين اغتروا بحياتهم الدنيا، واطمأنوا بها، وكان العذاب لم يكتب إلا على الذين من قبلهم، تأمل قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿[الأنعام: ٤٣، ٤٤].

ولذا كان لزاماً على المرء؛ أن يجتهد في أمر الدعاء؛ بتحقيق شروطه وآدابه، والمجاهدة في دفع موانعه؛ ليكون أقرب إلى الصلاح في كل أحواله.

ومما سبق يتجلى أثر الدعاء في دفع الفساد؛ سواء أكان باعث الفساد من النفس، أو الغير.

المبحث الخامس

التخويف بالله تعالى

من السُّبُل التي يندفع بها الفساد؛ خوف العبد من ربه، والخَوْفُ: هو الفزعُ، خافه يخافه خوفاً، وخيفةً ومخافةً، والتخوُّفُ التَّنَقُّصُ، كما في التتريل ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]. قال الزجاج: ويجوز أن يكون معناه؛ أو يأخذهم بعد أن يُخيفهم، بأن يُهلك قريّةً؛ فتخاف التي تليها.

وكذلك التخويفُ، يقال خَوَّفَهُ وخَوَّفَ منه، وخَوَّفَ الرجلُ؛ جعل الناسَ يخافونه، وفي التتريل ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يجعلكم تخافون أوليائه. (١)،

والخوف من الله؛ هو عبارة عن تألم القلب واحتراقه؛ بسبب توقع مكروه في الاستقبال. (٢)
أما التخويف من الله تعالى؛ فهو الحثُّ على التحرُّز، وفي ذلك يقول تعالى ﴿لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ. يَعْجَبُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

والخوف من الله تعالى لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به؛ الكفُّ عن المعاصي، واختيار الطاعات، ولذلك قيل: لا يُعدُّ خائفاً؛ من لم يكن للذنوب تاركاً. (٣)

هذا ولقد جاء القرآن بهذا الإسلوب، والهدف منه؛ أن يحمل على ترك الفساد أو يعالج صوراً للفساد، ويمكن تأمل ذلك بالإشارة لما يأتي:

١/ تخويف الله تعالى عباده بنفسه، كما في قوله سبحانه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، فأخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده، رحيم بهم، وأن من رآفته بهم؛ تحذيره إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيهم إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه. (٤)

(١) انظر: لسان العرب ٩٩/٩ مادة (خوف).

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٣١٤

(٣) المفردات للراغب. ص ١٦١

(٤) جامع البيان ٢٣٠/٣

وهذا التحذير من الله تعالى؛ حتى لا يغتر الإنسان بنفسه، فيتبع هواه؛ فيقع في الممنوع شرعاً، إذ التحذير؛ من شأنه أن يغرس في القلوب التذكر والاعتبار، والوجل والخوف من الله، ومن عقابه.

٢/ وتارة يكون التخويف بالقرآن، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاٰلِٓٔٓهُ وَلَا شَٰفِعٌ لَهُمْ يَنْقُوتُ﴾ [الأنعام: ٥١].

قال ابن كثير: "أي، وأنذر بهذا القرآن يا محمد، فيعملون في هذه الدار، عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه".^(١)

"وهذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال، من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم، ويدعون ما يضرهم".^(٢)

وتخصيص ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ بالذكر، لأن الإنذار يؤثر فيهم؛ لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر؛ لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك.^(٣)

لهذا قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، فمن خاف من الله تعالى، فإنه يسلك طريق الطاعة، ويستشعر لذتها، وبرد حلاوتها، فحينها تكون طاعته صارفة له عن الفساد.

٣/ وأما التخويف من عقاب الله؛ فكثير في القرآن، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧].

قال الطبري: "أفأمن هؤلاء الذين لا يُقرّون بأن الله ربه؛ إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره، ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ تغشاهم من عقوبة الله وعذابه؛ على شركهم به، أو تأتيتهم القيامة فجأة، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم برهيم، فيخلد لهم الله عز وجل في ناره،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١٨١/٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٨

(٣) فتح القدير ١٧٢/٢

وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها".^(١)

ولذا عاب الله تعالى على من يعملون السيئات، ويأمنون عقابه، فقال تعالى ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا

السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ

بِمُعْجِزِينَ﴾^(٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، وفي الآية تهديد شديد،

بوعيد الله تعالى للمشركين، بقرب العذاب لهم، إذا استمروا على ما هم فيه من فساد.

٤/ ونجد التخويف أيضاً بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكافئ الله تعالى فيه المحسن على

إحسانه، والمسيئ على إساءته، لهذا قال تعالى محذراً من لذلك اليوم ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣١) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: ٣٩، ٤٠]

قال السعدي: "الإندار هو: الإعلام بالخوف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما

ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في

موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله واتبع رسله؛ سعد سعادة؛ لا يشقى

بعدها، ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله؛ شقى شقاوة؛ لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله،

فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم

من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يتمكن من الرجوع

ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في

الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم، لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد

عمتهم الغفلة، وشملتهم السكر، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم،

وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية".^(٢)

ويوم القيامة؛ وصف باليوم العظيم؛ لشدة ما فيه من أهوال تنخلع لها القلوب، لهذا قال تعالى

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣]، لذلك فإن الأنبياء عليهم السلام، قد تخوفوا

على أقوامهم خطر هذا اليوم، قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(١) جامع البيان ٣١٤/٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٦

وكذا قال شعيب عليه السلام ﴿يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

ولما طلب المشركون من النبي ﷺ أن يغيّر كلام ربه، أو يبدّله؛ خوّفهم بالله، لأنه ﷻ أشد
الناس خشية لله، قال تعالى ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَأْت
بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ
إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

٥/ ويأتي التخويف بالنار، وفي من الترهيب ما ينبه الإنسان ليستعقب نفسه، وليكون على
حذر دائم، حتى لا يكون من الخاسرين، وإليه الإشارة في قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي
﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ
ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحَنُّبِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ [الزمر: ١٤ - ١٦].

وقوله ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. والإنذار يكون قبل
وقوع الشيء، فتصوّر الشيء فرع عن تأمله، فحين يتأمل المرء حال أصحاب النار، وهم
فيها، كما بيّنه القرآن، يدفعهم هذا التأمل إلى عدم الوقوع في المفاصد التي توجب السعير
﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

فمن شاء اتبع الحق ففاز ونجا، ومن شاء اتبع الباطل فضل وهوى، قال تعالى ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ
كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فالأمر موقوف على الاختيار، لذا قال الزمخشري: "جاء الحق وزاحت العليل، فلم يبق إلا
اختياركم لأنفسكم ما شئتم؛ من الأخذ في طريق النجاة، أو في طريق الهلاك".^(١)
والتخيير في الآية؛ جاء عقبه الحديث عما أُعدّ للمفسدين والظالمين، فدلّ هذا؛ على أن المراد
هو التحذير من اتباع طريق المفسدين، المفضى إلى العذاب الأليم.

وهذه صورة من صور العذاب بالنار يخوف الله بها عباده، حيث قال ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

ومعنى الآية الكريمة: "لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرّون على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هوّنّه عليهم".^(١)

فجهلهم بوقوع العذاب، واستخفافهم بكلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ؛ هو الذي جرّهم إلى الوقوع في هذا العذاب الأليم، وهذا الذي أعدّه لؤلؤاء في النار، الهدف منه؛ الردع للمتجاوزين الحدّ، عن الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿هَذَا وَإِلَى الظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مَثَابٍ ۗ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفْنَهَا إِلَيْهَا ۗ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

وهؤلاء يقال لهم يوم القيامة ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ﴾ [٢٩] انطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلْتِ شَعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرْمَى بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿المرسلات: ٢٩-٣٤﴾.

ثمرات التخويف بالله:

العبد المحب لله الخائف منه الراجي رحمته، كالطائر ذا الرأس والجناحان، فرأس الطائر المحبة، وجناحاه الخوف والرجاء، لهذا فإن التخويف بالله؛ أثمر حتى ظهر أثره على عباد الله، فأقبلوا على فعل الطاعات، وترك المنكرات، لهذا كانوا ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، خوفاً من عقاب ربهم، وطمعاً في ثوابه ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

ومدحهم الله تعالى؛ لخوفهم ألا تقبل أعمالهم، فقال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

(١) أضواء البيان ٤/ ٢٢٥

فمن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: "يا رسول الله، قول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاً وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: "لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله ان لا يتقبل منه".^(١)

وقال تعالى ﴿أَفَنُوعِلْمُهُمْ أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَئِذَا أَتَىٰ ٱلْبَلَّ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْيَمِثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿الرعد: ١٩﴾

وقال فيمن زكاهم ﴿رِجَالٌ لَا نُفْلِهِمْ نَجْدَةً وَلَا يُعِيبُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ﴿النور: ٣٧﴾.

كما بين الكتاب العزيز؛ ثمرة ذلك في الآخرة، ليستصحب العبد خوفه من ربه في كل دقيق وجليل، إذ الخوف من الله؛ هو الحاجز القوي أمام دفعات الهوى العنيفة، فقال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿النازعات: ٤٠-٤١﴾، ومن وراء هذه الجنة جنتان، قال سبحانه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿الرحمن: ٤٦﴾.

لذا كان النبي ﷺ أشد الناس خوفاً من الله تعالى، وكذلك كان صحابته رضي الله عنهم ومن تبعهم، مع كثرة عملهم، وشدة إخلاصهم لربهم، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، فقال له أصحابه وأهل بيته: يا رسول الله: أتخاف علينا وقد آمننا بك وبما جئت به، قال: "إن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء".^(٢)

وإذا كان النبي ﷺ بهذا الحال فما بالنا نحن؟

فالواجب علينا أن نكون على حذر دائم، لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

عواقب انعدام الخوف من الله

إذا عدم الخوف من الله؛ فإن العبد يأمن مكر الله تعالى، لهذا قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا

(١) رواه الترمذي كتاب التفسير .سورة المؤمنون .ح(٣١٧٥).

(٢) سبق تخريجه ص (٣٨٨)

مَكَرَ اللَّهُ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦-٩٩].

فلا يجوز لهم أن يأمّنوا ليلاً أو نهاراً، بعد تكذيب محمد ﷺ. (١)، إذ الأمن من العذاب، أو الركون إلى الدنيا، ينافي الخوف من الله تعالى، وعلى هذا فإن المسلم، لا بدّ أن يكون على خوف دائم، وهذا الخوف يجعله على اتصال دائم بربه، ليكون بمنأى عن الولوج فيما يؤدي إلى المفاسد.

فالتوبيخ الذي جاء إلى أهل مكة، ومن على شاكلتهم، هو بسبب أمنهم من العذاب، لهذا فإن التخويف بالله تعالى، أو بالنار، أو التوعد بالانتقام من الظالمين؛ يجعل العبد يحذر على نفسه من اتباع الشيطان، لأن طريقه يؤدي إلى الوقوع في الفساد الذي نهى الله عنه.

وخلاصة القول؛ فإن خوف الصالحين في الدنيا مع صلاحهم، يكون سبباً في أمنهم يوم الفرع الأكبر، وأمن الفجار في الدنيا مع فجورهم؛ سيكون سبباً في خوفهم عند الحساب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: "وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين، ولا خوفين، إن هو آمنني في الدنيا، أخففته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا؛ أمّنته يوم أجمع عبادي". (٢)

(١) الوجيز للواحدى ١ / ٤٠٤

(٢) حديث حسن وأخرجه ابن المبارك في الزهد رسلاً (١٥٧) ووصله يحيى بن صاعد في زوائد الزهد (١٥٨) وأبونعيم من طريق أخرى (٩٨/٦) وذكر الهيثمي أنه مروى عن الحسن رسلاً وعن أبي هريرة بنحوه، وقال: رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه. وبقيّة رجال المرسل رجال الصحيح وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، انظر: مجمع الزوائد ١٠ / ٣٠٨

المبحث السادس

السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَنَبْذُ الْأَخْتِلافِ

من سنن الله تعالى التي حكم بها بين عباده؛ أنهم لا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، وأنه كتب ذلك عليهم ابتلاء، ولا رادّ لقضاء الله تعالى، فقد قال سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩].

وأخبر سبحانه على سبيل التحذير؛ بخوض طوائف من هذه الأمة بما خاضت به الأمم السابقة من الأهواء فقال ﴿فَأَسْتَمْتَعُمْ بِمَخَلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخَلَقِهِمْ وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩].

"فقوله ﴿فَأَسْتَمْتَعُمْ بِمَخَلَقِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهذا داء العصاة، وقوله ﴿وَخُضُّمٌ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إشارة إلى اتباع الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيراً ما يجتمعان" (١).

والاختلاف قد يكون عن اجتهاد وحسن نية، ويؤجر عليه المخطئ؛ ما دام متحريراً للحق، والمصيب أكثر أجراً، وقد يُحمد المخطئ على الاجتهاد أيضاً، أما إذا وصل إلى حد الافتراق فهو مذموم كله، بينما الافتراق لا يكون عن اجتهاد، ولا عن حسن نية، وصاحبه لا يؤجر عليه، بل هو مذموم، وأثم على كل حال، ومن هنا، فهو لا يكون إلا عن ابتداء، أو عن اتباع هوى، أو تقليد مذموم، أو جهل مطبق.

إن الفرقة والاختلاف، داءان وبيلان يقعدان بالأفراد والأمم عن الإصلاح والبناء، ويمكنان للهدم والفساد، ويسببان ظلمة القلوب، وفساد الألسن، والطعن في الناس، وقد يؤديان إلى الاحتراب والاقتيال.

وما أصيب بنو إسرائيل بالنقص والخذلان، وحقاق بهم الذل والهوان، وحققت عليهم اللعنة - رغم أن النبوة كانت فيهم، وقد فضلوا على العالمين - إلا لعدم سماعهم وطاعتهم للحق، وكثرة اختلافهم على أنبيائهم، واتباع أهوائهم، وأدّى بهم ذلك؛ إلى الفرقة والعداوة والبغضاء، يقول تعالى في شأن اليهود ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي شأن النصارى قال سبحانه ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوهُ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَسَوْأَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

والمعنى: "فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك فإن طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم؛ لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلج معبدها".^(١)

وبلغ بهم اختلافهم وفرقتهم مبلغ الشقاق والعداوة والقتال؛ كما في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِيُشْفِقَ بَعِيدٌ﴾ [البقرة: ١٧٦].

ولقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا كبنى إسرائيل في فرقتهم واختلافهم، وتباغضهم وتناحرهم؛ حتى لا يضلوا كما ضلوا، ويزيغوا كما زاغوا، فقال ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وإذا نظرنا حال العرب قبل الاسلام؛ وجدناهم أمماً متناحرة، تتقاذفهم النعرات الجاهلية، وتقام بينهم الحروب لأي سبب، لهذا دعانا الله تعالى إلى الوحدة والإتلاف؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة، وهانا عن التفرق والاختلاف؛ للما يترتب عليها من مفسد وخيمة، فقال ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولما أمر الله تعالى بسلوك هذا الطريق الأوحده، نهى عن الطرق الأخرى؛ التي ينتج عنها التفرق والاختلاف؛ لئلا تفسد القلوب واجتمع، فقال ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

لذا قال الطبري عند هذه الآية: "ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافاً من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾".^(٢)

وقال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٣ .

(٢) جامع البيان ٥ / ٣٩٦ .

ومع هذا التحذير العظيم من التفرق والاختلاف الذي أبدى فيه القرآن وأعاد، فإن أمة الإسلام؛ وإن كانت معصومة من الإجتماع على ضلالة، فإنها ليست معصومة من التفرق والاختلاف، الذي يتسبب في البدع والضلالات، واتباع الهوى، وتعطيل السنن، والغرور بالدنيا وزخارفها؛ ولذلك أخبر النبي ﷺ عن هذا الاختلاف محذراً فقال: "وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة"^(١). وهذه الواحدة هي من سلكت سبيل المرسلين، والفرق الباقية الهالكة؛ هي التي ابتدعت في الدين.

وعليه فإن الإسلام بعد الجاهلية؛ قد نقض التفاضل المبني على التفرقة، وأكد الحرص على الوحدة والاتلاف، وقطع كل طريق يفسدها؛ لأن المؤمنين إخوة، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وبيّن النبي ﷺ هذا الأمر فقال: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى... " الحديث^(٢)

كما أكد النبي ﷺ أيضاً على الاجتماع تحت راية واحدة، وبيّن أن الإمامة العظمى من أعظم مقاصد الدين، وأكد فرائضه، وهي نيابة عن النبوة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا، ولا تبرأ ذمة المسلمين؛ حتى تجتمع كلمتهم؛ على إمام يسوسهم بكتاب الله، ووجوب مناصحة أولي الأمر، والالتزام بالطاعة لهم في غير معصية ما أقاموا في الأمة كتاب الله.

ولقد حكى القرآن أثر الاختلاف على من كان قبلنا، فقال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ أُوتُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ لِيُحْكُمَ بَيْنَهُمْ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فاختلافهم فيما بينهم فرّق جماعتهم، وجعلهم أمماً متناحرة، وفرقاً كثيرة، كل واحدة تزعم

(١) سبق تخريج ص (٦٤)

(٢) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي نضرة ٤١١/٥

أن الحق معها، فدفعهم هذا؛ إلى قتال بعضهم بعضاً، مما جعلهم بعد ذلك لا قيمة لهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا مِنَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالاختلاف بينهم قائم بسبب تفرق أمرهم، فأمن منهم من آمن، وكفر منهم من كفر، فكان موجب هذا الاختلاف؛ التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب. (١)

وتوعد الله تعالى الذين فرقوا دينهم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال السعدي: "يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكلُّ أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال، والمفرقين للأمة". (٢)

فلو كان الاختلاف بين الناس شيئاً هيناً، لما ترتب عليه ما ترتب، ولما توعد الله بمثل ما توعد به في القرآن؛ من عذاب أليم، أو نفي المثلية عن نبيه ﷺ.

ثم أمرنا سبحانه بالسمع والطاعة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

والمعنى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ربكم، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، وأطيعوا رسوله محمداً ﷺ فإن في طاعتكم إياه؛ لربكم طاعة، وذلك أنكم تطيعونه؛ لأمر الله إياكم بطاعته". (٣)

لهذا قال ابن عاشور: "لما أمر الله الأمة بالحكم بالعدل؛ عقب ذلك بخطابهم بالأمر بطاعة الحكام ولاة أمورهم، لأن الطاعة لهم؛ هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكامهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن. ص ١٠٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٢

(٣) جامع البيان ٤/١٤٩

فطاعة الرسول ﷺ تشتمل على احترام العدل المشروع لهم، وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور؛ تنفيذ للعدل، وأشار بهذا التعقيب إلى أن الطاعة المأمور بها هي الطاعة في المعروف، ولهذا قال علي رضي الله عنه: "حق علي إمام أن يحكم بالعدل، ويودي الأمانة، فإذا فعل ذلك؛ فحق علي الرعية أن يسمعوا ويطيعوا".^(١)

وأمر الله بطاعة الله ورسوله، وذلك بمعنى طاعة الشريعة، فإن الله هو منزل الشريعة ورسوله ﷺ مبلغها والحاكم بها في حضرته.^(٢)

"ولما كانت الحوادث لا تخلوا من حدوث الخلاف بين الرعية، وبينهم وبين ولاة أمورهم، أرشدهم الله إلى طريقة فصل الخلاف؛ بالرد إلى الله تعالى وإلى الرسول ﷺ، ومعنى الرد إلى الله؛ الرد إلى كتابه، كما دل على ذلك قوله في نظيره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٦١].

ومعنى الرد إلى الرسول ﷺ؛ إنهاء الأمور إليه في حياته وحضرته، كما دل عليه قوله في نظيره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ فأما بعد وفاته أو في غيبته، فالرد إليه؛ الرجوع إلى أقواله وأفعاله، والاحتذاء بسنته^(٣)، وروى أبو داود عن أبي رافع رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكة، يأتيه الأمر مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"^(٤).

كما بين إن الفلاح يكون في طاعة المؤمنين لرهم سبحانه وتعالى، واتباع أمر نبيهم ﷺ، لهذا قال ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢].

وكشف - سبحانه - حال أهل النفاق في إقرارهم بالسمع والطاعة؛ ثم مخالفتهم لما أقروا به؛ نافياً عنهم الإيمان، بعد ما زعموه لأنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ

(١) معالم التنزيل ١/٤٤٤

(٢) التحرير والتنوير ٩٧٢

(٣) التحرير والتنوير ٤/١٦٦

(٤) رواه أبو داود. كتاب السنة. باب في لزوم السنة ح(٤٦٠٥).

مَنْهُمْ مَنْ بَعَدَ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَيْتِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾
وَأَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتَ لَهُمُ
الظَّالِمِينَ ﴿النور: ٤٧-٥٠﴾.

ولهذا ذمَّ الله تعالى قوم موسى عليه السلام، فقال ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا
ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا
يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿البقرة: ٩٣﴾.

وهكذا ترى أن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ؛ أمر حتم لا ينفك أحدهما عن الآخر، ولهذا
جعل الله جزاءها كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿النساء: ٦٩﴾.

قال الطبري: "يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بالتسليم لأمرهما وإخلاص
الرضى بحكمهما والانتهاى إلى أمرهما، والانزجار عما نهى عنه من معصية الله؛ فهو مع الذين
أنعم الله عليهم بهديته، والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه وفي الآخرة إذا دخل الجنة".^(١)

وأخبر النبي ﷺ أن من طاعته؛ طاعة أولي الأمر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني،
ومن عصى أميري فقد عصاني"^(٢)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إسمعوا
وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي؛ كأن رأسه زبيبة".^(٣)

وبيّن ﷺ أن هذه الطاعة واجبة في غير معصية الله، فقال: "إنما الطاعة في المعروف"^(٤).
ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يولون هذا الأمر اهتماماً خاصاً، لا سيما عند ظهور
بوادر الفتنة، نظراً لما يترتب على الجهل به، أو إغفاله؛ من الفساد العريض على العباد

(١) جامع البيان ٤/١٦٥

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الأحكام. باب قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ح (٦٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الأحكام. باب أجر من قضى بالحكمة. ح (٦٧٢٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب: الاحكام باب: السمع والطاعة للامام ح (٦٧٢٦)

والبلاذ، والعدول عن سبيل الهدى والرشاد.

وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم".^(١)

قال الحسن البصري في الأمراء: "هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن طاعتهم والله لغبطة وأن فرقتهم لكفر"^(٢). يعني به كفراً دون كفر. وقد قال النبي ﷺ: "من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية"^(٣)، وروي عنه ﷺ أنه قال: "من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ فميتته جاهلية"^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه؛ من معصية ولادة الأمور، وغشهم، والخروج عليهم؛ بوجه من الوجوه؛ كما قد عُرف من عادات أهل السنة والدين، قديماً وحديثاً، ومن سيرة غيرهم"^(٥). وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: "لا بد للناس من إمارة، برّة كانت أو فاجرة، قيل له: هذه البرّة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ قال: يؤمن بها السبيل، ويقام به الحدود، ويجاهد به العدو، ويقسم بها الفياء"^(٦).

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٦٢

(٢) جامع العلوم والحكم ٢٦٢ والشريعة للأجري ٥٦/٤

(٣) أخرجه مسلم كتاب: الامارة باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين ح (١٨٥١)

(٤) أخرجه مسلم كتاب: الامارة باب: وجوب ملازمة جماعة المسلمين ح (١٨٤٨)

(٥) مجموع الفتاوى ١٢/٣٥.

(٦) ذكره شيخ الإسلام في السياسة الشرعية ص ٨٧. ولم أقف عليه.

بل أرشد الشارع الحكيم على الصبر على ما يُكره من الولاية؛ ما لم يكن كفراً بواحاً؛ حرصاً على اجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقهم؛ فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه وأن لا ننازع الأمر أهله" ^(١) وروى عرفجة ^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: "ستكون هناتن وهنات" ^(٣)، ورفع صوته، ألا من خرج على أمي وهم جميع، فاضربوا عنقه بالسيف، كائناً من كان" ^(٤). فكل من ثبتت إمامته؛ وجبت طاعته، وحرُم الخروج عليه، وقتاله، لقول تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ولقد فقه الصحابة رضي الله عنهم هذه النصوص، وأدركوا مغزاها، فامتثلوا أمر الشريعة في هذا الباب، درءاً للفتنة والفرقة بين أهل الإسلام. ومواقفهم في ذلك كثيرة، فمن ذلك أن عثمان رضي الله عنه صلى بالناس في الحج فجعل يتمها أربعاً بلا قصر، فكره ذلك ابن مسعود رضي الله عنه؛ لعلمه أن النبي ﷺ كان يقصر الصلاة بمضى، فقيل له: أفلا أنكرت ذلك عليه، فقال: "إن الخلاف شر" ^(٥).

بل إنهم رضي الله عنهم قاتلوا الخوارج ^(٦) درءاً لفتنتهم عن المسلمين، وامثالاً لأمر النبي ﷺ فيهم حيث قال: "يأتي في آخر الزمان، قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة" ^(٧).

(١) أخرجه البخاري. كتاب الاحكام. باب: كيف يبايع الامام الناس ح(٦٧٧٤)

(٢) عرفجة بن أسعد بن كرب التميمي العطاردي، أصيب أنفه في الجاهلية، فاتخذ أنفاً من ورق فأتى، فأمره النبي ﷺ أن أتخذ أنفاً من ذهب، انظر: الإصابة ٤/٤٨٤

(٣) الهنات جمع هنة وتطلق على كل شيء، والمراد بها هنا هو الفتنة. لسان العرب ١٥/٣٦٥

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الإمارة. باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع. ح(١٨٥٢)

(٥) أخرجه أبو داود. كتاب المناسك. باب الصلاة بمضى. ح(١٩٦٠)، والطبراني في الأوسط. ٦/٣٧٨. ح(٦٦٣٧)

(٦) انظر: البداية والنهاية ٦/٢١٦ وما بعدها.

(٧) أخرجه البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة. ح(٣٤١٥).

وبعد هذا خطورة الإخلال بهذا السبيل؛ لما يترتب عليه من مفسد دينية ودنيوية، واختلال للأمن، وضياع لبلاد الإسلام، وإدخال الوهن على المسلمين، وتسليط الأعداء عليهم.

المبحث السابع

إقامة الحدود والزواج الشرعية

الحدود في الإسلام جزء من تشريع إلهي كامل، أنزله رب العالمين، ليكون نظاماً يكفل لمن اتبعه؛ السعادة والأمان والاستقرار، إلى قيام الساعة.

"ومع حرص الإسلام على تربية الضمير دينياً، وخلق الوازع الإيماني القوي في كيان الإنسان؛ لم يغفل أن يُقيم إلى جانب هذا الوازع الذاتي؛ وازعاً من خارج الذات؛ وهو وازع السلطان، بحيث إذا غفل وازع الضمير قام مقامه وازع السلطان، وبهذا تكمل الرقابة على الإنسان، وتغفل الثغرة التي يمكن أن ينفذ منها إلى الفساد.

ومع أن الشريعة أوجبت لمرتكبي الجرائم والمنكرات عقوبات أخروية؛ جزاءً لما ارتكبه من معاصي وآثام، فإنها قررت عقوبات دنيوية على تلك الجرائم، وذلك لأن بعض الناس ممن ضعفت نفوسهم، وانعدمت أخلاقهم، وقلَّ حياؤهم، لا يردعهم عن طغيانهم، ولا يزرهم عن غيهم، الوعيد بعقاب بعد الموت؛ بل لا يردعهم إلا العقاب العاجل الفوري، ليدوقوا ألم العقوبة، ومرارة العذاب؛ فيمتنعوا من تكرار الجريمة، ويتزجر غيرهم، فينقاد للامثال والطاعة، وعدم التردّي في مزالق الرذيلة.

فاقتضت حكمة الخالق جل وعلا، فرض الجزاء العادل ليتناسب مع الجريمة وأثرها السيء في المجتمع، وليستأصل بوادر الشرِّ من حين ظهورها، ويقضي على جرائم الجريمة في مهدها، ويحفظ للناس مصالحهم التي لا تستقيم الحياة بدونها، ولا تنهض إلا عليها".^(١)

قال الماوردي: "فأما المحرمات التي يمنع الشرع منها، واستقر التكليف عقلاً أو شرعاً بالنهاي عنها، فتنقسم قسمين:

منها؛ ما تكون النفوس داعية إليها، والشهوات باعثة عليها، كالسفاح وشرب الخمر، فقد زجر الله عنها؛ لقوة الباعث عليها، وشدة الميل إليها، بنوعين من الزجر: أحدهما: حدّ عاجل، يرتدع به الجريء.

والثاني: وعيد آجل، يزدجر به التقي.

ومنها؛ ما تكون النفوس نافرة منها، والشهوات مصروفة عنها، كأكل الخبائث والمستقذرات، وشرب السموم المتلفات، فاقصر الله في الزجر عنها بالوعيد، وحدّه دون الحدّ؛ لأن النفوس

(١) آثار تطبيق الشريعة الإسلامية في منع الجريمة، د. محمد الزاحم، ص ٨٩.

مستعدة في الزجر عنها، ومصروفة عن ركوب المحذور منها"^(١).

والمتأمل في الغاية التي شرعت الحدود لأجلها؛ يدرك أثر هذا السبيل في دفع الفساد، ونجد ذلك في عدّة أمور، من أبرزها:

١/ حفظ المصالح.

قال الإمام الغزالي في بيان ذلك: "والمصلحة هي عبارة في الأصل عن جلب منفعة، أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة، مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكننا نعني بالمصلحة؛ المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة؛ وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة؛ فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول؛ فهو مفسدة، ودفعها مصلحة.

وهذه الأصول الخمسة: حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح. ومثاله: قضاء الشرع بقتل الكافر المضل، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته، فإن هذا يفوت على الخلق دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص أدبه حفظ النفوس، وإيجاب حدّ الشرب، إذ به حفظ العقول التي هي ملاك التكليف، وإيجاب حدّ الزنا؛ إذ به حفظ النسل والأنساب، وإيجاب زجر العُصاب والسُّراق؛ إذ به يحصل حفظ الأموال التي هي معاش الخلق، وهم مضطرون إليها.

وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها، يستحيل أن لا تشتمل عليه ملة من الملل، وشرعية من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذلك لم تختلف الشرائع؛ في تحريم الكفر والقتال والزنا والسرقه وشرب المسكر"^(٢).

ومن ثمّ؛ فإن الحدود في الإسلام، لها ضابط يحفظ التوازن بين حقوق الفرد والجماعة معاً، فمن حق الفرد على الجماعة؛ تحقيق مصالحه وحفظها، وصيانة حياته ومقوماتها، والعمل على حمايته ليس فقط من غيره؛ بل من نفسه أيضاً، وللمجتمع كذلك الحق في صيانة كيانه من كل اعتداء أو مساس، وفي الحصول على حياة آمنة وادعة، تتسم بالطهر والعفاف،

(١) أدب الدنيا والدين ص ١١٢

(٢) المستصفى في علم الأصول. لأبي حاكّد الغزالي. ١/٣٧٩

وجميع الجرائم التي حرمها الإسلام، إنما هي من النوع الذي لو ترك وشأنه؛ لأدى إلى اضطراب المجتمع، وإشاعة الفوضى والقلق فيه.

٢ / إقامة العدل:

فالفرد في مجتمعه له حقوق وعليه واجبات، فإذا عرف كلُّ حقه؛ فأخذ من غير زيادة، وعرف الواجب عليه؛ فأداه من غير نقص؛ عمَّ المجتمع الخير وساده العدل. إلا أن ذلك متعذرٌ في جميع الناس؛ فإن فيهم من يتعدى حقوق غيره ويظلمهم، فإذا لم يكن هناك حدود وزواجر، تطبَّق على أمثال هؤلاء؛ فإن الموازين حينئذٍ تختل، فينتشر الظلم، وتسلب الحقوق.

وإذا علم الناس أن المُفسد، سينال عقوبته مهما كان، وأنه لا فرق في الشريعة بين أفراد المجتمع رئيسهم ومرؤسهم، غنيهم وفقيرهم، كلُّ منهم تقام عليه حدود الله إذا تجاوزها، استرتاح ضمائرهم، واطمئنت نفوسهم، وإذا ما كان العكس؛ فإنه سيصبَّ جام غضبه على مجتمعه، ويستنفر حقه عليه؛ قتلاً وسرقة وخيانة.

لهذا كان القصاص هو الجزاء العادل، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال الشوكاني: "جعل الله في القصاص حياة ونكالا وعظة، إذا ذكَّره الظالم المعتدي؛ كفَّ عن القتل".^(١)

وقال الزمخشري: "القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محزِّ البلاغة؛ بتعريف القصاص وتنكير الحياة؛ لأن المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب^(٢)، حتى كاد يُفني بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله؛ فتشور الفتنة، ويقع بينهم التناحر، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص؛ كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالاقصاص من

(١) فتح القدير ٢٧١/١

(٢) المهلهل بن ربيعة التغلبي واسمه امرؤ القيس، ويقال عدي بن ربيعة، وأخوه كليب.

انظر: سيرة بن هشام ١٢٨/٤، طبقات فحول الشعراء للحمحي ٣٩/١

القاتل، لأنه إذا همَّ بالقتل؛ فعلم أنه يقتص منه، فارتدع؛ سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود، فكان القصاص سبب حياة نفسين".^(١)

وعلى هذا فإنه يجب أن يطبق شرع الله عز وجل على كل الناس على القريب والبيعد، السيد والمسود، الشريف والوضيع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد؛ حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة رضي الله عنه فقال ﷺ: "أتشفع في حد من حدود الله"، ثم قام فاختطب، ثم قال: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها".^(٢)

٣/ رحمة المجتمع:

ذلك أن الأثرة والظهور فطر حبها في النفوس، مما قد يحمل صاحبه على الظلم والعدوان، وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فالنفس إن لم تُهدب؛ تميل إلى ما في أيدي الآخرين، والاعتداء عليهم. ولو ترك هذا الإنسان وشأنه؛ لعمّ الظلم، وشاع الفساد، وانتهكت الأعراض، واستبيحت المحارم، وصار حال المجتمع أشبه بحال سباع ضارية في غابة، يأكل القوي الضعف. فشرع اللطيف الخبير؛ العقوبات الرادعة عن الجرائم؛ رحمة بالمجتمع؛ ليعيش أفرادهم آمنون على دينهم وديناهم.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم رحماء بينهم، وليس مقتضى هذه الرحمة؛ أن يترك المفسدون وشأنهم؛ ليعثوا فساداً في الأرض، وتعطل فيهم حدود الله تعالى، كيف وقد قال سبحانه في حد الزناة ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهِ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

(١) الكشاف ٢٤٨/١

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء. باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف. ح (٢٣٨٨)، ومسلم. كتاب الحدود. باب

قطع السارق الشريف وغيره. ح (١٦٨٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن إقامة الحدّ من العبادات؛ كالجهاد في سبيل الله، فينبغي أن يعرف أن إقامة الحدود؛ رحمة من الله بعباده، فيكون الوالي شديداً في إقامة الحدّ، لا تأخذه رأفة في دين الله، فيعطّله، ويكون قصده؛ رحمة الخلق بكفّ الناس عن المنكرات، لا إشفاء غيظه، وإرادة العلو عن الخلق به، ممثلة الوالد إذا أدّب ولده، فإنه لو كفّ عن تأديب ولده؛ كما تشير به الأم رقة ورأفة؛ لفسد الولد، وإنما يؤدبه رحمة به، وإصلاحاً لحاله، مع أنه يود ويؤثر أن لا يواجهه إلى تأديب، وبمثلة قطع العضو المتأكل، وبمثلة شرب الإنسان الدواء الكريه، وما يدخله على نفسه من المشقة؛ لينال به الراحة.

فهكذا شرّعت الحدود، وهكذا ينبغي أن تكون نية الوالي في إقامتها، متى كان قصده صلاح الرعية، والنهي عن المنكرات، بجلب المنفعة لهم، ودفع المضرة عنهم، وابتغى بذلك وجه الله تعالى، وطاعة أمره".^(١)

٤/ إصلاح الجاني.

الحدود التي جاءت بها الشريعة؛ ربما نظر بعض الناس إليها بعين واحدة، فينظر إلى الجاني والعقوبة التي سينالها، ولا ينظر إلى المجتمع الذي يتضرر بأذية المفسدين، فيتصور العقوبات تعذيباً للجاني، وانتقاماً منه، وهذا تصوّر خاطيء يخالفه الشرع والعقل، فإن العقوبات التي فرضتها الشريعة، منها: ما جاء ليحثت عضواً فاسداً في المجتمع لا سبيل إلى إصلاحه، وبقائه سيكون سبباً في شيوع الفاحشة والفساد.

ومنها: ما جاء لإصلاح ومعالجة العضو المريض الذي الذي يمكن أن يكون صالحاً في المجتمع.

ومن أسباب إقامة الحدود؛ تطهير الجاني من ذنبه، وتكفير خطاياها، ليقية من عقاب الآخرة، لما روى عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصاة من أصحابه: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن

(١) السياسة الشرعية ص ١٢٥.

أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا؛ فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثم ستره الله؛ فهو إلى الله؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك".^(١)

كما أن الشرع ندب إلى العفو عن الحدود، قبل أن تبلغ الإمام، كما قال تعالى في المحارِبِينَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤].

قال السعدي: "يسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضاً، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلماً؛ فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئاً، والحكمة في ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحراية، فغيرها من الحدود - إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه - من باب أولى".^(٢)

والشريعة لا تهتم بإقامة الحد فقط، وإنما تُغلق كل الطرق المؤدية إلى ذلك، فمثلاً الزنى، نجد أن كل مقدماته قد حرمت؛ فالنظرة إلى الأجنبية، والخلوة بها بلا محرم، والخضوع بالقول من النساء، وما شابهها؛ كلها حرام، حتى تُغلق كل الأبواب المؤدية إلى الفاحشة.

وينبغي أن يُعلم أن الإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء الحياة النظيفية بين الناس، ولا يتخذها الوسيلة الوحيدة لذلك، وإنما يعمل على الوقاية من الجريمة، ومحاربتها بالضمير الوازع، والنفس المهذبة، والسلوك المستقيم، وتوفير أسباب الحياة النظيفية لكل الناس، فمن ارتضى هذه الأسباب، واتخذها منهج حياته؛ ارتقى وعزَّ بالإسلام، وسعد بالاجتماع، وسعد به مجتمعه، ومن هجر هذه الأسباب ونفر منها، وسعى في الأرض فساداً، دون رادع من خلق، أو وازع من ضمير، فهو كمن يتمرغ في الوحل مختاراً، وحُق للإسلام أن يُترل به عقابه؛ ليحمي الناس من شروره، ويوفر للمجتمع أمنه واستقراره.

والجرائم التي أُرصد لها الإسلام حدوداً معينة، بعضها جاء به القرآن الكريم، وبعضها الآخر ورد في السنة، وهي: السرقة والزنا والقذف وشرب الخمر والردة والبغي والحراية - وهي

(١) سبق تخريجه ص ٨٢

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٢٩.

التي تسمى بقطع الطريق - ، ثم جريمة قتل العمد ، والقتل شبه العمد، والقتل الخطأ، والعقوبة المقررة للجرائم السبعة الأولى تسمى حدًا، بمعنى أن العقوبة المقررة فيها، هي حق الله تعالى.

والعقوبات المقررة في الإسلام؛ عقوبات ملائمة للجرائم المرصودة لها، وقد شرعت على أساس محاربة الدوافع الخاصة بكل جريمة، فهي في الزنا الرجم للمحصن كما جاء في السنة "واغد يا أنيس إلى امرأة هذا؛ فإن اعترفت فارجمها"^(١)، ولغير المحصن جلد مائة وتغريب عام كما قال تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

قال الشنقيطي: "والحاصل أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى، لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أحسن جريمة عرفها الإنسان، بهتك الأعراض، وتقذير الحُرُمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله، ومن كان كذلك؛ فهو نجس قدر، لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم الخبير، بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع، ويظهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفضح قتله؛ لأن جريمته أفضح جريمة، والجزاء من جنس العمل.

وغلظ جلّ وعلا عقوبة المحصن بالرجم، تغليظاً أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة، لأن المحصن قد ذاق عُسَيْلَةَ النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن، فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم؛ كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم، وأما جلد الزاني البكر؛ ذكراً كان أو أنثى؛ مائة جلدة، فهذا منصوص بقوله ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى"^(٢).

قال الزمخشري: "ولذلك وفي الله فيه عقد المائة بكماله بخلاف حد القذف وشرب الخمر، وشرع فيه القتل الهولة وهي الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة على المجلود فيه، وأمر بشهادة

(١) أخرجه البخاري. كتاب الوكالة. باب الوكالة في الحدود. ح(٢١٩٠)، ومسلم. كتاب: الحدود. باب من اعترف

على نفسه بالزنا. ح(١٦٩٧).

(٢) أضواء البيان ٣/٣٦.

الطائفة للتشهير، فوجب أن تكون طائفة يحصل بها التشهير، والواحد والثان ليسوا بتلك المثابة، واختصاصه المؤمنين؛ لأن ذلك أفضح والفاسق بين صلحاء قومه أحجل^(١).
وهي في السرقة القطع، وفي القذف والشرب الجلد، وهي في الحراية بحسبها، كما سبق، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

وهي في الردة والبغي القتل، وهي في القتل والجرح العمد القصاص، وفي القتل الخطأ الدية، وعلة التشديد في هذه الجرائم بالذات؛ أنها من الخطورة بمكان، والتساهل فيها؛ يؤدي إلى انهيار الأخلاق، وفساد المجتمعات، إذ هي جرائم رئيسة تتصل بالحياة العامة، ولا يقتصر ضررها على مرتكبيها فقط، ولكنه يتعدى إلى الأفراد والجماعات، فالقتل العمد عدوان على الحياة التي اختص الله وحده بمنحها للإنسان، فهو عدوان على حق الله، زد على ذلك ما يترتب على هذه الجريمة من الاستهانة بجرمة الدماء، وتأريث الأحقاد والعداوات، وإشاعة الفتن والذعر بين الناس؛ ولذلك كان قتل نفس واحدة بمثابة عدوان على البشرية كلها، قال تعالى ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ﴾ [المائدة: ٣٢]، وكان قتل النفس عمداً هو الجرم الذي لا يكفر عنه دية ولا عتق رقبة ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قال ابن القيم في تقرير ما سبق: "فكان من بعض حكمته سبحانه ورحمته؛ أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات، غاية الأحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع، فلم يشرع في الكذب قطع اللسان ولا القتل، ولا في الزنا الخصاء، ولا في السرقة إعدام النفس، وإنما شرع لهم في ذلك ما هو موجب أسمائه

وصفاته، من حكمته ورحمته، ولطفه وإحسانه، وعدله لتزول النوائب وتنقطع الأطماع؛ عن التظالم والعدوان، ويقتنع كل إنسان بما أتاه مالكة وخالقه، فلا يطمع في استلاب غير حقه. ومن ثمّ؛ فتفاوت العقوبات بتفاوت الجنايات، فهي متباينة في القلة والكثرة، ومتفاوتة في شدة الضرر وخفته، كتفاوت سائر المعاصي في الكبر والصغر، وما بين ذلك.

فلما تفاوتت مراتب الجنايات؛ لم يكن بُدُّ من تفاوت مراتب العقوبات، وكان من المعلوم؛ أن الناس لو وكلوا إلى عقولهم في معرفة ذلك، وترتيب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية جنساً ووصفاً وقدرًا؛ لذهبت بهم الآراء كل مذهب، وتشعبت بهم الطرق كل مشعب، ولعظم الاختلاف، واشتد الخطب، فكفاهم أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، مؤنة ذلك، وأزال عنهم كلفتهم، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره، نوعاً وقدرًا، ورّتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة، ويليق بها من النكال.

ثم بلغ من سعة رحمته وجوده؛ أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها، وطهرة تُزيل عنهم المؤاخذه بالجنايات إذا قدموا عليه، ولا سيما إذا كان منهم بعدها التوبة النصوح والإقامة، فرحمهم بهذه العقوبات؛ أنواعاً من الرحمة في الدنيا والآخرة، وجعل هذه العقوبات دائرة على ستة أصول، قتل وقطع وجلد ونفي تغريم مال وتعزير".^(١)

إن التطبيق العملي لهذه الحدود يسهم بدون شك إسهاماً كبيراً في تحقيق الأمن للناس، وبالمقابل ينعكس إهماله وتضييعه، كسائر حدود الشرع، سلباً على الأمن والاستقرار، ويفتح الطريق لتفاقم الفساد في المجتمع.

وما ذكره أهل العلم، من أن الأحكام الشرعية تدور من حيث الجملة، على وجوب حماية الضروريات الخمس، والعناية بأسباب بقائها مصونة سالمة؛ وهي: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال، وقدر تلك الأخطار العظيمة التي تنشأ عن جرائم الاعتداء على حرّمات المسلمين في نفوسهم، أو أعراضهم، أو أموالهم، وما تسببه من التهديد للأمن العام في الأرض، والله - سبحانه - قد حفظ للناس أديانهم، وأبدانهم، وأرواحهم، وأعراضهم، وعقولهم؛ بما

(١) إعلام الموقعين ٢/١٢٥

شرعه من الحدود والعقوبات التي تحقق الأمن العام والخاص، وإن تنفيذ الحدود الشرعية؛
كفيل بإشاعة الأمن والاطمئنان، وردع من تسول له نفسه الإجرام والاعتداء على المسلمين.

المبحث الثامن

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من السبل التي يندفع بها الفساد؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ابن جرير: "وأصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله، جميلاً مستحسناً غير مستقبح، في أهل الإيمان بالله، وإنما سُميت طاعة الله معروفاً؛ لأنه مما يعرفه أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر؛ ما أنكره الله، ورأه قبيحاً فعله، ولذلك سميت معصية الله منكراً؛ لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركوها".^(١)

إذاً المعروف: كل ما أمر الله ورسوله به، والمنكر: كل ما نهى الله ورسوله عنه.

قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فأخبر سبحانه عن سبب خيرية هذه الأمة؛ أنه أمرها بالمعروف ونهياها عن المنكر، كما قال ابن كثير: "والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قروهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية.^(٢)

كما ورد في فضل هذه العبادة؛ آيات منها، قوله تعالى ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال ابن كثير: "منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة؛ متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"^(٣) أ.هـ.^(٤)

(١) جامع البيان ٣/٣٨٩

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٥١٩

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. ح (١٨٦)

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٥١٥

وقال الجصاص: "أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مواضع من كتابه، وبينه رسول الله ﷺ في أخبار متواترة عنه فيه، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه، وإن كان قد تعرض أحوال من التقية؛ يسع معها السكوت، فمما ذكره الله تعالى حاكياً عن لقمان ﴿يَبْنِيْ أَمِرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، يعني - والله أعلم - واصبر على ما ساءك من المكروه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما حكى الله تعالى لنا ذلك عن عبده؛ لنقتدي به، وننتهي إليه.

وقال تعالى فيما مدح به سالف الصالحين من الصحابة ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمَكْفُورُونَ الْمَشْكُورُونَ الْمُتَوَكِّلُونَ وَالسَّجِدُونَ لِلرَّكْعَاتِ وَالسَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].^(١)

وأخبر جل وعلا أن ذلك من آمارات الولاية بين المؤمنين، وسبب في رحمة الله لهم، فقال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. وفي المقابل عاب القرآن على بني إسرائيل، تركهم لهذه الشعيرة العظيمة، بل كان ذلك سبباً في استحقاقهم اللعنة، عياداً بالله.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك؛ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمَ مَا أَخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]،

ثم قال: "كلا والله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه

(١) أحكام القرآن للجصاص ١٥٤/٤

على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم".^(١)

قال ابن كثير: "كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك؛ ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبه، فقال ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾"^(٢).

ولما ذكر سبحانه هلاك الأمم السابقة في سورة هود قال ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]، يعني لو كان فيهم من أولئك أحد؛ لنجوا من العذاب.

كما جعل سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ سبباً للنصر والتمكين في الأرض، فقال ﴿وَلْيَنْصُرْ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآمَرُوا بِاتِّبَاعِ الذِّكْرِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً بليغاً، بين فيه أثر هذه الشعيرة العظيمة في الإصلاح ودفع الفساد، فقال: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، ونجوا جميعاً".^(٤)

فهكذا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لو تركوا الناس في المعاصي، ولم يأمرهم ولم ينهوهم هلك الجميع، وإذا قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ نجا الجميع من العقوبة. وقد قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ولذا بين أن سبب بقاء هذه الأمة، وتمكينها في الأرض، وإمدادها بالنصر، هو قيامها بالأمر

(١) أخرجه أبو داود. كتاب الملاحم. باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ح (٤٣٣٦) وقال الألباني: حسن لغيره.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٦٠/٣

(٣) أخرجه البخاري. كتاب: الشركة. باب: هل يقرع في القسمة. ح (٢٣٦١).

بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِیُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، أي قائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسمى ذلك إصلاحاً؛ ولم يقل أهلها صالحون؛ لأن صلاحهم بأنفسهم بدون إصلاح غيرهم؛ لا يكون ضماناً لبقائهم، فقد أخرج الشيخان في صحيحهما عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً مرعوباً، يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج، مثل هذه" وحلق بإصبعيه الإبهام، والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثرت الخبث"^(١).

فهو سبب للنجاة من مصائب الدنيا، وعذاب الآخرة، فقد قال تعالى في قصة أصحاب السبت ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

فدلّت الآية؛ على أنه إذ لم يُنه عن المنكر، فإن ذلك مؤذن بهلاك الناس، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم تفرعون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب"^(٢). وعن جرير^(٣) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر على أن يغيروا، ثم لا يغيروا؛ إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب"^(٤) (٥).

وهكذا يتبين ألا تعارض بين هذه الآية، وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الجصاص: "أحكم الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وربما ظن من لا فقه له؛ أن ذلك منسوخ، أو مقصور الحكم على حال دون

(١) سبق تخريجه، ص ٢٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٧/١ وقال شعيب الأرنؤوط صحيح.

(٣) جرير بن عبد الله بن جابر البجلي القسري، أبو عمرو، وقيل أبو عبد الله، اليماني صحابي جليل

بسط له النبي صلى الله عليه وسلم رداؤه وأكرمه ٥١٠ مات ٥١ هـ. انظر: الإصابة ٤٧٥

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٤/٣٦٤ وحسنه شعيب الأرنؤوط

(٥) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٢

حال، وتأول فيه قول الله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(١) وليس التأويل على ما يظن هذا الظان، لو تجردت هذه الآية عن قرينة، وذلك لأنه قال ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ احفظوها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ومن الإهتداء اتباع أمر الله في أنفسنا، وفي غيرنا، فلا دلالة فيها إذاً على سقوط فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".^(١)

وقال الشنقيطي: "قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة؛ عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لأن من ترك الأمر بالمعروف؛ لم يهتد. ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب؛ لا يضر الأمر ضلال من ضل".^(٢)

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ من أعظم شعائر هذا الدين، وهو الذي بعث الله به النبيين أجمعين ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وجاء في وصف الله لنبيه ﷺ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وانتشرت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، وخربت البلاد، وهلك العباد.

(١) أحكام القرآن للحصاص ١٥٥/٤

(٢) أضواء البيان ٤٥٩/١

وحتى يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً في دفع الفساد، فيلزم فيه شروط من أهمها^(١)؛ أن يكون الأمر؛ له علم يعلم به؛ أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر، لأنه إن كان جاهلاً بذلك؛ فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولا سيما في هذا الزمن الذي عمّ فيه الجهل، وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً، والله تعالى يقول ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فدل على أن الداعي إلى الله؛ لا بدّ أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه.

وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب، واللطافة مع إيضاح الحق، لقوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يُسند الأمر بالمعروف إسناداً مطلقاً؛ إلا لمن جمع بين العلم والحكمة والصبر على أذى الناس، لأن الأمر بالمعروف، وظيفه الرسل وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس، لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة، ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله عنه ﴿يَبْنِي أَقْبَرُ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ولما قال النبي ﷺ لورقة بن نوفل: "أو مخرجي هم؟" يعني قريشاً، أخبره ورقة؛ أن هذا الدين الذي جاء به، لم يأت به أحد إلا عُودي.^(٢)

كما أنه لا يحكم على الأمر بأنه منكر؛ إلا إذا قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه ﷺ، أو إجماع المسلمين.

وأما إن كان من مسائل الاجتهاد، فيما لا نص فيه، فلا يحكم على أحد المجتهدين المختلفين؛ بأنه مرتكب منكراً، فالمصيب منهم مأجور بإصابته، والمخطيء منهم معذور، كما هو معروف في محله.

واعلم أن الدعوة إلى الله بطريقتين: طريق لين، وطريق قسوة. أما طريق اللين فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإيضاح الأدلة في أحسن أسلوب وأطفه. فإن نجحت هذه الطريق فيها ونعمت، وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالسيف حتى يعبد

(١) انظر: أضواء البيان ١/٤٦٢

(٢) سبق تخريجه ص ٢٠١

الله وحده، وتقام حدوده، وتمثل أوامره، وتجتنب نواهيه، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ. وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ففيه الإشارة إلى إعمال السيف بعد إقامة الحجّة، فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتاب، والله تعالى قد يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن.

كما يشترط في جواز الأمر بالمعروف، ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر، لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين.

ويشترط في وجوبه - أيضاً - مظنة النفع به، فإن جزم بعدم الفائدة فيه؛ لم يجب عليه، كما

يدل له ظاهر قوله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، وقوله ﷺ: "بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أياماً، الصابر فيهن كالقابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم"، وفي لفظ قيل: يا رسول الله: أجر خمسين رجلاً منا، أو منهم؟ قال: "بل أجر خمسين منكم".^(١)

وهذه الصفات المذكورة في الحديث من الشح المطاع، والهوى المتبع... الخ، مظنة لعدم نفع الأمر بالمعروف. فدلّ الحديث على أنه إن عدمت فائدته سقط وجوبه.

وهذه العبادة المهمة، لها حكم ظاهرة، وآثار نافعة، للأمة وللقيام بها، ومن تلك الحكم: الأولى: إقامة حجة الله على خلقه، كما قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الثانية: خروج الأمر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف، كما قال تعالى، في صالحى القوم الذين اعتدى قوم منهم في السبت ﴿وَإِذْ قَالَتِ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

الثالثة: رجاء النفع للمأمور، كما قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: التفسير. سورة المائدة. ح(٣٠٥٨) وقال: حسن غريب.

المبحث التاسع
الجهادُ والمدافعةُ

سنن الله تعالى في عباده لا تتبدل ولا تتغير، ولا يمكن لأي قوة مهما بلغت؛ أن تعطل الله تعالى أمراً، أو ترد له قدراً، أو تبطل سنة من سننه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقوله ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ومن سننه تبارك وتعالى أن قدر التدافع بين الإيمان والكفر، وبين العدل والظلم، وبين الحق والباطل ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

والجهاد - كما قال الراغب - "من الجهد والجهد؛ وهي الطاقة والمشقة، وقيل الجهد بالفتح: المشقة، والجهد بالضم: الوسع".^(١)

وأما معنى الجهاد في الاصطلاح؛ فله إطلاقان:

١/ إطلاق خاص؛ ويراد به: بذل الجهد في قتال الكفار^(٢).

٢/ إطلاق عام؛ وقد عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "الجهاد؛ حقيقة الاجتهاد في حصول ما يجب الله تعالى من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان".^(٣)

وتحت هذا المعنى العام للجهاد؛ يدخل جهاد النفس في طاعة الله تعالى، وترك معصيته، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكفار، ومن ذلك جهاد البيان والبلاغ، ومدافعة الفساد والمفسدين، بل إن الجهاد بالسيف؛ ما شرع إلا لإقامة دين الله في الأرض، وصدّ المحارب له.

قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. قال القرطبي: "قيل: عنى به جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاز عن كل ما نهى الله عنه، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم"^(٤).

(١) المفردات ص ٩٩.

(٢) فتح الباري ٣/٦.

(٣) الفتاوى الكبرى ١٨٢/٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩١/١٢.

وقال ابن القيم: "لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، وكانت ساعاته؛ موقوفة على الجهاد، بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين؛ إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به؛ أفراد في العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً؛ فهم الأعظمون عند الله قدراً^(١).

فالجهاد فرضه الله تعالى من أجل ردع أهل الفساد، كما مرّ آنفاً في قوله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

قال ابن عاشور: "أمر رسوله ﷺ بمسمع منهم بأن يجاهدوهم ويجاهدوا المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقاً، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلب عليهم عذاب السيف في العاجلة، فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم، وإنما أمر رسوله ﷺ بذلك لأن الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ﷺ فاتخذوهم عيوناً لهم، وأيدي يدسون بها الأذى للنبي ﷺ وللمؤمنين، فهذا نداء للنبي ﷺ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء"^(٢).

وعليه؛ فالجهاد أوسع من أن يضيق على ساحة المعارك، فميادينه لا تتوقف ما دام في الأرض حق وباطل.

(١) زاد المعاد ٥/٣.

(٢) التحرير والتنوير ٤٥٢/٩.

قال السعدي: "كم في كتاب الله من الآيات المتعلقة بالجهاد أمراً به، وحثاً عليه، وبيان لفضله، وفضل أهله وكمالهم، وكثرة ثوابهم، وعلو درجاتهم، وذكر ثمراته الجميلة، ونهياً عن ضده، وبيان ما على المتقاعدين عنه من النقص العظيم، والعقوبات الدنيوية والأخروية، وكم فيه من ذكر مضاعفة النفقة فيه، وأنها من أعظم الجهاد".

ثم قال: "وجهاد الدعوة إلى دين الإسلام، والتحذير من الأديان الباطلة، وهذا مفروض منذ ابتدأت الرسالة، وهو فرض في كل وقت، بما يناسب الوقت ويليق به، قال تعالى ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى ﴿فَلَا تَطْغَ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: جاهد أهل الباطل كلهم بالقرآن، فهذا فرض عين على كل مسلم، أن يقوم بما يقدر عليه ويعلمه، وعلى أهل العلم من ذلك، ما ليس على غيرهم، لأن معهم السلاح التام الحقيقي لهذا الجهاد، وهو العلم الذي خلاصته وروحه؛ شرح ما في دين الإسلام من المحاسن والمزايا والفضائل، شرحاً يطابق الواقع، فإنه إذا شُرح على هذا الوجه وبيئت محاسنه وفضائله؛ قبله كل مُنصِف قصده الحق، وكان أيضاً ذلك قامعاً للمبطلين الملحددين الذين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكُفْرُونَ﴾ [الصف: ٨].^(١)

فلولا الجهاد؛ لانتشر الفساد في الارض، ولما ارتدع الظالمون والمفسدون، فالجهاد يمنع طغيان المشركين، وتمادي الظالمين.

وجهاد الكفار بالقتال؛ فيما أن يكون جهاد دفع، أو جهاد طلب.
فأما جهاد الدفع، فهو جهاد الصائل والمعتدي - سواء كان فرداً أو طائفة - ومنعه من فتنة المسلمين في دينهم، والاعتداء على الأنفس والأعراض، أو الاستيلاء على بلاد المسلمين.
وقد دل عليه قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّقَدِيرِهِ﴾ [الحج: ٣٩]

ومن حديث القرآن عن هذا النوع، وأثره في دفع الفساد، ما حكاه عن قوم طالوت، حيث

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن. لابن سعدي

قال تعالى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فقد أخذ هؤلاء بالأسباب، فخرجوا بعد ما أعدوا العدة لملاقاة جالوت ومن معه من الظالمين، ثم دعوا ربهم أن ينصرهم على القوم الكافرين، فاستجاب الله تعالى لهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

لهذا شرع للمؤمنين مدافعة الكفر وأهل الفساد، ومقارعتهم بالحجة والبرهان، ومقاتلتهم بالسيف والسنان.

والنوع الثاني: جهاد الطلب والابتداء، وهو تطلب الكفار في عقر دارهم، ودعوتهم إلى الإسلام، وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام، ليكون الدين كله لله. وذهب الجمهور^(١)؛ إلى أن هذا النوع من الجهاد فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، إلا أن يستنفر الإمام جميع الناس للجهاد؛ فلا يسوغ لأحد حينئذ أن يتخلف. وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأفعال: ٣٩].

قال أبو السعود: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة إما بإهلاك أهلها جميعاً أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿فَإِنَّ آتَهُنَّ﴾ عن الكفر بقتالكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهاكهم عنه وإسلامهم^(٢).

وقال السعدي: "فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العلي على سائر الأديان"^(٣). وقد نهى الله عباده عن الوهن في جهاد الكفار، فقال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

(١) المغني لابن قدامة ٣٥٩/١٠

(٢) إرشاد العقل السليم ٢١/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٢١.

قال الشنقيطي: "نهى الله تعالى المسلمين في هذه الآية الكريمة عن الوهن، وهو الضعف في طلب أعدائهم الكافرين، وأخبرهم بأنهم إن كانوا يجدون الألم من القتل والجراح؛ فالكفار كذلك، والمسلم يرجوا من الله من الثواب والرحمة، ما لا يرجوه الكافر، فهو أحق بالصبر على الآلام منه، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة، كقوله ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣١) ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَحٌّ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَحٌّ مِثْلُهُ﴾ [آل عم: ١٣٩، ١٤٠] و كقوله ﴿فَلَا تَهِنُوا وَدَعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات". (١)

وابتلى الله المسلمين بالقتال؛ لتبين الصادق من الكاذب، وإلا فإن الله تعالى قادر على نصرهم دون قتال، ولكنه شرع الجهاد لحكمٍ منها؛ اختبار الصادق في إيمانه، وغير الصادق فيه، حيث قال ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤]، وقال في أواخر هذه السورة التي سميت بسورة القتال (٢) ﴿وَلْيَبْلُواكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

كما أشار تعالى إلى حكمته في ذلك في آيات من كتابه، فقال تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ [التوبة: ١٦]، وقوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] إلى غير ذلك من الآيات.

ومنها؛ تسهيل نيل فضل الشهادة في سبيل الله بقتل الكفار لشهداء المسلمين، ولولا ذلك لما حصل أحدٌ فضل الشهادة في سبيل الله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وفيه تمحيص للمسلمين واختبارهم، فمن امتثل أمر الله تعالى، وجاهد في سبيله لنصر دينه، وإعلاء كلمته؛ فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه. (٣)

(١) أضواء البيان ٣٠٦/١

(٢) قال ابن عاشور: قوله ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أن المعنى بها هذه السورة، فتكون تسميتها "سورة

القتال" تسمية قرآنية. انظر: التحرير والتنوير ٤٩/٢٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن. ص ٧٨٩.

وقد تكون الغلبة لأهل الحق تارة، ولأهل الباطل تارة أخرى؛ وذلك ابتلاءً وامتحاناً للعباد، وتمحيصاً للقلوب، وتمييزاً للثابت على الحق من الناكص على عقبيه، المبدل لدين الله تعالى، والحكمة من هذه السنّة؛ ثابتة منصوص عليها في الكتاب العزيز.

ففي أعقاب غزوة أحد جاءت الآيات؛ لتكشف عن سنة مدافعة العباد بعضهم ببعض، ولتجمع الحكم الآنفه الذكر في موضع واحد، حيث قال تعالى ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٢].

والمعنى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء^(١)، كما أن في الآية بيان لحال المسلمين في الجهاد، الذي يتوقف عليه تمحيصهم، وبيان الصادق منهم والكاذب.

لهذا قال تعالى في مفتح سورة العنكبوت ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].
"فالناس لا يُتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ في أموالهم وأنفسهم، وليس الأمر كما حسبوا، بل لا بدّ أن يختبرهم؛ حتى يتبين المخلص من المنافق، والصادق من الكاذب، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان، واستبعاده، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها"^(٢).

وختمها سبحانه بقوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ثم كان من سنّة الله تعالى؛ أن جعل العقوبة لأهل الحق والإيمان والعدل، على أهل الباطل والكفر والظلم، بشرط أن يكونوا قائمين بأمر الله تعالى، ناصرين لدينه، مستمسكين بشريعته، فإن غلبهم أعداؤهم؛ فبسبب تقصيرهم في دينهم، ومعصيتهم لربهم. وهذه السنة العظيمة جاء ذكرها في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، بل أقسم عليها الرب

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٠٨.

(٢) انظر: فتح القدير ٤ / ٢٣٠.

جل جلاله في قوله ﴿وَلْيَنْصُرِكَ اللَّهُ مِنْ يُنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].
وغيرها من الآيات.

فهذا وعد لا بد أن يكون، على الرغم مما يبدو أحياناً؛ من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق، فإنه إذ أحلَّ أهل الحق بهذا الشرط، المتمثل في نصر الله تعالى بالاستمساك بدينه، وتعظيم شريعته، والعمل بها، فقدوا سبب النصر، وعوقبوا بالذل والهوان، وتسلبت الأعداء؛ تذكيراً لهم وتأديباً، لعلهم إلى رهم يرجعون، وبدينهم يستمسكون، وعن المعاصي ينتهون، وهذا التأديب والتذكير، ذاق شدته ومرارته؛ أفاضل هذه الأمة حين عصى الرماة في غزوة أحد أمر الرسول ﷺ^(١)، فانقلب ميزان المعركة لصالح المشركين، وأصاب المسلمين كرب شديد، وألمت بهم محنة عظيمة، وأحاط المشركون بالنبي ﷺ في نفر قليل من الصحابة ﷺ، وشجَّ رأس النبي ﷺ، وكُسرت ربايعته، وأشاع المشركون قتله، وقتل سبعون من خيار الصحابة ﷺ، ومثل المشركون ببعضهم، وأصيب أهل المدينة في آبائهم وأزواجهم وإخوانهم وأولادهم، وأنزل الله تعالى آيات كريمة تبيّن أن معصيتهم هي سبب مصابهم، قال تعالى ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

والجهاد له أثره في تثبيت دعائم الإيمان، ومحاربة المعاندين والمخالفين، كما فعل أبو بكر ﷺ حينما قاتل المرتدين، ومانعي الزكاة الذين قالوا بعدم فرضيتها^(٢)، فلولا الجهاد لضاعت فرائض الدين، ولتسلط على هذه الأمة؛ شياطين الإنس والجن، الذين يكيّدون بها وبأهلها. وقد ربّ تبارك وتعالى على إقامة الجهاد مصالح عظيمة، كما قال تعالى ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غِظَ

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٤/٤

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الزكاة. باب وجوب الزكاة ح (١٣٣٥)

قُلُوبِهِمْ ﴿التوبة: ١٤، ١٥﴾.

قال ابن عاشور: "ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة؛ خمس فوائد، تنحل إلى اثني عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها؛ على كرامة للمؤمنين، وإهانة لهؤلاء المشركين، وروعي في كل فائدة منها، الغرض الأهم، فصرح به، وجعل ما عداه حاصلاً بطريق الكناية الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين، وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين. الثانية: خزي المشركين، وهو يستلزم عزة المسلمين.

الثالثة: نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم، وتستلزم هزيمة المشركين، وهي إهانة لهم. الرابعة: شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلهم، وتستلزم حرج صدور أعدائهم، فهذه ثلاث فوائد في فائدة.

الخامسة: إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين، أو المؤمنين كلهم، وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين، الذي تحملوه من إغاضة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم، فهذه ثلاث فوائد في فائدة.

والتعذيب تعذيب القتل والجراحة، وأسند التعذيب إلى الله، وجعلت أيدي المسلمين آلة له؛ تشريعاً للمسلمين".^(١)

وليتحقق بهذا السبيل مصلحة الإسلام ودفع الفساد؛ فإن ينبغي أن يُصان مفهوم الجهاد عن تحريف الغالين، وتأويل الجافين، ومن هنا فقد بينت النصوص الشرعية، ضوابط الجهاد وشروطه، والتي من أهمها:

١/ أن يكون بنية خالصة لله تعالى، وإعلاء كلمته، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُعرف، فمن في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله".^(٢)

(١) التحرير والتنوير ٤٥٢/٩

(٢) أخرجه البخاري كتاب: الجهاد باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٦٥٥)

٢/ أن يكون بإذن ولي الأمر، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل؛ فإن له بذلك أجراً، وإن قال بغيره؛ فإن عليه منه".^(١)

قال ابن قدامة: "ولا يخرجون إلى الجهاد إلا بإذن الأمير، لأن أمر الحرب موكل إليه".^(٢)

٣/ القدرة على الجهاد، فإن النبي ﷺ لم يقاتل كفار قريش قبل الهجرة، بل إن القتال لم يشرع إلا بعد الهجرة، لأن المسلمين كانوا في حال ضعف وقلة، وبعد الهجرة؛ قامت دولة الإسلام وأصبحت قوية؛ فشرع حينها الجهاد.

(١) أخرجه البخاري كتاب: الجهاد باب: يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ح (٢٧٩٧) ومسلم كتاب: الإمارة

باب: وجوب طاعة الأمراء ح (١٨٣٥)

(٢) المغني ٣٣/١٣

المبحث العاشر

الأمر بغض البصر وحفظ الفرج

أمر الله تعالى بغض الأبصار وحفظ الفروج، وذلك سبيل للسلامة المرء من الفساد. ويقال: غَضَّ طَرْفَهُ وَبَصَرَهُ يَعُضُّهُ غَضًّا وَغَضًّا وَغَضًّا وَغَضًّا وَغَضًّا؛ فَهُوَ مَعْضُوضٌ وَغَضِيضٌ؛ كَفَّهُ وَخَفَضَهُ وَكَسَرَهُ، وَقِيلَ: هُوَ إِذَا دَانِي بَيْنَ جَفُونِهِ وَنَظَرٍ، وَقِيلَ: الْعَضِيضُ الطَّرْفُ الْمُسْتَرْخِي الْأَجْفَانِ، وَفِي التَّرْتِيلِ ﴿وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، أَي اخْفِضِ الصَّوْتِ. (١)

والغض: صرف المرء بصره عن التحديق، وتثبيت النظر، ويكون من الحياء، كما قال عنتره (٢):

أغض طرفي حين تبدو جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

ومادة الغض؛ تفيد معنى الخفض والنقص. (٣)

وغض البصر؛ لو لم يكن فيه من النفع؛ إلا أمر الله تعالى؛ لكفى بذلك دلالة على أثره في صلاح القلوب، قال تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

قال ابن كثير: "هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين؛ أن يعضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يعضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روى مسلم عن جرير البجلي رضي الله عنه قال: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري" (٤)، وفي رواية لبعضهم، فقال "أطرق بصرك" (٥)، يعني: انظر إلى الأرض، والصرف أعم، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى" (٦).

والأمر بالغض، لأن النظر إلى ما حرم الله؛ يؤدي إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى.

(١) لسان العرب ١٩٦/٧ مادة (غض)

(٢) عنتره بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس العبسي

البداية والنهاية ٢٢٠/٢

(٣) التحرير والتنوير ٨٩/١٨

(٤) أخرجه مسلم. كتاب الأدب. باب نظرة الفجأة. ح (٢١٥٩).

(٥) ذكره ابن كثير وقال: رويناه في الحديث الصحيح. البداية والنهاية ٧٩/٥

(٦) تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٣

قال القرطبي في قوله ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ "وصل - تعالى - بذكر الستر ما يتعلق به من أمر النظر، ولم يذكر الله تعالى ما يُغضُّ البصر عنه ويُحفظ الفرج؛ غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه، المحرّم دون المحلّل، وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر، قد جاء في آية أخرى تهدد من لم يمتثلها، ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وفي البخاري: "وقال سعيد بن أبي الحسن^(١) للحسن؛ إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن؟ قال: اصرف بصرك، يقول تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾".

وقال قتادة: عما لا يحل لهم ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، خائنة الأعين من النظر إلى ما نهي عنه.

وبه تعلم؛ أن قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحل، جاء موضحاً في أحاديث كثيرة.^(٢)

قال الشوكاني: "وخصّ المؤمنين مع تحريمه على غيرهم؛ لكون قطع ذرائع الزنا؛ التي منها النظر؛ هم أحق من غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم"^(٣).

"وفي هذا الأمر بالغض؛ أدب شرعي عظيم، في مباحة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبراً شديداً عليها"^(٤).

وقال البغوي: "قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا والحرام، إلا في هذا الموضوع، فإنه أراد به الاستتار، حتى لا يقع بصر الغير عليه"^(٥).

ومن عناية الشريعة بهذا الأمر أن الأصل في مشروعية الاستئذان؛ إنما هو للاحتراز من وقوع النظر إلى ما لا يريد صاحب المنزل النظر إليه لو دخل بغير إذن، وأعظم ذلك النظر إلى

(١) سعيد بن أبي الحسن: يسار الأنصاري، مولاهاهم البصري، أخو الحسن البصري ت: ١٠٠هـ - ١٠ هـ تذيب الكمال ٣٨٥/١٠

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠٠/١٢، أضواء البيان ٥٠٩/٥

(٣) فتح القدير ٣٣/٤

(٤) التحرير والتنوير ٩٠/١٨

(٥) معالم التنزيل ٣٢/٦

النساء الأجنبية، وقد قال ﷺ: "إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"^(١).
وأكد هذا - أيضاً - في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إياكم والجلوس في
الطرق" فقالوا ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا
الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر
بالمعروف ونهي عن المنكر"^(٢).

قال ابن القيم^(٣): والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان؛ فإن النظرة تولد خطرة،
ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى؛ فتصير عزيمة
جازمة، فيقع الفعل، ولا بد، ما لم يمنع منه مانع.

وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده.
ومن آفات النظر: أنه يورث الحسرات والحرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه، ولا صابراً
عنه، وهذا من أعظم العذاب: أن ترى ما لا صبر لك عنه، ولا عن بعضه، ولا قدرة لك
عليه، ولا عن بعضه، قال الشاعر:

و كُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعْبَتِكَ الْمُنَاطِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُفْلَهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَن بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

وفي غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله، الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده؛ وليس للعبد في
دنياه وآخرته؛ أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى.

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم، الذي لعل فيه هلاكه إلى قلبه، وقد قال النبي
ﷺ "النظرة سهم من سهام إبليس"^(٤).

(١) أخرجه البخاري. كتاب الاستئذان. باب الاستئذان من أجل البصر. ح(٥٨٨٧).

(٢) رواه البخاري. كتاب المظالم. باب أفنية الدور. ح(٢٣٣٣)، ومسلم. كتاب اللباس. باب النهي عن الجلوس في
الطرق وإعطاء الطريق حقه. ح(١٢١٢).

(٣) انظر: الجواب الكافي ص ١٠٥ وما بعدها

(٤) الحاكم في المستدرک من حديث حذيفة كتاب الرقاق. ح(٧٨٧٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم

يخرجاه والطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود. ح(١٠٣٦٢)

الثالثة: أنه يورث القلب أنساً بالله، وجمعيّة على الله؛ فإن إطلاق البصر؛ يفرّق القلب ويشتته ويبعده عن الله، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر؛ فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويجزئه، والله سبحانه يجزي العبد على عمله، بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئاً؛ عوضه الله خيراً منه. فإذا غض بصره عن محارم الله؛ عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبسه بصره لله، ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة، التي إنما تنال ببصيرة القلب. وضدّ هذا ما وصف الله به اللوطية من العمّة الذي هو ضد البصيرة، فقال تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل، والعمّة الذي هو فساد البصيرة، فالتعلّق بالصّور يوجب فساد العقل، وعمه البصيرة، وسكر القلب.

الخامسة: أنه يسدّ على الشيطان مدخله إلى القلب؛ فإنه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي؛ فيمثل له صورة المنظور إليه، ويزينها، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب، ثم يعده، ويؤمنيه، ويوقد على القلب نار الشهوة. السادسة: أن بين العين والقلب منفذاً وطريقاً يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه، ويفسد بفساده؛ فإذا فسد القلب؛ فسد النظر، وإذا فسد النظر؛ فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح.

فإذا خربت العين وفسدت؛ خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ؛ فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

والله سبحانه وتعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهم: اللوطية، والنساء، أما اللوطية فسبقت الإشارة إلا فسادهم، وأما النساء؛ فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف عليه السلام وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به؛ أمر لا يصبر عليه؛ إلا من صبره الله عليه؛ فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع.

ومع هذه الدواعي كلها؛ فأثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى فقال ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه. فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور:

أما مصالح الدين؛ فإنها منوطة بلمّ شعث القلب، وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعياً وتشتياً له، وأما مصالح الدنيا؛ فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين؛ فمن انفرطت عليه مصالح دينه، وضاعت عليه؛ فمصالح دنياه أضيع وأضيع.

وعلى هذا؛ فإن الله لم يشرع لعباده غض البصر وحفظ الفرج؛ إلا رحمة بهم؛ لأنه إذا فتح هذا الباب؛ فإنه يؤدي إلى اختلاط الأعراض والأنساب، وفساد عريض في الأرض.

إذاً البصر يجب صونه عما محارم الله تعالى، لأنه تعالى قال ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنَّهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

ولما كان إطلاق البصر داعية لفساد القلوب؛ سدّ الله تبارك وتعالى لنا أبوابه؛ حتى لا يغرق المسلم في بحر الفساد بسبب النظر المحرم، لذلك أمر الله تعالى بحفظ الفرج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي باعثة إلى ذلك.

ففي مفتح سورة المؤمنون؛ استحثّ الله عباده إلى جملة من الفضائل، واصفاً أهلها بالفلاح، وكان من تلك الصفات، قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَقِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧].

ففي قوله ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ دلالة إلى أن من تجاوز ذلك فهو ملوم، "وزيد ذلك التحذير تقريراً بأن فرّع عليه ﴿فَمَنْ أَبْتَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]، لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه، غريزة طبيعية يخشى أن تتغلب على حافظها، فالإشارة بذلك إلى المذكور في قوله ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي وراء الأزواج والمملوكات، أي غير ذينك الصنفين".^(١)

"ومن تمام حفظ الفروج تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء المملوكات، وقوله ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك".^(١)

قال البغوي: "وفيه دليل على أن الاستمناء باليد حرام، وهو قول أكثر العلماء".^(٢) وتكرر الوعد الحسن على ذلك في مواضع، كما قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ..﴾ حتى قوله ﴿وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال ابن عاشور: "وأما حفظ الفروج، فلأن شهوة الفرج شهوة جبلية، وهي في الرجل أشد، وقد أثنى الله على الأنبياء بذلك فقال في يحيى عليه السلام ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال في مريم ﴿وَالَّتِي أَحْصَدَتْ فَرجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وهذا الحفظ له حدود سنتها الشرعية، فالمراد: حفظ الفروج على أن تستعمل فيما نهي عنه شرعاً، وليس المراد: حفظها عن الاستعمال أصلاً، وهو الرهينة؛ فإن الرهينة مدحوضة في الإسلام بأدلة متواترة المعنى".^(٣)

قال ابن القيم: "إن للعفة لذة؛ أعظم من قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، أما قضاء الوطر، فالبضد من ذلك.

ومن أجل ذلك نهانا الله تعالى من الاقتراب من الزنا، فقال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَجْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

قال السعدي: "والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن من حام حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٤٧

(٢) معالم التنزيل ٥ / ٤١٠

(٣) التحرير والتنوير ٢١ / ٢٥٣

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَنَحْشَةً﴾ أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاصد".^(١)

فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تقولون في الزنا؟ قالوا هو حرام حرمه الله عز وجل ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة"^(٢)

ولذلك فإن المؤمنين أصحاب النفوس السوية والفطرة السليمة لا يحبون هذا الأمر، فعن أبي أمامة رضي الله عنه: "أن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه، مه، فقال: أدنه، فدنا منه قريباً، فقال: أجلس فجلس، فقال: أتجبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتجبه لابنتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتجبه لأختك؟.. إلى أن قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت على شيء"^(٣).

ومن عناية الشريعة بهذا الأمر؛ إلى تزويج على الزواج والإحصان؛ لما فيه من قطع دابر الفتنة والفاحشة، كما قال تعالى ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ﴾ [النور: ٣٢].

قال أبو السعود: "بعد ما زجر تعالى عن السفاح وماديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فإنه مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونه مناطاً لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك"^(٤).

وأرشد العاجزين عن النكاح وأسبابه؛ بالاستعفاف، فقال ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ حَتَّىٰ يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٧

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٦/٥

(٣) أخرجه مسلم كتاب: الطهارة باب: باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذ حصلت في المسجد

وأن الأرض تطهر بالماء من غير حاجة إلى حفرها ح (٢٨٥)

(٤) إرشاد العقل السليم ١٧١/٦

الباب الثالث آثارُ الفسادِ

وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثارُ الفسادِ في الدُّنيا.

الفصل الثاني: آثارُ الفسادِ في الآخرة.

تهيد :

من منهج القرآن الكريم في دفع الفساد؛ بيان الأثر المترتب عليه في الدنيا والآخرة، وقد ثنى الله تعالى ذكر هذا الأثر في مواضع كثيرة، على التفصيل والإجمال.. ولا يكاد التالي - للكتاب العزيز - ينفك عن مشهد تلك الآثار، في بيانٍ بديع، بلغ المنتهى في الوعظ والتذكير، والزجر والتحذير، كيف وقد قال جل ذكره ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤].

فهذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها الله، على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحقها، فهي واضحة الدلالة، على كل أمر يحتاجون إليه، وكان مما أنزل فيها مثلاً من أخبار الأولين وصفة أفعالهم، وما جرى عليهم؛ ليكون مثلاً ومعتزلاً، لمن فعل مثل أفعالهم؛ أن يجازى مثل ما جُوزوا.

فالقرآن أبلغ واعظ في وعده ووعيده، وترغيه وترهيبه، والمتقون هم المنتفعون بالآيات؛ فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظمهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس؛ فهي بيان لهم، تقوم به عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.^(١)

هذا وقد جاءت هذه الآثار؛ مبثوثة في ثنايا هذا البحث، إذ لا انفصام بينها وبين ما سبق من أسباب الفساد وسبل دفعه، ووصف أهله، فإن من عادات القرآن أن يذكر أحوال الكفار إغلاظاً عليهم، وتعريضاً بتخويف المسلمين، ليكره إياهم لأحوال أهل الكفر، وقد قال ابن عباس: كل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار، فمراد منه أيضاً تحذير المسلمين من مثله في الإسلام.^(٢)

فجمعت هنا في آثار الفساد ما تفرّق، وحررت ما تيسّر لمزيد البيان والاعتبار، وآثرت ذكرها على سبيل الاختصار، وهي على ما يأتي:

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٨، ١٤٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٥٤٩/٢

الفصل الأول

آثار الفساد في الدنيا

وفيه ستة مباحث:

- المبحث الأول: اختلال الأمن .
- المبحث الثاني: الضلال والطبع على القلب .
- المبحث الثالث: الاستدراج .
- المبحث الرابع: حبوط العمل .
- المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه .
- المبحث السادس: العقوبة والهلاك .

المبحث الأول
اختلال الأمن

من آثار الفساد في الدنيا الشعور بالقلق والاضطراب، وهو ما يُعرَف باختلال الأمن. فالخللُ هو: اضطراب الشيء، وعدم انتظامه^(١)، ويطلق على الوهن في الأمر، والرقّة في الناس، والانتشار، والتفرُّق في الرأي.^(٢)

والأمان والأمنة بمعنى، وقد أمن من باب فهم وسلم، وأماناً وأمنةً بفتحين فهو آمن، وأمنه غيره من الأمن، والأمان والإيمان التصديق، والله تعالى المؤمن، لأنه آمن عباده من أن يظلمهم.

والأمن ضد الخوف، والأمنة الأمن كما مرّ، ومنه قوله تعالى ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].^(٣) فالأمن مما تطمئن به القلوب، فإذا فارقها؛ كان الاضطراب والخلل الناتج عن الفساد. وعلى هذا؛ فإن المقصود باختلال الأمن؛ عدم انضباطه، مما يترتب عليه انتشار الفوضى، وعدم راحة القلب.

والتأمل في كتاب الله تعالى، يجد أن القرآن الكريم قد كفل للإنسان أمنه وطمأنينته في دنياه وأخراه، وهو أمنٌ كامل وشامل في حياة الإنسان، لا يتوفر ضمانه لحياة الإنسان فحسب، بل هو يحتاج إلى الأمن على عقيدته التي يؤمن بها، وعلى موارد حياته الاقتصادية والمادية.

لهذا؛ امتنَّ الله تعالى على قريش بما هيأه لها من الأمن دون سائر القبائل، ليكون ذلك داعياً لها إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، فقال تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤، ٣].

وهذا تذكير يبعث في النفوس؛ الحياء من الله تعالى، وما كانت قريش تجهل قيمة البيت، وأثر حرمة في حياتها، وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ؛ إلا إلى رب هذا البيت وحده، وها هو ذا عبدالمطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة، ولا بصنم ولا وثن، إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته! ولم يقل له: إن الآلهة ستحمي هذا البيت، بل ما زاد أن قال: "أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه"^(٤).

(١) المصباح المنير ١/١٨٠

(٢) القاموس المحيط ١٨٥٠

(٣) مختار الصحاح ص ٢٠

(٤) الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير ص ٢٩

ولكن فساد الجاهلية، لا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى عقل.

فالأمن الحقيقي يكون لمن آمن بالله ووحده، ولم يخلط إيمانه بشائبة شرك، وأن غير ذلك من الأمن تبع له، وهذا ما حكاه القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام مع قومه، فقال

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ

الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ

مُهْتَدُونَ ﴿ [الأنعام: ٨١].

فهذا جواب إبراهيم عليه السلام لقومه حين خوّفوه من آلهتهم أن تمسه بسوء، لذكره إياها، فأجابهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم، فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر؛ لدفعت عن أنفسها كسري إياها، وضربي لها بالفأس، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضرركم في إشراككم في عبادتكم إياه، وهو سبحانه لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته؛ حجة ولا برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً، فأَيُّ الفريقين أحق بالأمن؟

وكأنه يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادة الأوثان والأصنام؛ أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناماً، ولم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها؛ برهاناً ولا حجة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتج به عليكم، فأخبروني: أي الفريقين أحق بالأمن؟ ^(١)

قال ابن عاشور: "كلمة ﴿ وَكَيْفَ ﴾ في الآية؛ تُفيد الاستفهام الإنكاري، لأنهم دعوه إلى أن يخاف بأس الآلهة؛ فأنكر هو عليهم ذلك، وقلب عليهم الحجة، فأنكر عليهم أنهم لم يخافوا الله؛ حين أشركوا به غيره بدون دليل نصبه لهم، فجمعت ﴿ وَكَيْفَ ﴾ الإنكار على الأمرين" ^(٢).

وإنكار إبراهيم عليه السلام عليهم عدم خوفهم من الله، لأنه تحقق فيهم هذا الاتهام الذي وجهه لهم؛ إذ الانسلاخ من الإيمان سبب في عدم تحقق الأمن، لهذا عاب عليهم.

إنّ الأمن من أجلّ النعم التي ينعم الله بها على عباده، فإذا انعدم ودخل مكانه الشرك أبدل

(١) انظر: جامع البيان ٢٤٩/٥

(٢) التحرير والتنوير ٥٣٦/٧

الله النعمة نعمة، وتحوّل الأمن إلى خوف، إذ الشرك والفساد سبب في ضياع الأمن من الأمة، لهذا قال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. (١)

لهذا كانوا هم الأحق بالأمن ممن أشركوا، ومعنى قوله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ لم يخلطوه بشرك، لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أينا لم يظلم؟ فترلت ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [نعمان: ١٣] (٢). وليس الإيمان به سبحانه أن يصدق بوجود الصانع الحكيم، ويخلط بهذا التصديق الإشراك به، وليس من قضية الخلط بقاء الأصل بعد الخلط حقيقة. (٣)

قال السعدي في قوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ "الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاص؛ حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات؛ حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء". (٤)

وعلى هذا؛ فإن الفساد عدو الأمن، لأنه إذا حلّ بقوم انعدم أمنهم، لهذا قال تعالى في بيان حال المنافقين ﴿أَشْحَاةٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنظَرُونَ ۖ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ۖ أَشْحَاةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

فدلت هذه الآية على أن الخوف لما جاء؛ تحوّلوا من حال إلى حال، إذ كانوا قبل مجيء الخوف في أمن، فلما وقع منهم الفساد؛ بدّل الله تعالى أمنهم خوفاً، وبيّن في موضع آخر شدة خوفهم، فقال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٥

(٢) رواه البخاري. كتاب الإيمان. باب ظلم دون ظلم ح (٣٢)، وبنحوه عند مسلم. كتاب الإيمان. باب: صدق الإيمان وإخلاصه. ح (١٩٧)

(٣) إرشاد العقل السليم ٣/١٥٦

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٦٣

في خصومة، أو أنشدت ضالة، خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم، للإيقاع بهم^(١).

وإذا انتشر الفساد، وعمت البلوى، وبعد الناس عن منهج الله تعالى، حُرِّموا نعمة الأمن، إلا أنه قد يعود إليهم أمنهم؛ شريطة أن يتحقق فيهم الإيمان والعمل الصالح، لهذا قال تعالى ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

والاستخلاف في الأرض؛ لا يكون إلا إذا كان هناك أمن، ومن ثم، تقام شعائر الإسلام، لهذا يقول ابن كثير - رحمه الله - في إيضاح المقصود بهذه الآية الكريمة: "هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أُمَّته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أماناً"^(٢).

ولولا وقوف أهل الإيمان في طريق المفسدين ودرئهم لإفسادهم؛ لاختل الأمن، ولهدمت أماكن العبادة، قال تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. والمعنى: لولا وجود سنة التدافع بين الناس؛ لاعتدوا على مواضع عبادة المسلمين، ولهدمت المعابد من صوامع وبيع وصلوات.

ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام؛ من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك - كما قاتل داود جالوت - وكما تغلب سليمان على ملكة سبأ؛ لحق المشركون معالم التوحيد، كما محق بختصر هيكل سليمان، فأذن للمسلمين بالقتال، كما أذن لأمم قبلهم؛ لكيلا يطغى عليهم المشركون، كما طغوا على من قبلهم.^(٣)

ومما قص الله تعالى علينا من أخبار السابقين للعلم والعظة والاعتبار: قصة قوم سبأ، وقد أنعم الله عليهم بالخيرات، ورزقهم من الطيبات حتى شبعوا وأمنوا، لكنهم بطروا وكفروا، فكانت

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٨/٢١٥

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٠١

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٧/٣٢١

أمة سبأ الكفورة المعذبة، مثلاً لكفار قريش؛ لإنذارهم من العذاب، كما عذب الله تعالى قوم سبأ.

فجدير بأهل القرآن، وهم يتلون هذه القصة؛ أن يدركوا هذا المعنى العظيم، وأن يتعظوا بما حلَّ بقوم سبأ؛ لئلا يسلكوا مسلكهم، وليجانبوا طريقتهم.

إن سبأ قومٌ نعموا بالأمن، فاكتملت نعمهم، ودُفعت النقم عنهم، وكُفوا مئونة الطعام والشراب، وهما قيام الحياة؛ فأرزاقهم حاضرة، وأرضهم مخضرة، وسماؤهم ممطرة، وثمارهم يانعة، وضروعهم دائرة، تحيط بمساكنهم الأشجار والثمار، وتملاً جنبي بلادهم؛ يشربون من الماء أعذبه، ويتنفسون من الهواء أنقاه، حتى ذكر المفسرون خلو أرضهم وأجوائهم من الهوام والحشرات المؤذية، وهذا من أكمل ما يكون للعيش الرغيد، والراحة التامة، والنعم الكاملة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿سبأ: ١٥ - ١٩﴾

والمعنى: وجعلنا لسبأ مع ما آتيناها في مساكنهم من فنون النعم بينهم بين بلادهم وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبة متن الطريق غير بعيدة عن مساكنهم حتى تخفى عليهم ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل، قيل: كان الغادي من قرية يقيلاً في أخرى، والرائح منها، يبيت في أخرى، إلى أن يبلغ الشَّام. كل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيراً لها في الحضر والسفر ﴿سَيْرُوا فِيهَا﴾ في تلك القرى ﴿لِيَالِي وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من الليالي والأيام ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل ما تكرهونه، لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمينين، وإن تطاولت مدة سفرهم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة، أو سيروا فيها ليالي أعمارهم وأيامها، لا تلقون فيها، إلا الأمن، لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور، وتسوية مبادئه وأسبابه على الوجه المذكور، مترلة أمرهم بذلك. (١)

قال البغوي: "قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً، فبطروا وطمعوا، ولم يصيروا على العافية، وقالوا: لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيها".^(١)

ولم يطلب سبحانه منهم مقابل هذه النعم المتتابعة؛ إلا شكره عليها، بإقامة دينه، وتحقيق توحيده، لكنهم قابلوا دعوة الله تعالى لهم بالإعراض والاستكبار، والإعراضُ أشد أنواع الكفر، فاستحقوا العذاب والدمار، وتبدل الأمن إلى خوف وفزع ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَجَرٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ففتح الله تعالى عليهم سداهم؛ ليغرق بلادهم، ويهلك حرثهم وأنعامهم، ويتلف أشجارهم وثمارهم، فأضحت بلادهم بعد الحضرة مغبرة، وبعد السعة ضيقة، وذهبت نعمهم في ملح البصر، وصاروا محلين لا يلوون على شيء.

ولم تتغير نعم سبأ عليهم؛ إلا لما أعرضوا عن دين الله تعالى، ولم يشكروا له نعمه عز وجل؛ ولذلك بين الله تعالى سبب زوال نعمتهم بقوله عز وجل ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ [سبأ: ١٧].

لقد كان قوم سبأ؛ ظالمي أنفسهم، لأنهم اعتدوا في الدعاء مع إعراضهم وتحديهم، فقالوا ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾، وهذا القول كان منهم بطراً وطمعاً؛ لما سئموا النعمة، ولم يصيروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار، وسألوا الله تعالى أن يجعل بينهم وبين الشام، مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والأمن والمفاوز والقفار والبراري المتباعدة الأقطار، فملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم، مكان المن والسلوى، حيث قالوا ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، فأجابهم الله إلى ذلك، وحرَّب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر.^(٢)

فكانت عقوبة الله تعالى لهم أن أفقرهم بعد الغنى، وشردهم بعد الاستقرار، وفرقهم بعد الاجتماع، ومزقهم في الأقطار، وجعل خبرهم أحاديث يتحدث بها الناس في مجالسهم، ويحكى ما جرى لهم.

قال ابن كثير: "أي جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله

(١) معالم التنزيل ٦/٣٩٦

(٢) فتح القدير ٤/٤٥٧

بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا، فصارت العرب تتمثل بهم في الفرقة، فتقول في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ" (١)

فإذا تبدلت الأحوال وتقلبت الأزمان، فهذا دليل زوال النعم، وبناءً على ما تقدم؛ فإن الأمن لا يحصل لأهل المعاصي أبداً مهما كانت مكائنتهم، وهذا ما حدث مع أهل مكة حينما خالفوا أمر رسول الله ﷺ، فتحول الأمن إلى خوف، ولم يعصمهم من الله عاصم، قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ

فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

قال الشنقيطي: "قال بعض أهل العلم: "إن هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة"، وهذا الصفات

المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية - تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن.

وقوله ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقع نظيره قطعاً لأهل مكة، لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف" (٢)، فأصابتهم سنةٌ أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلهز (٣)، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن، وذلك الخوف من جيوش رسول الله ﷺ، وغزواته وبعوثه وسراياه، وهذا الجوع والخوف، أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات.

فقد فسر ابن مسعود ﷺ آية الدخان ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، بما يدل على ذلك لذا، قال: "إنما كان هذا، لأن قريشاً لما استعصوا على السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد" (٤). أ.هـ (٥)

وتأمل حكمة تقديم الأمن على الطمأنينة، فالطمأنينة لا تحصل بدون الأمن، كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق.

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٩/٦

(٢) أخرجه البخاري. كتاب الاستسقاء. باب دعاء النبي ﷺ "اجعلها عليهم سنين" ح(٩٦١).

(٣) شيء يتخذونه في سني الجاعة يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشنونه بالنار ويأكلونه. انظر: النهاية في غريب الأثر ٥٦٣/٣

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير. سورة الدخان. ح(٤٥٤٤)

(٥) انظر: أضواء البيان ٤٥٦/٢

وفي قوله ﴿فَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ سرٌّ لطيف؛ لأن إضافة اللباس إلى الجوع والخوف؛ تُشعر وكأن ذلك ملازم للإنسان، ملازمة اللباس للباسه. (١)

فاختلال الأمن؛ مرتبط بجريرة المفسدين، لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وقد سبق بيان ذلك في وصف المنافق حيث قال تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ولليهود كذلك شأنهم في زعزعة الأمن، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهم أيضاً قتلة الأنبياء والمصلحين، وفيهم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ بَيْعَاتَهُمْ يَتَوَدَّعُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَئِن شَاءَ اللَّهُ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ وَكَذَلِكَ يَكْفُرُونَ يَتَايَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ بَيْعَاتَهُمْ يَتَوَدَّعُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَئِن شَاءَ اللَّهُ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ وَكَذَلِكَ يَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢١].

ومن ثم؛ يتبين أن اختلال الأمن قرين الفساد، سواء كان عقوبة من الله تعالى على الإفساد، أو باشره المفسدون بأنفسهم.

وبهذا يظهر وجه الدلالة في دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ حين ربط الأمن والرزق بالإيمان، فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهكذا نجد التلازم بين الأمن والرزق، وبين الخوف والجوع، مطرداً في القرآن كله، مما يؤكد أهمية المحافظة على الأمن؛ لما يترتب على ذلك من آثار كبرى في حياة الناس وعبادتهم، واستقرارهم البدني والنفسي، وأي طعم للحياة والعبادة؛ إذا حل الخوف؟ بل تتعثر مشاريع الدين والدنيا، وتدبر سورة قريش تجد ذلك جلياً.

المبحث الثاني
الضلال والطبع على القلب

من آثار الفساد؛ تتكَّب طريق الهداية، فيضَلُّ المرء عن جادة الطريق؛ فيهلك، إذ الضلال من: ضَلَّ الشيء: ضاع وهلك، يضلُّ بالكسر ضلالاً، والضَّالَّةُ ما ضلَّ من البهيمة للذكر والأنثى، وأرضٍ مَضَلَّةٌ بفتح الضاد وكسرها، وفتح الميم فيهما؛ أي يضل في الطريق، وفلان يلومني ضلَّةً؛ إذا لم يوفق للرشاد في عدله، ورجل ضليلٌ ومُضَلَّلٌ أي ضال جداً، والضَّالُّ ضد الرشاد، وقد ضلَّ يضلُّ بالكسر ضلالاً وضلالةً، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ

نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] (١)

أما الطبع فمن: طَبَعَ، والطَّبْعُ والطَّبِيعَةُ: الخَلِيقَةُ والسَّجِيَّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان، وطَبَعَ الله على قلبه؛ ختم على المثل، ويقال طَبَعَ الله على قلوب الكافرين نعوذ بالله منه؛ أي ختم فلا يَعِي، وغطَّى فلا يُوفِّقُ لخير (٢)، فالطبع على القلب إذاً نتيجة للضلال، تضاف على رصيد نتائج الفساد.

وعلى هذا؛ فإن الضلال والطبع المقصود بهما هنا؛ هو الحيرة والانتكاسة بعد الهداية، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي أَستَهَوَّتُهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اثْتِنَا قُلْ إِنِّي هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

والمعنى: قل أنعبد من دون الله ما لا يقدر على نفعنا وضرنا، ونرجع إلى الشرك، بعد إذ هدانا الله، فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام، ونكون كالذي استهوته الشياطين، وذهبت به مردة الجن في الأرض، متحيراً ضالاً عن الطريق، مع أن له أصحاب يهدوه إلى الطريق المستقيم، يقولون له: اثنتا فإن هدى الله، وهو الإسلام، هو الهدى وحده، وما عداه ضلال. (٣)

ومن الناس من يشتري الضلالة بالهدى، كما قال تعالى عن المنافقين ﴿اللَّهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِمَنَاجِرِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥-١٨].

(١) مختار الصحاح ٤٠٣

(٢) لسان العرب ٢٣٢/٨

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٤٢١/٢

قال ابن كثير: "وقوله ﴿فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني في ضلالهم وكفرهم الذي غمّهم دَنَسُهُ، وعلاهم رجسُهُ، يترددون حيارى ضلالاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالى قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشداً، ولا يهتدون سبيلاً".^(١)

فهؤلاء عميت قلوبهم عن الحق؛ فكانوا أصحاب التجارة الخاسرة، لأنهم ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رِيحَتْ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

فعن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، قالوا: أنهم الذين أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقيل: اشتروا الكفر بالإيمان، فشبّههم الله سبحانه في اشتراهم الضلالة بالهدى، وصيروهم بعد البصيرة إلى العمى؛ بمن استوفد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها، فبينما هو كذلك؛ إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى ولو كان ضياءً لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.^(٢)

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة.

وكذا ثمود الذين توفرت لهم أسباب الهداية، لكنهم استحبوا العمى وهو الضلالة، على الهدى، كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وعلى هذا؛ فإن الطبع يترتب عليه عدم فهم القرآن، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. فشبّه الله تعالى القلوب في عدم فهمها للقرآن؛ بالأبواب الموصدة بأقفال، لهذا يقول ابن القيم: "وأما القفل في هذه الآية، فكما قال ابن عباس رضي الله عنه: "يريد على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨٣/١

(٢) انظر: المصدر السابق.

قلوب هؤلاء أفعال"، وقال مقاتل^(١): "يعني الطبع على القلب"، وكأن القلب بمتزلة الباب المرتج الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل؛ لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب؛ لم يدخل الإيمان والقرآن، وتأمل تنكير القلب وتعريف الأفعال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أفعالها؛ لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة، وفي قوله (أفعالها) بالتعريف؛ نوع تأكيد، فإنه لو قال أفعال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب؛ عُلِمَ أن المراد بها ما هو للقلب، بمتزلة القفل للباب، فكأنه أراد أفعالها المختصة بها، التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.^(٢)

فحرمان فهم كلام الله تعالى؛ من أعظم أسباب الضلال، إذ لا يُتصور أن يحسن العبد عمله دون فهم سديد لمرامي الآيات، وإذا أغلق القلب فلا خير فيه، لأنه حينئذ يكون ينبوع للشر. قال ابن القيم: "حياة القلب وإشراقه؛ مادة كل خير فيه، وموته وظلمته؛ مادة كل شر فيه، وأصل كل خير وسعادة للعبد؛ بل لكل حي ناطق؛ كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله، قال تعالى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فجمع بين الأصلين: الحياة والنور، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحيأؤه وعفته وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبه للحسن، وبغضه للقبیح، فكلما قويت حياته؛ قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته؛ ضعفت فيه هذه الصفات، وحيأؤه من القبائح؛ هو بحسب حياته في نفسه فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح؛ نفر منها بطبعه، وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت؛ فإنه لا يفرق بين الحسن والقبیح، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر"، وكذلك القلب المريض بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك، بحسب قوة المرض وضعفه".^(٣)

(١) مقاتل بن حيان النبطي، أبو بسطام البلخي، الخزاز، مولى بكر بن وائل. قال ابن حجر: صدوق فاضل، أخطأ

الأزدى في زعمه أن وكيعاً كذبه. مات قبيل ١٥٠ هـ بالهند. انظر: تهذيب التهذيب ١٠/٢٤٨

(٢) انظر: شفاء العليل ١/٩٤

(٣) إغاثة اللهفان ١/٢٢

فأهل الفساد حول الله تعالى قلوبهم عن فهم طريق الصواب؛ نعمة عليهم في الدنيا، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فبين أنهم عطلوا جوارحهم فقال ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها، ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة كالبهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان، تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم.^(١)

لكن هؤلاء خلق الله لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأمره سبحانه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود؛ فاستحقوا أن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم. قال ابن القيم: "صرف الله قلوبهم عن القرآن وتدبره؛ لأنهم ليسوا أهلاً له، فالخل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين؛ حسن فهم، وحسن قصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأخبر عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم، يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم، ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم، هذا السماع الخاص وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة، وقصود ردية، وهذه نسخة الضلال، وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة؛ فهم صحيح، وقصد صالح، والله المستعان".^(٢)

وتأمل قوله سبحانه ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا﴾ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧]، كيف جعل هذه الجملة الثانية - سواء كانت خبراً، أو عادةً - عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن. ص ٣٠٩

(٢) شفاء العليل ص ٩٧.

آخر، غير الصرف الأول، فإن انصرفهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيتته لإقبالهم، لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر، غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى، إزاغة غير الزيغ الأول ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه. (١)

كما جاء بيان هذا الأثر فيما توعد به سبحانه بقوله ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

والمعنى: أو لم يبين للذين يستخلفون في الأرض، بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا عن أمر ربهم ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لو نشاء فعلنا بهم، كما فعلنا بمن قبلهم، فأخذناهم بذنوبهم، وعجلنا لهم بأسنا، كما عجلنا لمن كان قبلهم، ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بذنوبهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً سماع منتفع بهما. (٢)

قال السعدي: "أي: إذا نهبهم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبّع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجّة عليهم". (٣)

كما أن الرضا بمخالفة الحق، والاستمرار في الفساد؛ أثر للطبع على القلوب، كما قال تعالى

﴿وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ

﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧]

قال السدي: "رضوا بأن يقعدوا، كما قعدت النساء" (٤)، إذ النساء هن الخوالف اللاتي لا يخرجن للجهاد، لهذا طبع على قلوب المنافقين بسبب أعمالهم الضالة.

(١) المصدر السابق ص ٩٧.

(٢) جامع البيان ١١/٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٩٨

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٨٥٩/٦

كما أن التعنت، وادعاء عدم الفهم؛ يؤدي إلى الطبع على قلب صاحبه، فلا يعي الحق أبداً، ولا يعرف له طريقاً، قال تعالى ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

"وقولهم هذا ظاهر عليه الخبث، إذا لو كانوا مؤمنين محبين، لقالوا: ماذا قال رسول الله آنفاً، ولكن قالوا: ماذا قال آنفاً، وهم يعنون أن ما قاله الرسول ﷺ ليس بشيء مفيد يرجع إليه، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي البعداء في الشر والنفاق، الذين طبع الله على قلوبهم، أي بالكفر والنفاق، وذلك لكثرة تلوثهم بأوضاع الكفر والنفاق، حتى ران على قلوبهم ذلك، فكان ختماً وطابعاً على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم، فهما علتان؛ الأولى: الطبع المانع من طلب الهداية، والثانية: اتباع الهوى، وهو يعمي ويصم، فلذا هم لا يهتدون"^(١).

ومن هنا؛ يتبين أن رفض الحق وعدم قبوله؛ يترتب عليه أن يستمر العبد في الفساد، ولا يستطيع أن يهتدي إلى طريق الصواب، وهذا ما جعل موسى ﷺ يدعو قائلًا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

فهذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﷺ على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبيراً وعتواً، فقال ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، وقوله ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وهذه الدعوة كانت من موسى ﷺ غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى ﷺ فيهم هذه الدعوة التي أمّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، يعني من تدمير آل فرعون.^(٢)

لقد ظل موسى ﷺ زماناً طويلاً؛ يردد عليهم النصائح والمواعظ، ويحذرهم عذاب الله وأليم نقمته، وينذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، فما يزيدهم إلا ضلالاً، فلم تبق له حيلة؛ إلا الدعاء عليهم.

(١) أيسر التفاسير ٨٠/٥

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٤٦/٢

يقول الطبري: "كأن موسى قال: ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال، وليكونوا ضاللاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا".^(١)

والضلال ينتج عن المشركين، كما ذكر ربنا سبحانه هذا، في مواضع كثيرة في القرآن، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]. فوصف الله تعالى ضلالهم بالضلال البعيد؛ "لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضل؛ يكون أغرق في الضلال، وأبعد من الانقلاع عنه".^(٢)

لهذا كان إبراهيم عليه السلام يصف عبادة قومه بالضلال، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه أَرَزَرَ اتَّخِذُوا صَنَامًا ءِلهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَرْكَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وإذا ذكر فساد اليهود؛ فلا ريب أن الضلال عندهم بلغ ذروته؛ حتى إنهم عبدوا العجل؛ بعد ما رأوا الآيات البينات.

ولا يزال الضلال بصاحبه؛ حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن، وقد جاءت الإشارة لذلك في قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

قال ابن كثير: "يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة؛ وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله؛ ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه".^(٣) وقيل: نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، وقيل: منهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم، فأما أهل الكبائر فليسوا منهم، لأنهم لا يستحلون الكبائر^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا قال أئمة الإسلام؛ كسفيان الثوري وغيره؛ إن البدعة؛ أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله تعالى ولا

(١) جامع البيان ١/٥٣٠

(٢) تفسير البيضاوي ٢٨٢

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٥٣٥

(٤) انظر: معالم التنزيل ٦/٤١٣

رسوله ﷺ؛ قد زين له سوء عمله، فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة؛ العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنه ترك حسناً مأموراً به؛ أمر إيجاب أو استحباب؛ ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً؛ وهو سيئ في نفس الأمر؛ فإنه لا يتوب، ولكن التوبة منه ممكنة وواقعة؛ بأن يهديه الله ويرشده، حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين، وطوائف من أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه، فمن عمل بما علم؛ أورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ ٦٦ ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ٦٧ ﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦، ٦٨]... وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة.

وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه؛ تبعاً لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال، حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].^(١)

المبحث الثالث

الاستدراج

من آثار الفساد في الدنيا الاستدراج، يقال: استدرجه أي: خدعه، واستدرجه بمعنى أدناه منه على التدريج؛ فتدرج هو، وقيل: استدرجه؛ استدعى هلكته، من درج: مات، واستدراج الله تعالى العبد، بمعنى: أنه كلما جدّد خطيئة؛ جدّد له نعمة، وأنساه الاستغفار، وفي التزييل العزيز ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

أي: سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نُبأغِثُهُمْ، وقيل معناه: سنأخذهم من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به، فيركنون إليه، ويأمنون به، فلا يذكرون الموت، فيأخذهم على غرَّتْهم؛ أَغْفَلَ ما كانوا^(١)، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حُمِلَ إليه كُنوز كِسْرَى: "اللهم إني أعوذ بك أن أكون مُسْتَدْرَجاً، فإني أسمعك تقول ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾" ^(٢).

"وأصل الاستدراج؛ التقريب منزلة من الدرج، لأن الصاعد يترقى درجة درجة"^(٣).
ويبين ابن القيم حقيقة الاستدراج، فيقول: "وهؤلاء إذا انكشف الغطاء، وثبتت حقائق الأمور؛ علموا أنهم لم يكونوا على شيء، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، فمن أعظم الغرّة؛ أن تراه يتابع عليك نعمة، وأنت مقيم على ما يكره"^(٤).
والله تعالى يكره منك أن تعصيه، ويجب منك أن تطيعه، لهذا قال الماوردي: "وليس وإن نال أهل المعاصي لذة من عيش، أو أدركوا أمنية من دنيا، كانت عليهم نعمة، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة"^(٥).

وروى عقبه بن عامر رضي الله عنه ^(٦) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم إياه؛ فإنما ذلك استدراج منه لهم، ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

(١) انظر: تاج العروس ٥/٥٥٩، لسان العرب ٢/٢٦٦ مادة (درج).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى. كتاب: أقسام الفيء. باب: الاختيار في التعجيل بقسمة مال الفيء إذا اجتمع. ح (١٢٨١٢).

(٣) فتح الباري ٤/١٦٩٧.

(٤) انظر: الروح ص ٢٤٤.

(٥) أدب الدنيا والدين. ص ١١١.

(٦) عقبه بن عامر الجهني أبو حماد، وقيل أبو سعاد وقيل أبو عامر وقيل أبو عمرو، صحابي توفي عام ٦٠ هـ بمصر.

انظر: الإصابة ٤/٥٢٠.

أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].^(١)

وتفيد الآية: أنهم لما تركوا الاتعاض بما ذكروا به من البأساء والضراء، وأعرضوا عن ذلك ﴿فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لما نسوا ما ذكروا به؛ استدرجناهم بفتح أبواب كل نوع من أنواع الخير عليهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير على أنواعه، فرح بطر وأشر، وأعجبوا بذلك، وظنوا أنهم إنما أعطوه؛ لكون كفرهم الذي هم عليه حقاً وصواباً ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهم غير مترقبين لذلك، والبغته: الأخذ على غرة من غير مقدمة أمانة.^(٢) فهو لاء أنهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء أولاً، ثم أنعم الله عليه ببعض نعمه، فلما لم يتعظوا بما حدث لهم، فتحنا عليهم أبواب كل شيء، من النعم الكثيرة، كالرخاء وسعة الرزق؛ مكرراً بهم واستدرجاً لهم.

وهذا ما دفع الحسن البصري - رحمه الله - يقول: "من وسَّعَ اللهُ عليه، فلم ير أنه يُمكر به؛ فلا رأي له، ومن قُتِرَ عليه، فلم ير أنه ينظر له؛ فلا رأي له، ثم قرأ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ففُتِحَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]، قال: مُكِرٌ بِالْقَوْمِ، وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، أُعْطُوا حَاجَتَهُمْ ثُمَّ أَخَذُوا".^(٣)

وقال قتادة: "بَعَثَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ؛ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغَرَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُوا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ".^(٤)

هذا على مستوى الجماعة، أما على مستوى الأفراد، فإن العبد إذا أمن مكر الله؛ فهو حريّ أن تعجل له العقوبة، أو يختم له بالسوء، وليعلم العبد أن هذا استدرج.

لهذا قال النبي ﷺ "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَجِبُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ".

وقد ردّ سبحانه على يظن أن العطاء والمنع؛ لازم إكرام الله أو إهانته للعبد، فقال ﴿فَأَمَّا

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤٥/٥ .

(٢) فتح القدير ١٦٨/٢

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٢٩١/٤

(٤) المصدر السابق ١٢٩١/٤

الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ زَيْتٌ أَكْرَمٌ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

(كلا) أي ليس كل من أنعمته ووسعت عليه رزقه؛ أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه؛ أكون قد أهنته، بل أبتلى هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء، فالله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب.

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس، عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه، وهو لا يعلم.^(١)

وعلى هذا؛ فإن الاستدراج نقلة من حال إلى حال على مهل، أي تدرج من الأعلى إلى الأدنى، أي من نعم إلى نقم، ومن أمن إلى خوف، فالاستدراج يسبقه وجود نعمة، ثم تسلب هذه النعمة مرة واحدة، دون إنذار مسبق لصاحبها.

قال تعالى في شأن يهود بني قريظة ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ مِّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

فهذا الذي حصل لهم من العذاب الذي زلزلهم، ما كان يخطر لهم على بال، ولو خطر لهم ما سبزل بهم؛ لأخذوا حذرهم، فلو كان الله تعالى يريد لهم الخير؛ لأخذوا حذرهم مما سيحدث لهم، لكن تركوا في النعم ودنسوها بالمعاصي والمفاسد، فتركهم الله تعالى يتنعمون بها، ظانين أنهم تكون لهم أبد الأبدين، ثم كانت المفاجأة من الله تعالى لهم؛ أن جاءهم العذاب من حيث لا يحتسبون.

إذاً الاستدراج يكون لمن ترك التدبر والاتعاظ عن عمد وقصد، ثم يظلوا على تلك الحالة مدة، ويتمسكون بمعاصيهم، لهذا فإن الله تعالى يضلهم أكثر من ضلالهم الذي يعيشون فيه، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٥].

فالاستهزاء من الله بهم؛ "هو استدارجهم بدرور النعم عليهم، فالله تعالى يظهر لهم من الإحسان في الدنيا؛ خلاف ما يغيب عنهم، ويستر عنهم من عذاب الآخرة، فيظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حتم عذابهم، فهذا على تأمل البشر؛ كأنه استهزاء ومكر وخداع".^(٢)

(١) انظر: الجواب الكافي ص ٢٢

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٣/١

وقد يظن بعض المستدرجين، أن الله تعالى يدخر خيراً لهم، والأمر على العكس تماماً، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

"ذكر في هذه الآية الكريمة؛ أنه يملي للكافرين ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب. وبين في موضع آخر؛ أنه لا يمهلهم متنعين هذا الإمهال؛ إلا بعد أن يتلّيههم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم، حتى يأخذهم بغتة، كما في قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٥].

ويبين في موضع آخر: أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وعلى هذا، فإنه يكون من طرق لا يعلمها العبد" (١)، فقال ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٢) ﴿وَأُمَلِّي لَهُم آتٍ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

قال ابن كثير: "ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّاسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿وَأُمَلِّي لَهُم﴾ أي: وسأملي لهم؛ أي أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، أي قوي شديد. (٢)

فنعمة المستدرجين؛ تكون سبباً في عذابهم في الدنيا، لأنها تلهيهم وتشغلهم عن طريق الصواب قال تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

إذ الإنعام على العبد بالمال أو بالبنين، لا يلزم منه رضى الله عن العبد، فقد بين سبحانه أن الكفار يغتروا بذلك الاستدراج، فيظنون أنه من المسارعة لهم في الخيرات، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيراً من ذلك الذي أوتوه في الدنيا، قال تعالى ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (٥٥)

(١) أضواء البيان ١/٢١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/٢.

سُارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿المؤمنون: ٥٥، ٥٦﴾.

قال ابن كثير: "يعني أيقظ هؤلاء المغرورون؛ أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ [سبأ: ٣٥]، لقد أخطأوا في ذلك، وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك؛ استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقال قتادة: مكر الله بالقوم في أموالهم وأولادهم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم؛ ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح".^(١)

فقد يجعل الله تعالى مال العبد كثيراً، ونعمه عليه لا تعد ولا تحصى، فيظن أن هذه الزيادة دليل على رضا الله تعالى عنه، قال تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٣﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِابْتِنَاءِ عَيْنِدَا ﴿١٦﴾ سَاهِقَهُ صَعُودًا ﴿المذثر: ١١، ١٧﴾

فقد نزلت في الوليد بن المغيرة، وقوله ﴿وَحِيدًا﴾ أي: خلقه وحده، لا مال له ولا ولد، وهذا وعيد من الله تعالى له؛ إذ غمرته نعم الله تعالى، ثم انشغل بها عنه، فاستدرجه الله بها، وسينقلب حاله من حال راحة وتنعم، إلى حالة سوأى في الدنيا، ثم إلى العذاب الأليم في الآخرة، وكل ذلك إرهاب له^(٢).

وقد يستغرب البعض بل قد ييأس، وهو يرى بعض الكفرة ييغون ويظلمون، ومع ذلك لم يأخذهم الله بعذاب، ولكن من فقه سنن الله تعالى، وآثارها في الأمم السابقة؛ لا يستغرب ولا ييأس؛ لأنه يدرك أن هؤلاء الكفرة، يعيشون سنة الإملاء والاستدراج، التي تقودهم إلى مزيد من الظلم والطغيان، وبالتالي إلى نهايتهم وهلاكهم؛ لكن في الأجل الذي حدده الله، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿الكهف: ٥٩﴾.

وتظهر سنة الله تعالى في الإملاء والاستدراج، حين يشتد على الرسل والمصلحين التكذيب، ويبلغ الإعراض منتهاه، حتى إن الرسل والدعاة؛ ربما انتابهم شعور باليأس والإحباط، ولكن الله تعالى يكتب لهم الغلبة بعد حين، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ ۚ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿يوسف: ١١٠﴾.

(١) المصدر السابق ٣/٣٣٠

(٢) انظر: الدر المنثور ٨/٣٢٩، التحرير والتنوير ٢٩/٢٨٥

"فأخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم، ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم، حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده؛ ربما أنه يخطر بقلوبهم، نوع من الإياس، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا، عمن احترم وتجرأ على الله" (١).

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله؛ فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به؛ عقوبة! وربما كان العقاب معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقيل له: كم أعاقبك، وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟ (٢). ولما كان الاستدراج من سنن الله تعالى في المعرضين؛ نهى الله نبيه ﷺ، أن يستعجل العذاب لقومه، بأن يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فقال ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَأُولُوا الْعُرْسِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهَّلَ يَهُدَىٰ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم، جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]. ﴿فَمَهِّلِ الْكٰفِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

فالمراد بالآيات، نهيه ﷺ عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون لا محالة؛ عند انتهاء المدة المحدودة للإمهال، كما يوضحه قوله ﴿فَلَا تَعَجَّلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]، وقوله ﴿نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. وقوله أيضاً ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الحج: ٤٤] (٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٠٧

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ١٤

(٣) أضواء البيان ٢٤١/٧

المبحث الرابع

حُبُوطُ الْعَمَلِ

من آثار الفساد الخطيرة، التي ينبغي التنبيه إليها؛ ردّ العمل، أو حبوط الأعمال، وعدم قبولها، وهذه أمر بين الله تعالى خطره، وعظم شأنه، في مواضع عدة.

ولئن كان حبوط العمل؛ يتجلى للعبد في موقف الحساب، كما قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، إلا أن له أثره على صاحبه في الدنيا؛ ذلك أن العمل الصالح؛ يزكي صاحبه، فيثمر فيه استقامة قلبه، وصلاح حاله، وقد قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، والعكس بالعكس، فقد قال في شأن المفسدين ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فمن الفساد ما يحبط العمل كله، كما قال تعالى ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣) ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ [التوبة: ٥٣، ٥٤].

فبين الله تعالى أن بطلان نفقات المنافقين، السبب فيها هو فسادهم ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم، ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ أي: متشاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم^(١)، لذا قال ﷺ: "من ترك صلاة العصر؛ فقد حبط عمله"^(٢).

ومما يحبط العمل كله: الكفر والصدّ عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [محمد: ٣٢].

ففي الآية إخبار عن كفر، وصدّ عن سبيل الله، وخالف الرسول ﷺ وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرهما، وسيحبط

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٤٠

(٢) أخرجه البخاري. كتاب مواقيت الصلاة. باب إثم من ترك العصر. ح (٥٢٨)

الله عمله، فلا يثيبه عليه، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.^(١) وهذه الأعمال التي عملها الكفار - من اليهود والنصارى ومشركي قريش وغيرهم - يرجون بها الثواب؛ لكنها مع كفرهم برسول الله ﷺ أصبحت باطلة، أو سييطل أعمالهم التي عملوها، والمكاييد التي نصبوها في مشاققة الرسول ﷺ، فلا يصلون منها إلى أغراضهم، بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم، إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.^(٢)

والكفر بالله تعالى؛ تولدت عنه مفسدات عظيمة؛ كالكفر بآياته، وقتل النبيين والذين يأمرون الناس بالقسط، لذا قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ وَيَعْزِفُونَ عَنِ الثَّوَابِ بِأَمْثِلِهَا بِالْقَسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقِطَ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

وليس هذا فحسب؛ بل تولد عنه التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

ومن المفسدات المحبطة للأعمال: الردة.

قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فِيمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ذلك أن القلب السليم؛ الذي ذاق الإسلام وعرفه، لا يمكن أن يرتد عنه؛ إلا إذا فسد فساداً لا صلاح فيه.

والتقييد بقوله ﴿فِيمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ دل بمفهومه؛ على أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام؛ فإنه يرجع إليه عمله، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.^(٣) ومما يحبط الأعمال كلها؛ الشرك.

قال القرطبي: "استظهر علماءنا بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٣١/٤

(٢) انظر: الكشاف ٣٣١/٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٨٩

قالوا: وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته: لأنه ﷺ يستحيل منه الردة شرعاً. وقيل: بل هو خطاب للنبي ﷺ على طريق التغليظ على الأمة، وبيان أن النبي ﷺ على شرف منزلته؛ لو أشرك لحبط عمله، فكيف أنتم؟ لكنه لا يشرك لفضل مرتبته".^(١) ونحو ذلك في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. فقد جاءت هذه الآية "تفظيلاً لأمر الشرك، وأنه لا يغتفر لأحد، ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغاً عظيماً"^(٢)، فمن أشرك بطل عمله الصالح فلا يثاب عليه، لا بقليل ولا بكثير. وقال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧].

والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله، وعبادة غيره.^(٣) وجاء في سبب نزولها؛ أنه لما أسر العباس؛ غيره المسلمون بالشرك وقطيعة الرحم، وأغلظ له علي ﷺ في القول، فقال: ما بالكم تذكرون مساوينا، وتكتمون محاسنا، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحج الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني، فترلت ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها، بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ﴾ لأجله.^(٤) ولهذا عقب الله تعالى؛ مؤكداً أن أعمال المفسدين وإن كانت في ظاهرها صالحة؛ فإنها لا وزن لها في الحقيقة، إذ لا يستوي الصالح بالطالح أبداً، لهذا قال تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

وما أشار إليه القرآن؛ فيه تسلية لأهل الإيمان، بأن أهل الكفر ليسوا على شيء، فهم كرهوا ما أنزل الله، لهذا قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]. كما أنهم اتبعوا ما أسخط الله فحبطت أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٠/٣

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٧/٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٥٠/٤

(٤) أسباب النزول للواحدي ١٦٣/١

وإتباعهم ما أسخط الله؛ هو إتباعهم الشرك، وكرهاتهم رضوان الله؛ كرهاتهم أسباب رضوانه، وهو الإسلام. (١)

أما سوء الأدب مع رسول الله ﷺ فمحبط لبعض العمل:

ومن سوء الأدب معه ﷺ رفع الصوت عليه، ولقد عدّ العلماء رفع الصوت بعد وفاته؛ كرفعه في حياته أو عند قبره، قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال القرطبي: "هذا في حال حياته وبعد مماته، لأنه محترم حياً وميتاً ﷺ فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

فعبّر بغض الصوت مع أن الغض للبصر، وهذا أعلى مراتب الأدب مع النبي ﷺ. (٢)

" فحذر الله المؤمنين من حبوط أعمالهم؛ بالجهر لرسول الله ﷺ، كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردة، بل معصية تحبط العمل، وصاحبها لا يشعر بها، فما الظن بمن قدّم على قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه؛ قول غيره وهديه وطريقه. (٣)

قال ابن عاشور: "معنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النهي، قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته، أو يفضي به إلى الكفر. وأقول: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ؛ يعوّد النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه، وينقص توفير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيء إلى أشد منه؛ حتى يؤول إلى عدم الاكترات بالتأدب معه؛ وذلك كفر، وهذا معنى ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لأن المنتقل من سيء إلى أسوأ، لا يشعر بأنه آخذ في التملّي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلاً، حتى تغمره المعاصي، وربما كان آخرها الكفر، حين تغرى النفس بالإقدام على ذلك، ويجوز أن يُراد؛ حبط بعض الأعمال، على أنه عام مراد به الخصوص، فيكون المعنى حصول حطيطة في أعمالهم، بغلبة عظم ذنب جهرهم له بالقول، وهذا مجمل لا يعلم مقدار الحبط

(١) انظر: التحرير والتنوير ٥٤٢/٢٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٢/١٦

(٣) الوابل الصيب ص ١٥.

إلا الله تعالى".^(١)

ومن المفاسد التي تحبط العمل أو بعضه؛ إرادة الحياة الدنيا وزينتها.

قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْتَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً، يقول من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً، أو صلاةً، أو تهجداً بالليل، لا يعملها إلا التماس الدنيا، يقول تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعملها؛ لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

قال قتادة: "من كانت الدنيا همّه ونيتته وطلبته؛ جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة".^(٢)

وقد ضرب لذلك مثلاً في سورة البقرة، فقال جَلَّالاً ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ففي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال يوماً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنه: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا أخي: قل، ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان؛ فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله".^(٣) وللمفسرين في معنى هذه الآية، ثلاثة أقوال^(٤):

أحدها: أنه مثل للمرائي في النفقة، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها.

(١) التحرير والتنوير ٥٤٢/٢٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧٥١/١

(٣) أخرجه البخاري. كتاب التفسير. باب سورة البقرة. ح (٤٢٦٤)

(٤) أنظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥٢٢/٢، النكت والعيون للماوردي ٣٤٢/١

والثاني: هو مثل للمفرد في طاعة الله لملاذ الدنيا، يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى.

والثالث: هو مثل للذي يختم عمله بفساد، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، كما سبق.

قال السعدي: "وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى، من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعمالاً تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات... وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كلٌّ عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك؛ إذ أصاب تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار؛ فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهمم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن؛ كذلك من عمل عملاً لوجه الله، فإن أعماله بمرتلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك، حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحُسْن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال؛ بمرتلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه؛ هباءً منثوراً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب. فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال، وكان له أدنى مسكة من عقل؛ لم يُقدم على ما فيه مضرته، ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل، وقلة البصيرة، يصير صاحبه إلى هذه الحالة، التي لو صدرت من مجنون لا يعقل؛ لكان ذلك عظيماً وخطره جسيماً، فلماذا أمر تعالى بالتفكير وحث عليه، فقال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

وعلى هذا فإن الفساد يترتب عليه حبوط الأعمال، لأن هؤلاء فعلوا أفعالاً تخالف الشريعة، لكن ليست كلها على درجة واحدة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١١٤

المبحث الخامس

انتفاء محبة الله وتوفيقه

نُحِجُّ الفسادَ يتعارض كلياً مع محبة الله تعالى، فمن ادّعى الحب وأتى بنقيضه، فكأنه جمع بين ضدين في وقت واحد، وهذا أمر محال.

وهذا مرتبط بلا ريب بتوفيق الله تعالى للعبد، ولذا قال ابن القيم: "وقد أجمع العارفون؛ على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبد، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكللك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك".^(١)

وقد جاء بيان ذلك في مواضع، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

قال ابن كثير: "أي: لا يجب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك".^(٢)

فالآية بعمومها تشمل كل فساد كان في دين، أو أرض، أو مال، أو عرض.

وقيل: معنى لا يجب الفساد، أي لا يجب من أهل الصلاح، أو لا يجب ديناً، ويحتمل أن يكون المعنى: لا يأمر به، والله أعلم.^(٣)

وأضاف الشوكاني في معنى انتفاء محبة الله، للفساد بكل أنواعه، فقال: "ويشمل كل نوع من أنواعه، من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا".^(٤)

فإذا كان الله تعالى لا يجب الفساد؛ فهو لا يجب المفسد في الأرض، وبهذا يظهر العبد الصادق في عبوديته، من الكاذب فيها، وهذا ما دفع ابن القيم، ليقول: "إذا كانت المحبة له؛ فهي حقيقة عبوديته وسرّها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي؛ تتبين حقيقة العبودية والمحبة".^(٥)

فكما أن الطاعات تقرّبه من محبة الله تعالى، كما في الحديث القدسي: "وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه"... الحديث^(٦)، فكذلك المعاصي تُبعد العبد عن ربه تبارك وتعالى، ولذا كره الله جميع صور الفساد.

(١) الفوائد ص ١٠١

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٣٣٢

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٠

(٤) فتح القدير ١/٣١٨

(٥) مدارج السالكين ١/٩٩

(٦) أخرجه البخاري. كتاب الرقاق. باب التواضع. ح (٦١٣٧)

لذا نجد القرآن الكريم، يعرض هذا الأمر في أكثر من موضع بأسلوب بديع، يبين الله تعالى فيه؛ عدم حبه للمفسدين، ولا الظالمين، ولا المسرفين، ولا المستكبرين، ولا المعتدين، ولا الخائنين... الخ.

قال تعالى في اليهود ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الرازي: "وذلك يدل على أن الساعي في الأرض بالفساد؛ ممقوت عند الله تعالى".^(١)
وقال البقاعي: "أي لا يفعل معهم فعل المحب، فلا ينصر لهم جيشاً، ولا يعلي لهم كعباً، ولا يصلح لهم شأناً، وبذلك توعدهم سبحانه في التوراة؛ أنهم إذا خالفوا أمره؛ سلط عليهم من عذابه، بواسطة عباده، وبغير واسطتهم".^(٢)

كما نفى - سبحانه - محبته عن المسرفين، فقال تعالى ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

قال ابن عاشور: "وأكد بـ {إِنَّ} لزيادة تقرير الحكم، فبين أن الإسراف من الأعمال التي لا يجبها، فهو من الأخلاق التي يلزم الانتهاء عنها، ونفي المحبة مختلف المراتب، فيعلم أن نفي المحبة يشتم بمقدار قوة الإسراف، وهذا حكم مجمل، وهو ظاهر في التحريم، وبيان هذا الإجمال، هو في مطاوي أدلة أخرى، والإجمال مقصود".^(٣)

كما كره - سبحانه - الاعتداء، وهو من المفاسد، فقال ﴿وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فنفى الله تعالى هنا حبه للمعتدين الذين يجاوزون حدوده، فيستحلون ما حرمه الله عليهم، من قتل من لا يستحق القتل.

وكره أيضاً؛ الظلم الذي هو من أهم أسباب الفساد؛ كما أسلفنا، وكره أهله فقال تعالى

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

قال الطبري: "والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فنفى - جل

(١) التفسير الكبير ٣٩/١٢

(٢) نظم الدرر ٧٨٠/٢

(٣) التحرير والتنوير ٩٢/٧

ثناؤه - عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر؛ جزاء المحسنين ممن آمن به، أو يجازي المحسن ممن آمن به، واتبع أمره، وانتهى عما نهاه عنه، فأطاعه؛ جزاء المسيئين ممن كفر به، وكذب رسله، وخالف أمره ونهيه، فقال: إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ وهذا القول من الله - تعالى ذكره - وإن كان خرج مخرج الخبر؛ فإنه وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يخس هذا المؤمن حقه، ولا يظلم كرامته، فيضعها فيمن كفر به، وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالماً".^(١)

"وإيراد الظلم؛ للإشعار بأنهم بكفرهم؛ متعدون متجاوزون على الحدود، واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان".^(٢)

لذا فإن الله تعالى لا يجب من وضع شيئاً في غير موضعه، ولا من استكبر أو اعتدى، كل هذا من الله تعالى؛ زجراً للناس من أجل أن يتعد المسلم عن كل صور الفساد. وهكذا يتبين، أنه لا أعظم؛ من انتفاء محبة الله للعبد، فإن انتفاء محبته - تعالى - يترتب عليها حرمان العبد من نعمة التوفيق، فلا يوفق إلى خير أبداً، بل يُحبس عن التوفيق للطاعات. فمن حبس عن طاعة، فليكن على وجل؛ من أن يكون ممن خذّهم الله، وثبّطهم عن الطاعة كما ثبت المنافقين، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

فلمّا لم يكن عند المنافقين استعداد للخروج - للغزو مع النبي ﷺ - عن عمد وقصد؛ كره الله تعالى خروجهم؛ فحبسهم عن الخروج.

قال الشوكاني: "لو كانوا صادقين فيما يدعونه، ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك، ولكن لم يكن معهم من العُدّة للجهاد - وهي ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح - لما تركوا إعداد العُدّة وتحصيلها، قبل وقت الجهاد، كما يستعد لذلك المؤمنون، فمعنى هذا الكلام: أنهم لا يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدوا للغزو، لذلك ﴿كَرِهَ

(١) جامع البيان ٢٩٢/٣

(٢) تفسير أبي السعود ٤٥/٢

اللَّهِ أَنْيَعَاتِهِمْ ﴿عَنِي كَرِهَ اللَّهُ خُرُوجَهُمْ، فَتَشَبَّطُوا عَنِ الْخُرُوجِ﴾ وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿قِيلَ الْقَائِلَ لَهُمْ: هُوَ الشَّيْطَانُ، بِمَا يَلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَسْوَسَةِ، وَقِيلَ: قَالَهُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَقِيلَ: قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَضَبًا عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْخِذْلَانِ؛ أَي أَوْقَعَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الْقَعُودَ خِذْلَانًا لَهُمْ. (١)

وهكذا تفعل المفسد بأهلها، فتحرمهم التوفيق للطاعة، نعوذ بالله من الخذلان. قال تعالى عن الظالمين الذين حرموا بظلمهم هداية التوفيق ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] والمعنى: "أن وقوعهم في الكفر، هو بسبب عدم هدايته - سبحانه - لهم، لأنهم ظلموا أنفسهم بما يوجب الكفر، كمن يوالي الكافرين مثلاً. قال أبو السعود: "هذا تعليل لكون من يتولاهم منهم، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخليهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلالة". (٢)

فعدم التوفيق للهدى والرشاد، سببه الفساد؛ إذ المفسدون الذين طغوا، وأسرفوا في طغيانهم، سلبهم الله محبته وتوفيقه، فلا يريهم الحق، بل يمدهم في طغيانهم وضلالهم. وهذا ما عوقب به المنافقين ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]. فأهل النفاق لا يحبهم الله، فيخذلهم بسبب مكنون ما في قلوبهم من كفر، وإصرارهم عليه، ويجحبهم طرق التوفيق عن أنفسهم، حتى يزداد الران والظلمة على قلوبهم، ويتمكن الشيطان من إغوائهم؛ فيزيدهم طغياناً، مصداق قوله ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

وحاصل الأمر أن قلوبهم تزايدت فيها الظلمة، وتزايد النور في قلوب المسلمين، فسمي ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله تعالى؛ لأنه مسبب عن فعله بهم. (٣) وكذا حرمان الكافرين من التوفيق والهداية؛ فقد كان ذلك أثراً لفسادهم، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤].

(١) فتح القدير ٨٩/٥

(٢) تفسير أبي السعود ٤٨/٣

(٣) انظر: التفسير الكبير ٦٥/٢

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتَعَاْفَلْ عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة"^(١).

وقال السعدي: "﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها، ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى فردوه، فعوقبوا بجرمانه، وخذلان الله لهم"^(٢).

فهذا ظاهر الدلالة على عدم توفيقهم، لأنهم إذا حُرِّموا الهداية؛ فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

فقد قيل في معنى الآية "لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم، ولا يقبلون على الإسلام، فأما إذا أسلموا وتابوا، فقد وفقهم الله لذلك"^(٣).

ومما سبق يتضح أن قلة التوفيق وعدم هدايته لهم، نتيجة حتمية لبغض الله لهم، لأنهم أتوا ما نهاهم عنه، لهذا فإذا ما جئتهم بكل آية ما تبعوك ولا انقادوا لك، فإذا كان الله سبحانه لا يجب لهم ما عملوه بل يسخط عليهم ويغضب عليهم، ولا يهديهم إلى صالح أبداً، فيجب على المسلم أن يحذر حتى لا يحدث له ما حدث للظالمين.

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٠٤/٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣٠/٤.

المبحث السادس
العُقُوبَةُ وَالْهَلَاكُ

من آثار الفساد؛ ما جعله الله تبارك وتعالى من أنواع العقاب في الدنيا لبعض المفسدين، ولم يدخرها كلها لهم في الآخرة، من أجل أن يظهر للناس بعض آثار الفساد على أهله، لأخذ العظة والعبرة من مآل المفسدين.

والعقوبة والهلاك؛ كلاهما نكالٌ بالمفسدين، إلا أن العقوبة أعم وأشمل، لأن الهلاك قد يقع على بعض المفسدين دون بعض، أما العقوبة فدائرهما أوسع، لذا نجدها - في القرآن - تنوعت حسب حال المفسدين.

والعقوبة والعذاب حقٌّ لله تعالى، ليس أمرها لأحد سواه، فهما تحت مشيئته سبحانه وإرادته، بيد إنه تعالى جعل من عقوبة الحدود؛ ما هو محل اجتهاد الحاكم، فيما لا يخرج عن حدِّ الشرع، قال تعالى في شأن حدِّ الملاعنة ﴿وَيَذُرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٨].

إن قدرة الله تعالى فوق ما يظن الخلق، وأمره سبحانه لا يردده شيء؛ ففضاؤه نافذ، وحكمه لازم ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ولو أراد سبحانه لأرسل عذابه على عباده، قال سبحانه في المكذبين من قريش ﴿وَإِنَّا عَلَيْنَا أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥] وفي آية أخرى ﴿فَأَمَّا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١) أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الرُّحُف: ٤١، ٤٢].

وقد أخبرنا سبحانه بوقوع عذابه على بعض عباده، وعذابه سبحانه قد يصيب العباد في الدنيا، وقد يؤخر لهم في الآخرة، وقد يجمع الله تعالى لبعض عباده، عذاب الدنيا مع عذاب الآخرة؛ كما أهلك سبحانه المكذبين، وتوعدهم في الآخرة بالعذاب الأليم.

كما أن عذابه - تعالى - لا يمنع منه حذر محاذر، ولا يرده حرص حريص، ولا ينجي منه استخفاء ولا احتراز، ولا تقف أمامه قوة، مهما كانت، ولا يدفعه أحد، مهما بلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ فَعُ ۗ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨، ٧].

فقد يكون ريحاً صرصراً، أو فيضاناً مغرقاً، أو زلزالاً أو مدمراً، أو بلاءً مهلكاً، أو عدواً مسلطاً، ولربما كان فتنة عمياء، تموج كموج البحر، يقتل فيها الناس بعضهم بعضاً، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيُوعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ

الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]

قال قتادة: "إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته؛ لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال: "يا أيها الناس، إن ربكم يستعيبكم فأعقبوه"^(١)، وورد أن المدينة زلزلت في عهد عمر رضي الله عنه فقال: "أحدثتم والله، لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم".^(٢)

ومن تأمل في عقاب الله تعالى للمفسدين؛ وجد تناسباً بين فسادهم من جهة، وبين ما استحقوه من العقاب، من جهة أخرى، وذلك في القرآن الكريم أكثر من أن يحصر.

فمن ذلك ما حدث لقوم نوح عليه السلام لما أكثروا الضلال، عاقبهم الله تعالى؛ بأن جمع لهم بين مرارة الإغراق، وحرارة الإحراق؛ مقابل أعظم الذنوب؛ الضلال والإضلال، فقال تعالى ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾^(٢٤) ﴿مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٤، ٢٥].

وتأمل خبر قوم صالح لما كذبوه ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّبَانًا يَمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٧٧) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾^(٧٨) ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَضَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٩]، فكما عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم؛ كان عقابهم الإبادة وقطع دابرهم.

وأما عاد فاستكبروا، وأعرضوا، وافتخروا بقوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فكان عقابهم؛ الريح العقيم.

وليس عن هذا بعيد؛ عذاب قوم لوط عليه السلام، فقد عاقبهم الله تعالى عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات، ما نكل بهم نكالا؛ لم ينكله بأمة سواهم؛ وذلك لعظم جريمتهم.

وكلتا الأمتين - عاد وقوم لوط - أهلكهم الله بالحاصب، وهي ريح قوية تحمل من شدتها التراب والحصباء، فتحصب بها الناس^(٣)، وقد تشتد شدة تقطع الحجارة؛ فترمي بها الناس.

(١) جامع البيان ٤٧٨/١٧

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى صلاة الخسوف باب: باب لا يصلي جماعة عند شيء من الآيات. ح (٦٧١٠)

(٣) انظر: لسان العرب ٣١٨/١ مادة (حصب).

فأما عاد فقال تعالى فيهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، فكانت ريحاً شديدة ترفعهم وتصرعهم، كما قال تعالى في وصف فعلها بهم ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

لقد ظنت عاد أنها الريح التي اعتادوها، تحمل السحب وتسوقها إليهم؛ فإذا هو حاصب يحمل العذاب الأليم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٢٤] تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فاستمر حاصبهم أياماً، حتى أفناهم الله تعالى به ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وأما قوم لوط عليه السلام، فقال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ﴾ [القمر: ٣٤]، وبلغ من شدة الحاصب الذي احتاحهم؛ أنه رفع ديارهم إلى عنان السماء، وقذفهم بحجارة أهلكتهم في ديارهم ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ومناسبة ذلك أنهم لما انتكست عقولهم، وخالفوا فطرة الله عز وجل، فواقعوا من ليس محلاً للمواقعة؛ قلب الله ديارهم.

وقد أندر الله تعالى هذه الأمة بالحاصب من الريح، وخوفهم به، في موضعين من القرآن، فقال تعالى ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨] وفي موضع آخر ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نُذِيرُ﴾ [الملك: ١٧].

ثم أتى بعد هؤلاء، قوم شعيب عليه السلام، فأندر قومه، وذكرهم ما حلَّ بالمفسدين قبلهم، فقال لهم ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمُونَكَ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُّوطٍ مِّنكُمْ بِيَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، لكنهم لم يعتبروا؛ ففضى الله تعالى بإهلاكهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

"فبين في هذه الآية أن ظلمهم؛ هو تكذيب رسولهم وتطيفهم في الكيل، وبخسهم الناس أشياءهم، وأن انتقامه منهم؛ بعذاب يوم الظلة، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم ناراً فأحرقتهم، والعلم عند الله تعالى". (١)

والهلاك الذي أصاب قوم شعيب؛ ذكر - تعالى - في سورة الأعراف؛ أنه رجفة، وذكر في سورة هود؛ أنه صيحة، وذكر في سورة الشعراء؛ أنه عذاب يوم الظلة. فأجاب ابن كثير رحمه الله عن ذلك، فقال: "وقد اجتمع عليهم ذلك كله، فأصابه عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام".^(١)

وما أحدثته سبأ من الإعراض، باستبدالهم الشكر بالكفر، ناسبه تبادل جنتيهم بجنتين، قال تعالى في وصفهما ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦].

"فلما أعرضوا عما أمروا به، عوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد".^(٢) "فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطعتهم؛ فأبأدها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم؛ وهو السيل المتوعر الذي حرّب سدّهم، وأتلف جناهم، وخرّب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ﴾ أي شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا من جنس عملهم، فكما بدلوا الشكر الحسن؛ بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ [سبأ: ١٧]، أي وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله، وبطر النعمة، فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا".^(٣)

وتأمل لما افتخر فرعون، فنادى في قومه ﴿الَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، كانت عقوبته وهلاكه من جنس ما افتخر به، فأغرق في البحر، قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٥].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٤٩/٣

(٢) المصدر السابق ٧٠٠/٣

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٦٧٧

قال الشوكاني: "قال المفسرون: ﴿ءَأَسْفُونَا﴾: أغضبونا، والأسف الغضب، وقيل: أشد الغضب، وقيل: السخط، وقيل المعنى: أغضبوا رسلنا، ثم بيّن العذاب الذي وقع به الانتقام فقال ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في البحر".^(١)

وقد عرض القرآن صوراً لعذاب آل فرعون، فمن ذلك؛ قوله تعالى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرِصَادٍ ﴿الفجر: ١٠، ١٤﴾ قال أبو السعود: "أنزل عليهم عقيب ما فعلوه من الطغيان والفساد؛ سوط عذاب، أي عذاباً شديداً، لا يدرك غايته، وتسميته سوطاً؛ للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعد لهم في الآخرة؛ بمتزلة السوط عند السيف، والتعبير عن إنزاله بالصبّ للإيدان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جارٍ مجراه في السيالان، كالرمل والحبوب وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار، ونسبته إلى السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل؛ باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك على المضروب؛ بقطرات الشيء المصبوب".^(٢)

كما أنزل عليهم جملة من العقوبات، قبل استئصالهم، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فهذا "شروع في تفصيل مبادئ الهلاك الموعود، وإيدان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك، ولم يكونوا في خفض ودعة، بل رتبت أسباب هلاكهم، فتحولوا من حال إلى حال، إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال. والسنون جمع سنّة، والمراد بها: عام القحط"^(٣)، تقول العرب: مستهم السنّة، أي: جذب السنّة، وشدة السنّة، وقيل: أراد بالسنين؛ القحط سنة بعد سنة، ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ والغلات بالآفات والعاهات، وقال قتادة: أما السنين فلاهل البوادي، وأما نقص الثمرات فلاهل الأمصار، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم؛ معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد^(٤).

(١) فتح القدير ٧٩٧/٤

(٢) تفسير أبي السعود ١٥٤/٩

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٦٣/٣

(٤) انظر: معالم التنزيل ٢٦٨/٣، تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠٠

وهذا قارون حين أبطره ماله الذي أعطاه الله إياه، ولكنه ادعى كبراً وعناداً أما جلبه بعلمه فقال ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. فلما علا في الأرض؛ كانت عقوبته الخسف؛ معاملة له بمقتضى فساده ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فهذه آيات بينات، تؤصل أن العذاب مرهون بالفساد، فإذا أفسدت أمة من الأمم، حلَّ بها عذاب الله تعالى، لأنه لا يحيق المرء السيئ إلا بأهله ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرَ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩]. ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٤].

وبهذا يتبين أنه تعالى، أهلك جميع الأمم المكذبة لرسولها؛ بعذاب مستأصل^(١)، كما بين ذلك في قوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

فقوله ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالا للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم ﴿فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ما أشقاهم!! وتعسا لهم، ما أخسر صفقتهم!!^(٢)

وقد جاء صريحاً؛ أن المفسدين ينالهم العذاب في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَّصِيرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

قال السعدي: "أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك، مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة، فهو الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار، وغضب الجبار، وحرمانهم ثواب الأبرار"^(٣).

(١) أضواء البيان ٣٠٤/٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢.

ومن حق عليهم ذلك؛ بنو إسرائيل، فقد أنزل الله تعالى عليهم عقوبته وسخطه؛ جزاء إعراضهم وعنادهم، وجاء بيان ذلك في عدة مواضع، كما في قوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبَكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسُوْمُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم. ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين وغيرهم، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد عليه السلام، فكانوا تحت صغاره وذمته؛ يؤدون الخراج والجزى. (١)

والمشركون زمن النبي عليه السلام، نالهم من العذاب ما نالهم؛ بسبب تكذيبهم وإعراضهم، قال سبحانه ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: "أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله عليه السلام يبعثهم إليهم" (٢). كما أخبر سبحانه عن عقوبة المنافقين في الدنيا، فقال سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٠] ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقَتْلُوا قَتْلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

ثم قال ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

قال ابن كثير: "هذه سنته في المنافقين، إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهروهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدل ولا تُغير".

ومن عقوبة الكافرين في الدنيا؛ ازديادهم من الآثام والسيئات، فإن طول العمر؛ يكون شراً للمرء، وضرراً عليه؛ إذا لم يحسن العمل، قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهؤلاء الكفار يملي الله لهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٩٧/٣

(٢) انظر: جامع البيان ٤٥٨/١٦، ومعالم التنزيل ٣٢٠/٤.

- أي يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات - لا لخير في أنفسهم، بل ليزدادوا بذلك إثماً.

ومن العقوبات الدنيوية: ما ذكره سبحانه من الحدود على الجنايات، وقد سبق بيان ذلك في موضعه.

ومن العقوبات التي تظهر إذا عم الفساد والفجور، ما دلّ عليه عموم قوله تعالى ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُعْتَرِاً نَعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما ظهر في قوم الربا والزنا؛ إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل" ^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا معشر المهاجرين: خمسٌ إن ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ، لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا" ^(٢).

وما هو نازل اليوم بالأمم من كثرة الحروب والفيضانات والزلازل والأمراض والأدواء المعضلة؛ كل ذلك من آثار الفساد الذي شاع في كل مكان وناد.

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٢/١ وصححه الشيخ شعيب الارناؤوط .

(٢) سبق تخريجه. ص ٧٢

الفصل الثاني

آثار الفساد في الآخرة

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: الخسارة والحسرة.
- المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.
- المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

المبحث الأول الخنسارَةُ والخنسرة

تتعدى آثار الفساد إلى الآخرة، فلو اقتصرت على الدنيا، لكان الأمر أخف؛ لكن عذاب الآخرة أشد ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]، فيتحسر المفسدون على أنفسهم، يوم لا ينفع فيه حسرة ولا ندامة.

ولقد أكد القرآن الكريم، أنه بعد البعث والنشور، وانكشاف الأمور، يخلد الناس إما في الجنة أو النار، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار خيبة على خيبتهم، ولذا وصف الله تعالى يوم القيامة؛ بأنه يوم الحسرة، قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مریم: ٣٩].

"والحسرة: أشد الندم والتلف، على الشيء الذي فات، ولا يمكن تداركه، والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد، أي أنذر الناس يوم القيامة، وقيل له يوم الحسرة؛ لشدة ندم الكفار فيه على التفریط، وقد يندم فيه المؤمنون؛ على ما كان منهم من التقصير. المعنى: أنذر الخلائق يوم الحسرة، إذا فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه، مخلداً فيه ﴿وَهُمْ﴾ أي اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون به.^(١)

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُلْمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]^(٢). وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت؛ كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، فيؤمر به، فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت" ثم قرأ ﷺ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مریم: ٣٩]^(٣).

وقد أقسم تعالى على تحقق الخسران، وأنه لا ينجو منه إنسان، إلا بأربعة أمور:

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢٣٣/٥

(٢) أضواء البيان ٤٢٢/٣

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الايمان. باب تفاضل أهل الايمان. ح (٢٢).

الأول: الإيمان، الثاني: العمل الصالح، الثالث: التواصي بالحق، الرابع: التواصي بالصبر.

وذلك في قوله ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١، ٣].

وما تضمنته سورة العصر، جاء مبيناً في عدة مواضع، في الكتاب العزيز.

فقد جاء وصف الخسران مقترناً بالكفر، كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وقوله ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١] أي لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء، وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا، فضيعوا أنفسهم، وحظهم في الآخرة.

وأما الخسران بترك العمل، فكما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] لأن الموازين هي معايير الأعمال.

وأما الخسران بترك التواصي بالحق، فليس بعد الحق إلا الضلال، والحق هو الإسلام بكامله وقد قال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأما الخسران بترك التواصي بالصبر، فكما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].^(١)

كما وصف بالخسران متبع الشيطان، ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وبيّن في مواضع أخرى، أن المفعول المحذوف الواقع عليه الخسران هو أنفسهم، كقوله ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، وقوله ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وزاد في مواضع أخرى؛ خسران الأهل مع النفس، كقوله ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقوله في الشورى ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

(١) انظر: أضواء البيان ٩٠/٩

كما بيّن في موضع آخر؛ أن خسران الخاسرين؛ قد يشمل الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] ^(١).

فأما خسارتهم أنفسهم؛ فبصرف أعمارهم - التي هي رأس مالهم - إلى الكفر والمعاصي، فلم ينتفعوا بها، وكل من لم ينتفع بنفسه؛ فقد خسرها. ^(٢)

بل إنهم تسببوا لها في العذاب، في حين حسبوا أنهم سعوا لها في النعيم والنجاح، وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب، وهم يحسبون أنهم يلقونها في النعيم، بحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف.

وأما خسارتهم أهلهم؛ فهو مثل خسارتهم أنفسهم، وذلك أنهم أغروا أهلهم من أزواجهم وأولادهم بالكفر، كما أوقعوا أنفسهم فيه، فلم ينتفعوا بأهلهم في الآخرة، ولم ينفعوهم، فكان خسارتهم خساراً عظيماً. ^(٣)

"وقيل: فرّق بينهم وبينهم، فاشتدّ عليهم الحزن، وعظم الخسران". ^(٤)

ولما شرح الله تعالى خسارتهم؛ وصف ذلك الخسران بالفظاعة، فقال ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، وهذا يدل على غاية المبالغة من وجوه: أحدها: أنه وصفهم بالخسران، ثم أعاد ذلك بقوله ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ وهذا التكرير لأجل التأكيد. وثانيها: ذكره حرف "الأ" وهو للتنبية، وذكر التنبية يدل على التعظيم كأنه قيل: بلغ في العظم إلى حيث لا تصل عقولكم إليه، فتنبهوا له. وثالثها: قوله ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ﴾ ولفظ "هو" يفيد الحصر، كأنه قيل: كل خسران يصير في مقابلته كلا خسران. ورابعها: وصفه بكونه خساراً مبيناً وذلك يدل على التهويل. ^(٥)

وقد أخبر سبحانه عن حسرة أهل النار، في مواضع عدّة من كتابه العزيز، قال تعالى ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ^(١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ^(١٠٤) أَلَمْ

(١) انظر: أضواء البيان ١٥٩/٢

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٢٣٢/٣، الجامع لأحكام القرآن ٢١٨/٧

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٤٦/٢٤

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢١

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٤٩٠/١٦

تَكُنْ ءَايَتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٧].

قال ابن كثير: "هذا تفرغ من الله، وتوبيخ لأهل النار، على ما ارتكبه من الكفر والمآثم
 والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال ﴿لَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَلِّي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾
 أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة
 كما قال تعالى ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
 نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ
 فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾
 فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١].

ولهذا قالوا ﴿رَبَّنَا عَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا
 أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها، ولم تُرزقها، ثم قالوا ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا
 ظَالِمُونَ﴾ أي ارددنا إلى الدنيا، فإن عُدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون
 للعقوبة، كما قال عنهم ﴿فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]، أي لا سبيل إلى
 الخروج، لأنكم كنتم تشركون بالله، إذا وحده المؤمنون^(١).

فهؤلاء استحقوا ما هم فيه من عذاب؛ بسبب تماديهم في الفساد، حال حياتهم الدنيا، ثم
 موتهم على تلك الحالة، فإذا ما جاء أحدهم يوم القيامة وأبصر الحقائق، وأصبح الغيب الذي
 كان يكذب به؛ واقفاً أمام عينيه، هنا تكون الحسرة على ما فرط في جنب الله تعالى.

بل يقال لهم ساعة العذاب ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ من أجل أن يتحسروا على
 صنيعهم، حال حياتهم الدنيا.

ومن علامات خسارتهم؛ اسوداد وجوههم، قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
 أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

فهذه خسارة ما بعدها خسارة، إذ تعظم حسرتهم، إذا قيل لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟
 قال القرطبي: "يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضة،
 ووجوه الكافرين مسودة، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه، فرأى

في كتابه حسناته؛ استبشر وبيض وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه، فرأى فيه سيئاته؛ أسود وجهه، ويقال: إن ذلك عند الميزان، إذا رجحت حسناته أبيض وجهه، وإذا رجحت سيئاته؛ اسود وجهه، ويقال: ذلك عند قوله تعالى ﴿وَأْمَنُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].
ويقال: إذا كان يوم القيامة؛ يؤمر كل فريق، بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا انتهوا إليه؛ حزنوا واسودّت وجوههم" (١).

ومن مشاهد الحسرة؛ أن الأعضاء شاهدة عليهم، وهذا أبلغ ما يكون في توبيخهم، من أجل أن تزداد حسرتهم، في ذلك المشهد العظيم، قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) وَقَالُوا لِمَ جُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٤].

فهؤلاء المفسدون كانوا يظنون أن أعضائهم لا تتكلم، ولا تشهد عليهم أبداً، لأنهم كانوا قوماً ماديين؛ لا يؤمنون إلا بما شاهده أمام أعينهم، لهذا فإنهم يتعجبون منها، وهي تتكلم عن ما اقترفوه بها حال الحياة.

قال ابن كثير: "قوله ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار، يوزعون أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مرم: ٨٦]، أي عطاشاً، وقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا﴾ أي وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بأعمالهم، مما قدموه وأخروه، لا يكتف منه حرف ﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أي لاموا أعضائهم وجلودهم، حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون" (٢).

والمعنى: أنه نعى عليهم سوء استدلالهم، وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، حتى استدرجوا في الضلالة، فأحالوا رسالة البشر عن الله، ونفوا البعث، ثم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/١٦٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/١٢١

أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله؛ قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا، وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، فأسباب الضلال في العقائد كلها؛ إنما تأتي على الناس من فساد التأمل، وسرعة الإيقان، وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة، والدلائل المشابهة وكل ذلك يفضي إلى الوهم، المعبر عنه بالظن السيئ أو الباطل.^(١)

ولشدة ما يتزل بهم من العذاب، يتمنى أحدهم العودة للحياة؛ من أجل أن يعمل صالحاً يكافأ عليه، فيردّ الله تعالى عليهم طلبهم هذا، لأنهم عمّروا في حياتهم الدنيا، ولم يأخذوا منها إلا الحسرة والندامة، قال سبحانه ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] فينادون فيها، ويجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا؛ ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم سبحانه، أنه لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنتهم لكاذبون﴾ [الأنعام: ٢٨].

فلا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١١ ذلكم بأنّه إذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا﴾ [غافر: ١١، ١٢] أي لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولذا قال ههنا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾؟ [فاطر: ٣٧]، أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق؛ لانتفعتم به في مدة عمركم.^(٢)

هذا ويقال لهم، على سبيل التبيكيت والذم ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ٦٣ ﴿أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٣-٦٤].

يقال ذلك؛ وقد برزت الجحيم لهم، تقرّياً وتوبيخاً ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم.

وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزهم؛ من ثلاثة أوجه:

أحدها: قوله ﴿أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ وهذا أمر تنكيل وإهانة، كقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

(١) انظر: التحرير والتنوير ٨٧/٢٤

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧٣٦/٣

الْكُرَيْمِ ﴿الدخان: ٤٩﴾ أي: ادخلوها من فوق، وقاسوا فنون عذابها اليوم، بكفركم المستمر في الدنيا، وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] أي ختماً يمنعها عن الكلام. وهذا التفات إلى الغيبة؛ للإيدان بأن ذكر أحوالهم القبيحة، استدعى أن يُعرض عنهم، ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم، مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك، من مقتضيات الحتم، لأن الخطاب لتلقى الجواب، وقد انقطع بالكلية.

الثاني: قوله ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: العذاب حاضر، ولذاتك قد مضت، وبقي اليوم العذاب، فالتعريف في ﴿الْيَوْمَ﴾ تعريف العهد، أي هذا اليوم الحاضر، وأريد به جواب ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا؛ من استبطاء الوعد والتكذيب، إذ يقولون ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]. والباء في ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ سببية، أي بسبب كفركم في الدنيا الثالث: قوله ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفران يُنبئ عن نعمة كانت؛ فكُفِرَ بها، وحياء الكفور من المنعم، من أشد الآلام.^(١)

وقال تعالى في بيان حسرتهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ بَلْ بَدَأْتُم مَّا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

قال ابن كثير: "يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين، قال تعالى ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يَحْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، أي: بل ظهر لهم حينئذ، ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا، أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقوله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا

(١) انظر: إرشاد الغفل السليم ١٧٦/٧، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٥٤/١٦، التحرير والتنوير ٢٥٥/٢٢

وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿النمل: ١٤﴾.

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء؛ المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس، ويبطنون الكفر، ويكون هذا؛ إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكّية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكّية، وهي العنكبوت فقال ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].^(١)

وبعد أن يذوقوا النار، يُزاد لهم من عذابها، جزاء ما كسبت أيديهم؛ فتزداد حسرتهم على أنفسهم.

ومن حديث القرآن عن حسرتهم، قوله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَّا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ؕ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]. قال الطبري: "وكس الذين كذبوا بقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة، بمنزل من اشتروا منزله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة، قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبينوا خسارة صفقة بيعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندماً وتلهفاً على عظيم الغبن الذي غبنوه أنفسهم، وجيل الخسران الذي لا خسران أجلّ منه ﴿يَحْسِرُنَّا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا فِيهَا﴾ يقول: يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها يعني: صفقتهم تلك."^(٢)

"وهذا شهادة من الله عليهم بالخسران، والمعنى أن من باع آخرته بالدنيا، فقد خسِر، لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي، وأخذ القليل الخسيس الفاني."^(٣)

وقوله ﴿قَالُوا يَحْسِرُنَّا﴾ وقع النداء على الحسرة، وليست بمنادي في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله: يا للعجب، ويا للرخاء، وليس بمنادين في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء.

والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهذا أوانك، كذا قال سيبويه^(٤) في هذا النداء وأمثاله.

(١) تفسير القرآن العظيم ١٧٢/٢

(٢) جامع البيان ١٧٧/٥

(٣) التفسير الكبير ٨٣/١٧

(٤) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب بسيبويه، مولى بني الحرث بن كعب، ولد ببضا سكن البصرة وتوفي

وقيل: هو تنبيه للناس، على عظيم ما يجلبهم من الحسرة، كأهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة. (١)

بل إن الشيطان يتبرأ من أتباعه بعد ضلالهم واتباعهم له، فتزيد حسرتهم، قال تعالى ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ ﴾ أي على السنة رُسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم.. ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ اليوم ﴿ وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتهم المحجج، واتبعتوني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بفاعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ أي: بفاعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

وقوله ﴿ إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال ابن جرير: "يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل". (٢)

قال ابن كثير معقباً: "وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥٠]، وقال ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]. (٣) وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ فَلَانَا خَلِيلًا ﴿ ٢٨ ﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

"فأخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، أنه إذا كان يوم القيامة؛ ندم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/١٢٢، فتح القدير ٢/١٦٠

(٢) جامع البيان ١٦/٥٦١

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٩٠

حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط، أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦] الآيتين.

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعضّ على يديه قائلًا ﴿يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَوَيْلٌ لِّيَتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي بعد بلوغه إليّ^(١).

وفي صورة أخرى، يتبين فيها؛ أن الحسرة ظاهرة على الوجوه، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة؛ لرأيت العجب، وقيل المعنى: يا محمد قل للمجرم؛ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم، لندمت على ما كان منك. فهم ناكسو رؤوسهم من الندم والحزني والحزن والذل والغم، عند المحاسبة والجزاء، يقولون ربنا أبصرنا ما كنا نكذب وسمعنا ما كنا ننكر، وقيل: أبصارنا صدق وعيدك، وسمعنا تصديق رسلك، فأبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع، فطلبوا الرجوع إلى الدنيا، وهيئات^(٢).

كما أن ملائكة النار، توبخهم قبل دخولها، فيعترفون بخطأهم، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرًّا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]

فهم يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣] أي يدفعون إليها دفعاً، وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي بمجرد وصولهم إليها؛ فتحت لهم أبوابها سريعاً؛ لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقرير والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ

(١) المصدر السابق ٤٢١/٣

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٧/١٤

ءَايَاتِ رَبِّكُمْ ﴿٥٠٨﴾ أَي يَقِيمُونَ عَلَيْكُمْ الْحُجُجَ وَالْبُرَاهِينَ، عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْكُمْ إِلَيْهِ ﴿٥٠٩﴾ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴿٥١٠﴾ أَي وَيَحذِرُونَكُمْ مِنْ شَرِّ هَذَا الْيَوْمِ فَيَقُولُونَ ﴿٥١١﴾ أَي قَدْ جَاءَنَا وَأَنْذَرْنَا، وَأَقَامُوا عَلَيْنَا الْحُجُجَ وَالْبُرَاهِينَ ﴿٥١٢﴾ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١٣﴾ أَي وَلَكِنْ كَذَبْنَاهُمْ وَخَالَفْنَاهُمْ، لَمَّا سَبَقَ لَنَا مِنَ الشَّقْوَةِ الَّتِي كُنَّا نَسْتَحِقُّهَا، حَيْثُ عَدَلْنَا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مَخْبِرًا عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى ﴿٥١٤﴾ كَلِمًا أَلْفِي فِيهَا فَوَجَّ سَأَلُهُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٥١٥﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٥١٦﴾ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥١٧﴾ [الملك: ٨-١٠] أَي رَجَعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿٥١٨﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥١٩﴾ [الملك: ١١] أَي بُعْدًا لَهُمْ وَخَسَارًا. ^(١)

المبحث الثاني

مُضَاعَفَةُ الْأَوْزَارِ وَالسِّيَّاتِ

من رحمة الله تعالى؛ أن جعل الحسنه بعشر أمثالها، قال تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، والله يضاعف لمن يشاء، وجعل السيئة بمثلها ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولو ضاعف الله السيئات مضاعفة الحسنات؛ لهلك الناس، ولكن الله ذو فضل على العالمين.

ولعل من الحكمة في ذلك؛ أن يبادر العبد للإقلاع عن الذنب، ويجدد الإيمان بالتوبة. كما ذكر جلّ وعلا أن من اهتدى؛ فعمل بما يرضي الله جلّ وعلا، أن اهتداه ذلك إنما هو لنفسه، لأنه هو الذي ترجع إليه فائدة ذلك الاهتداء، وثمرته في الدنيا والآخرة. وأن من ضلّ عن طريق الصواب؛ فعمل بما يسخط ربه جلّ وعلا، أن ضلاله ذلك، إنما هو على نفسه. لأنه هو الذي يجني ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة، فيخلد به في النار، وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة. كقوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، والآيات بمثل هذا كثيرة. إلا أن من الناس من يضاعف الله تعالى يوم القيامة حسناتهم، وآخرين تضاعف أوزارهم؛ كما دلت على ذلك النصوص الشرعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والداعي إلى الهدى والضلالة لما كانت إرادته جازمة كاملة في هدى الأتباع وضلالهم وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه؛ كان بمنزلة العامل الكامل، فله من الجزاء؛ مثل جزاء كل من اتبعه: للهادي مثل أجور المهتدين، وللمضل مثل أوزار الضالين، وكذلك السان سنة حسنة، وسنة سيئة؛ فإن السنة هي ما رسم للتحري، فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته، ومن هذا قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل".^(١)

فالكفل النصيب، مثل نصيب القاتل، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع بمنعه من قتل نفس معصومة، فصار شريكاً في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا

(١) سبق تخريجه انظر: ص ٧٢.

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢].

ويشبه هذا؛ أنه من كذب رسولاً معيناً؛ كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ [الشعراء: ١٢٣]، ونحو ذلك^(١).

ولذا جاء ذكر مضاعفة الأوزار مقترناً بتضعيف العذاب، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم.

قال الرازي: "قيل سبب تضعيف العذاب في حقهم؛ أنهم كفروا بالله وبالبعث وبالنشور، فكفرهم بالمبدأ والمعاد؛ صار سبباً لتضعيف العذاب، والأصوب أن يقال: إنهم مع ضلالهم الشديد، سعوا في الإضلال، ومنع الناس عن الدين الحق، فلهذا المعنى حصل هذا التضعيف عليهم".^(٢)

وقال أبو حيان: "يضاعف لهم العذاب؛ يشدد ويكثر، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة، لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث؛ الكذب على الله، وصدّ عباده عن سبيل الله، وبغي العوج لها.

وقوله ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة، يعني: السمع للقرآن، ولما جاء به الرسول ﷺ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ينظرون إليه لبغضهم فيه، ألا ترى إلى حشو الطفيل بن عمرو أذنيه من الكرسف، وإبابة قريش أن يسمعوا ما نقل إليهم من كلام الرسول حتى تردّهم عن ذلك مشيختهم؟

أو إخبار عن حالهم إذا ضعّف لهم العذاب، أي: أنه تعالى حتم عليهم بذلك، فهم لا يسمعون لذلك سماعاً ينتفعون به، ولا يبصرون لذلك، وقيل: الضمير في (كانوا) عائد على أوليائهم آهنتهم أي: فما كان لهم في الحقيقة من أولياء، وإن كانوا يعتقدون أنهم أولياء.

(١) مجموع الفتاوى ٤٣٦/٢

(٢) التفسير الكبير ١٦٥/١٧

ويعني أنه من لا يستطيع أن يسمع ولا يبصر فكيف يصلح للولاية؟ ويكون ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراضاً، وما على هذه الأقوال نفي". (١)

كما أن الفرق الضالة يوم القيامة، كل واحدة منها تلقي باللوم على صاحبها، لأجل أن تنجو من عذاب الله، فيخبرهم - تعالى - أن عقابهم جميعاً مضاعف، قال تعالى ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِمَّنْ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. فهذا خبر من الله تعالى عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة، فإنهم إذا اجتمعوا فيها، فاداركوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار، لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزينوا لنا طاعة الشيطان، فأثم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا.

وأما قوله ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإنه خبر عن جوابه لهم، أي: لكلكم - أولكم وأخركم وتابعوكم ومتبعوكم - ﴿ضِعْفٌ﴾ أي: مكرر عليه العذاب، وضعف الشيء مثله مرة. (٢)

فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب، كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ (١٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وأخبر سبحانه أن لكل من المتبعين والأتباع؛ تضعيفاً من العذاب. ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف، ولهذا وقع عظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال.

ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢) وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء؛ لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل؛ يُستحق مع الإرادة

(١) البحر المحيط ٥/٢١٢

(٢) انظر: جامع البيان ٥/٤٨٢

الجازمة، وفعل المقدور منه.

وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل كتاباً، وفيه: "فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين" ^(١) ^(٢)

فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم؛ أن عليه إثم الأريسيين وهم الأتباع، وهذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك، ومعلوم أنه إذا تولى عن أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم كان عليه مثل آثامهم، من غير أن ينقص من آثامهم شيء. ^(٣)

فليس الأمر مقتصرًا على أوزارهم فقط، بل إنهم سيأخذون بأوزار الذين كانوا يضلونهم في الحياة الدنيا، كما قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

قال الطبري: "يقول هؤلاء المشركون - لمن سألهم ماذا أنزل ربكم؟ - الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطير الأولين، لتكون لهم ذنوبهم التي هم عليها مقيمون من تكذيبهم الله وكفرهم بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ذنوب الذين يصدونهم عن الإيمان بالله يضلون يفتنون منهم بغير علم، وقوله ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون والثقل الذي يتحملون" ^(٤).

قال مجاهد: يحملون أثقالهم ذنوبهم، وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً. ^(٥)

واللام في قوله ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ تتعلق بمحذوف دل المقام عليه؛ أي: قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

فالأوزار الحاصلة لضلال الأتباع وهي حاصلة من جهة الأمر، ومن جهة المأمور الممثل، فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال؛ فلهذا كان على هذا بعضه، وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين البعضين، هو مثل وزر عامل

(١) أخرجه البخاري الجهاد باب: هل يرشد المسلم أهل الكتاب ح ٢٧٧٨

(٢) أي الأتباع من أهل مملكته، وهي في الأصل جمع أريسي وهو الحرث والفلاح. انظر: فتح الباري ١/١٩١

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ٢/٤٣٦

(٤) جامع البيان ٧/٥٧٥

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/٧٤٧

كامل، كما دلت عليه سائر النصوص مثل قوله: "من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"^(١).

وفائدة وصف المتبعين لغيرهم بقوله ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يذكرها لنا الإمام البيضاوي فيقول: "أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا، ويميزوا بين الحق والمبطل ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزْرُونَ﴾ بسئ شيناً يزرونه فعلهم"^(٢).

وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْفُسَهُمْ وَأُنْفُسًا مَعَهُمْ﴾ وَلَيْسَ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

"فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه فيما سبق؟ مع أن الله يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]، ويقول ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالجواب - والله تعالى أعلم-: أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأنه من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، وإنما أخذ بعمل غيره؛ لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾"^(٣). وقد قال ﷺ "ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعُمل بها بعده؛ كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء"^(٤).

ومن سياق الآيات السابقة؛ يظهر أثر الفساد في مضاعفة الأوزار، ومن ثم مضاعفة العذاب. ولا يقتصر ذلك على الإضلال فحسب؛ بل إن جملة من الكبائر مرتبطة بهذا الأثر الفادح،

(١) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب من سن سنة حسنة. ح (٢٦٧٤).

(٢) تفسير البيضاوي ص ٣٩٣.

(٣) انظر: أضواء البيان ٢/٣٦٤.

(٤) أخرجه مسلم. كتاب العلم. باب من سن سنة حسنة. ح (٢٦٧٤).

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْمِلُهُ مُهَانًا ﴿﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى مضاعفة العذاب؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك؛ عُدِّبَ على الشرك، وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه.^(١)"
وقال تعالى ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن كثير: "هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة - بين يدي الله - صغار وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا؛ فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة، لما استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أي صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله تعالى ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿﴾ لما كان المكر غالباً؛ إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة؛ قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء وفاقاً ﴿﴾ وَلَا يَظَلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تُبَلِّ السَّرَّابِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر.

وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان بن فلان" ^(٢)

والحكمة في هذا؛ أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، ففي يوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل. ^(٣)

وفي تصوير بليغ لعبئ الأوزار عليهم، يقول تعالى ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠، ١٠١]

فذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صدّ وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم

(١) الكشف ١/٨٧١

(٢) أخرجه البخاري. أبواب الجزية والموادعة. باب إثم الغادر للبر والفاجر. ح (٣٠١٥)

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٣٢

يعتقد ما فيه من العقائد، ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزراً.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: "يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة. سمّاها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بمره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم".^(١)

قال الشنقيطي: "وقد دلت آيات كثيرة من كتاب الله تعالى؛ على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم، أي: أثقال ذنوبهم على ظهورهم، كقوله ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقوله ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِثَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقوله في ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ وَلَيْسَ لَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن، تعلم أن معنى قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِثَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلْسَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمول؛ أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها؛ سواء قلنا إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها، أو غير ذلك، والعلم عند الله تعالى".^(٢)

(١) الكشاف ٣/٨٧

(٢) أضواء البيان ٤/٩٥

المبحث الثالث

تَغْلِيظُ الْعَذَابِ

لقد وصف الله سبحانه وتعالى عذاب المفسدين في الآخرة بأنه عذاب غليظ، لأنهم حين كانوا في الدنيا؛ طلب منهم اتباع منهج الله تعالى فرفضوا، وحاربوا الحق وأهله، لهذا جعل الله تعالى في عذابهم قسوة عليهم يوم القيامة، جزاءً بما كسبت أيديهم، قال تعالى ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

أي يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وآخر من شكله أزواج، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: "لم يترل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً".^(١)

ومن أدل البراهين على تغليظ العذاب، قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

قال ابن عاشور في قوله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ "لما ذكر العذاب الذين هم لاقوه على كفرهم؛ استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزيادة في كفرهم؛ بأنهم يصدون الناس عن اتباع الإسلام، وهو المراد بالصد عن سبيل الله، وزيادة العذاب: مضاعفته".^(٢)

وهذا من تغليظ العذاب لهم، أما سرُّ تكبير العذاب الأول في قوله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ "فأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعرف العذاب الثاني؛ لأنه العذاب الذي يعذب به أكثر أهل النار، فكان في شهرته بمتزلة النار، في قول القائل: نعوذ بالله من النار، وقد قيل: إنما زيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم؛ بصددهم عن سبيل الله".^(٣)

فالعذاب متفاوت؛ بحسب تفاوت الأعمال، فليس عذاب من كفر، كعذاب من عصي، قال تعالى ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال تعالى عن شدة عذاب آل فرعون في الآخرة ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

كما أخبر أن المنافقين أنهم في أسفل درجات الجحيم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدِلَهُمْ تَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٩٤/٤

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١٤

(٣) زاد المسير ٤٨١/٤

لذا سلى الله تعالى نبيه ﷺ متوعداً أهل الكفر بشدة العذاب، فقال تعالى ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرَهُ وَلِيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٣) نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿ لقمان: ٢٣، ٢٤.]

وقد اشتمل الكتاب العزيز على بيان مفصل للعذاب، ويظهر فيه تغليظ العذاب على أهل الفساد، نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

فمن صور تغليظ العذاب: السحب في النار على الوجوه.

قال تعالى في شأن المجرمين الذين بلغوا في الإفساد مرتبة متقدمة ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿ [القمر: ٤٧، ٤٨].

"والسحب: الجرّ، وهو في النار أشد من ملازمة المكان؛ لأنه به يتجدد مماسة نار أخرى، فهو أشد تعذيباً، وجعل السحب على الوجوه إهانة لهم".^(١)

ومما يزيد في ألمهم، وهم يجرون على وجوههم؛ يحدث ذلك وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، قال تعالى ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ [عاف: ٧١-٧٢]، فيعذبون بأشد أنواع العذاب، إذ ينتقلون من عذاب غليظ إلى آخر أغلظ، فتقلّب وجوههم في النار، كما يقلب الشواء ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]. فيحاولون ردّ النار عن وجوههم؛ فلا يستطيعون، مصداق قوله تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٣٦) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبَهِتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ولا حيلة لهم إلى الخروج من النار، لكون ملائكة العذاب تحول بينهم وبين ما أرادوا، معهم مقامع من حديد ﴿ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (٣١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ [الحج: ٢١، ٢٢].

ومن صور تغليظ العذاب: إنضاج الجلود.

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَتُنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نُصَبَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا أُخْرَىٰ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

فلشدة العذاب؛ تأكل النار لحومهم، لهذا قال الحسن: "كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم، قيل

لهم: عودوا فعادوا".^(١) وذلك ليذوقوا مرارة الألم، وقسوة العذاب، مرة بعد أخرى. يقول الرازي في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا فُضِّتَ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني كلما ضنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك؛ أعطيناهم قوة جديدة من الحياة، بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب، وعدم انقطاعه.^(٢) فإذا كان هذا العذب بنار انتظرت أصحابها طوال هذه الفترة، أليس هذا يدل على شدتها وحدتها!

ومن صور تغليظ العذاب بأهل الفساد؛ حين يقدم له الطعام والشراب، فمن صنوف طعامهم الزقوم، وهي شجرة خبيثة في أصلها وطلعها، قال تعالى ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ لَّزُلَّامٍ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَاسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ [الصفات: ٦٢-٦٨]

فتمتليء البطون من هذا الطعام الخبيث ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣]، فتغلي منه البطون ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

فتأمل خبث هذا الطعام الذي لو قطر منه قطرة في الأرض؛ لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فقال: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا؛ لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف يمكن يكون طعامه"^(٣).

ثم يقدم لهم طعاماً ذا شوك، لا يُسمن ولا يُغني من جوع ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. ثم يأتي إليهم صديد أهل النار لياًكلوه.

وحين يُساق المجرمون إلى النار في ذل وصغار، وقد بلغ منهم العطش مبلغه، فيزدادون همماً وغماً، ويقدم لهم شراب بعد الطعام الذي وقف في حلوقهم ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [الزمل: ١٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٣٧/٢.

(٢) التفسير الكبير ١٠٩/١٠.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه، في المستدرک. كتاب التفسير. سورة آل عمران. ح (٣١٥٨).

وإذا قربوه ليشربوا؛ أحرق وجوههم وشواها ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] وإذا شربوه قطع أمعائهم ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

والأشق عليهم ليس شربهم للحميم فقط؛ بل صبه فوق رؤوسهم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ [١٩] يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿ [الحج: ١٩، ٢٠].

والحميم: الماء الشديد الحرارة، والإصهار: الإذابة بالنار، أو بجملة الشمس، وما في بطونهم: أمعائهم، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم.^(١)

"وذكر في موضع آخر أنهم يسقون مع الحميم الغساق، كقوله ﴿ هَذَا فَلْيُدُّوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [٥٧] وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ﴿ [ص: ٥٧، ٥٨]، وقوله ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿ [النبا: ٢٤، ٢٥]، والغساق: صديد أهل النار، أعادنا الله والمسلمين منها"^(٢).

ومن شدة ما هم فيه من عذاب ﴿ وَسُقُوا الْمَجْمُومَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرَدًّا ﴾ [مریم: ٨٦]، فقوله ﴿ وَسُقُوا ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نعم عطاش، تُساق إلى الماء، والورد: اسم للعطاش، لأن من يرد الماء، لا يرده إلا للعطش.

وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار، إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ ﴾ [مریم: ٨٧] أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى، وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة، كما قال تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن

أَرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ومن صور تغليظ عذابهم - عياداً بالله - أنهم ينادون على خازن جهنم، يتوسلون به إلى الله سبحانه، ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت، ليستريحوا من العذاب ﴿ وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١) لسان العرب ١٢ / ١٤٠/١٤٠ (حمم)

(٢) أضواء البيان ١٥١/٢

فلا يردُّ عليهم في الحال؛ إهانة لهم، ثم يبين لهم بعد حين، أنهم في العذاب خالدون، فلا ينفعهم توسلهم.

قال الطبري: "ونادى هؤلاء المجرمون - بعد ما أدخلهم الله جهنم، فناهم فيها من البلاء ما نالهم - مالكاً خازن جهنم ﴿بِمَلِكٍ لِّقَضِ عَيْنَارِيكُ﴾ أي: لئمتنا ربك، فيفرغ من إمامتنا، فذكر أن مالكا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك، ويدعهم ألف عام بعد ذلك، ثم يجيبهم، فيقول لهم ﴿إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾".^(١)

وقد دل على خلودهم فيها آيات كثيرة، كما قال تعالى ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال عز وجل ﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْأَكْبَرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١-١٣].

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكث عنهم ألف سنة، ثم قال: إنكم ما كئون"^(٢)

أي لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها، ثم ذكر سبب شقوتهم، وهو مخالفتهم للحق، ومعاندتهم له فقال ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٧٨] أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

ثم يبين الله تعالى أن درجة عذابهم واحدة لا تقل أبداً، فليس الحال كما هي نار الدنيا، أنها تبدأ هادئة ثم تشتد ثم تخمد، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ [الإسراء: ٩٧].

كما قال ابن كثير: "أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ [النبا: ٣٠]^(٣).

(١) جامع البيان ٢١٢/١١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣٢٨٦/١٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ٩٠/٣

فالمراد أن النار لا تضعف لضعف مصدرها، ولكن قد تضعف من أجل أن يتمكن المفسدون من الكلام، لأنها إذا اشتدت؛ كثر صياحم وأصواتهم.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال "أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون".^(١)

قال أبو السعود: "لا يحكم عليهم بموت ثانٍ فيموتوا ويستريحوا، ونصبه بإضمار (إن)، وقرىء (فيموتون) عطفاً على (يُقضى)، كقوله تعالى ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]، ولا يخفف عنهم من عذابها بل كلما حبت زيد إسعارها، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي كل كفور مبالغ في الكفر أو الكفران، لا جزاء أخف وأدنى منه".^(٢)

وقال ابن عاشور: "ووقع الإخبار عن نار جهنم بأنها ﴿لَهُمْ﴾ بلام الاستحقاق، للدلالة على أنها أعدت لجزاء أعمالهم، كقوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وقوله ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، فنار عقاب عصاة المؤمنين نار مخالفة، أو أنها أعدت للكافرين، وإنما دخل فيها من أدخل من المؤمنين الذين ظلموا أنفسهم، لاقترافهم الأعمال السيئة، التي شأنها أن تكون للكافرين.

وقدم المحرور في ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ على المستند إليه؛ حتى إذا سمعه السامعون، تمكن من نفوسهم تمام التمكن".^(٣)

وجلودهم إذا بليت وأكلتها النار، ليس معنى هذا أنهم قد انتهى عذابهم، ولكن تخرج لهم جلوداً أخرى يعذبون بها أيضاً.

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قال الرازي في هذه الآية: وفيه سؤالان:

(١) أخرجه مسلم. كتاب الايمان. باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار. ح (١٨٥)

(٢) إرشاد العقل السليم ١٥٤/٧

(٣) التحرير والتنوير ٧٥٦/٢٢

السؤال الأول: لما كان تعالى قادراً على إبقائهم أحياء في النار أبد الآباد، فلم لم يبق أبدانهم في النار مصنونة عن النضج والاحتراق، مع أنه يوصل إليها الآلام الشديدة، حتى لا يحتاج إلى تبديل جلودهم بجلود أخرى؟

والجواب: أنه تعالى لا يسأل عما يفعل، بل نقول إنه تعالى قادر على أن يوصل إلى أبدانهم آلاماً عظيمة، من غير إدخال النار، مع أنه تعالى أدخلهم النار.

السؤال الثاني: الجلود العاصية إذا احترقت، فلو خلق الله مكانها جلوداً أخرى وعذبها؛ كان هذا تعذيباً لمن لم يعص، وهو غير جائز؟

والجواب عنه من وجوه:

الأول: أن يجعل النضج غير النضج، فالذات واحدة، والمتبدل هو الصفة، فإذا كانت الذات واحدة؛ كان العذاب لم يصل إلا إلى العاصي، وعلى هذا التقدير؛ المراد بالغيرية: التغاير في الصفة.

الثاني: المعذب هو الانسان، وذلك الجلد ما كان جزءاً من ماهية الانسان بل كان كالشيء الملتصق به، الزائد على ذاته، فاذا جدد الله الجلد، وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصل العذاب إليه؛ لم يكن ذلك تعذيباً الا للعاصي.

الثالث: أن المراد بالجلود، السراويل قال تعالى ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فتجديد الجلود؛ إنما هو تجديد السراويل وطعن في هذا القول؛ إنه ترك للظاهر، وأيضا السراويل من القطران، لا توصف بالنضج، وإنما توصف بالاحتراق.

الرابع: يمكن أن يقال؛ هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع، كما يقال لمن يراد وصفه بالدوام؛ كلما انتهى فقد ابتدأ، وكلما وصل الى آخره؛ فقد ابتدأ من أوله، فكذا قوله ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يعني كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك، أعطيناهم قوة جديدة من الحياة بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا ووجدوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب، وعدم انقطاعه".^(١)

وهذا العذب الذي نالهم في الآخرة؛ هو في انتظارهم منذ الحياة الدنيا، فما بنارٍ انتظرت أصحابها طوال هذه المدة، هذا يدل على شدتها وحدتها.

(١) التفسير الكبير ١٠/١٠٧

قال تعالى ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

قال ابن كثير: "وقوله ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال، عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر.

وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصفات: ٦٤-٦٨]، فأحبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عيادا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقال ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحِيمٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقال تعالى ﴿هَذَا وَاتِّ لِّلطَّغِينِ لَشَرِّ مَنَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ هَذَا قَلْبِدُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٥٥-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاء وفاقاً ﴿وَمَا رُبُّكَ يَظُنُّكَ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]^(١).

"وهذا وصف حاله وهو في الدنيا، لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه؛ وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة، حين يبعث ويوقف"^(٢).

فما أغلظ عذاب المفسدين، وإنه لحقيق. بمن تأمل صور هذا العذاب؛ أن يرتدع عن الفساد، ويبادر بالتوبة والإنابة، قبل الندامة.

(١) تفسير القرآن العظيم ٦٩٢/٢

(٢) الكشاف ٦٢٦/١

الْحَمْدُ
لِلَّهِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ونسأله تعالى التوفيق والسداد، فإنه لولا توفيقه لما تيسر للعبد أمر، ولا وصل إلى غاية، فهو نعم المولى ونعم النصير.

وبعد هذا الجهد المتواضع في هذا البحث، أدركت بلسان الحال والمقال؛ أنه مهما تأنق المرء في تحرير المقالات، وتجبير العبارات - وهو يوضح معاني كلام الله تعالى - فما هو؛ إلا كالشرح لشذرة من معانيه الظاهرة، وكالكشف للعبة يسيرة من أنواره الباهرة، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وما تضمنه من لبّ اللباب.

وبعد أن منّ الله عليّ بفضلته وتوفيقه؛ إتمام هذا البحث، أختمه بذكر النتائج التي توصلت إليها، فقد جرت عادة الباحثين؛ أن يسجلوا ما توصلوا إليه من نتائج، في خاتمة بحوثهم.

وإني أجد من الصعوبة بمكان؛ حصر كل النتائج التي توصلت إليها، وذلك لما حتمته طبيعة البحث من شمولية في العرض، وما دخل تحت ذلك من جزئيات. وقد اجتهدت في تحرير أبرز النتائج، وهي كما يأتي:

١/ شمولية القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف كل مفسدة بحسبها، وعلاجها بما يناسبها.

٢/ إعجاز القرآن الكريم، وعالمية رسالته للناس كافة، إذ إن منهجه في دفع الفساد؛ صالح لكل زمان ومكان.

٣/ أساليب النهي عن الفساد، في الكتاب العزيز؛ هي المنهج الأمثل في دفع الفساد، فقد بلغت الغاية، في البلاغة والبيان، والحجة والبرهان، ومن ذلك؛ عنايته بتنوع الأساليب في علاج الفساد؛ ولذلك أثره الإيجابي في منهج الإصلاح.

٣/ إن دفع الفساد في الكتاب العزيز؛ يركز على عنايته بحفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، فكل ما ألحق ضرراً بهذه الضروريات؛ فقد اعتبر مفسدة، ورُتب عليها الأحكام المناسبة لها.

٥/ إبراز الكتاب العزيز لمنهج الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - في دفع الفساد، فهم القدوة في ذلك، فينبغي للمصلحين أن يلزموا نهجهم، ويقفوا آثارهم؛ لإصلاح الناس.

٦/ غياب المنهج الشرعي في دفع الفساد؛ سبب عظيم لوقوع الفساد وانتشاره، فوجب العناية بطلب العلم الشرعي، من مصادره الأصلية الصحيحة.

٧/ إن أعظم الفساد؛ ما أحلّ بالمعتقد، ورأس ذلك الإشراف بالله، وتكذيب رسله.

٨/ اليهود أعظم الأمم فساداً، ولذا فصل القرآن في بيان فسادهم، تحذيراً لهذه الأمة

عن مشاهمتهم.

٩/ أهل النفاق؛ هم أخطر أصناف المفسدين، ولذا كشف القرآن فسادهم، للحذر منهم، وردّ كيدهم.

١٠/ إن الكفر بالله تعالى، سبب رئيس للفساد في الأرض.

١١/ الكبر والحسد والغلو؛ لها آثارها البالغة في وقوع المرء في الفساد، فيلزم الحذر منها، ومجاهدة النفس في دفعها.

١٢/ إن الفتن التي تعرض للناس؛ سبب عظيم للانحراف عن الدين، والتمادي في الفساد.

١٣/ إن الأزمات المالية والمشاكل الاقتصادية، نتيجة حتمية لإقصاء المنهج الإسلامي في المعاملات، وتغييبه عن الواقع.

١٤/ إن معظم العادات الفاسدة التي يتلقفها الناس، الباعث عليها؛ التقليد المذموم واتباع الهوى.

١٥/ من أخطر المفاسد العملية؛ إشاعة الفواحش، وتلك سنة للمفسدين عبر القرون.

١٦/ إن القرآن الكريم أبرز عاقبة الفساد ومآل المفسدين، مما يؤكد أهمية هذا السبيل في دفع الفساد.

١٧/ العناية بتحقيق الإخلاص لله تعالى، فإن لذلك أثره في صلاح العبد في الظاهر والباطن.

١٨/ كما أن المداومة على العبادات، ومن أجلها الصلاة والدعاء، من أعظم سبل الاستقامة ومجانبة الفساد.

١٩/ العناية بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، فإن ذلك من أبرز السبل لدفع الفساد وعلاجه.

٢٠/ إن الصراع بين الحق والباطل ماضٍ إلى قيام الساعة، وعليه؛ فإن مجاهدة الكافرين والمنافقين ومدافعتهم؛ أمرٌ لازم، لئلا يغشى الفساد الناس كافة.

٢١/ العناية بإصلاح المجتمع، ودرء الفساد عنه قبل وقوعه، منهج شرعي، عني القرآن الكريم بتحقيقه، والدعوة إليه.

٢٢/ أعظم آثار الفساد على صاحبه؛ الضلال، وحبوط العمل.

٢٣/ إن اختلال الأمن، من أبلغ آثار الفساد في الأرض.

٢٤/ من سنن الله في المفسدين استدراجهم ثم أخذهم على غرة وهم لا يشعرون، وفي هذا تسلية للمصلحين وتثبيت لقلوبهم.

٢٥ / العقوبة والهلاك، وتغليظ العذاب؛ مصير محتوم للمفسدين.

٢٦ / المفسدون ييوعون بالحسرة والخسار، ومضاعفة الأوزار، في دار القرار.

هذا ما تيسر إرادته، وتهيأ إعدادته، في هذا البحث، فما كان فيه من صواب فمن الله تعالى، وما كان فيه من خطأ، فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنه كان غفوراً رحيماً. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلوات الله وسلامه، على خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار

فهرس الأماكن والفرق

ثبت المصادر

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة	إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ	٥	٣٨٩
الفاتحة	أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ	٦	١٥١
البقرة	وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ	١٠	٤٨
البقرة	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا	٢١: ١١	٢١
البقرة	وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا	١٤	٢٣٢
البقرة	اللَّهُ يَسْتَهْرِيئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ	١٥	٤٧٠
البقرة	أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى	١٦	٤٥٩
البقرة	مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا	١٧	١٥٩
البقرة	صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ	١٨	٤٥٩
البقرة	أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ	١٩	١٥٩
البقرة	فَلَا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ	٢٢	٤٦
البقرة	فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ	٢٤	٥٢٣
البقرة	فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ	٢٦	١٤٣
البقرة	وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ	٢٧	٢٣
البقرة	كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ	٢٨	٣١٣
البقرة	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ	٣٤	٣٠٩
البقرة	وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ	٤٢	٢٢٧
البقرة	وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ	٤٣	٣٧٧
البقرة	وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ	٤٥	٣٧٧
البقرة	وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى	٥٥	٢٠٨
البقرة	أَفْئِظَمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ	٥٧	٢٣٣
البقرة	وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا	٥٩: ٥٨	٣٤٤
البقرة	وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ	٦٠	١٩
البقرة	فَادْعُ لِنَارِكَ يُخْرِجْ لَنَا	٦١	٤٥٥
البقرة	وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ	٦٧	٢٢٢
البقرة	أَفْئِظَمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ	٧٥	٢٢١
البقرة	أَفْكَلَمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ يَمَّا لَا تُهْوَى أَنْفُسُكُمْ	٨٧	٢١٤
البقرة	وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ	٨٩	٣٢٠
البقرة	وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ	٩٣	٤٠٥
البقرة	قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ	٩٨: ٧	٢١٣
البقرة	وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ	١٠١	٢٤٥
البقرة	وَمَا كَفَرُوا سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ	١٠٢	٢٤٢
البقرة	وَيَعْمَلُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ	١٠٢	٣٣
البقرة	وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ	١٠٣	٥٥
البقرة	أُمَّ رَبِّدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا	١٠٨	٢٢٣
البقرة	وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ	١٠٩	٣١٥

٦١	١١٧	بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ	البقرة
١٩٠	١١٨	وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ	البقرة
٣٥٤	١٢٠	وَلَنْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ	البقرة
٤٥٧	١٢٦	رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ	البقرة
٥٢٣	١٣١	وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ	البقرة
١٨٩	١٣٦	لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ	البقرة
٣٢٩	١٤٣	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا	البقرة
٣٥٤	١٤٥	وَلَيْنَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ	البقرة
٢١٩	١٤٦	الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا	البقرة
٣٨	١٦٥	وَمَرَكِ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا	البقرة
٢٨٦	١٦٨	يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا	البقرة
١٢٩	١٦٩	إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ	البقرة
١٩٥	١٧٠	وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ	البقرة
١٥٥	١٧١	وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَتَّبِعُ	البقرة
٤٠١	١٧٦	ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ	البقرة
١٢٦	١٧٧	لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ	البقرة
٧٥	١٧٩	وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ	البقرة
٣٨٤	١٨٦	وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ	البقرة
١٠٤	١٨٨	وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ وَتَدْلُوا	البقرة
٤٨٣	١٩٠	وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُوكُمْ	البقرة
٣٤٧	١٩٣	وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ	البقرة
٧٦	١٩٧	الْحَجِّ أَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ	البقرة
٢٧	٢٠٥	وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا	البقرة
٤٨٢	٢٠٥	وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ	البقرة
٣٣٥	٢١٢	زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا	البقرة
٤٠	٢١٣	كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ	البقرة
١٣٨	٢١٧	وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِينَكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٍ	البقرة
١١٦	٢١٩	فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ	البقرة
١٠٩	٢١٩	وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا	البقرة
١٣٩	٢٢٠	وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُنْفِسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ	البقرة
١٤١	٢٢٢	وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ	البقرة
٤٧٩	٢٢٦	أَبُودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ	البقرة
١٣١	٢٢٩	وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ	البقرة
٣٤٢	٢٣١	وَلَا تُنكِهوهنَّ ضَرَارًا لِنَعْتِدُوا	البقرة
١٤٢	٢٣٥	وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ	البقرة
٢٠٩	٢٤٥	مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ	البقرة
٣٨٦	٢٥٠	وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ	البقرة
٢٦١	٢٥١	وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ	البقرة
٢٤	٢٥١	وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ	البقرة
٤٠٣	٢٥٣	وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ	البقرة
١٦٠	٢٥٧	اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ	البقرة
٨١	٢٥٨	إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ	البقرة
١٧٩	٢٦٨	الشَّيْطَانَ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ	البقرة

١٢٧	٢٨٠ : ٢٧٥	الَّذِينَ بَاكُونَ الرَّبَّوَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا	البقرة
١٠١	٢٧٦	يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّوَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ	البقرة
٦٣	٧	هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ	آل عمران
٣٥١	١٤	زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ	آل عمران
٣٤٢	١٨	شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ	آل عمران
٤٥٧	٢١	إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ	آل عمران
٤٤٤	٣٩	وَحُصُورًا	آل عمران
١٣٤	٢٨	لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ	آل عمران
٣٩٢	٣٠	يَوْمٍ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا	آل عمران
٤٥	٣٢	قَلِ اطَّيَعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ	آل عمران
٤٩٣	٥٦	فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا	آل عمران
٤٨٣	٥٧	وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ	آل عمران
١٣٩	٦٣	فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ	آل عمران
٣٧٣	٦٤	قُلْ يَتَّهَلُّوا الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ	آل عمران
٢٢٩	٧٣	وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ	آل عمران
٢١٦	٧١	يَتَّهَلُّوا الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُتُمْ الْحَقَّ	آل عمران
٢١٧	٧٢	وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ	آل عمران
٢١٨	٧٣	وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ	آل عمران
١٩٣	٧٩	مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ	آل عمران
٢٢٨	٨٢	وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا	آل عمران
٤٩٩	٨٥	وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ	آل عمران
٤٨٦	٨٦	كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ	آل عمران
١٥٠	٩٠	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ	آل عمران
١٣٩	١٠٠	يَتَّهَلُّوا الْكِتَابَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا أَرْبَابًا	آل عمران
٤٠١	١٠٣	وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا	آل عمران
٤٢١	١٠٤	وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ	آل عمران
٦٣	١٠٦ : ١٠٥	وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ	آل عمران
١٥٤	١١٠	وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ	آل عمران
٢٠٨	١١٣	لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ	آل عمران
٢٤٠	١١٨	يَتَّهَلُّوا الْكِتَابَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً	آل عمران
٥٢	١٣٥	وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ	آل عمران
٣٦٥	١٣٧ : ١٣٨	قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ	آل عمران
٤٣٣	١٤٠ : ١٣٩	وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ	آل عمران
٤٣٣	١٤٢	أَمْرٍ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ	آل عمران
٣٨٦	١٤٦ : ١٤٨	وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ	آل عمران
٢٢٨	١٥٤	وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ	آل عمران
٤٣٥	١٦٥	أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِكَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا	آل عمران
١٧٤	١٧٥	إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ	آل عمران
٤٧١	١٧٨	وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ	آل عمران
٤٣٣	١٧٩	مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ	آل عمران
٢٠٩	١٨١	لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ	آل عمران
٢١٧	١٨٧	وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ	آل عمران
٣٨٨	١٩٥	فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ	آل عمران

١١٥	٥	وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي	النساء
١١٦	١١	يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ	النساء
١٥١	١٨	وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ	النساء
٧٨	١٩	يَتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ	النساء
٩١	٢٢	وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ	النساء
١٠٩	٢٩	لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ	النساء
٧٦	٢٩	وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ	النساء
١٣٣	٣١	إِنْ مَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهِونَ عَنْهُ	النساء
١١٨	٤٣	يَتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ	النساء
٢٢٠	٤٦	مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن	النساء
٤٢	٤٨	إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ	النساء
٥٩	٥١	الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ	النساء
٣١٦	٥٤	الْمَالِ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ	النساء
٥١٩	٥٦	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعْتَنَا سَوْفَ نُصَلِّبُكُمْ نَارًا	النساء
٣٤٢	٥٨	إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ	النساء
٤٠٣	٥٩	يَتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ	النساء
٢٢٧	٦٠	الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَرْعَمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا	النساء
٢٢٧	٦١	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ	النساء
٢٢٨	٦٢	فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ	النساء
٢٢٨	٦٣	أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ	النساء
٤٦٦	٦٦ : ٦٨	وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ	النساء
٤٠٥	٦٩	وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ	النساء
١٧٤	٧٦	فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ	النساء
٢٣٩	٨٣	وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ	النساء
٧٨	٩٢	وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا	النساء
٨٠	٩٤	يَتَابُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ	النساء
٧٣	٩٣	وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا	النساء
٣٤٧	١٠١	فَلَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ أَنْ يَقْتُلُوهُ مِنَ الصَّلَاةِ	النساء
٤٣٢	١٠٤	وَلَا تَهِنُوا فِي اتِّغَاءِ الْقَوْمِ	النساء
٦٤	١١٥	وَمَنْ يُسَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ	النساء
٤١	١١٦	إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ	النساء
٣٢٤	١١٧	يَتَاهِلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ	النساء
١٧٢	١١٨ : ١١٩	وَقَالَ لَا تَخْذِنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا	النساء
١٧٨	١٢٠	يَعِدُّهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ	النساء
١٤٠	١٢٣	مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ	النساء
٤٨	١٣٦	وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ	النساء
٢٣١	١٣٩	الَّذِينَ يَخْذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن	النساء
٤٨	١٤٠	إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ	النساء
٢٢٣	١٤١	الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ	النساء
٢٣٨	١٤٢	إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ	النساء
٢٣٢	١٤٣	مَذْبُوبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ	النساء
٤٧	١٤٥	إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ	النساء
٢٢٧	١٥٦	وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيضٍ مِّمَّنَّا	النساء

١٨٩	١٥٠	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ	النساء
٣٤١	١٦٠	﴿ فِظَلِمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمُ	النساء
١١٣	١٦١	﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ	النساء
١٨٨	١٦٥	﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ	النساء
١٥٠	١٦٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ	النساء
١١٠	١٦٠	﴿ فِظَلِمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا	النساء
١١٨	١٦١	﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ	النساء
١٩٧	١٦٥	﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا	النساء
٤٦٥	١٦٧	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا	النساء
٣١٠	١٧٢	﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ	النساء
٣١٠	١٧٣	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا	النساء
٤٨	٥	﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ	المائدة
٤٠٠	١٤	﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا	المائدة
٢٨٠	١٣	﴿ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ	المائدة
٢٠٨	٢٠	﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ	المائدة
٢٢٢	٢٠	﴿ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ	المائدة
٢٢٣	٢١	﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ	المائدة
٢٢٣	٢٢	﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا	المائدة
٢٢٣	٢٣	﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ	المائدة
٢٢٣	٢٤	﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْجِلُهَا أَبَدًا	المائدة
٢٢٣	٢٦	﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً	المائدة
٨٠	٣٠ : ٢٧	﴿ وَآتَى عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ	المائدة
٨٠	٣٢	﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ	المائدة
١٥٣	٣٢	﴿ وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ	المائدة
٢٥٧	٣٣	﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ الزُّوْءَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ	المائدة
٢٦٠	٣٤	﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا	المائدة
٨٢	٣٨	﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوهُمَا	المائدة
٢١٩	٤١	﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ	المائدة
٢٢٤	٤٤	﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ	المائدة
٧٥	٤٥	﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ	المائدة
١٦٨	٤٩	﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ	المائدة
٤٨٥	٥١	﴿ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرِيَّةَ أَوْلِيَاءَ	المائدة
٢٢٨	٥٢	﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ	المائدة
١٣٤	٥٥	﴿ إِنَّهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا	المائدة
١٥٧	٥٨	﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا	المائدة
١٥٤	٥٩	﴿ قُلْ يَا هَلْ أَكْتَبَ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا	المائدة
٢١٠	٦٤	﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ	المائدة
٤٨٣	٦٤	﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا	المائدة
٢١٥	٦٧	﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ	المائدة
٢١٢	٧١	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ	المائدة
٤٣	٧٢	﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ	المائدة
٢١٢	٧٣	﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ	المائدة
١٥١	٧٧	﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا	المائدة

٢٨١	٧٩ : ٧٨
٤٢٢	٨١ : ٧٨
٣١١	٨٢
١٤٢	٨٧
١٠٨	٩٠
١٠٨	٩١
١٣٦	١٠٠
٤٣	١٠٤
٣١٢	١٤٦
٢١٦	٨
٢٤٦	١٧
٥٦	٢١
٥٠٤	٢٤٠، ٣٢
٥٠٤	٢٨ : ٢٧
٤٩٩	٣١
١٩٤	٣٣
١٥٧	٣٧
٢٨٥	٤٣ : ٤٢
٣٩٠	٤٤
٤٦٩	٤٥
١٥٣	٤٩
٣٩٣	٥١
٢٦٥	٥٢
٢٦٤	٥٣
٤٠	٥٥
٣٩	٥٥ : ٥٦
٢٤٦	٥٩
١٨٣	٦٨
٣٧١	٧١
٤٦٥	٧٤
٤٥١	٨١
٣٤٠	٨٢
٤٣	٨٨
١٣٣	٩٠، ٨٩
٤٦٦	١١٠
١٨٨	١١٥
١٧٣	١٢١
٤٦١	١٢٢
٢٦٢	١٢٣
٢٦٣	١٢٤
١٦٥	١٣٥
٢٨٥	١٣٧
٧٩	١٤٠

المائدة	لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
المائدة	لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
المائدة	لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً
المائدة	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ
المائدة	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَرَمُ وَالْمَيْسِرُ
المائدة	إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
المائدة	قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
المائدة	وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
المائدة	سَاءَ صَرَفُ عَنْ ءَايَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ
الأنعام	وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ
الأنعام	وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
الأنعام	وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
الأنعام	ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا
الأنعام	وَلَوْ تَرَى إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا
الأنعام	قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
الأنعام	قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ
الأنعام	وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ
الأنعام	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ
الأنعام	فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ
الأنعام	فَقَطَّ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
الأنعام	وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ
الأنعام	وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
الأنعام	وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاوَةِ
الأنعام	وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
الأنعام	وَكَذَلِكَ نَفْضِلُ الْأَيْتِ وَلِتَسْتَبِينَ
الأنعام	وَكَذَلِكَ نَفْضِلُ الْأَيْتِ وَلِتَسْتَبِينَ
الأنعام	وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ
الأنعام	وَإِنَّمَا يُنْسِئُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
الأنعام	قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا
الأنعام	وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَا زَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا
الأنعام	وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ
الأنعام	الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
الأنعام	وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
الأنعام	أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
الأنعام	وَنَقَلْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَيْدَانَ وَأَبْصَرَهُمْ
الأنعام	وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا
الأنعام	وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِىٰنَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ
الأنعام	أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَجْبَيْنَهُ
الأنعام	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا
الأنعام	اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ
الأنعام	قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
الأنعام	وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُثْرٍ مِّنَ
الأنعام	قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا

٤٨٣	١٤١
٣٣	١٤٥
١٩٧	١٤٨
٢٧	١٥١
١٤٤	١٥١
١٤٤	١٥٢
٦٢	١٥٣
٤٠٣	١٥٩
٥١٠	١٦٠
٣٧٧	١٦٣: ١٦٢
٥١٤	١٦٤
١٦١	١٦٥
٤٩٩	٩
٣١٧	١٢
١٧٢	١٧، ١٦
٢٨٣	٢١، ٢٠
١٧٧	٢٧
٢٩٠	٢٨
٣٦٧	٢٩
١٥١	٣٠
١٢٦	٣٢
٨٧	٣٣
٥١٢	٣٨
٣٨٤	٥٥
١٢٦	٥٦
٤١	٥٩
١٩٤	٦٠
١٩٤	٦٦
٤٦٢	٧٣
٣٠٩	٧٥: ٧٦
٤٨٩	٧٧: ٧٩
٩٣	٨١، ٨٠
٢١١	٨٢
١٤٩	٨٤
٣٦١	٨٥: ٨٦
٢٠١	٨٨
٣٦١	٩١: ٩٢
٤٦٣	١٠٠
١٥٥	١٠٢، ١٠١
٣٤٤	١٠٣
٢٤٨	١١٥
٢٤٨	١١٦
٢٧٠	١٢٧

ولا تشرفوا إنك لا يحب المسرفين	الأنعام
قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً على طاعمي	الأنعام
سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا	الأنعام
قل نكالوا أتلم ما حرم ربكم عليكم	الأنعام
ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها	الأنعام
ولا تقربوا ما آلت به إلا بالتي هي أحسن	الأنعام
وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه	الأنعام
إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً	الأنعام
من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها	الأنعام
قل إن صلاتي ونسكي	الأنعام
ولا تكسب كل نفس إلا علياً	الأنعام
وهو الذي جعلكم خلتف الأرض	الأنعام
ومن خفت موزينه فأولئك الذين خسروا	الأعراف
قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك	الأعراف
قال فيما أعويتني لأفعدن لهم صراطك	الأعراف
فوسوس لهما الشيطان لبدي لهما ما ووري	الأعراف
يبنين آدم لا يفندنكم الشيطان كما أخرج	الأعراف
وإذا فعلوا فحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا	الأعراف
قل أمر ربي بالقسط	الأعراف
فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة	الأعراف
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده	الأعراف
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها	الأعراف
قال أدخلوا في أمر قد خلت من قبلكم	الأعراف
ادعوا ربكم تضرعاً وخفية	الأعراف
ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها	الأعراف
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره	الأعراف
إننا لنريك في ضلال مبين	الأعراف
وإننا لنظنك من الكاذبين	الأعراف
وإلى تمود آخاهم صلحاً	الأعراف
قال ألملا الذين استكبروا من قومه	الأعراف
ففقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم	الأعراف
ولو طأ إذ قال لقومه أتأتون الفحشة	الأعراف
أخرجوهم من قريبتكم	الأعراف
وأمطرنا عليهم مطراً	الأعراف
وإلى مدائن آخاهم شعيباً	الأعراف
قال ألملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك	الأعراف
فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جثمين	الأعراف
أولم يهد للذين يربون الأرض من بعد أهلها	الأعراف
تلك القرى نقص عليك من أنبيائها	الأعراف
ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا	الأعراف
قالوا يموسى إنما أن تلقى وإما أن	الأعراف
القوم فلما القوا سحروا أعين الناس	الأعراف
وقال ألملا من قوم فرعون أنذر موسى	الأعراف

٤٩٢	١٣٠	وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ	الأعراف
٣٨٦	١٣٢	وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا	الأعراف
٤٢٥	١٥٧	الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ	الأعراف
٢٩١	١٣٨	أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ	الأعراف
٢٩٨	١٢٤	وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي	الأعراف
١٣٠	١٥٧	الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي	الأعراف
١٢٩	١٥٧	وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ	الأعراف
١١١	١٦٦: ١٦٣	وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ	الأعراف
٤٩٤	١٦٧	وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعِنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ	الأعراف
٣٨٢	١٧٠	وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ	الأعراف
٣٥٤	١٧٥	وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ	الأعراف
١٦١	١٧٦	فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ	الأعراف
١٥٦	١٧٩	وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ	الأعراف
١٥٢	١٨١	إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ	الأعراف
٤٦٨	١٨٢	سَسْتَدْرِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ	الأعراف
٤٨٥	٢٠٢	وَإِخْوَانَهُمْ بِمُدُونِهِمْ فِي النَّبِيِّ	الأعراف
٣٨٧	٩	إِذْ تَسْتَفْشِقُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ	الأنفال
٢٥٨	١٣	ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ	الأنفال
٤٦٢	٢٣	وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ	الأنفال
٤٢٣	٢٥	وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا نُضَيِّبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً	الأنفال
٣٤٩	٢٨	وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فِتْنَةٌ	الأنفال
٢٠٣	٣٠	وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ	الأنفال
١١٩	٣٥	وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ	الأنفال
٤٣٢	٣٩	وَقَلْبُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ	الأنفال
٢٨٤	٤٨	وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ	الأنفال
٤٩٥	٥٣	ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَهُ	الأنفال
٣٤٤	٥٤	كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ	الأنفال
٤٣	٥٥	إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا	الأنفال
٧٩	٦	وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ	التوبة
٤٣٦	١٥: ١٤	قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ	التوبة
٤٣٣	١٦	أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ	التوبة
١٢٦	١٩	أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ	التوبة
٣٤٥	٢٣	بِنَائِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ	التوبة
٣٤٩	٢٤	قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ	التوبة
٢١١	٣٠	وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ	التوبة
٢١٢	٣١	اتَّخِذُوا أَحْكَارَهُمْ وَرُهَيْبِنَهُمْ أَرْبَابًا	التوبة
١٣٢	٣١	وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا	التوبة
٢٣٦	٣٥	وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا	التوبة
٢٧٨	٣٧	إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ	التوبة
٢٣٥	٤٢	لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ	التوبة
٢٣٢	٤٥	وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ	التوبة
٢٣٩	٤٦	وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً	التوبة
٢٣٩	٤٧	لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا	التوبة

٢٠٠	٧	وَلَيْتَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ	هود
٤٧٩	١٥ : ١٦	مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا	هود
٣٤١	١٨	أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ	هود
٥١١	٢٠	أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ	هود
١٦١	٢٤	مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى	هود
٢٦٤	٢٧	مَا نُرِيدُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نُرِيدُكَ	هود
٣٣٣	٣١	وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ	هود
٣٨٦	٣٦	وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ	هود
٣٤٣	٣٧	وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا	هود
٢٩٨	٤٢	وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَاهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ	هود
٣٤٣	٤٤	وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ	هود
١٤٩	٥٢	وَلَا تُنْزِلُوا جُرْمِي	هود
١٩٦	٥٣	قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ	هود
٣٤٤	٦٧	وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ	هود
٩٤	٦٨	إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ	هود
٩٤	٧٢	لَعَمْرِكُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ	هود
٩٤	٧٣	فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ	هود
٩٤	٧٨	وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ	هود
٩٣	٧٩	قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ	هود
١٠٧	٨٦ : ٨٤	اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ	هود
٤٩٠	٨٩	وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي	هود
٢٠٣	٩١	وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ	هود
٣٤٤	٩٤	وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا	هود
٣٢٥	١١٢	فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ	هود
١٤٥	١١٣	وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ	هود
٣٧٩	١١٤	وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ طَرْفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ	هود
٣٣٣	١١٦	فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ	هود
٤٠٠	١١٨ : ١١٧	وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً	هود
٣١٩	٤	إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ابْنِي رَأَيْتُ	يوسف
١٨١	٥	بِنْتِي لَا تَقْضُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ	يوسف
٣٢٠	٩ : ١٠	أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا	يوسف
٣٦٩	٢٤	وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ	يوسف
٣٨٨	٣٣ : ٣٤	رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ	يوسف
١٢٧	٣٧	إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ	يوسف
٨٣	٧٣	قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا	يوسف
١٨١	١٠٠	وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ	يوسف
٢٦١	١٠١	رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي	يوسف
١٧٨	١٠٣	وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ	يوسف
٣٩٣	١٠٧	أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ	يوسف
٤٢٦	١٠٨	قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ	يوسف
١٦٤	١٠٩ : ١١٠	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ	يوسف
٣٩٧	١٩ : ٢١	أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ	الرعد
٤٩٤	٣١	وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ	الرعد

٢٠٥	٧	لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ	الحجر
٢٢١	٩	إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ	الحجر
١٩٩	٣٣	لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ	الحجر
٢٨٣	٣٩ : ٤٠	قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ	الحجر
١٤٨	٥٨، ٥٧	قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ	الحجر
٩٣	٦٧	وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ	الحجر
٩٣	٦٨	إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ	الحجر
٩٣	٧٢	لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ	الحجر
٩٣	٧٣	فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُسْرِقِينَ	الحجر
٤٩٠	٧٤	فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا	الحجر
٣٥٦	٨٨	لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ	الحجر
١٨٨	١	الرَّكِتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ	إبراهيم
١٩٧	٤	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ	إبراهيم
٢٠٦	٩	جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا	إبراهيم
٢٠٢	١٣	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُهُمْ	إبراهيم
٢١٢	١٣	فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ	إبراهيم
٥٢٥	١٧ : ١٥	وَأَسْتَفْتِحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ	إبراهيم
١٧٩	٢٢	وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ	إبراهيم
١٤٣	١٨	مِثْلُ الذُّبَابِ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ	إبراهيم
١٤٢	٢٥	وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ	إبراهيم
٤١٣	٣٤	يَتَّقُونَ الْإِنْسَانَ لظُلُومِ كَفَّارٍ	إبراهيم
٣٨٧	٣٥	رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا	إبراهيم
٥٢٤	٥٠	سِيرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانِ	إبراهيم
٥٩	١٥	وَأَلْفَىٰ فِي الْأَرْضِ رُوسًا أَنْ يَمَيِّدَ	النحل
٥٩	١٦	وَعَلِمَتْ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ	النحل
٥١٣	٢٥	لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ	النحل
١٩٧	٣٥	وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ	النحل
٤٠	٣٦	وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا	النحل
٢٠٠	٣٨	وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ	النحل
٤٢٩	٤٠	إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ	النحل
٦٥	٤٤	وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ	النحل
٣٩٢	٤٧	أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ	النحل
٣٩٤	٥٤ : ٤٧	أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ	النحل
١٩٠	٥٧	وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ	النحل
١١٥	٥٩، ٥٨	وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ	النحل
٢٨٤	٦٣	تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ	النحل
١١٧	٦٧	وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ	النحل
٩٧	٧١	وَاللَّهُ فَضْلٌ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ	النحل
٥١٨	٨٨	الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ	النحل
٣٥٩	٨٩	وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا	النحل
١٢٩	٩٠	إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ	النحل
٣٦٩	٩٨ : ١٠٠	فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ	النحل
٤٨٥	١٠٤	إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ	النحل

٢٦٨	١٠٦	مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ	النحل
٤٥٦	١١٢	وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً	النحل
١٣١	١١٥	إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ	النحل
١٣٠	١١٦	وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ	النحل
٤٢٦	١٢٥	ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ	النحل
٢٥	٤	وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ	الإسراء
٢٥	٨ : ٥	فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ	الإسراء
٥٠١	١٥	وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا	الإسراء
٣٣٢	١٦	وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً	الإسراء
٣٣٢	١٧	وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ	الإسراء
١٤٤	٢٣	وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ	الإسراء
١٧٩	٢٧، ٢٦	وَلَا يُبْدِرُ بُدِيرًا	الإسراء
٧٨	٣١	وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ	الإسراء
٩٠	٣٢	وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً	الإسراء
٩٠	٣٣	وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ	الإسراء
١٠٦	٣٥	وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ	الإسراء
٤٤٣	٣٦	إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ	الإسراء
٢٠٠	٤٩	وَقَالُوا آءَ ذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنًا	الإسراء
١٨٢	٥٣	وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ	الإسراء
٣٧٤	٥٧	أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ	الإسراء
٣٤٤	٥٩	وَأَنبَأْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا	الإسراء
٣١٧	٦٢	أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ	الإسراء
١٧٨	٦٤	وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا	الإسراء
٣٧٢	٦٧	وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ	الإسراء
٤٩٠	٦٨	أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ	الإسراء
٢٠١	٧٦	وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ	الإسراء
٢٠٤	٨٩، ٨٨	قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ	الإسراء
٢٠٤	٩٣، ٩٠	وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا	الإسراء
١٩٩	٩٤	وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى	الإسراء
١٥١	٩٣	وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ	الإسراء
٢٠٥	٩٥	قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا	الإسراء
٥٢٢	٩٧	وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ	الإسراء
٥٠٥	١٠٢	قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ	الإسراء
٣٥٦	١	الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا	الكهف
٣٥٧	٨	إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا	الكهف
٢٦٥	٢٨	وَلَا نَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا	الكهف
٣٩٥	٢٩	وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ	الكهف
٣١٣	٣٦ : ٣٤	وَكَانَ لَهُ نَمْرُوقًا لَصْنِجِيهِ	الكهف
٣١٣	٣٧	قَالَ لَهُ، صَاحِبِيهِ، وَهُوَ بِمَجَاوِرَةٍ	الكهف
٣٤٨	٤٦	الْمَالِ وَالنَّوْنِ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا	الكهف
٥١٥	٤٩	وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا	الكهف
١٥٣	٥٠	إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ	الكهف
٤٧٢	٥٩	وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا	الكهف

١٨٢	٦٣	﴿ أَرَبَّتْ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ﴾	الكهف
٣١	٩٤	﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾	الكهف
٤٦	١١٠	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾	الكهف
٤١	١١٠	﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا ﴾	الكهف
٢١١	٢٠	﴿ أَنِّي يَكُونُ لِي غَلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾	مريم
٢١١	٢١	﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾	مريم
٢١٢	٣٠	﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ ﴾	مريم
٢١٢	٣٥، ٣٤	﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾	مريم
٣٩٤	٤٠ : ٣٩	﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾	مريم
٣٦٨	٥١	﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾	مريم
٢٦٤	٧٣	﴿ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	مريم
٢٦٤	٧٤	﴿ وَرَأَاهُمْ كَمَا قَبَلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ ﴾	مريم
٥٠٦	٨٢	﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾	مريم
١٧٦	٨٣	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾	مريم
٤٧٣	٨٤	﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾	مريم
٥٢١	٨٧	﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ ﴾	مريم
١٦٣	١٢	﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنفَادُمْ ﴾	طه
٣٧٩	١٤	﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾	طه
٣٠٢	١٦: ١٥	﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾	طه
٢٤٨	٦٥	﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ ﴾	طه
٣٤	٦٩	﴿ إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ ﴾	طه
٢٤٧	٥٨، ٥٧	﴿ قَالَ أَجئْنَا لِنَخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكِ ﴾	طه
٢٦٦	٧٣	﴿ إِنَاءً ءَامِنًا رَبَّنَا لِغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا ﴾	طه
٥١٥	١٠١، ١٠٠	﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾	طه
١٨٣	١٢٠	﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾	طه
٢٨٤	١٢١	﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا ﴾	طه
١٤٨	١٢٧، ١٢٦	﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ ءَايَاتِنَا فَنَسِينَهَا ﴾	طه
٣٣	٦٩	﴿ إِنَّمَا صَعَوْا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ ﴾	طه
٢٠٨	٣	﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا ﴾	الأنبياء
٣٣٦	١٣: ١١	﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾	الأنبياء
٢٠١	١٨	﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾	الأنبياء
٢٤	٢٢	﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾	الأنبياء
١٣٢	٢٥	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي ﴾	الأنبياء
٥٢١	٢٨	﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى ﴾	الأنبياء
٣٤٧	٣٥	﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾	الأنبياء
٢٦٣	٣٦	﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ﴾	الأنبياء
٣٩٦	٣٩	﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ ﴾	الأنبياء
٤٦٥	٥٤	﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾	الأنبياء
١٥٤	٧٤	﴿ وَلَوْ طَءَ ءَايَاتِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجِّنِيهِ ﴾	الأنبياء
٩٤	٧٤	﴿ وَنَجِّنِيهِ مِنَ الْقُرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ ﴾	الأنبياء
٣٨٥	٩٠	﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾	الأنبياء
٤٤٤	٩١	﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا ﴾	الأنبياء
٤٩٩	١١	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾	الحج

٥٢١	٢٠٠، ١٩	نُصِبَ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ	الحج
٥١٩	٢٢٠، ٢١	وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حَدِيدٍ	الحج
١٤٣	٣١	وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ	الحج
٤٣١	٣٩	أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ	الحج
٢٤	٤٠	وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ	الحج
٤٢٣	٤١	الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ	الحج
١٨٩	٤٤: ٤٢	وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ	الحج
١٥٧	٤٦	أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ	الحج
٣٤٢	٤٨	وَكَأَنَّهُمْ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَتْ لَهُمْ ظَالِمَةٌ	الحج
٣٥٣	٥٤: ٥٢	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ	الحج
٢٠٦	٧٢	وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ	الحج
٤٢٩	٧٨	وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ	الحج
٣٧٧	١	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ	المؤمنون
١٩٩	٣٣	مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ	المؤمنون
١٩٩	٣٤	وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْ أَخْسِرُونَ	المؤمنون
١٨٨	٤٤	ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا	المؤمنون
٣١٠	٤٧: ٤٥	ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا	المؤمنون
٢٨٠	٥١	بِتَابِهَا الرُّسُلَ كُلَّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا	المؤمنون
٣٩٦	٦٠	وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ	المؤمنون
٣٣٦	٦٤	حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ	المؤمنون
٢٥	٧١	وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ	المؤمنون
٤٨٨	٩٥	وَأِنَّا عَلِيمٌ أَنْ تَرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ	المؤمنون
١٨٥	٩٨، ٩٧	وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ	المؤمنون
٥٠١	١٠٣	وَمَنْ خَفَّتْ موزِنُهُ	المؤمنون
٤١٣	٢	الزَّانِيَةِ وَالزَّانِيَ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ	النور
٨٣	٤	وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا	النور
٨٤	٤	وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ	النور
٨٤	٥	إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا	النور
٨٤	٩: ٦	وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ	النور
٨٥	١٠	وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ	النور
٨٦	١١	إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ	النور
٨٧	١١	لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ	النور
٢٤٠	١٥	إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنَّتِمْ وَقُولُونَ يَا فَوَاحِشُ	النور
٩٥	١٩	إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ	النور
١٢٩	٢١	وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ	النور
٨٣	٢٥: ٢٣	إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ	النور
١٤٠	٢٤	يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ	النور
٤٣٩	٣٠	قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ	النور
٤٤٠	٣١	وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ	النور
٤٤٥	٣٢	وَأَنْكَحُوا الْأَيْمَنَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ	النور
١٠٣	٣٣	وَمَا آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ	النور
٩٠	٣٣	وَلَا تُكْرَهُوا فَنَبِّئْتُمْ عَلَى الْبَغَاءِ	النور
٤٤٧	٣٤	وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مَّبِينَاتٍ	النور

٣٩٧	٣٧	رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا مَالٌ وَلَا نَبَأٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ	النور
٤٠٥	٤٧ : ٥٠	وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا	النور
٤٠٤	٥١ : ٥٢	إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى	النور
٤٣٥	٥٥	وَلْيَنْصُرُوا اللَّهَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ	النور
٦٢	٦٣	فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ	النور
٦٦	٥	وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ	الشعراء
٢٠٢	٢٩	قَالَ لَنْ نَأْخُذَ بِهَا غَيْرَ لَأَجْعَلَنَّكَ	الشعراء
٢٩٠	٧١ : ٧٤	قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْهَا عَلَيْكُمُ	الشعراء
٤٢	٩٦ : ٩٨	قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ	الشعراء
١٨٩	١٠٥	كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ	الشعراء
١٨٩	١٠٦	إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ	الشعراء
٢٦٤	١١١	أَنْتُمْ مِنْ لَدُنِّي وَأَتَّبِعْكَ الْأَرْضُ	الشعراء
٢٠٣	١١٦	قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ نَبِيًّا وَتَكُونُ مِنَ	الشعراء
٥١١	١٢٣	كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ	الشعراء
١٤٨	١٥٠	كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ	الشعراء
١٥٣	١٥١، ١٥٢	وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ	الشعراء
١٤٧	١٦٦	وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ	الشعراء
١٩٤	١٨٦	وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ	الشعراء
٤٩٠	١٨٩	فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ	الشعراء
٣٠٨	٢١٥	وَأَخْفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ	الشعراء
٢٤٤	٢٢١، ٢٢٢	هَلْ أَتَيْتُمْ عَلَىٰ مِنْ تَنْزَلِ الشَّيْطَانِ	الشعراء
٢٤٤	٢٢٣	يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ	الشعراء
٢٠٥	٢١	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ	الفرقان
٤٧٥	٢٣	وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا	الفرقان
٥٠٧	٢٧ : ٢٩	وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ بَدَنِهِ	الفرقان
٢٦٢	٣١	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ	الفرقان
٣٠٤	٤٣	أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ	الفرقان
٤٣٠	٥١	وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا	الفرقان
١٢٤	٥٢	فَلَا تَطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ	الفرقان
٧٥	٦٨ : ٧٠	وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ	الفرقان
٢٧٧	١٤	وَجَاهِدُوا بِهَا وَأَسْتَبَقْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا	النمل
٢٨٤	٢٤	وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ	النمل
٢٨	٣٤	إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا	النمل
٢٧٧	٤٨	وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعْرَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ	النمل
١٧٤	٥١ : ٥٣	فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ	النمل
١٣٧	٦٠	مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُتَبِعُوا شَجَرَهَا	النمل
٣٨٧	٦٢	أَمِنْ حَيْبِ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ	النمل
٢٤٦	٦٥	قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ	النمل
٢٦٥	٤	إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا	القصص
١٥٤	٣٢	أَسْأَلُكَ بِدَعْوَىٰ جِبِّكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ	القصص
٢٩٠	٣٦	وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ	القصص
٣١٠	٣٩	وَأَسْتَكَرُّهُ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ	القصص
٣٠٣	٥٠	فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ	القصص

٢٧١	٧٦	﴿ إِنَّ قُرُونَكَ مِنَ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبِغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾	القصص
٢٢	٧٧	﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾	القصص
٢٧٢	٧٨	﴿ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ ﴾	القصص
٢٧٢	٧٩	﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾	القصص
٣٥٤	٨٠	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾	القصص
٣٦٣	٨١	﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾	القصص
٢٢	٨٣	﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ ﴾	القصص
٣٤٧	٢: ٣	﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾	العنكبوت
٥٠٥	١١	﴿ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾	العنكبوت
٢٧٨	١٢	﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا ﴾	العنكبوت
٥١٤	١٣	﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾	العنكبوت
٩٤	٣٠	﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾	العنكبوت
٩٤	٣١	﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾	العنكبوت
١٥٤	٣٤	﴿ إِنَّا مُزَلُّونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزًا ﴾	العنكبوت
٣٦٣	٤٠: ٣٨	﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾	العنكبوت
٣١٠	٣٩	﴿ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمَلٌ ﴾	العنكبوت
١٤٣	٤٣	﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾	العنكبوت
٣٧٧	٤٥	﴿ إِنَّكَ الصَّكُورَةُ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾	العنكبوت
١٩٧	٥١، ٥٠	﴿ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ ءَايَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾	العنكبوت
٢٨٤	٣٨	﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾	العنكبوت
٤٦٣	٤٠: ٣٩	﴿ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمَلٌ ﴾	العنكبوت
٤٣٤	٦٩	﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾	العنكبوت
١٥٧	٦	﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ ﴾	الروم
١٥٨	٧	﴿ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	الروم
١٧٤	٩	﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ ﴾	الروم
٣٦١	١٠	﴿ تَعْرُكَانَ عَنِيبَةَ الَّذِينَ سَوَّأْنَا السَّوَاءَ ﴾	الروم
٢٠٠	٢٧	﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾	الروم
٤٣	٣٠	﴿ فَأَقْرُبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾	الروم
٤٠١	٣٢: ٣١	﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾	الروم
١٠١	٣٩	﴿ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لَئِبُونًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾	الروم
٢٧٩	٤١	﴿ ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ ﴾	الروم
٥١٠	٤٤	﴿ مِنْ كَفَرٍ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾	الروم
١٤٩	٤٧	﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾	الروم
١٨٣	٦	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾	لقمان
١٢٨	١٢	﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾	لقمان
٤٢	١٣	﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِي ﴾	لقمان
٤٣٩	١٦	﴿ وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾	لقمان
٤٢٢	١٧	﴿ يَبْنِي أَقْبِرِ الصَّكُورَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾	لقمان
٢٩٣	٢١: ٢٠	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾	لقمان
٥١٩	٢٤، ٢٣	﴿ تَعَالَىٰ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾	لقمان
٤٧٣	٢٤	﴿ نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾	لقمان
٣٧٢	٣٢	﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ ﴾	لقمان
٥٠٧	١٢	﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُومُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾	السجدة

٣٩٦	١٦	يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا	الأحزاب
٢٢٩	١٢	وَأَذِيقُوا الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ	الأحزاب
٢٣٨	١٨	قَدِيعًا وَاللَّهُ الْمَعْلُومِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ	الأحزاب
٤٥٢	١٩	أَشْحَاءَ عَلَيْكُمْ	الأحزاب
٢٨٨	٢١	لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ	الأحزاب
١٤٥	٣٢	يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ	الأحزاب
٤٤	٣٥	إِنَّ الْمُسْلِمِينَ	الأحزاب
٤٢٩	٣٨	وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا	الأحزاب
١٣٦	٥٣	وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ	الأحزاب
٢٥٨	٥٧	إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ	الأحزاب
٤٩٤	٦٠ : ٦١	لَنْ لَمْ يَنْدِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ	الأحزاب
٥٠٧	٦٦	يَوْمَ نَقَلْبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ	الأحزاب
٢٦٢	٦٧	وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا	الأحزاب
٢٦٢	٦٨	رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفٌ مِنَ الْعَذَابِ	الأحزاب
٢١٥	٦٩	يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ	الأحزاب
٢٢٦	٦٩	وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا	الأحزاب
١١١	٧٢	وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا	الأحزاب
٢٦١	١٣	أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي	سبأ
٣٤٥	١٥	كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ	سبأ
٤٥٤	١٦ : ١٩	فَاعْرَضُوا فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ	سبأ
٢٦٢	٣٣	وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا	سبأ
٣٣٣	٣٤ : ٣٥	وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ	سبأ
١٥٠	٥٠	قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي	سبأ
٣٨	٣	هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ	فاطر
١٣٦	٦	إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا	فاطر
٣٠٤	٨	أَفَمِنْ زَيْنِ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا	فاطر
٣٨٢	١٨	إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَحْشُرُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ	فاطر
٥٠٣	٢٧	وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ	فاطر
٣٥٤	٢٨	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	فاطر
٣٤١	٣٢	فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ	فاطر
٤٣	٣٦	وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى	فاطر
٥٠٣	٣٧	أُولَئِكَ نَعْمَ لَكُمْ مِمَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ	فاطر
٢٠٣	٤٠	لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلِنَمَسِّنَنَّكُمْ	يس
١٩٤	٤٧	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ	يس
٥٠٢	٥٩	وَأَمْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّهَا الْمُجْرِمُونَ	يس
١٧٣	٦٠ : ٦٢	أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا	يس
٥٠٣	٦٣ : ٦٤	هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ	يس
١٤٠	٦٥	الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا	يس
٥٢٠	٦٤ : ٦١	أَذَلِكَ خَيْرٌ لَّا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ	الصافات
١٧١	٦٥	طَلَعَهَا كَانَتْ رِءُوسَ الشَّيْطَانِ	الصافات
٥٢٥	٦٦ : ٦٨	فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَوْ أَنَّ مِنْهَا الْبُطُونَ	الصافات
١٩٠	١٤٩ : ١٥٩	فَأَسْتَفْتِيهِمْ الْرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ	الصافات
٣٤٧	١٦٢ : ١٦١	فَأَنذَرُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ	الصافات

١٩٤	٤	وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ	ص
١٩١	٦٥	أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ	ص
٤٩٣	١٤	إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابٌ	ص
٣٠٢	٢٦	بِنْدِ أُوْدٍ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ	ص
١٦٣	٢٨	تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ	ص
٢٦١	٣٥	رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي	ص
٣٩٦	٥٥ : ٥٧	هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لِشَرِّ مَتَابِ	ص
٥٢٥	٥٨	وَهَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ	ص
٣٠٩	٧٥	قَالَ يَا نَلِيسِي مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي	ص
٣٠٩	٧٦	أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ	ص
٣٨٤	٧٩	قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ فِي الْيَوْمِ يَبْعَثُونَ	ص
٣٦٨	٨٢ : ٨٣	قَالَ فَبِعْرَنِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ	ص
٤٤	٣	وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ	الزمر
٢٩٢	٣	مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ	الزمر
٣٥٣	٩	قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ	الزمر
٣٩٤	١٣	قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ	الزمر
٣٩٦	١٤ : ١٥	قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي	الزمر
٣٩٢	١٦	لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ	الزمر
٣٧٣	٤٥	وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ	الزمر
٧٤	٥٣	قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ	الزمر
٣٦٧	٦٥	وَلَقَدْ أَوْجَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ	الزمر
٥٠٧	٧١	وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا	الزمر
٢٠٤	٥	كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٌ وَالْأَحْزَابُ	غافر
٥٠١	١١	فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ	غافر
٥٠٣	١٢	ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ	غافر
٣٧٣	١٤	فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ	غافر
٤٩٨	١٨	وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ	غافر
٤٤٠	١٩	يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ	غافر
١٦٦	٢١	أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ	غافر
٣١	٢٦	وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ	غافر
٢٦٨	٢٩	يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ	غافر
٣٦٤	٢٩ : ٣٣	يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ	غافر
٣٩	٤٢	تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ	غافر
٥١٨	٤٦	النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا	غافر
٣٨٥	٦٠	وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ	غافر
٣١١	٥٦	إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ	غافر
٥١٩	٧١	إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ	غافر
٣١٠	١٥	فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ	فصلت
٤٨٩	١٥	وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً	فصلت
٤٩٠	١٦	فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا	فصلت
٤٦٠	١٧	وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ	فصلت
٤٤٣	٢٠	حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ	فصلت
٢٤	٢١	وَقَالُوا لِيَجْلُوْدِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا	فصلت

٥٠٣	٢٣	وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ	فصلت
١٩١	٢٦	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا	فصلت
١٨٥	٣٦	وَأَمَا يَزَعْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ	فصلت
٢٠٠	٣٩	وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً	فصلت
١٦٥	٤٠	أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ	فصلت
٣٤٠	٤٦	وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ	فصلت
٥١٨	٥٠	فَلَنَنْتَبِهَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا	فصلت
٣٨	١١	لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ	الشورى
٤٠١	١٣	شَرَعٌ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ تَوْحَاً	الشورى
٨٩	٣٧	وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرٌ إِلَّا تُمَّ وَالْفَوْحَشِ	الشورى
٣٤١	٤٠	وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا	الشورى
٢٥١	٤٢	إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ	الشورى
٥٠٠	٤٥	وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَتٍ مِنَ الدَّلِيلِ	الشورى
١١٥	٤٩	لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	الشورى
٤٣	٢٣، ٢٢	بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ	الزخرف
٢٨٩	٢٤	قَدَلْ أَوْلَوْجِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ	الزخرف
٢٦٤	٢٣	وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ	الزخرف
٢٦٣	٣١	وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْفَرءَانُ عَلٰى رَجُلٍ	الزخرف
٩٧	٣٢	نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ	الزخرف
١٤٣	٣٦	وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نَقِصْ لَهُ	الزخرف
٤٨٨	٤٢:٤١	فَأَمَّا نَذَهَبَ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مَنَّعُونَ	الزخرف
٣٣٣	٥٤:٥١	وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ	الزخرف
٢٦٩	٥٤	فَأَسْتَخَفْ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ	الزخرف
٤٩١	٥٦:٥٥	فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ	الزخرف
٥٢١	٧٧	وَنَادَوْا بِمَلِكِ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ	الزخرف
٥٢٢	٧٨	وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَادِحُونَ	الزخرف
٤٥٦	١٠	فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ	الدخان
٢٠٣	٢٠	وَأِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ	الدخان
١٤٩	٣٧	أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ	الدخان
٢٦٦	٣١، ٣٠	وَلَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَمْهِينِ	الدخان
٥٠٤	٤٩	ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ	الدخان
٢٠٨	١٦	وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ	الجاثية
٢٩٩	١٩:١٨	ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ	الجاثية
١٦٣	٢١	أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ	الجاثية
٣٠٥	٢٣	أَفْرءَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هُوَ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ	الجاثية
٥٠٦	٦، ٥	وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ	الأحقاف
٦١	٩	قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرَّسُلِ	الأحقاف
٢٦٤	١١	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ	الأحقاف
١٥٦	٢٦	وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ	الأحقاف
٢١١	٣٣	أَوْلَادًا يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ	الأحقاف
١٤٩	٢٥	تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ	الأحقاف
٤٧٣	٣٥	فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسُلِ	الأحقاف
٤٣	١	الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ	مُحَمَّدٌ

٣٩٧	٤٦	وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ	الرحمن
٤٥	٤١	وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ	الواقعة
٥٢٥	٤٤ : ٤٢	فِي سُبُورٍ وَحَمِيمٍ	الواقعة
٥٢٠	٥٣ : ٥١	ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ	الواقعة
١٠٣	٧	وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ	الحديد
٤٨	١٣ : ١٥	يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا	الحديد
٣٦	٢٠	كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ	الحديد
١٣٧	٢٥	لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا	الحديد
٢٢٤	٢٧	وَفَقِينَا يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ	الحديد
٦١	٢٧	وَرَهَابِيئَةَ ابْتَدَعُوهَا	الحديد
٢٥٨	٥	إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ	المجادلة
٢٢٣	١٤	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ	المجادلة
٢٣٦	١٨	يَوْمَ بَعَثْنَا فِيهِمُ الرَّسُولَ فَأَنصَرَفُوا إِلَيْهِ	المجادلة
١٨٣	١٩	أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ	المجادلة
٤٣٥	٢١	كُتِبَ اللَّهُ لَآعْلِبَ بِكَ إِنَّا وَرَسُولِي	المجادلة
١٣٤	٢٢	لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ	المجادلة
٤٧٠	٢	فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يُحْسَبُوا	الحشر
٩٨	٧	مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى	الحشر
٢٢٣	١١	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ	الحشر
٢٤٣	١٢	لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا	الحشر
١٧٨	١٦	كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ	الحشر
١٤٢	٢١	وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ	الحشر
٤٩٣	٨ : ٩	وَكَايِنٍ مِنْ قَرِيْبَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ	الطلاق
٤٨	٩	يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جُنْدَ الْكُفَّارِ	التحرير
٢١٦	١٢	وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا	التحرير
٢٩٧	١	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي	المتحنة
٨٢	١٢	يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِنَكَ	المتحنة
٣١٣	٥	وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ	الصف
٤٣١	٨	لِيُرِيدُوا لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ	الصف
١٦٠	٥	مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا النُّورَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا	الجمعة
٢٨	١١	وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا	الجمعة
٤٨	١	وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ	المنافقون
٢٣٤	٢	اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ	المنافقون
٢٤٠	٣	ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ	المنافقون
٤٧	٤	هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ	المنافقون
٣١٢	٥	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ	المنافقون
٢٣٨	٩	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْخُذْكُمْ أَمْوَالُهُمْ	المنافقون
١٣٨	٥	أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبِيُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ	التغابن
٢٠٠	٧	زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا	التغابن
٣٥١	١٤	يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا رَبِّ مِنْ أَرْوَجِكُمْ	التغابن
٣٤٩	١٥	إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ	التغابن
٥٠١	١١ : ٨	كَلِمَاتٍ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا	الملك
٤٩٠	١٧	أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا	الملك

٣٦٣	٧	سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ	الحاققة
١٢٨	٨	فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ	القلم
١٦٣	٣٦، ٣٥	أَفَجْعَلُ الْمُتَسَلِّمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ	القلم
٣٢٠	٥١	وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَرْفَؤُنَكَ بِأَبْصَرِهِمْ	القلم
٢٤٣	٦	وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ	الجن
٢٤٦	٢٧، ٢٦	عَلِيمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا	الجن
٢٠٦	٧	وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ	نوح
٢٦٢	٢٢	وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا	نوح
٣٢٥	٢٣	وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آهَاتِنَا وَآهَاتِنَا وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا	نوح
٤٨٩	٢٥: ٢٤	وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا	نوح
٢٠٣	٢٦	رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا	نوح
٣٨٦	٢٧	إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ	نوح
٣٨٧	٢٨	وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا	نوح
٣٣٢	١١	وَذُرِّي وَالْمُكْذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا	المزمل
٥٢٠	١٣	وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا	المزمل
٢٥٨	٢٠	وَأَخْرَجُوا بِصُرُوفِهِ فِي الْأَرْضِ	المزمل
٢٧١	١١: ١٣	ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا	المدثر
٤٧٢	١٧: ١٤	وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا	المدثر
١٦٠	٥١: ٤٩	فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ	المدثر
٣٧٤	٩	إِنَّمَا نَطَعْتُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ	الإنسان
٣٩٦	١٠	إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا	الإنسان
٣٧٥	٢١	إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا	الإنسان
١٦٥	١٦: ١٨	أَلَمْ نَهَبْكَ الْأَوْلِينَ	المرسلات
١٣٨	١٥	وَبِلْ يُومِئِدِ لِلْمُكْذِبِينَ	المرسلات
٣٩٦	٢٩: ٣٤	أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ	المرسلات
٥٢٣	٣٦	وَلَا تُؤْذِنُهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ	المرسلات
٥٢١	٢٥، ٢٤	لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا	النبأ
٥١٨	٣٠	فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا	النبأ
٣٩٧	٤١: ٤٠	وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ	النازعات
٧٩	٨	وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ	التكوير
١٣٩	١٠	وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ	الإنفطار
١٠٥	٥: ١	وَبِلْ لِلْمُطَفِّفِينَ	المطففين
٣٣٥	٢٩: ٣٢	إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ	المطففين
٣٣٥	٣٤: ٣٦	فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ	المطففين
٢٦٧	١٠	إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا كُنَّ	البروج
٤٧٣	١٧	فَمَهَلَّ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رَوْنًا	الطارق
٤٢٧	٩	فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى	الأعلى
٥٢٢	١١: ١٣	وَيُنَجِّنَهَا الْأَشْقَى	الأعلى
٥٢٠	٧، ٦	لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ	الغاشية
٢٧٨	٩: ١٢	وَتُمُودٍ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ	الفجر
٢٧٨	١٣: ١٤	فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ	الفجر
٤٧٠	١٥: ١٦	فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ	الفجر
٤٨	١٤	فَأَنْذَرْتَهُ نَارًا تَلْقَى	الليل

٣٥٠	٧ : ٦	
١٣٩	١٢	
٣٦٧	٥	
١٤٣	٨	
٣٥٠	٨	
٤٢٤	٣ : ١	
٣٥٠	٣ : ١	
٤٥٠	٤ : ٣	
٣٧٧	٢	
٣٢١	٥	
١٩٢	١	
١٨٣	٤	

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ	العلق
أَلْفٍ بِأَنَّهُ يُرَى	العلق
وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ	البيئنة
مُخْلِصِينَ	الزلزلة
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا	العاديات
يَرَهُ	العصر
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ	الهمزة
وَالْعَصْرِ	قريش
وَبَلِّغْ كَلَّ هَمْزٍ لَمْزٍ	الكوثر
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ	الفلق
فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ	الناس
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ	الناس
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ	
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ	

فهرس الأحاديث

رقم الصفحة	الراوي الأعلى	طرف الحديث
٥٠	أبو هريرة	آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب
٢٣٦	عبد الله بن عمر	أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون
٢٠٩	ابن عباس	أت اليهود النبي ﷺ حين
٤١٣	أم المؤمنين عائشة	أتشفع في حد من حدود الله
٤٤٥	أبو أمامة	أدنه، فدنا منه قريباً فقال: أجلس
٥٠	عبد الله بن عمرو	أربع من كن فيه كان منافقاً
٧٢	عمر بن الخطاب	أفتنا في الخمر فإنها مذهب للعقل
٣٨٥	المغيرة بن شعبة	أفلا أكون عبداً شكوراً
٤٢	أبو بكر	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثاً
٥٢٣	أبو سعيد	أما أهل النار الذين هم أهلها
٦٥	العرباض بن سارية	أوصيكم بتقوى الله والسمع
٧٤	ابن مسعود	أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة
٢٠١	أم المؤمنين عائشة	أو مخرجي هم؟! قال: نعم، لم يأت
٤٢	أبو بكر	أن تجعل لله نداً وهو خلقك
٣٦٥	ابن عمر	أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ
٢٥٦	أبو سعيد	إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا
٤٩٨	أبو سعيد	إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل
١٧٧	جابر بن عبد الله	إذا دخل الرجل بيته فذكر الله
٤٦٩	عقبة بن عامر	إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد
١٨٢	جابر بن عبد الله	إن إبليس يضع عرشه على الماء
٦٤	معاوية بن أبي سفيان	إن أهل الكتاب افترقوا على
٣٩	جابر بن عبد الله	إن بين الرجل وبين الشرك
٢٥١		إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهما
٣٥٢	أبو سعيد	إن الدنيا حلوة خضرة
٢٢٢	أبو هريرة	إن الدين يسر
٥٦	ابن مسعود	إن الرقى والتائم والتولة
١٧٣	سيرة بن أبي فاكه	إن الشيطان قعد لابن آدم
٢٤٧	جابر بن عبد الله	إن الشيطان ليضع عرشه على الماء،
٣٠٣		إن مما أخشى عليكم شهوات الغي
٤٢٤	أبو بكر الصديق	إن الناس إذا رأوا الظالم فلم
٤٤١	أبو بكر الصديق	إن الناس إذا رأوا الظالم فلم
١١٢	جابر بن عبد الله	إن الله حرم بيع الخمر والميتة
٢٦١	أبو هريرة	إن الله لا ينظر إلى صوركم
٣١٩	أبو برزة	إن مما أخشى عليكم شهوات

٨٤	أبو هريرة	إن المفلس من أمي من يأتي
٢١٦	أبو هريرة	إن موسى كان رجلاً حياً
٣٥١	أنس بن مالك	إنما حيب إلي من دنياكم
٤٤١	سهل بن سعد	إنما جعل الاستئذان من أجل
٤٠٥	علي بن أبي طالب	إنما الطاعة في المعروف
٤٥٦	ابن مسعود	إنما كان هذا، لأن قريشاً
٣٧٩	أبو هريرة	إنه سينهاه ما يقول
٣٤١		إني حرمت الظلم على نفسي
٣٢٩	معاذ بن جبل	إياك والتنعم، فإن عباد الله
٤٤١	أبو سعيد	إياكم والجلوس في الطرقات
٣٢٧	ابن عباس	إياكم والغلو، فإنما هلك
٤١	ابن مسعود	أي الذنب أعظم؟
٢٤٥	أم المؤمنين عائشة	إنهم ليسوا بشيء قالوا
٥٦	أبو هريرة	اجتنبوا السبع الموبقات
٩٢	رجل من الأنصار	ارجعي إلى بيتك
٤٠٥	أنس	اسمعوا وأطيعوا، وإن
٣٧٢	ابن عمر	انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم
٤٢٤	عبادة بن الصامت	بايعنا رسول الله ﷺ على
٨٢	عبادة بن الصامت	بايعوني على أن لا تشركوا الله
٢٧٠	ابن مسعود	بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي
٤٢٧	أبو ثعلبة الخشني	بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا
٣٧٧	ابن عمر	بني الإسلام على خمس
٨٥	ابن عباس	البينة أو حدّ في ظهرك
٣٤٨	حذيفة	تعرض الفتن على القلوب
٣٥٠	أبو هريرة	تعس عبد الدينار
٩٩	أبو هريرة	التمر بالتمر والحنطة بالحنطة
١٢٠	أنس	حرمت الخمر ولم يكن
٩٢	رجل من الانصار	خييراً، ثم قالت: إن ابنه قيساً
٩٨	أبو هريرة	الذهب بالذهب وزناً بوزن مثلاً
٢٢٥	أنس بن مالك	سأل النبي ﷺ المرأة التي وضعت
٧٤	ابن مسعود	سياب المسلم فسوق وقتاله كفر
٢٩٢	أبو واقد	سبحان الله، هذا كما قال قوم
٤٠٧	عرفجة	ستكون هناتن وهنات
٥٣٩	يعلى بن أمية	سمعت رسول الله يقراً على المنبر
٢١٤	ابن عباس	سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا
٤٩٧	ابن عباس	ضربت مثلاً لعمل، قال عمر
٣٢٧	أم المؤمنين عائشة	عليكم من الأعمال ما تطيقون
٥٩		العيافة والطيرة
٤٣٩	جرير	فأمرني أن أصرف بصري
٤٣٣	أبو هريرة وزيد بن خالد	فإن اعترفت فارجمها
٥١٣	أبو سفيان	فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين

٣٤٠	عبد الله بن عمرو	فمن زاد أو نقص، فقد فوالله ما الفقر أخشى عليكم
٣٣٨	عمرو بن عوف	فيم ترون هذه الآية نزلت
٤٧٩	عمر بن الخطاب	قال الله تبارك وتعالى: أنا
٤٦	أبو هريرة	قال الله تعالى: "وعزتي وجلالي لا أجمع
٣٩٨	أبو هريرة	قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا
٣٤٤	أبو هريرة	كان برجل جراح فقتل نفسه
٧٧	جندب بن عبد الله	كان ملك فيمن كان قبلكم،
٢٦٧	صهيب	كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر
٣٩٨	حذيفة	كفضل القمر ليلة البدر على سائر
١٨٣		كلاب النار (ثلاثاً)
٦٤	أبو أمامة	الكبر بطر الحق، وغمط الناس
٣٢٤	ابن مسعود	كيف تجد قلبك؟
٢٦٨	عمار بن ياسر	لما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان
٢٧٧	ابن عباس	لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبث
١٠٥	ابن عباس	لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل
٢٣٧	ابن مسعود	لما نزلت هذه الآية، قال أصحاب
٤٥٢	ابن مسعود	للتبعن سنن من كان قبلكم
٢٩٣	أبو سعيد	لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل
٧٤	ابن عمرو	لشربن ناس من أمي الخمر يسمونها
١١٢	أبو مالك الأشعري	لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي
١٠٤	عبد الله بن عمرو	لعن الله المحلل والمحلل له
١١٣	ابن مسعود	لمن عمل بها من أمي
٣٨٠	ابن مسعود	لو أن أحدكم إذا أتى أهله
١٧٧	ابن عباس	لو أن قطرة من الزقوم قطرت
٥٢٠	ابن عباس	لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة
١٢١	أبو موسى	لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي
٨٤		ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على
٢١٣	أبو موسى	ليس على خائن ولا منتهب
٢٥٣		ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد
٣٢٦	أنس بن مالك	اللهم اشدد وطأتك على مضر
٤٥٦	أبو هريرة	اللهم اهد دوساً وأت بهم
٣٨٨	أبو هريرة	ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من
٢٩٧	أبو سعيد	ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟
٢٢٠	ابن عمر	ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟
٤٣٠	ابن عمرو	ما تركت بعدي فتنة هي أضر على
٣٥٢	أسامة بن زيد	ما تقولون في الزنا؟ قالوا هو حرام حرمه
٤٤٥	المقداد	ما حسدتكم اليهود على شيء، ما
٣٢١	أم المؤمنين عائشة	ما حملك على ما صنعت؟ فقال
٢٢٠	ابن عباس	ما رأيت من ناقصات عقل، ولا دين
٣٥٣	ابن عمر	ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا
٢١٥	أم المؤمنين عائشة	

٤٩٥	ابن مسعود	ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا
٢١٥		ما كان الله ليسلطك عليّ
١٩٦	أبو هريرة	ما من الأنبياء نبي إلا أعطي
٤٢٤	جرير بن عبد الله	ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي
١٧٢	أبو هريرة	ما من مولود إلا يولد على الفطرة
١٧٩	أبو هريرة	ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان
٤٢٣	النعمان بن بشير	مثل القائم في حدود الله والواقع فيها
١٩٣	ابن عباس	معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن
٢٥٦		من أتاكم وأمركم على رجل واحد
٥٦	ابن مسعود	من أتى ساحراً أو كاهناً أو عرافاً
٦٥	أم المؤمنين عائشة	من أحدث في أمرنا ما ليس منه
٢٦٦	عبد الله بن عمرو	من أعطى إماماً صفقة يده، وثمره فؤاده
٤٣٧	أبو هريرة	من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني
٥٩	قبيصة بن محارق	من اقتبس علماً من النجوم اقتبس
٤٧٥	بريدة	من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله
٣٧٨	عبد الله بن عمرو	من حافظ عليها، كانت له نوراً وبرهاناً
٣٥٦	أبو الدرداء	من حفظ عشر آيات من أول سورة
٤٠٦	أبو هريرة	من خرج من الطاعة، وفارق
٤٠٦	ابن عمر	من خلع يدا من طاعة
٤٢١	أبو سعيد	من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن
١١٩	عبد الله بن عمرو	من شرب الخمر في الدنيا
٦٣	أم المؤمنين عائشة	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ
٤٣٦	أبو موسى الأشعري	من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو
٧٦	أبو هريرة	من قتل نفسه بحديدة؛ فحديده
٨٠	عبد الله بن عمرو	من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة
٣٥٢	ابن مسعود	المرأة عورة، فإذا خرجت
١٠٨	ابن عباس	الميسر القمار، كان الرجل في الجاهلية
٥١	حنظلة الاسيدي	نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول
٤٤١	حذيفة	النظرة سهم من سهام إبليس
٣٠	أنس بن مالك	هذه نعم لنا، فاخرجوا فيها، فاشربوا ألبانها
٥٨	زيد بن خالد	هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله
٣٢٦	ابن مسعود	هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً
٤١٦		واغد يا أنيس
٣٨٢	أنس بن مالك	وجعلت قرّة عيني في الصلاة
٥١	حنظلة	والذي نفسي بيده إن لو تدومون على
١٠٠	جابر بن عبد الله	وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع
١٨٣	أبو الدرداء	وفضل العالم على العابد، كفضلي على
٤٨٢	أبو هريرة	وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ
٥١٤		ومن سنّ في الإسلام
٦٧	أبو سعيد	ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت
١٩٢	أبو الدرداء	وفضل العالم على العابد

١٨٤	أبو هريرة	وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال
٢٣١	أبو سعيد	ويَلِكْ ومنْ يعدل إذا لم أكن أعدل
٨٩	ابن مسعود	لا أحد أغير من الله، فلذلك حرّم
٤٠٤	أبو رافع	لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته
٢٦	زينب	لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر اقترب،
٩٩	أبو سعيد	لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين، فإني
٩٩	أبو سعيد	لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا تبيعوا الورق
٣٦٤	ابن عمر	لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن
٣٢٧	عمر بن الخطاب	لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى
٧٢	ابن مسعود	لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على
٣٩٧	عائشة	لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق
٧٦	ابن مسعود	لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن
٧٤	ابن عمر	لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم
٩١	أبو هريرة	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن
١٨٢	أبو هريرة	لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح
٤١٤	أم المؤمنين عائشة	لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي
١٨٤	أبو هريرة	يأتي الشيطان أحدكم، فيقول
٢٥٥	علي بن أبي طالب	يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان
٤٠٢	أبو نضرة	يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن
٤٨٩	ابن مسعود	يا أيها الناس، إن ربكم يستعيتكم
٣٤٥	ابن عمر	يا عبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار
٣٢٨	ابن عمر	يا عبد الله؛ ألم أخبر أنك تصوم النهار
٧٦	عمرو بن العاص	يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟
٧٢	ابن عمر	يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهنّ
٤٥٤	حذيفة	يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست
٢١٨	عبد الله بن سلام	يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله
٣٨٨	أنس بن مالك	يا مُقَلَّبَ القلوب ثبّت قلبي على دينك
٢٥٥	أبو سعيد	يخرج قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم
٢٢٢	أنس بن مالك	يسروا ولا تعسروا
		ينصب لكل غادر لواء

فهرس الآثار

رقم الصفحة	اسم القائل	الأثر
٣٥٢	معاذ	ابتلتم بفتنة السراء فصبرتم .
٦٩	ابن مسعود	اتبعوا ولا تتبدعوا فقد كفيتم
٤٠٨	عمر بن الخطاب	أحدثتم والله، لمن عادت لأخرجن
٣٠٣	علي بن أبي طالب	أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى .
٢٦٦	ابن عباس	أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل .
٣٥٥	أبو الدرداء	أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله .
٤٩٤	ابن عباس	أراد بالقارعة: السرايا
٥٢	ابن أبي مليكة	أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ .
٢٩٧	عمر بن الخطاب	أين كاتبك، يقرأ هذا الكتاب
٢٥٥	علي بن أبي طالب	إخواننا بغوا علينا
٢٨	ابن عباس	إذا أخذوها عنوة أخرجوها .
٩٠	عبد الله بن أبي	أذهبي فابغينا شيئاً
٢٩٣	الحسن	أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض .
١٠٩	علي بن أبي طالب	أنهما من الميسر
٥٧	عمر بن الخطاب	اقتلوا كل ساحر .
١١٧	عطاء بن أبي رباح	إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل
٤٧٩	ابن عباس	إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم
٤٢٢	ابن مسعود	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل
٤٤٩	سعيد بن أبي الحسن	إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن
٤٠٧	ابن مسعود	إن الخلاف شرٌ
٥٠٨	قتادة	إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من آياته
١٧٥	مجاهد	إن صوته هو الغناء .
٢٩	سعيد بن المسيب	إن قبض الدراهم والدينار من الإفساد .
١٣٧	عمر بن الخطاب	انتهينا انتهينا
١١٨	عمر بن الخطاب	انتهينا يا رب
١٨٠	ابن مسعود	إنفاق المال في غير حقه .
٣٧٣	علي بن أبي طالب	إنما زهد الناس في طلب العلم
٤٧٩	ابن مسعود	إنما كان هذا، لأن قريشاً لما استعصوا على
١٠٩	علي بن أبي طالب	أنهما من الميسر .
٦٩	عمر بن الخطاب	إياكم وأصحاب الرأي فإنهم .
٦٩	ابن مسعود	إياكم وما يحدث الناس من البدع .
٢٥	ابن عباس	بعث الله عليهم في الأولى جالوت
٤٨٥	قتادة	بعث القوم أمر الله
١٠١	قتادة	تلك علامة أهل الربا يوم القيامة

٥٩	عمر بن الخطاب	الجيت السحر
١١٩	أنس	حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب
٤٠٤	علي بن أبي طالب	حق علي إمام أن يحكم بالعدل
٢٧	ابن عباس	الحريث هنا الزرع
٦٢	ابن مسعود	خط رسول الله ﷺ خطأ
٢١٠	ابن عباس	دخل أبو بكر الصديق
١٨٠	ابن عباس	دين الله
١٢١	عمر بن الخطاب	ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم
٤٢٩	عمرو بن ميمون	رأيت في الجاهلية قرودة
٣٥٥	أحمد بن حنبل	عزيز علي، أن تذيب الدنيا
٦٣	أم المؤمنين عائشة	فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه
٦٤	ابن عباس	فأما الذين أبيضت وجوههم فأهل السنة
٢٩٣	مجاهد	فساد البر: قتل ابن آدم أخاه
٢٨٠	ابن عباس	فهم من الذين آمنوا بموسى
٣٦٩	ابن عباس	فهؤلاء رجال أسلموا من مكة
٣٧٩	ابن عباس وابن مسعود	فإن قال قائل: وكيف تنهى الصلاة
٢١	ابن مسعود	الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية
٣١٣	عمر بن الخطاب	قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين
٢١٧	السدي	كان أحبار قري عريية اثني عشر حبراً
٩٢	ابن عباس	كان أهل الجاهلية يجرمون ما يجرم
٤١	ابن عباس	كان بين نوح و آدم عشرة قرون
٨٠	ابن عباس	كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون
١١٧	مجاهد	كان الرجل إذا توفي أبوه
١١٧	ابن عباس	كان الرجل إذا مات أبوه
٣٠٤	ابن عباس	كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر
٩٠	جابر بن عبد الله	كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول
٢٢٤	ابن عباس	كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا
٣٢٠	أبو العالية	كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ
٤٠٨	عمر بن الخطاب	لستم تنصرون بكثرة
٥١٨	عبد الله بن عمرو	لم يتزل على أهل النار آية أشد
١٨٩	مجاهد	لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق
٣٥٥	سفيان الثوري	ليتني لم أكتب العلم
٤٨٤	عمر بن الخطاب	اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجاً
١٢٠	العباس بن مرداس	ما أنا بأخذ جهلي بيدي
٣٠٢	ابن عباس	ما ذكر الله هوى في القرآن
٣٥٢	سعيد بن المسيب	ما شيء عندي أخوف من النساء
٢٦٥	ابن مسعود	مرّ الملائ من قريش بالنبي ﷺ، وعنده
٥٢٢	ابن عباس	مكث عنهم ألف سنة
١٣١	ابن مسعود	من سره أن ينظر إلى وصية محمد
٣٧٩	ابن مسعود	من لم يطع صلاته؛ لم يزد
٤٨٥	الحسن البصري	من وسع الله عليه، فلم ير أنه يُمكر

٤٩٣	قتادة	مُكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم
١١٩	ابن عباس	المكء الصغير، والتصدية التصفيق
٦٦	عمر بن الخطاب	نعمت البدعة
٣١١	ابن عباس	نهي الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار
٤٥	ابن عباس	الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب
٢٨١	حذيفة	لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه
٤٦١	ابن مسعود	هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف
٤٠٦	الحسن البصري	هم يلون من أمورنا خمساً
٢٧٩	ابن عباس	هو نقصان البركة بأعمال العباد
١٧٥	ابن عباس	هو كل داع دعا إلى معصية الله
١٢٩	ابن مسعود	هي أجمع آية في القرآن
١٧٥	ابن مسعود	والذي لا إله غيره هو الغناء
٤٠٦	علي بن أبي طالب	لا بد للناس من إمارة، برّة كانت
٢٦٧	علي بن أبي طالب	لا... من الشرك فروا.
٢٩٥	حذيفة	لا ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء
٥١٢	ابن مسعود	يا أيها الناس، إن ربكم يستعيتكم
٣٢٨	عبد الله بن عمر	يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ
٤٠٢	سفيان الثوري	يا من أحب عباده إليه من سأله
٦٣	ابن عباس	يؤمنون بمحكّمه، ويضلون
١١٤	أيوب السخيتاني	يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان
٣٢٤	ابن عباس	يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك

فهرس الأعلام

رقم الصفحة

الاسم

٢٨	إبراهيم بن السريّ بن سهل، الزجاج نسبة إلى خرط الزجاج
٧٢	إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي، الشهير بالشاطبي
١٨	أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي أبو الحسين
٥٢	أحمد بن علي بن محمد الكناي العسقلاني
٣١	أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر النحاس، اللغوي
٩٩	أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي
٢٣	إسماعيل بن عبد الرحمن السدي
٢٤	إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير
١١٣	أيوب بن أبي تيممة السخيتاني
٢٧	الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب
٥٧	بجالة بن عبدة التميمي العنبري البصري
٢٦	بختنصر بن نبوزر بن سنجاريف •
٢٥	جالوت
٤٢٤	جرير بن عبد الله بن جابر البجلي القسري
٦٤	حزور بفتح الحاء والزاي، وقيل: سعيد بن الحزور، صاحب أبي أمامة
٧٧	جندب بن عبد الله البجلي: له صحبة
٢٩٥	حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة
٥٥	حافظ بن أحمد الحكمي
٣١	حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القاريء
٦٤	حزور بفتح الحاء والزاي، صاحب أبي أمامة
٥١	حنظلة بن الربيع بن صيفي بن رياح بن الحارث التميمي
٧٥	الحسن بن أبي الحسن البصري الأنصاري
٢١	الحسين بن محمد أبو الحسين الدماغي
١٨	الحسين بن محمد، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب
٨٠	خلف بن هشام بن ثعلب
٥٨	زيد بن خالد الجهني
٤٤٠	سعيد بن أبي الحسن: يسار، الأنصاري
٢٩	سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب
٣٢٩	سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي
٨٥	شريك بن سحماء: وسحماء هي أمه
٢٦	طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت
٣١	عاصم بن بحدلة، وهو أبي النجود الأسدي الكوفي المقرئ
٨٢	عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر الأنصاري
٢٣	عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي

- ٦٥ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي
٢١ عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج بن الجوزي
٢٧ عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي
٨٩ عبد الله بن أبي بن سلول
٥٢ عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، بالتصغير، أبو بكر القرشي
٣٨٨ عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي
٥٢ عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، بالتصغير، ابن عبدالله بن جدعان
٣٦٩ عبد الله بن كثير الداري المكي أبو معبد
٣٨٦ عبد الله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي الحلبي الصوفي
٣٦٧ عبدالله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهروي
١١٨ عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري
١٢٩ عثمان بن مظعون بن حبيب
٩٢ عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي
٤٠٧ عرفجة بن أسعد بن كرب التميمي العطاردي
٤٦٨ عقبة بن عامر الجهني أبو حماد
٢٧ علي بن أحمد بن محمد الواحدي
٣١ علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي
٤٢٩ علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بـ "ابن الأثير"
٥٢٤ عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسبيويه
٤٣٩ عنتر بن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة
١١٩ العباس بن مرداس السلمي
٧٥ قتادة بن دعامة السدوسي
٢٤٢ قس بن ساعدة بن عمرو، من بني إياد
٣٧ لييد بن ربيعة، الشاعر المشهور، أدرك الإسلام
٢١ مجاهد بن جبر المكي ، أبو الحجاج القرشي
٤١ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني ، الشنقيطي
٢١ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري
٦٣ محمد بن الحسين البغدادي أبو بكر
٥٧ محمد بن صالح العثيمين
٣٢ محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن عاشور
٤٦١ مقاتل بن حيان النبطي ، أبو بسطام البلخي
٢١ مقاتل بن سليمان بن بشير البلخي أبو الحسن الأزدي
٤١٢ المهلهل بن ربيعة التغلبي واسمه امرؤ القيس
٤٢ نفيع بن الحارث بن كلدة
٨٥ هلال بن أمية الواقفي، شهد بدرًا
٢٠١ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى
٢٤ يحيى بن زياد، أبو زكريا، الكوفي النحوي
٣٩ يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا الدمشقي الشافعي
٣٥٥ يحيى بن معاذ أبو زكريا الواعظ
٣٦٩ يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي
٤٢٩ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري أبو عمر

الكنى

٥٠٦	أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الملقب بسبيويه
٦٣	أبو بكر محمد بن الحسين البغدادي
٣٣	أبو السعود العمادي، أحمد بن محي الدين
١٩٣	أبو رافع القبطي
٣٣	أبو عبدالله محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن عاشور
٣٦٩	أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني المقرئ
٩٢	أبو قيس بن الأسلت
٣١٣	أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون
٥٢	أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكنايني العسقلاني

فهرس الأشعار

٣٧١	فصادف قلباً خالياً فتمكنا	أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
١٩٦	قد ضلّ من كانت العميان تهديه	أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم
٤٣٩	حتى يوارى جارتى مأواها	أغض طرفي حين تبدو جارتى
١٧٠	وكنّ يهويني إذ كنتُ شيطانا	أيام يدعوني الشيطان من غزل
١٧١	ثم يلقي في السجن والأغلال	أيما شاطن عصاه عكاه
٣٠٦	إلى كل ما فيه عليك مقال	إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى
٣٥٥	عليك ولم تُعذر بما أنت حامل	إذا العلم لم تعمل به كان حجةً
٢٤٢	فلو جُهِه الإكرام والإجلال	إلا الذي فوق السماء مكانه
١٧٥	في قلب عبد ليس يجتمعان	حب الكتاب وحب ألحان الغنا
٣٧	وأجنّ عورات الثغور ظلامها	حتى إذا أُلقت يداً في كافر
٤٤١	ولا عن بعضه أنت صابرٌ	رأيت الذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه
٢٤٢	وطِلابُ شيءٍ لا ينال ضلال	علم النجوم على العقول وبال
٢٣٠	وإلا فإني لا إخالك ناجياً	فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة
٣٥٥	يصدّق قول المرء ما هو فاعل	فإن كنت قد أبصرت هذا فإنما
١٩	فيه المشيب لزرت أم القاسم	لولا الحياء وأن رأسي قد عثا
١٧٠	فبانَتْ والفؤادُ بها رهينٌ	نأتُ بسعادَ عنك نوى شَطونٌ
٢٤٢	يدرِي كم الأرزاق والآجال	هيئات ما أحد بغامضِ فطنةٍ
٤٤١	لقلبك يوماً أتعبتك المناظر	وكنت متى أرسلت طرفك رائدا

فهرس الأماكن والفرق

الصفحة	اسم المكان
٥٢	بابل
٤٨	تبوك
٣٠	الحرّة
٢٥٦	الحوزة
٢٦٨	الدّسكرة
٢٦٦	الفرما
٢٠٩	المدراس

الصفحة	الفرق
٦١	الجهمية
٦١	الخوارج
٦١	الرافضة
٧٠	القرامطة
١٠٣	الرأسمالية
١٠٣	الاشتراكية
٤٥	المرجئة
٧٠	القرامطة

ثبت المصادر

القرآن الكريم .

= اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم

الجوزية، مكتبة ابن تيمية، مصر، الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

= أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي أبو بكر الجصاص، دار إحياء التراث العربي -

بيروت، ١٤٠٥ تحقيق: محمد الصادق قمحاوي .

= أحكام القرآن، محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي، دار الفكر - بيروت، تحقيق: محمد عبد القادر عطا

= الآداب الشرعية والمنح المرعية، أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط / عمر القيام،

مؤسسة الرسالة - بيروت، سنة النشر ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

= أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي،

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

= أساليب المجرمين في التصدي لدعوة المرسلين وعاقبة ذلك في ضوء القرآن الكريم، محمد بن عبدالعزيز

المسند، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ -

= أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، دار الاعتصام - القاهرة، الطبعة

الثانية، ١٣٩٦، تحقيق: عبد القادر احمد عطا

= أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر

للطباعة والنشر - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

= إتخاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، دار

الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ط: الأولى، تحقيق: أنس مهرة

= أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة. تأليف: حافظ بن أحمد الحكمي.

ت: أحمد بن علي مدخلي. الناشر: مكتبة الرشد - الرياض. ط: الرابعة ١٤١٦هـ -

= إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث

العربي، بيروت

= إرشاد أولي البصائر والألباب النيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب، دار أضواء السلف.

بعناية: أشرف عبد المقصود

= إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة مصطفى البابي

الجلبي، مصر ١٩٦١م

= اقتضاء العلم العمل. أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر الخطيب البغدادي، المكتب الإسلامي -

بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني

= الأهواء والفرق والبدع، ناصر بن عبد الكريم العقل. دار الوطن - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ -

= الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الجيل - بيروت - ١٤١٢هـ -

١٩٩٢م، ط: الأولى، ت: علي محمد الجحاوي .

= الأمثال في القرآن الكريم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية، مكتبة الصحابة - طنطا،

الطبعة الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦

= البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢٢هـ -

٢٠٠١م الطبعة: الأولى

= بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع علاء الدين الكاساني، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، سنة النشر ١٩٨٢م

= بدائع الفوائد، المؤلف: ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - ١٤١٦ - ط: الأولى، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.

= بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تأليف: مجد الدين محمد يعقوب الفيروزآبادي. المكتبة العلمية - بيروت. ت: محمد علي النجار.

= البداية والنهاية، تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف - بيروت . البرهان في علوم القرآن. المؤلف: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الناشر: دار المعرفة بيروت ١٣٩١. ط: الثانية. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

= البيان والتبيين، تأليف: الجاحظ، الناشر: دار صعب - بيروت، تحقيق: فوزي عطوي . تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

= تاريخ الطبري، تأليف: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية - بيروت . التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م

= تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن المبارك كفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية - بيروت

= تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى . تفسير البيضاوي، تأليف: البيضاوي، دار النشر: دار الفكر - بيروت .

= تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر - بيروت - ١٤٠١ . تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، المكتبة العصرية - صيدا، تحقيق: أسعد محمد الطيب

= تفسير القرآن العظيم، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١٠، الطبعة الأولى، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد

= تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥ - ١٩٨٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي

= تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م

= تهذيب الكمال، يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. بشار عواد معروف.

= تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عوض مرعب.

= توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠٦هـ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: زهير الشاويش.

= تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ت: عبد الرحمن اللويحق.

= التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧م

= التشريع الجنائي الإسلامي، مقارنا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الحادية عشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

= التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري .

= التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، مصر .

- = التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق، مصر، الطبعة العاشرة ١٩٩٢
- = التنجيم والمنجمون وحكم ذلك في الإسلام، اسم المؤلف : عبد المجيد بن سالم المشعبي الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م
- = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥
- = الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ت. د. مصطفى ديب البغا.
- = الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الشعب - القاهرة.
- = جريمة قطع الطريق وأثرها في تشديد العقوبة، د. محمد إسماعيل أبو الريش، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٤١١ - ١٩٩٠
- = الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت
- = حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. ط: الرابعة، ١٤١٠هـ -
- = الحجة في القراءات السبع، الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله، دار الشروق - بيروت - ١٤٠١، الطبعة: الرابعة، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم.
- = الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت ١٩٩٣م
- = الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية - بيروت .
- = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- = الروض المربع شرح زاد المستقنع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض - ١٣٩٠
- = زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٤، الطبعة: الثالثة .
- = زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٦، الطبعة: الرابعة عشر، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.
- = سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر - بيروت ت: محمد فؤاد عبد الباقي .
- = سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد .
- = سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة ١٤١٤ - ١٩٩٤ تحقيق : محمد عبد القادر عطا .
- = سنن الترمذي ، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون .
- = سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦ - ١٩٦٦ تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني .
- = سنن الدارمي. عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي .
- = سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٣، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي .

- = السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني، الناشر: دار المعرفة.
- = السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري. مكتبة دار المنار للنشر والتوزيع القاهرة.
- = شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم لأبي القاسم هبة الله اللالكائي تحقيق: سعيد عمران. دار الحديث بالقاهرة ٢٠٠٤م
- = الشريعة. أبي بكر الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي. دار السلام-الرياض. ط: الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٢م
- = شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر أيوب الزرععي، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
- = الصحاح في اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة- ١٩٩٠.
- = صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي
- = صيد الخاطر، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي .
- = طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع- ١٤١٣هـ، ط: الثانية، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو.
- = طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، دار المدني- جدة، ت: محمود محمد شاكر.
- = طبقات المفسرين، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم - السعودية - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.
- = طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦، تحقيق: علي محمد عمر
- = العجائب في بيان الأسباب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار ابن الجوزي- الدمام- السعودية- ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ط: الأولى، ت: عبد الحكيم محمد الأنيس.
- = علاج القرآن الكريم للجريمة. تأليف: د. عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة النبوية، ط: الأولى ١٤٢٣هـ
- = غرائب القرآن و رغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: زكريا عميران
- = فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.
- = فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبد الرحمن السعدي. دار ابن الجوزي- الدمام. ط: الأولى ١٤٢١هـ
- = فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. تحقيق: الوليد الفريان. دار الصميعي- الرياض. ط: الأولى ١٤١٥هـ
- = الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحراني، دار المعرفة، بيروت، ت: حسنين محمد مخلوف.
- = قواعد الأحكام في مصالح الأنام. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي. دار المعارف بيروت- لبنان
- = القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- = القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار البصيرة- الاسكندرية/ مصر.
- = القول المفيد على كتاب التوحيد. محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي- الدمام، ط: الأولى ١٤١٨هـ
- = كتاب الكليات. أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري
- = كشف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٢، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال

- = كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٣ - ١٩٩٢
- = الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
- = الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي .
- = الكشاف والبيان. أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي النيسابوري. دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م ط: الأولى، تحقيق: محمد الطاهر ابن عاشور.
- = الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري .
- = لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر - بيروت ط: الأولى .
- = مباحث في علوم القرآن. صبحي الصالح. دار العلم للملايين. ط: الرابعة والعشرون ٢٠٠٠ م
- = مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت ١٤١٢ هـ .
- = مجموع الرسائل. سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب. ت: د. الوليد بن عبدالرحمن الفريان. دار عالم الفوائد - مكة . الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ
- = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد
- = مختار الصحاح، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون بيروت، الطبعة ١٤١٥ - ١٩٩٥ تحقيق: محمود خاطر .
- = مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، محمد بن عبد الوهاب، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - ١٣٩٦ ، تحقيق: محمود شكري الألويسي
- = مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني الناشر: مؤسسة قرطبة - القاهرة - الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها .
- = مشكاة المصابيح، اسم المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، دار النشر: المكتبة الإسلامية - بيروت - ١٩٨٨ ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني
- = المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩ ، الطبعة: الأولى ، تحقيق: كمال يوسف الحوت
- = معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد النمر - عثمان ضميرية - سليمان الحرش دار طيبة للنشر - الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
- = معاني القرآن وإعرابه، للزجاج. دار الحديث - القاهرة - ١٤٢٤ هـ ت: عبدالجليل شليبي.
- = معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٣ ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: مصطفى السقا .
- = معترك الأقران في إعجاز القرآن. جلال الدين السيوطي. دار الكتب العلمية - بيروت . ط: الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م
- = مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر - بيروت
- = المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلايني .
- = مواقف إيمانية، جمع وترتيب الشيخ أحمد فريد، دار طيبة للنشر القاهرة . ط: الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- = موسوعة نظرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم ﷺ، إعداد: مجموعة من المختصين، بإشراف:

- د. صالح بن حميد، وعبدالرحمن بن ملوح، الناشر: دار الوسيلة-جدة. ط: الرابعة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م =
المسوط، شمس الدين السرخسي، دار المعرفة - بيروت =
الجتى من السنن، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب،
الطبعة الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة .
المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت =
الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .
المستصفي من علم الأصول، أبي حامد محمد الغزالي الطوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،
ط: الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر .
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية -
بيروت .
المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥، تحقيق: طارق
بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .
معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر - بيروت =
المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة
الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣ تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي .
المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق:
مجمع اللغة العربية .
المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر - بيروت -
١٤٠٥، ط: الأولى
مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، دار
الكتب العلمية - بيروت
المفردات في غريب القرآن، اسم المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، الناشر: دار
المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني
من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان ٣٠٩/١. دار اليقين، المنصورة، ١٩٩٨ .
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب
العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي .
نكت القرآن الدالة على البيان للإمام محمد بن علي القصاب. ت. د. علي بن غازي التويجري،
دار ابن القيم - الرياض، دار ابن عفا - القاهرة. الطبعة: الثانية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
النكت والعيون أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية - بيروت
نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب العلمية - بيروت -
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى
النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية - بيروت -
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي .
النهي في القرآن الكريم، أساليبه - مجالاته - ثمراته - والإعجاز المتمثل فيه، رسالة ماجستير، إعداد:
عبد الحميد علاء الدين سفانتون. المكتبة المركزية - جامعة الإمام بالرياض. ١٤٠٨/١٤٠٩هـ -
الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي -
بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥
الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع. تأليف: عبد الفتاح القاضي الشركة الدولية للطباعة
القاهرة. ٢٠٠٤م

فهرس الموضوعات

٢.....	المقدمة.....
٦.....	أهمية الموضوع وأسباب اختياره.....
٧.....	أهداف البحث.....
٩.....	خطة البحث.....
١٣.....	منهج البحث.....
١٥	الباب الأول : مفهوم الفساد واطلاقاته
١٦	الفصل الأول : مفهوم الفساد
١٧.....	المبحث الأول : معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.....
٢٠.....	المبحث الثاني : اطلاقات الفساد في القرآن.....
٢١.....	المطلب الأول : الفساد بعنى العصيان.....
٢٤.....	المطلب الثاني : الفساد بمعنى الهلاك.....
٢٧.....	المطلب الثالث : الفساد بمعنى التخريب.....
٣١.....	المطلب الرابع : افساد بمعنى القتل.....
٣٣.....	المطلب الخامس : الفساد بمعنى السحر.....
٣٥	الفصل الثاني : أنواع الفساد
٣٦.....	المبحث الأول : الفساد العقدي.....
٣٧.....	المطلب الأول: الكفر والشرك.....
٤٧.....	المطلب الثاني: النفاق.....
٥٣.....	المطلب الثالث: السحر.....
٦١.....	المطلب الرابع: الابتداءع في الدين.....
٧١.....	المبحث الثاني : الفساد العملي.....
٧٣.....	المطلب الأول: الجنايات.....
٧٣.....	القتل أعظم الجنايات.....

ومن الجنايات: السرقة.....	٨١
ومن الجنايات: القذف.....	٨٣
المطلب الثاني: الفواحش.....	٨٨
محاربة القرآن الكريم للفواحش.....	٩٥
المطلب الثالث: المعاملات والعادات.....	٩٧
أولاً: فساد المعاملات.....	٩٧
الربا.....	٩٨
الرشوة.....	١٠٤
التطفيف في الميزان.....	١٠٥
القمار والميسر.....	١٠٧
الحيل.....	١١٠
ثانياً: فساد العادات.....	١١٥
امتهان المرأة وازدراءها.....	١١٥
شرب الخمر.....	١١٧
التصفير والتصفيق.....	١١٩
الفصل الثالث : أساليب القرآن في بيان الفساد	١٢٢
المبحث الأول: النهي عن الفساد.....	١٢٥
صيغ النهي والتحریم ونفي الحل.....	١٢٨
القصر المتضمن للنهي.....	١٣٢
النهي بصيغة النفي.....	١٣٤
الأوصاف الدالة على النهي.....	١٣٥
الفعل المقرون بوعيد أو تهديد.....	١٣٨
النهي عن قربان الشيء.....	١٤٠
النهي عن المجاوزة.....	١٤١
النهي بالمثل والتشبيه.....	١٤٢
النهي عن الأدنى تنبيهاً على الأعلى.....	١٤٤

- المبحث الثاني: ذم أهله والتشهير بهم..... ١٤٦
- وصفهم بالإسراف..... ١٤٧
- الإجرام..... ١٤٨
- بالضلال..... ١٤٩
- الفسق..... ١٥٣
- ضعف العقل والعلم..... ١٥٥
- ضرب الأمثال الدالة على فسادهم وانحرافهم..... ١٥٨
- نفي المساواة بينهم وبين المؤمنين..... ١٦١
- المبحث الثالث: بيان عاقبته..... ١٦٢
- المبحث الرابع: ذكر من اتصف بالفساد..... ١٦٧
- المطلب الأول: الشيطان..... ١٧٠
- فمن صور فساده: أمره بالكفر..... ١٧٢
- وحيه لأوليائه بمجادلة أهل الحق..... ١٧٣
- دعوته للتعري..... ١٧٧
- الوعود الكاذبة والأمانى الباطلة..... ١٧٨
- بثه للعداوة بين الناس..... ١٨٠
- التشبيط عن الطاعات..... ١٨٢
- الوسوسة والترغ..... ١٨٣
- المطلب الثاني: مكذبو الرسل..... ١٨٨
- فمن فسادهم: الفرية على الله تعالى..... ١٩٠
- الوصاية بالكفر والإعراض عن سماع الحق..... ١٩١
- إثارة الشكوك والشبه لرد دعوة الرسل..... ١٩٢
- كثرة الاحتجاج لرد دعوة الرسل..... ١٩٥
- إنكارهم للبعث..... ٢٠٠
- الأفعال المنكرة أثناء الدعوة..... ٢٠٥
- المطلب الثالث: أهل الكتاب..... ٢٠٨

- من فسادهم : نسبتهم النقص إلى الله تعالى..... ٢٠٩
- عداوتهم للملائكة..... ٢١٣
- قتل الأنبياء..... ٢١٤
- الفرية والافتراء بالباطل..... ٢١٥
- التلبيس والمغالطة..... ٢١٦
- التعنت والتشدد..... ٢٢٢
- المطلب الرابع: المنافقون..... ٢٢٧
- من فسادهم : الإعراض عن حكم الله تعالى..... ٢٢٧
- سوء الظن بالله تعالى..... ٢٢٨
- أذيتهم للنبي ﷺ..... ٢٣٠
- تولي الكافرين..... ٢٣١
- التربص بالمؤمنين..... ٢٣٢
- اتخاذ الأيمان الكاذبة..... ٢٣٤
- الاستهزاء..... ٢٣٦
- تثاقلهم عن الطاعات..... ٢٣٨
- المطلب الخامس: السحرة..... ٢٤٢
- فمن فسادهم : فسادهم في أنفسهم..... ٢٤٣
- اتصالهم بالشياطين..... ٢٤٤
- منازعتهم لله تعالى في علم الغيب والنفع والضرر..... ٢٤٦
- تعليقهم القلوب بغير الله تعالى..... ٢٤٨
- المطلب السادس: البغاة والمخاربون..... ٢٥١
- الفرق بين الحراة والبغية..... ٢٥٣
- المطلب السابع: الكبراء والأثرياء..... ٢٦١
- ومن صور فسادهم؛ إكراههم للناس على المعاصي..... ٢٦٦
- ردّ الحق والإعراض عنه..... ٢٦٨

٢٧٣	الباب الثاني : أسباب الفساد وموانعه
٢٧٤	الفصل الأول : أسباب الفساد
٢٧٦.....	المبحث الأول : الكفر والذنوب.....
٢٨٢.....	المبحث الثاني : تزيين الشياطين.....
٢٨٧.....	المبحث الثالث : التلقيد المذموم.....
٢٩٤.....	المبحث الرابع : موالاة المفسدين واتباعهم.....
٣٠١.....	المبحث الخامس : اتباع الهوى.....
٣٠٧.....	المبحث السادس : الكبر.....
٣١٤	المبحث السابع : الحسد.....
٣٢٣.....	المبحث الثامن : الغلو.....
٣٣٠.....	المبحث التاسع : الترف.....
٣٣٩.....	المبحث العاشر : الظلم والعدوان.....
٣٤٦.....	المبحث الحادي عشر : الفتن الدنيوية.....
٣٥٨	الفصل الثاني : سبل مدافعة الفساد وعلاجه
٣٦٠.....	المبحث الأول : بيان عاقبة المفسدين.....
٣٦٦.....	المبحث الثاني : الإخلاص.....
٣٧٦.....	المبحث الثالث : الصلاة.....
٣٨٣.....	المبحث الرابع : الدعاء.....
٣٩١.....	المبحث الخامس : التخويف بالله.....
٣٩٩.....	المبحث السادس : السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.....
٤٠٩.....	المبحث السابع : إقامة الحدود والزاجر الشرعية.....
٤١١.....	الغاية التي شرعت الحدود لأجلها.....
٤٢٠.....	المبحث الثامن : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....
٤٢٨.....	المبحث التاسع : الجهاد والمدافعة.....
٤٣٨.....	المبحث العاشر : الأمر بغض البصر.....

٤٤٦	الباب الثالث : آثار الفساد
٤٤٨	الفصل الأول: آثار الفساد في الدنيا
٤٤٩.....	المبحث الأول : اختلال الأمن.....
٤٥٨.....	المبحث الثاني : الضلال والطبع على القلب.....
٤٦٧.....	المبحث الثالث : الاستدراج.....
٤٧٤.....	المبحث الرابع : حبوط العمل.....
٤٨١.....	المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.....
٤٨٧.....	المبحث السادس: العقوبة والهلاك.....
٤٩٦	الفصل الثاني : آثار الفساد في الآخرة
٤٩٧.....	المبحث الأول : الخسارة والحسرة.....
٥٠٩.....	المبحث الثاني : مضاعفة الأوزار والسيئات.....
٥١٧.....	المبحث الثالث : تغليظ العذاب.....
٥٢٦	الخاتمة •
٥٣٠	الفهارس العامة:
٥٣١.....	فهرس الآيات.....
٥٥٤.....	فهرس الأحاديث.....
٥٥٩.....	فهرس الآثار.....
٥٦٢.....	فهرس الأعلام.....
٥٦٥.....	فهرس الأشعار.....
٥٦٦.....	فهرس الأماكن والفرق.....
٥٦٧.....	ثبت المصادر.....
٥٧٣.....	فهرس الموضوعات.....

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة: منهج القرآن الكريم في دفع الفساد – دراسة موضوعية.

المرحلة: الماجستير.

اسم الباحث: يوسف بن عبدالعزيز بن سليمان العقيلي.

اسم المشرف: د. حجاج عربي رمضان أحمد.

خطة البحث:

جعلت هذا البحث مشتملاً على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وهي كما يلي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، وحدوده، والدراسات السابقة

فيه، وخطة البحث ومنهجي فيه.

الباب الأول: مفهوم الفساد وإطلاقاته. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: معنى الفساد وإطلاقاته، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الفساد في اللغة والاصطلاح.

المبحث الثاني: إطلاقات الفساد في القرآن الكريم، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الفساد بمعنى العصيان.

المطلب الثاني: الفساد بمعنى الهلاك.

المطلب الثالث: الفساد بمعنى التخريب والتدمير.

المطلب الرابع: الفساد بمعنى القتل.

المطلب الخامس: الفساد بمعنى السحر.

الفصل الثاني: أنواع الفساد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الفساد العقدي، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الكفر والشرك.

المطلب الثاني: النفاق.

المطلب الثالث: السحر.

المطلب الرابع: الابتداع في الدين.

المبحث الثاني: الفساد العملي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجنايات.

المطلب الثاني : الفواحش.

المطلب الثالث: المعاملات والعادات.

الفصل الثالث: أساليب القرآن في بيان الفساد، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: النهي عن الفساد .

المبحث الثاني: ذمّ أهله والتشهير بهم.

المبحث الثالث: بيان عاقبته.

المبحث الرابع: ذكر من اتصف بالفساد، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: الشيطان .

المطلب الثاني : مكذبو الرسل .

المطلب الثالث: أهل الكتاب .

المطلب الرابع: المنافقون.

المطلب الخامس: السحرة .

المطلب السادس: البغاة والمحاربون.

المطلب السابع: الكبراء والأثرياء.

الباب الثاني: أسباب الفساد وموانعه، وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الفساد، وفيه أحد عشر مبحثاً:

المبحث الأول: الكفر والذنوب.

المبحث الثاني: تزيين الشيطان.

المبحث الثالث: التقليد المذموم.

المبحث الرابع: موالاة المفسدين واتباعهم.

المبحث الخامس: اتباع الهوى.

المبحث السادس: الكبر.

المبحث السابع : الحسد.

المبحث الثامن : الغلو.

المبحث التاسع : الترف.

المبحث العاشر: الظلم والعدوان.

المبحث الحادي عشر: الفتن الدنيوية.

الفصل الثاني: سُبُل دفع الفساد وعلاجه، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: بيان عاقبة المفسدين.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: الصلاة.

المبحث الرابع: الدعاء.

المبحث الخامس: التخويف بالله.

المبحث السادس: السمع والطاعة ونبذ الاختلاف.

المبحث السابع: إقامة الحدود والزواج الشرعية.

المبحث الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث التاسع: الجهاد والمدافعة.

المبحث العاشر: الأمر بغض البصر وحفظ الفرج.

الباب الثالث: آثار الفساد، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثاره في الدنيا، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: اختلال الأمن.

المبحث الثاني: الضلال والطبع على القلب.

المبحث الثالث: الاستدراج.

المبحث الرابع: حبوط العمل.

المبحث الخامس: انتفاء محبة الله وتوفيقه.

المبحث السادس: العقوبة والهلاك.

الفصل الثاني: آثاره في الآخرة. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخسارة والحسرة.

المبحث الثاني: مضاعفة الأوزار والسيئات.

المبحث الثالث: تغليظ العذاب.

الخاتمة: وفيها بيان نتائج البحث وتوصياته.

● الفهارس:

- ١) فهرس الآيات القرآنية. ٢) فهرس الأحاديث النبوية.
- ٣) فهرس الآثار. ٤) فهرس الأعلام.
- ٥) فهرس الأشعار. ٦) فهرس الأماكن والفرق.
- ٧) ثبت المصادر والمراجع. ٨) فهرس الموضوعات.

أهم نتائج البحث:

اجتهدت في تحرير أبرز النتائج، وهي كما يأتي:

- ١/ شمولية القرآن الكريم في بيان الفساد، وكشف كل مفسدة بحسبها، وعلاجها بما يناسبها.
- ٢/ إعجاز القرآن الكريم، وعالمية رسالته للناس كافة، إذ إن منهجه في دفع الفساد؛ صالح لكل زمان ومكان؛ ومن ثم فأساليب النهي عن الفساد، هي المنهج الأمثل في دفع الفساد، فقد بلغت الغاية، في البلاغة والبيان، والحجة والبرهان، ومن ذلك؛ عنايته بتنوع الأساليب في علاج الفساد؛ ولذلك أثره الإيجابي في منهج الإصلاح.
- ٣/ إن دفع الفساد في الكتاب العزيز؛ يركز على عنايته بحفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، فكل ما ألحق ضرراً بهذه الضروريات؛ فقد اعتُبر مفسدة، ورُتب عليها الأحكام المناسبة لها.
- ٤/ إبراز الكتاب العزيز لمنهج الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - في دفع الفساد، فهم القدوة في ذلك، فينبغي للمصلحين أن يلزموا نهجهم، ويقفوا آثارهم؛ لإصلاح الناس.
- ٥/ إن أعظم الفساد؛ ما أُخِلَّ بالمعتقد، ورأس ذلك الإِشْرَاقُ بالله، وتكذيب رسله.
- ٦/ اليهود أعظم الأمم فساداً، ولذا فصل القرآن في بيان فسادهم، تحذيراً لهذه الأمة عن مشابهمهم. كما أن أهل النفاق؛ هم أخطر أصناف المفسدين، ولذا كشف القرآن فسادهم، للحد من منهم، وردّ كيدهم.
- ٧/ إن الكفر بالله تعالى، سبب رئيس للفساد في الأرض. وكذا الكبر والحسد والغلو؛ لها آثارها البالغة في وقوع المرء في الفساد، فيلزم الحذر منها، ومجاهدة النفس في دفعها.
- ٨/ إن الفتن التي تعرض للناس؛ سبب عظيم للانحراف عن الدين، والتمادي في الفساد.
- ٩/ إن الأزمات المالية والمشاكل الاقتصادية، نتيجة حتمية لإقصاء المنهج الإسلامي في المعاملات،

وتغيبه عن الواقع.

١٠ / إن معظم العادات الفاسدة التي يتلقفها الناس، الباعث عليها؛ التقليد المذموم واتباع الهوى.

١١ / من أخطر المفاسد العملية؛ إشاعة الفواحش، وتلك سُنَّة للمفسدين عبر القرون.

١٢ / العناية بتحقيق الإخلاص لله تعالى، والمداومة على العبادات، ومن أجلها الصلاة والدعاء، من أعظم سبل الاستقامة ومجانبة الفساد.

١٣ / إن الصراع بين الحق والباطل ماضٍ إلى قيام الساعة، وعليه؛ فإن مجاهدة الكافرين والمنافقين ومدافعتهم؛ أمرٌ لازم، لئلا يغشى الفسادُ الناسَ كافة.

١٤ / أعظم آثار الفساد على صاحبه؛ الضلال، وحبوط العمل. كما أن اختلال الأمن، من أبلغ آثار الفساد في الأرض.

١٥ / من سنن الله في المفسدين استدراجهم، ثم أخذهم على غرّة وهم لا يشعرون، وفي هذا تسلية للمصلحين وتثبيت لقلوبهم.

١٦ / العقوبة والهلاك، وتغليظ العذاب؛ مصير محتوم للمفسدين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلوات الله وسلامه، على خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

Digest of the Thesis

Thesis Title: *The Way of the Koran in the payment of corruption - an objective study.*

Stage: *Master's degree.*

Name: *Yousef Bin Abdel Aziz Bin Suliman Al Ogailyi.*

Name of Supervisor: *Dr.. Hajjaj Arabi Ramadan Ahmed.*

Research plan:

This research is including Introduction , three parts and a conclusion, as follows:

Introduction: *a statement of the importance of the subject, the reasons for choosing it , its objectives, and limitations, previous studies, the research plan and systematic in it.*

Part I: *the concept of corruption and its language uses*, there are three chapters:

Chapter I: *the meaning of corruption and its language uses*, and involves two issues:

First topic: *the meaning of corruption in the language and terminology.*

The second topic: *The use of corruption in the Koran, in which five demands:*

The first requirement: *corruption in the sense of disobedience.*

The second requirement: *corruption in the sense of doom .*

The third requirement: : *corruption in the sense of ruin and destruction.*

Fourth requirement: *Corruption is the sense of killing.*

Fifth Requirement : *corruption in the sense of sorcery.*

Chapter II: *Types of corruption, involves two issues:*

First topic: *Corruption lumpy, with four demands:*

The first requirement: *atheism and polytheism.*

The second requirement: *hypocrisy.*

The third requirement: *sorcery.*

Fourth requirement: *innovation in religion.*

The second topic: *corruption practice, in which three demands:*

The first requirement: *felonies*.

The second requirement: *fornication*.

The third requirement: *Transactions and customs*.

Chapter III: *Methods of the Koran in a statement corruption, in which four topics:*

First topic: *Prevention of corruption*.

The second topic: *defamation and libel their family*.

The third topic: *Statement consequences*.

Fourth topic: *MALE characterized by corruption, in which seven demands:*

The first requirement: *the devil*.

The second requirement: *the Apostles disbelievers* .

The third requirement: *the people of the book*.

Fourth requirement: *hypocrites*.

Fifth Requirement : *witches*.

Sixth Requirement : *prostitutes and combatants*.

Seventh Demand : *Upper-class and the wealthy*.

Part II: causes of corruption and impediments, in which two classes:

Chapter I: *The causes of corruption, in which eleven Mbgesa:*

First topic: *infidelity and sin*.

The second topic: *decorating the devil*.

The third topic: *the custom reprehensible*.

Fourth topic: *further spoilers and their followers*.

Fifth topic: *a passion*.

Sixth topic : *old age*.

Seventh topic: *envy*.

Eighth topic: *extremism*.

Ninth topic: *luxury*.

Tenth topic: *injustice and aggression*.

Eleventh topic: *worldly temptations*.

Chapter II: ways to move the corruption and treatment, it has ten topics:

First topic: *a consequence of the spoilers.*

The second topic: *loyalty.*

The third topic: *Prayer.*

Fourth topic: *invocation.*

Fifth topic: *fear God.*

Sixth topic: *Hearing and obedience and renunciation of the difference.*

Seventh topic: *the establishment of border checks and legitimacy.*

Eighth topic: *the Promotion of Virtue and Prevention of Vice.*

Ninth topic: *Jihad and advocacy.*

Tenth topic: *is turning a blind eye and save the vagina.*

Part III: the effects of corruption, in which two classes:

Chapter I: Implications in the world, in which six topics:

First topic: *insecurity.*

The second topic: *misguided and printing on the heart.*

The third topic: *being Lured.*

Fourth topic: *nullifying work.*

Fifth topic: *the absence of God's love and compassionate.*

Sixth Topic: *the punishment and destruction.*

Chapter II: Implications in the Hereafter. In which three sections:

First topic: *the loss and grief.*

The second topic: *the doubling of burdens and bad deeds.*

The third topic: *aggravation of punishment.*

Conclusion: In a statement of research findings and recommendations.

Indexes:

١) Index of Quranic verses.

٢) Index of the effects.

٣) Index of the poems.

٤) proved to sources and references.

٥) Index of the hadith.

٦) Index of people.

٧) Index of places and denominations.

٨) Subject Index.

Key results:

Worked hard in the liberation of the most prominent results, which are as follows:

١ / *holistic Koran in a statement corruption, and detect all evil plead, and treatment with appropriate.*

٢ / *The Miracles of the Holy Koran, and the universality of his message to all people, as the method in the payment of corruption; valid for all Time and place; and then Vosalib discourage corruption, is the optimal approach in the payment of corruption, it Amounted to end, in the rhetoric and the*

statement, argument and proof, and so on; attention in the diversity of methods Treatment of corruption; therefore a positive impact in the curriculum reform.

۳ / The payment of corruption in the Holy Book; based on attention to save the five basic necessities: religion, And soul, mind, and supply, and money, all this damage to the necessities; it was considered Mischief, and arranged by the appropriate provisions to them.

۴ / Highlight the Holy Book to the method of the Apostles clients - peace be upon them - in the payment of corruption, they example in that, it should be for the reformers to commit their approach, and stand them down; to reform the people.

۵ / The greatest corruption; the breach of belief, and the top of that involvement in God, and denial of his messengers.

۶ / Greatest Jews of the United corrupt, and therefore separation of the Koran in a statement corruption, a warning to this nation of imitating them. Also that the people of hypocrisy; are the most dangerous types of spoilers, and therefore detect the corruption of the Qur'an, to be cautious of them, Word Press guile.

۷ / The disbelief in God, the cause of the President of corruption in the land. As well as arrogance, envy, and chauvinism; have implications Critical in the occurrence of one in corruption, they shall be careful of them, and by applying self-pay.

۸ / The tribulations that have been subjected to people; a great reason to deviate from the religion, and the persistent corruption.

۹ / The financial crises and economic problems, the inevitable result of the exclusion of Islamic methodology in the transactions, And absent from reality.

۱۰ / Most of the corrupt customs grasped people, motivated by; reprehensible tradition and a passion.

۱۱ / Of the most dangerous evil of the process; promote immorality, and those years for corrupt over the centuries.

۱۲ / Care to achieve fidelity to God, and keep your worship, and for prayer and supplication, from The greatest ways of integrity and avoid corruption.

۱۳ / The conflict between right and wrong to the past time, and it; strive against the unbelievers and the hypocrites and Mdafthm; is necessary, lest corruption overwhelms all people.

۱۴ / Greatest impact of corruption on the owner; error, and Ahbut work. Disruption of security, told The effects of corruption in the land.

۱۵ / Of the ways of God to draw the spoilers, and then took them by surprise and they do not feel, in this entertainment for the reformers and install to their hearts.

۱۶ / Punishment and loss, and aggravation of punishment; inevitable fate of the spoilers.

Praise be to Allah who is righteous by his grace, and prayed to Allah and peace, on the Seal of the Prophets and the Imam of the Messengers and his family and companions and followers them in goodness until the Day of religion.